جانيت سكيزلين تشارلز

مكتبة باريس

لا أحد يستطيع
إسكات الكتب
ومكتبة

ترجمة:
دلال نصر الله

kalemat

مكتبة باريس

مكتبة | 1271

مكتبة باريس
The Paris Library
جانيت سكيزلين تشارلز
JANET SKESLIEN CHARLES
ترجمة: دلال نصر الله
دار كلمات للنشر والتوزيع
بريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

Copyright © 2021 by Janet Skeslien Charles

مكتبة
t.me/soramnqraa

ردمك: 978-9921-768-33-6

22 7 23

مكتبة باريس

THE PARIS LIBRARY

1271 | مكتبة

جانيت سكيزلين تشارلز

JANET SKESLIEN CHARLES

ترجمة: دلال نصر الله

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

2022

kalemat

الأفضل مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

- تُرجمت الرّواية إلى 35 لغة.

«ستُعجب عشّاق الكتب أينما ثُقفوا» – فيونا ديفيس

«أخّاذة ومؤثّرة. التّوازن الأمثل بين السّرد والتّاريخ» – تاتيانا دي روزناي.

1

أوديل

باريس. فبراير 1939

مكتبة
t.me/soramnqraa

طافت أرقام حول رأسي كأنّها نجوم. 823. أرقام قادتني إلى حياة جديدة. 822. كوكبات أمل: 841. في غرفة نومي، وفي جوف الليل، وفي الصّباح في أثناء توجّهي لشراء الكرواسون. عدد تلو الآخر - 810، 840، 890 -تمثّل أمام ناظري. أعداد جسّدت الحريّة؛ المستقبل. بالتّزامن مع مراجعتي الأرقام درستُ تاريخ المكتبات وصولًا إلى القرن السّادس عشر؛ في إنجلترا، حين كان هنري الثّامن منشغلًا في قطع أعناق زوجاته، كان مليكنا فرانسوا يطوّر مكتبته التي فتح أبوابها للباحثين. مهّدت مجموعته الملكيّة من الكتب لتأسيس المكتبة الوطنيّة.

الآن، على المكتب، في غرفة نومي، أستعد لمقابلة عمل في المكتبة الأمريكيّة، وأراجع الملاحظات مرّة أخيرة: أُسّست في 1920؛ أوّل مكتبة في باريس تسمح للعامّة بدخول مخزن الكتب. مشتركون من أكثر من ثلاثين دولة، ربعهم من فرنسا. أقرأ هذه الحقائق والأرقام على عجل، على أمل أن تؤهلني للحصول على الوظيفة أمام المديرة.

خرجت من شقّة أهلي الواقعة في حي دي روم الأسخم إلى محطّة سان لازار، حيث تنفخ القاطرات الأدخنة. نثرت الرّيح شعري، دسست الخصلات تحت قلنسوتي الصّوفيّة. في مدى بصري، قبّة كنيسة القدّيس أوغسطينوس الفاحمة. الدّيانات:

200. العهد القديم: 221. ماذا عن العهد الجديد؟ انتظرت، لكن لم أتذكره. ازداد توتّري فنسيت أدق التّفاصيل. أخرجت دفتر ملاحظاتي من حقيبتي. آه، أجل، 225. كنت أعرف.

جزئي المفضّل من مكتبة المدرسة كان نظام ديوي العشري الذي ابتكره أمين المكتبة الأمريكي ملفل ديوي عام 1873. استخدم ديوي عشرة مجالات معرفيّة لترتيب كتب المكتبة على الرّفوف. كان لكل موضوع عدد، ما سمح للقارئ بالعثور على أي كتاب في أي مكتبة. على سبيل المثال، تحب أمّي 648 (تدبير المنزل). بابا لا يهتم به، لكنّه استمتع فعلًا بـ 785 (غرفة الموسيقى). أخي التّوأم يحب 686.8، بينما أُفضّل 636.7. (القطط والكلاب، على التّوالي).

وصلت إلى غراند بوليفارد؛ المدينة التي تجاهلت الطّبقة العاملة وارتدت معاطف فرو المنك. اختفت رائحة الفحم الرّديئة، وحلت مكانها رائحة ياسمين جميلة تعطّرت بها نساء سعيدات متألّقات شاهدتهن من نافذتيْن تعرضان فساتين متجر نينا ريكّي وقفّازات كيسلاف الجلديّة الخضراء، ثمّ مررت بموسيقيين يخرجون من متجر باع نوتات موسيقيّة. مررت بعدها بمبنى من الطّراز الباروكي؛ بابه أزرق اللون، ثمّ انعطفت عند الزّاوية، إلى شارع جانبي ضيّق. أحفظ الطّريق عن ظهر قلب.

أحببت باريس. مدينة تكتنفها الأسرار كالكتب؛ منها ما تغليفه جلدي، ومنها ما تغليفه ورقي. كلّ باب باريسي يقودنا إلى عالم غير متوقّع. قد تجد في فناء مجموعة درّاجات أو حارسًا سمينًا يمسك مكنسة. أمّا في المكتبة الأمريكيّة في باريس، فإنّ خلف الباب الخشبي العظيم حديقة فيها أزهار البتونيا من جانب،

والعشب من جانب آخر، ويفصل بينهما دربٌ مفروش بالحصى الأبيض يؤدّي إلى قصر من الطّوب والحجر. عبرت عتبة المكتبة، تحت العلم الفرنسي والأمريكي المتجاورَيْن والمرفرفَيْن، وعلّقت سترتي على علاقة المعاطف المتزعزعة. أشم الآن أفضل رائحة في العالم؛ رائحة الكتب العتيقة التي تذكرني بالطّحالب وصفحات الجرائد المُصفرّة. كأنّي عدت إلى منزلي.

وصلت قبل بدء المقابلة بدقائق. مشيت حول مكتب الإعارة حيث أصغى أمين المكتبة الدّمث دائمًا إلى روادها. سأل زائر جديد ارتدى حذاءي رعاة البقر: أين يمكنني أكل شريحة لحم شهية في باريس؟ وسألت السّيدة سيمون بعنف: لماذا أدفع غرامة على كتاب لم أكمل قراءته؟، ثمّ دخلتُ قاعة القراءة المريحة.

البروفيسورة كوهِن تقرأ الجريدة إلى طاولة قرب النّوافذ الفرنسيّة. وريشة طاووس أنيقة مدسوسة في شعرها. السّيد بريس-جونز يطالع صحيفة التّايمز وينفخ الدّخان من غليونه. كنت لألقي التّحيّة عليهما، لكنّي متوتّرة بسبب المقابلة، لجأت إلى رفّ الكتب المفضّل إلي. أحبُّ أنْ أكون محاطة بالكتب، بعضها قديم بقدم الزّمن، وبعضها قد نُشر في الشّهر الماضي.

رحت أجتر فكرة تصفّح رواية لأستعيرها لأخي. بات يسهر أكثر من ذي قبل. استيقظت مرارًا على صوت نقرات أصابعه على الآلة الكاتبة. كان يكتب مقالات عن مساعدة فرنسا للاجئين النّازحين من الحرب الأهليّة. آمن بأنّ هتلر سيحتل أوروبا كما احتل التشيك وسلوفاكيا. الشّيء الوحيد الذي أنساه خوفه من الآخرين هو كتاب جيّد.

مـرّرت أصابعـي علـى كعـوب الكتـب. اختـرت واحـدًا، وفتحـت صفحـة عشـوائيّة منـه. لا أحكـم علـى أي كتـاب مـن بدايتـه بتاتّـا. تذكـرت بدايـة ونهايـة موعـد غرامـي عشـتهما؛ ابتسـمنا -أنـا وهـو- ابتسـامة عريضـة. فتحـت صفحـة مـن منتصـف الكتـاب حيـث لا يسـعى الكاتـب لإبهـاري. قـرأت: «فـي الحيـاة ظُلمـات وأنـوار. أنـت أحـد الأنـوار، نـور كلّ الأنـوار». صحيـح. أشـكرك يـا سـيّد [بـرام] سـتوكر. هـذا مـا كنـت سـأقوله لرِمـي.

تأخّـرت، فهرعـت إلـى مكتـب الاسـتعارة، حيـث سـجّل الموظّـف اسـمي علـى بطاقـة الاسـتعارة ودسسـت **دراكولا** فـي حقيبتـي. انتظرتنـي مديـرة المكتبـة. كالعـادة، شـعرها ذو اللـون الكسـتنائي مرفـوع ككعكـة، وفـي يدهـا قلـم فضـي اللـون.

يعـرف الجميـع الآنسـة ريـدر التـي كتبـت المقـالات للصّحـف، وأبهرتنـا بصوتهـا عبـر الأثيـر، ودعـت الجميـع إلى زيارة المكتبـة - طلّابًا، ومعلّمين، وجنـودًا، وأجانـب، وفرنسـيين. آمنـت بـأنّ المكتبـة تسـع الجميـع.

- أنـا أوديـل سوشـيت. أعتـذر عـن تأخّـري. وصلـت باكـرًا، لكنّـي فتحـت كتابًـا...

«القـراءة خطيـرة» قالـت الآنسـة ريـدر بابتسـامة العارفـة المتفهّمـة. «لنذهـب إلـى مكتبـي».

لحقـت بهـا عبـر قاعـة القـراءة، حيـث أنـزل روّاد المكتبـة الذيـن يرتـدون ثيابًـا أنيقـة جرائدهـم ليمعنـوا فـي المسـؤولة ذائعـة الصّيـت وهـي ذاهبـة إلـى الطّابـق العلوي باسـتخدام سـلّم ملتـوٍ ثـمّ إلـى الـرّواق حيـث عبـارة «للموظفيـن فقـط»، فأشـارت إلـى مكتبهـا الـذي انبعثـت منـه رائحـة القهـوة. صـورة عُلويـة لمدينـة عُلّقـت علـى الجـدار. قطعهـا

السّكنيّة تشبه الشّطرنج، اختلفت اختلافًا كبيرًا عن شوارع باريس ذات المنعطفات الكثيرة.

قالت: «لا تثير اهتمامي. إنّها العاصمة واشنطن. عملت في مكتبة الكونغرس». أشارت لي لأجلس وجلست هي إلى مكتبها المغطى بأوراق؛ منها ما هو يحاول الفرار من قاعدة الورق، ومنها ما هو مثبّت تحت ثاقبة الأوراق. في الزّاوية، هاتف أسود لامع. إلى جانب الآنسة ريدر، كرسي عليه مجموعة كتب. لمحت روايات لأيزاك دينيسن وإيديث وارتون. فاصل كتاب؛ شريط لونه زاهٍ ظاهر من طرفي الكتاب كأنّه يدعو الآنسة ريدر للعودة إليه.

أي نوع من القرّاء هي الآنسة ريدر؟ تختلف عنّي، لمْ تترك كتابًا مفتوحًا ومقلوبًا لعدم وجود فواصل الكتب. لم تُراكم الكتب تحت سريرها، ولم تقرأ أربعة أو خمسة كتب في آن واحد. لا كتاب في حقيبتها ليسلّيها في حافلات تجوب المدينة. لا كتاب يسألها صديق عزيز عن رأيها فيه، ولا كتاب آخر يجهله الآخرون؛ متعة خفيّة لظهيرة أحد ماطر...

سألتني الآنسة ريدر: «من كاتبك المفضّل؟»

من كاتبك المفضل! سؤال تستحيل الإجابة عنه. كيف يمكن لشخص أنْ يختار كاتبًا واحدًا؟ في الواقع، قسّمت أنا وخالتي كارو الكُتّاب إلى: كُتّاب أموات، وكُتّاب أحياء، وأجانب، وفرنسيّين، إلخ... تجنّبًا لتحديد كاتب مفضّل واحد. الكتب التي لمستها قبل قليل في قاعة القراءة، لمستني أيضًا. تعجبني طريقة تفكير رالف والدو إمرسون: *لا أشعر بالوحدة في خلوتي إذا قضيت وقتي في القراءة والكتابة*. مثل جين أوستن، لم يتغير شيء في

حيوات الكثيرات في وقتنا الحالي على الرغم من أنّ كتاباتها تعود إلى القرن التّاسع عشر؛ المتزوجات فقط هن من يقبضن على المستقبل. قبل ثلاثة أشهر، حين أخبرت والدي أنّي لا أريد زوجًا، انزعج وبدأ يدعو أسبوعيًا زميل عمل جديدًا إلى غداء الأحد في منزلنا. مثل ديك الحبش المربوط والمحشو بالبقدونس، قدّم والدي كل واحد منهم على طبق أمامي، قال في إحدى المرات: «لم يتغيّب مارك يومًا واحدًا عن العمل، حتّى عند إصابته بالإنفلونزا!»

- «تقرئين، أليس كذلك؟»

تذمّر أبي من أنّي أتكلم دون تفكير بما سأقول. بإحباط أجبت عن سؤال مس ريدر الأوّل:

- كاتبي الميت المفضّل هو دوستويفسكي، لأنّي أحب شخصيّة راسكولنيكوف. ليس الوحيد الذي يريد ضرب أحدهم على رأسه.

صمت.

لماذا لم أجب عن سؤلها بإجابة معتادة؟ زورا نيل هرستون مثلًا؛ كاتبتي المفضّلة التي على قيد الحياة.

«تشرّفت بمقابلتك». مشيت باتّجاه الباب. أيقنت أنّ المقابلة قد انتهت.

مع اقتراب أصابعي من مقبض الباب، سمعت الآنسة ريدر تقول: «اقذف نفسك في الحياة بلا اكتراث. لا تخف؛ سيحملك الطّوفان إلى ضفّة تقف عليها بأمان من جديد».

اقتباسي المفضّل من **الجريمة والعقاب**. 891.73. استدرت.

قالـت: «معظـم المتقدّميـن إلـى الوظيفـة يقولـون إنّ كاتبهـم المفضّـل هـو شكسـبير».

أنـا: الكاتـب الوحيـد الـذي لـه رقـم خـاص بـه فـي تصنيـف ديـوي العشـري.

الآنسة ريدر: وقليل منهم يذكرون اسم جين آير.

جيـن آيـر إجابـة معتـادة. لمـاذا لـم أقـل شـارلوت برونتـي، أو إحدى أخواتها؟

- أنا أحب جين أيضًا. تشترك الأخوات برونتي في رقم 832.8.

- لكنّي أحببت إجابتك.

- حقًّا؟

- قلتِ ما تريدين، لا ما اعتقدتِ أنّي أريد سماعه.

كلامها صحيح.

- لا تخشي الاختلاف.

مالـت الآنسـة ريـدر إلـى الأمـام. نظرتهـا الثّاقبـة والذكيّـة التقت عينـي. سـألتني: لمـاذا تريديـن العمـل هنـا؟

لـن أطلعهـا علـى السّـبب الحقيقـي؛ سـيبدو مريعًـا. «أحفـظ تصنيـف ديـوي العشـري، ودرجاتـي كاملـة فـي مكتبـة المدرسـة».

ألقـت نظـرة علـى طلـب توظيفـي. «سـيرتك مدهشـة، لكنّـكِ لـم تجيبـي عـن سـؤالي».

- أنا عضوة في هذه المكتبة. أحبُّ اللغة الإنجليزيّة...

«واضـح» قالـت وصوتهـا مقـرون بخيبـة الأمـل. «أشـكرك علـى وقتـك. سـنطلعك علـى النّتيجـة فـي غضـون أسـابيع. سـأراك خارجًا».

فـي الفنـاء، تنهّـدتُ بإحبـاط. لربمـا كان مـن الأفضـل أنْ أطلعهـا علـى السّـبب الحقيقـي.

«ما المشكلة يا أوديل؟» سألتني البروفيسورة كوهِن. أحببت محاضراتها المتعلّقة بالأدب الإنجليزي التي حرص الطّلبة على حضورها في المكتبة الأمريكيّة. ارتدت شالها ذا اللون البنفسجي المُميّز دائمًا. سهّلت البروفسورة كوهِن على أفهامنا **ملحمة بيوولف**. محاضراتها مفعمة بالحيويّة وخفّة الظّل. سحبُ ماضٍ شائن هبّت منها كشذى عطرها الفوّاح. قالوا إنّ أصل البرفسورة من ميلان. راقصة باليه رئيسة تخلّت عن نجوميّتها (وعن زوجها المضجر) لتلحق بعشيقها في برازافيل. حين عادت إلى باريس -وحيدة- درست في السّوربون -كما حدث لسيمون دو بوفوار- حيث اجتازت التّبريز؛ أصعب اختبار تقريبًا على مستوى الدّولة، لتتمكّن من التّدريس في أرفع مستوى دراسي. سألتني:

- أوديل؟
- جعلتُ من نفسي أضحوكة في مقابلة العمل.
- شابّة ذكيّة مثلك تفعل هذا؟ هل أخبرت الآنسة ريدر أنّك لا تفوّتين أي محاضرة من محاضراتي؟ أتمنى لو أنّ طلّابي يلتزمون التزامك!
- لم يخطر على بالي ذكر هذا.
- اكتبي ما تشائين في رسالة شكر لها.
- لن تختارني.
- ما الحياة إلّا مفاوضات. حاربي لتحقيق أهدافك.
- لست أكيدة...
- أتعتقدين أنّ الرّجال ذوي العقليات الرّجعيّة قد وظّفوني بيسر؟ عملت بجهد جهيد فقط لأقنعهم أنّ بوسع المرأة التّدريس في الجامعة.

رفعت عيني للأعلى. لم ألمح إلّا شالها البنفسجي فيما مضى، أمّا الآن فأرى عينيْها الشّاخصتيْن. قالت:

- امتلاك العزيمة أمرٌ حميد. رغم امتعاض والدي من كون الكلمة الأخيرة لي دائمًا.

- والدي يفعل ذات الأمر. إنّه يلقبني بالعنيدة.

- طبّقي هذه الصّفة الآن.

إنّها على حق. في كتبي المفضّلة، البطلات لا يستسلمن. البروفسورة كوهِن على حق بشأن تدوين أفكاري في رسالة. الكتابة أسهل من الحديث وجهًا لوجه. يمكنني الحذف والبدء من جديد مئات المرّات إذا احتجت.

قلت لها: أنتِ على حق...

- أنا على حق بكل تأكيد! سأخبر مديرة المكتبة أنّك تسألين أفضل الأسئلة في محاضراتي، واكتبي رسالة لها». هفهف شالها في أثناء مسيرها إلى المكتبة.

لم يهم قط مدى شعوري بالمهانة، شخص من المكتبة الأمريكيّة في باريس سيرفع معنويّاتي دائمًا. المكتبة ليست مجرّد طوب وكتب؛ مُلطها (معجونها) أفراد يعتنون بها. كنت لأصرف الوقت في مكتبات أخرى، مكبات كراسيها مصنوعة من الخشب القوي، يتردّد فيها: «صباح الخير يا آنسة. مساء الخير يا آنسة»، لكنّ تلك المكتبات تفتقر إلى الألفة في المجتمع الحقيقي. المكتبة بيت.

«أوديل! انتظري!» إنّه السّيد بريس-جونز، الدّبلوماسي الإنجليزي المتقاعد وهو يرتدي ربطة عنق ذات أشكال ملونة، وتتبعه مُفهرسة الكتب السّيدة ترنبول ذات الغرّة الزّرقاء-الرّماديّة

القصيرة. لا بدّ أنّ البروفسورة كوهِن قد أخبرتهما عن شعوري بالتّثبيط.

ربَّت السّيد بريس-جونز على ظهري بغرابة، وقال: لم تخسري شيئًا بعد. ستكسبين وِد مديرة المكتبة. اكتبي لها دوافعك كما يفعل الدّبلوماسي.

قالت السّيدة ترنبول: فتاة مدلّلة! نحن معتادون في مسقط رأسي (وينبيغ) على الاختلاف. الاختلاف هُوّيتنا. شتاءات درجات حرارتها أقل من أربعين درجة، ولا تسمعين تذمرنا، على عكس الأمريكيين...»، تراجَعَت خطوة إلى الوراء عندما تذكّرت السّبب -فرصة لترؤّس الآخرين- أشارت بإصبعها السّمينة أمام وجهي، وقالت: «تشجّعي ولا تهابي أي نتيجة!».

ابتسمت حين تذكرت أنّ المنزل هو المكان الذي لا أسرار فيه. أنا أبتسم وهذا إنجاز بحد ذاته. تلاشى توتّري في غرفة نومي، فكتبت:

الآنسة ريدر العزيزة:

أشكرك جزيل الشّكر على مناقشة موضوع الوظيفة معي. أسعدتني أيّما سعادة مقابلتك لي. هذه المكتبة تعني الكثير. أكثر ممّا يعنيه أي مكان آخر في باريس. في طفولتي، اصطحبتني عمّتي إلى هذه المكتبة في السّاعة المخصّصة لقراءة قصّة للأطفال. الفضل يعود إليها في دراستي الإنجليزيّة وعشق المكتبة. ورغم وفاتها، واصلت زيارة المكتبة في باريس بحثًا عن روحها في حنايا المكان. أفتح الكتب، ثمّ أفتح مظروف بطاقة

الاستعارة المُلصق داخل الغلاف الأخير بحثًا عن اسمها. قراءة الرّوايات ذاتها التي قرأتها يشعرني بالقرب منها.

المكتبة جنّتي؛ فيها أعثر دائمًا على مجموعة كتب أسمّيها كتبي، أقرؤها فأحلم. أريد الجميع أنْ يحظوا بهذه الفرصة، خاصّة من يشعرون بالاختلاف ويحتاجون إلى مكانٍ يسمّونه وطنًا.

كتبت اسمي في نهاية الرّسالة، وأنهيت مقابلة التّوظيف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2

لِيلي

قرية فرويد. ولاية مونتانا. 1983

اسـمها السّـيدة غوستافسـون، وهـي جارتنـا. لا تعـرف أنّ النّـاس أطلقـوا عليهـا اسـم (عـروس الحـرب)، لكنّهـا لا تبـدو عروسًـا بالنّسـبة إلـيّ؛ إذ لـم ترتـدِ اللـون الأبيـض بتاتًـا، ولأنّهـا كبيـرة فـي السّـن. أكبـر مـن والـدي بكثيـر. الـكل يعلـم أنّ العـروس تحتـاج إلـى عريـس، لكـنّ زوجهـا فـارق الحيـاة منـذ زمـنٍ طويـل. ورغـم أنّهـا تتكلّـم بلغتيْـن بطلاقـة، كانـت قليلـة الـكلام مـع الجميـع. تعيـش هنـا منـذ 1945، لكنّهـا ستُعتبر دائمًـا تلـك المـرأة التـي جـاءت مـن مـكانٍ آخـر.

كانت عروسـة الحـرب الوحيدة في فرويد، كما كان د. ستانشـفيلد الطّبيـب الوحيـد فيهـا. دخلْت غرفـة معيشـتها أحيانًـا، حيـث شـاهدتُ طـاولات وكراسـي أجنبيّـة الصّنـع. أثـاث أنيـق مثـل أثـاث منـزل دميـة منحـوت مـن خشـب الجـوز. اعتـدت التّطفّـل علـى بريدهـا. وصلتهـا رسـائل مـن أماكـن بعيـدة، ببُعـد شـيكاغو؛ مـدام أوديـل غوسـتافسـون. قارنـت الاسـميْن اللذيـن أعرفهمـا، مثـل تريشـيا وتيفانـي، (أوديـل) غريـب علـى مسـمعي. قـال النّـاس إنّهـا جـاءت مـن فرنسـا. أردت معرفـة المزيـد عنهـا، فبحثـت فـي الفصـول التـي تتحـدّث عـن مدينـة باريـس فـي دائـرة المعـارف. تعرّفـتُ علـى مرازيـب نوتـردام الرّماديّـة، وقـوس النّصـر لنابليـون. ومـع ذلـك لـم أتحصّـل علـى إجابـة عـن سؤالي: مـا سـبب اختـلاف السّـيدة غوسـتاف الشّـديد عنّـا؟

لـم تشـبه السّـيدات الأخريـات فـي فرويـد. كـنّ ممتلئـات كطائـر الصّعـو، وسـتراتهن الثّقيلـة وأحذيتهـن الرّتيبـة ذات وبـر رمـادي. منهـنّ مـن ذهبـن إلـى البقالـة ولفافـات الشّـعر علـى رؤوسـهن، لكـنّ الآنسـة غوستافسـون ارتـدت أفضـل ثيابهـا يـوم الأحـد -تنّـورة ذات ثنيـات وكعبيْـن عالييْـن- فقـط لتخـرج القمامـة، وحزامًـا أحمـر يظهـر خصرهـا دائمًـا. وضعـت أحمـر شـفاهٍ زاهـي اللـون، حتّـى فـي الكنيسـة. «تحسـب نفسـها ذات شـأن» قالـت إحداهـن حيـن رأتهـا تمشـي نحـو مقعـد فـي مقدّمـة الكنيسـة، وهـي تخفـي عينيْهـا بقبّعتهـا الأنيقـة. الوحيـدة التـي ارتـدت تلـك القبّعـة. جلـس معظـم حضـور القـداس فـي الخلـف؛ لـم يرغبـوا فـي لفـت انتبـاه الـرّب أو الكاهـن.

فـي ذلـك الصّبـاح، طلـب منّـا أيـرون كولـر مالونـي الصّـلاة لـ269 مسـافرًا علـى طائـرة بوينـغ 747 أسـقطتها صواريـخ 8-k السّـوفيتيّة. فـي التّلفـاز، أخبرنـا الرّئيـس ريغـان عـن الهجـوم علـى الطّائـرة المتوجّهـة مـن أنكوريـج إلـى سـيؤول. مـع رنيـن جرس الكنيسـة، كلماتـه رنّـت فـي أذنـي: «حـزن، صدمـة، غضـب... الاتّحـاد السّـوفيتي قـد اختـرق كل مفاهيـم حقـوق الإنسـان... يجـب ألّا تفاجئنـا وحشـيّة غيـر إنسـانية كهـذه...». أوحـى لنـا أنّ الرّوسـيّين سـيقتلون أي شـخص؛ حتـى الأطفـال.

حتّـى فـي مونتانـا، روّعتنـا أخبـار الحـرب البـاردة. العـم والـت، الـذي يعمـل فـي قاعـدة مالمسـتروم الجويّـة، قـال إنّ ألـف صـاروخ مينيتمـان قـد زرعـت كالبطاطـس حـول طائراتنـا [فـي مونتانـا]. تحـت الأرض، الـرّؤوس النّوويّـة تنتظـر بصبـر للقضـاء عليهـا. تباهـى بـأنّ صواريـخ مينيتمـان أقـوى مـن باقـي الصّواريـخ إلـى حـد تدميـر هيروشـيما. قـال إنّ الصّواريـخ تبحـث عـن الصّواريـخ، ولهـذا فـإنّ

الأسلحة السّوفيتيّة ستتجاهل واشنطن وتُوجّه إلينا. سنرد عليهم بصواريخنا التي ستتصاعد، وتصيب موسكو في أقل من الوقت الذي يحتاج إليه طالب للاستعداد إلى المدرسة.

بعد القُداس، مشى الجمع بتثاقل إلى رواق الكنيسة لشرب القهوة، وتناول (دونت)، وتبادل أطراف الحديث. وقفت مع أمّي في الطّابور لأخذ المعجّنات؛ أمّا أبي فقد اجتمع مع باقي الرّجال عند قسم القهوة حول السّيد إفرس (مدير المصرف). يعمل أبي ستّة أيّام أسبوعيًا على أمل أنْ يخلفه في المنصب.

- لن يسمح السّوفيتيون لأي شخص بالبحث عن الجثث. لقطاء لا رب لهم.
- حين كان كنيدي رئيسًا، كانت المصروفات المخصّصة لوزارة الدّفاع أعلى بسبعين بالمئة ممّا هي عليه اليوم.
- نحن بلا حماية.

استمعت إلى أحاديثهم دون تركيز -حذر شديد من تطوّرات الحرب الباردة. كانت هذه المحادثات المروّعة بمثابة الخلفيّة الصّوتيّة لأيّام الآحاد. قطعة (دونت) على صحني. احتجت إلى دقيقة لأدرك أنّ أمّي تئن. تعاني ضيقَ التنفّس عادة إذا كان هناك سبب: «المزارعون يحصدون، والغبار في الهواء يسبب الرّبو»، أو «تحريك الأب مالوني لذلك البخور كأنّه يحاول التّطهّر بتعرضه إلى الدّخان». لكنّ أمّي قبضت على كتفي هذه المرّة. ساعدتها على الذّهاب إلى أقرب طاولة، إلى كرسي قرب السّيدة أوديل. جلست أمّي على الكرسي المعدني، جذبتي باتّجاهها.

حاولت لفت انتباه أبي.

قالت أمّي بنبرة آمرة: أنا بخير. لا تثيري الجلبة.

السّيد إفِرس من جانب الطّاولة الآخر: مؤسف ما حدث لركّاب الطّائرة.

السّيدة موردوك: لهذا لا أسافر. السّفر سبب النّوازل.

أنا: مات كثير من الأبرياء. قال الرّئيس ريغان أنّ أحد موظّفي الكونغرس قد قُتِل..

«قَلَّ عدد المستغلّين واحدًا». قضمت السّيدة موردوك آخر قطعة دونت بين أسنانها.

- كلام قبيح. يحقّ للنّاس السّفر دون إسقاط طائراتهم.

التقت عينا السّيدة غوستافسون عيني. أومأت كأنّ لحديثي أهميّة. كنت قد اتّخذت من مراقبة أفعالها هواية، وهذي هي المرّة الأولى التي تلاحظ وجودي فيها.

قالت: من الشّجاعة أنْ يكون لديك موقف من قضيّة.

استنكرت قولها، وقلت لها: يجب ألّا يكون البشر منحطّين.

أجابتني: أوافقكِ الرّأي جملةً وتفصيلًا.

قبل أنْ أتمكّن من الرّد عليها، رفَع السّيد إفِرس صوته قائلًا: الحرب الباردة مستمرّة منذ أربعين سنة. لن نربحها بتاتًا.

أومأت الرّؤوس تأييدًا لقوله.

واصل كلامه: إنّهم قتلة بلا مشاعر.

سألته السّيدة أوديل: هل قابلت روسيًّا في حياتك؟

- عملت مع أحدهم؟ ويمكنني أن أقول إنّهم لا يختلفون عنّي أو عنكِ.

أطبق الصّمت على من في المكان. أين قابل العدو؟ وكيف «عمل» معه؟

في فرويد، عرفنا كلّ شيء عن كل شخص؛ عرفنا من يفرط في الشُّرب ولماذا، عرفنا من غشّوا في ضرائبهم، ومن خانوا زوجاتهم، وعرفنا من عاش في خطيئة مع رجل آخر في بلدة مينوت. السّيدة أوديل غوستافسون هي السّر الوحيد. لم يعرف أي شخص اسم والديْها، أو فيمَ عمل والدها. لم يعرف أي شخص كيف قابلت السّيد بَك غوستافسون خلال الحرب، أو كيف أقنعته بعدم استكمال دراسته الثّانويّة والاقتران بها. دارت الإشاعات حولها دون أنْ تصفها بما هو شائن. في عينيْها كدر. هل هو ابتئاس لفقدٍ أم ندم؟ كيف تمكّنت من الإقامة في بقعة مضجرة في السّهول [الأمريكية] بعد إقامتها في باريس؟

* * *

كنتُ الطّالبة التي تجلس في الصّف الأول وترفع يدها دائمًا. جلست ماري لويز خلفي ورسمت على المكتب. اليوم على السّبورة السّوداء، بذلت الأستاذة هانسون قصارى جهدها لتثير اهتمام طلّاب الصّف السّابع برواية إيڤانو؛ غمغمت ماري لويز: إيڤا-نو. في الجانب الآخر من الفصل، روبي بأصابعه المُسمرّة بفعل الشّمس مُمسك بالقلم. شعره -بنّي اللون كشعري- كان منكوشًا. تعلّم قيادة سيارة لمساعدة أهله في نقل المحصول. قرّب القلم من فمه، احتكّت الممحاة الورديّة بشفته السّفلى. بوسعي التّحديق إلى طرفي شفتيْه إلى الأبد.

قبلة فرنسية. نخب فرنسي. بطاطس فرنسيّة. كل الأشياء الجميلة فرنسيّة. أعلم أنّ الباقلاء الفرنسيّة الخضراء ألذ من الأمريكيّة. لا بدّ أنّ الأغاني الفرنسيّة أفضل من أي موسيقى ريفيّة تذاع في إذاعة بلدتنا الوحيدة. «تهاوت حياتي عندما هجرني ذلك الثّور من أجل جاموسة أصفر»[1]. لعلّ معرفة الفرنسيّين بالحب أفضل أيضًا.

أردت المشي على مُدرّج الطّائرة، ومدرّج عرض أزياء. أردت التّمثيل على مسرح برودواي، أو استراق النّظر خلف السّتارة. أردت أنْ أعرف شعور نطق الكلمات الفرنسيّة. لا أعرف إلّا امرأة واحدة قد جرّبت الحياة خارج فرويد؛ السّيدة أوديل غوستافسون.

كأنّ سنوات ضوئيّة تفصل بيننا على الرّغم من أنّنا جيران. تحذّرني أمّي في كل هالوين: أضواء منزل عروس الحرب غير منارة. هذا يعني أنّها لا تريد أنْ يقرع الأطفال بابها. عندما بعنا أنا وماري لويز البسكويت، قالت لي أمّها: ميزانيّة العجوز محدودة، فلا تزعجوها.

لقائي معها في الكنيسة منحني الشّجاعة. احتجت فقط إلى التّكليف المدرسي المناسب لأحاورها. كما هو متوقّع، طلبت منّا الأستاذة كتابة تقرير عن **إيفانو**. بعد انتهاء الدّرس، اقتربت من مكتبها وطلبت منها أنْ تسمح لي بكتابة تقرير عن دولة.

قالت: هذه المرّة فقط. أتطلّع لقراءة تقريرك عن فرنسا.

شغلني موضوع التّقرير لدرجة أنّي نسيت قفل باب دورة المياه، وتفقّد أسفل المغاسل. عندما انتهيت، اكتشفت أنّ تيفاني

---

(1) من أغنية فرنسية. (المترجمة)

إفرس ورفيقاتها قد تسللن قرب المغاسل، حيث سرّحت شعرها الأشقر أمام المرآة.

قالت: لم تكبسْ السّيفون. ها قد أتت الحقيرة.

حاولت التّصرف برُقي، لكن حين نظرت إلى نفسي في المرآة، انتبهت إلى أنّ لون شعري يشبه لون الغائط. وقفت قرب المراحيض وأنا أعلم أنّي إذا غسلت يدي، فإنّ تيفاني ستغطسني تحت الصّنبور وسأتبلّل. إذا لم أمتثل ما تريد، ستخبر كل من في المدرسة. فعَلَت ذات الأمر مع مايسي. لن يجلس أي شخص قرب «يدي البول» شهرًا كاملًا. الفتيات الأربع ينتظرنني وهنّ مكتوفات الأيدي.

فُتح الباب، ودخلت الأستاذة هاء، وقالت: أنتِ هنا مرّة أخرى يا تيفاني؟ لا بدّ أنّك تعانين مشكلة في المثانة.

خرجت الفتيات بنظرات ترمقني، كأنّهن يقلن لي: لم ينته هذا بعد. أعرف هذا.

كانت ماما المقاتلة المتفائلة حتى في أحلك الظروف لتطلب منّي النّظر إلى الجانب المشرق من الحياة. لحسن الحظ لدى السّيد إفِرس الكهل ابنة واحدة، واليوم هو يوم الجمعة.

يقيم والداي عشاءً في أيّام الجمعة عادة (تشوي أمّي ضلوعًا، وتحضر جارتنا كاي السّلطة، وتخبز سوي بوب كعكة أناناس مقلوبة)، ولهذا السّبب كنت أقضي المساء في منزل ماري لويز. لكنّي بقيت هذه الليلة في غرفتي، وفكّرت في أسئلة سأوجّهها إلى السيّدة أوديل غوستافسون. تعالت ضحكات الكبار في غرفة الطّعام.

أطبق الصّمت، فعرفت أنّ النّساء قد خرجن من الغرفة ليفسحن للرّجال مجالًا لقول ما لم يقولوه أمام زوجاتهم، كما يحدث بين نبلاء إنجلترا.

بينما كانت النّساء يغسلن الأطباق، أصغيت إلى صوت أمّي الآخر؛ الصّوت الذي استخدمته مع صديقاتها. بدت أسعد معهن. كيف للمرء أن يتبدل هكذا مع من يحبّ؟ تساءلت كم من شيء أجهله عن أمّي، رغم أنّها لم تكن غامضة مثل السّيدة غوستافسون.

دوّنت الأسئلة حسب تفكيري فيها في أثناء جلوسي إلى مكتبي: متى كانت آخر مرّة قطَعت فيها المقصلة رأس أحد؟ هل توجد جماعة شهود يهوه في فرنسا أيضًا؟ لماذا يقول النّاس إنّك سرقت زوجك؟ بما أنّه قد مات الآن، ما سبب بقائك في أمريكا؟ انهمكت في التّفكير إلى حد عدم ملاحظة وجود أمّي خلفي حتّى وَضَعت يدها الدّافئة على كتفي.

- ألم تريدي المبيت في منزل ماري لويز؟
- أحل واجباتي.

قالت بلا اقتناع: يوم الجمعة! أكان يومك عسيرًا في المدرسة؟

معظم أيّامي عسيرة. لكنّي لم أشعر بالرّغبة في الحديث عن تيفاني إفرس. أظهرت أمّي هديّة بحجم علبة حذاء من خلفها، وقالت: صنعت شيئًا لكِ.

- «شكرًا!» مزّقت ورق التّغليف ووجدت سترة بلا كُمّين حاكتها بالكروشيه.

ارتديتها فوق بلوزتي، وسحبت أمي طرفها السّفلي حول خصري، سعيدة بالقياس. قالت لي: أنتِ جميلة. اللون الأخضر يبرز اخضرار عينيْك.

لم يتطلب الأمر سوى نظرة واحدة في المرآة لأتأكد من أن شكلي مضحك. ستجعلني تيفاني أضحوكة المدرسة إذا ارتديتها.

قلت لأمّي بعد تأخير: إنّها ... جميلة.

ابتسمَت لتخفي خيبة أملها. سألتني: ما الذي يشغلك الآن؟

أوضحت لها أنّ عليّ كتابة تقرير عن فرنسا، وأنّ عليّ مقابلة السّيدة غوستافسون.

- أوه يا عزيزتي، لا أعتقد أنّ علينا إزعاجها.
- أسئلتي قليلة. هل يمكنني دعوتها إلى منزلنا؟
- يمكنك. ماذا ستسألينها؟

أشرت إلى ورقتي، وحالما نظرت إلى الأسئلة شهقت بصوتٍ عالٍ، ثم قالت: تعرفين أنّ هناك سببًا وجيهًا لعدم عودتها.

***

عصر يوم السّبت، هرعت إلى منزل السّيدة غوستافسون مرورًا بسيّارتها الشيفروليه، ووصلت إلى سلالم الرواق المتداعية، ثمّ ضغطت على الجرس. دن-دن-دن. لم يرد أحد. ضغطت على الجرس مرّة أخرى. لم يجب أحد، فجرّبت طرق الباب الأمامي. فُتح الباب مصدرًا صريرًا، وسألت: هل يوجد أحد؟ دخلت المنزل.

صمت.

أعدت السؤال: هل يوجد أحد؟

وسط غرفة المعيشة الهادئة، شاهدت كتبًا تغطّي الجدران. نباتات سراخس أسفل نافذة كبيرة. ستيريو ضخم بحجم ثلاجة قد تسع شخصًا بداخلها. تصفّحت مجموعة أسطواناتها الموسيقيّة: تشايكوفسكي، باخ، والمزيد من تشايكوفسكي. نزلت السّيدة غوستافسون رويدًا كأنّها استيقظت من قيلولة. حتّى وهي وحيدة في منزلها، ارتدت فستانًا مع حزامها الأحمر. بدت رقيقة بجوربيْن فقط. تذكّرت أنّي لم أر يومًا سيّارة صديق أمام منزلها، ولم تستضف أحدًا. كانت تمثل المعنى الحقيقي للعزلة.

وقَفت على بضع خطوات منّي. حدّقت إليّ كأنّي جئت لأسرق أسطوانة بحيرة البجع منها. «ماذا تريدين؟»

تعرفين أشياء أريد أن أعرفها أيضًا.

كتّفت ذراعيْها وطلبت توضيحًا.

– أكتب تقريرًا عنكِ. أعني عن بلدك. هلّا زرتنا في منزلنا لمحاورتك؟

عبَسَت. سكَتَت.

وتّرني صمتها. «منزلك يشبه مكتبة». أشرت إلى أرففها الممتلئة بعناوين لا أعرفها: مدام دو ستايل، مدام بوفاري، سيمون دو بوفوار.

– ربما كانت فكرتي سيئة، لذا التفت للرحيل.

– متى؟

نظرتُ ورائي: الآن. ما رأيك؟

«كنت منشغلة في أمرٍ ما». تكلّمت باستعجال كأنّها رئيس دولة وبحاجة إلى العودة لإدارة شؤون غرفة نومها.

«أنا أكتب تقريرًا» ذكّرتُها؛ بما أنّ المدرسة تلي الرّب والوطن وكرة القدم في الأهميّة.

ارتدت السّيدة غوستافسون كعبيْها العالييْن وأخذَت مفاتيحها. تبعتها باتّجاه الرّواق، حيث أقفَلت الباب. لا أحد غيرها يقفل باب مسكنه في فرويد.

«أتقتحمين منازل النّاس دائمًا؟» سألتني ونحن نعبر الحديقة.

استنكرت قولها بهز كتفي. «أصحابها يفتحون الأبواب إذا طُرقت».

في غرفة الطّعام في منزلنا، وضعت يدًا على يد، ثمّ أنزلتهما عند جنبيْها. ناظراها على السّجادة، مقعد قرب النّافذة، وصور العائلة على الجدار. حرّكت فمها لتقول شيئًا، ربّما: «أليس هذا جميلًا؟» كما ستفعل باقي النّساء، لكنّها أطبقت فكّيْها.

«حيّاك» قالت أمّي وهي تضع طبق بسكويت بالشوكولاتة على المائدة.

دعوت جارتنا إلى الجلوس. وضعت أمّي كوبين أمامها وأمامي، أما أمام السّيدة غوستافسون فوضعت فنجان شاي أنيقًا. أعرف قصّة هذا الفنجان عن ظهر قلب. قبل سنوات، حين ذهبت السّيدة إفرس في جولة سياحية لزيارة قلاع إنجلترا، أعطاها أبي مالًا لتشتري طقم شاي لأمّي. البورسلان باهظ الثّمن، فعادت بفنجان واحد مع صحنه. خافت أن يتهشّم، فوضعته في حجرها طوال الرّحلة عبر المحيط الأطلسي. أعتقد أنّ هذا الفنجان الضّئيل أتى من مكان أفضل وأرقى تماما مثل السّيّدة غوستافسون.

قدّمت أمّي الشّاي، ثمّ كسرتُ الصّمت بسؤال: ما أجمل شيء في باريس؟ هل هي أجمل مدينة في العالم فعلًا؟ كيف كانت نشأتك هناك؟

لم تجب السّيدة غوستافسون فورًا.

أمّي: أتمنّى أنّنا لم نزعجك.

السّيدة غوستافسون: في فرنسا أجريت آخر مقابلة كهذه.

أنا: هل كنتِ متوتّرة؟

السّيدة غوستافسون: أجل، لكنّي حفظت كتبًا كاملة استعدادًا لها.

أنا: هل فادتك؟

ابتسمَتْ بحزن، وقالت: هنالك أسئلة لا يكون المرء مستعدًّا للإجابة عنها.

«لن تسألك ليلي ذلك النّوع من الأسئلة» قالت أمّي للسيّدة غوستافسون، لكنّي كنت أنا المقصودة بتحذيرها.

السّيدة غوستافسون: أفضل ما في باريس؟ إنّها مدينة القُرّاء.

قالت إنّ الكتب مهمّة تمامًا مثل الأثاث في منزل أصدقائها. أمضَت مدد الصّيف وهي تقرأ في حدائق المدينة الخضراء، وإذا أقبل الشّتاء انزوت في المكتبة مع كتاب في حجرها، كما تُحمى النّباتات في المحميّات.

سألتها: أتحبين القراءة؟ بالنّسبة إليّ، الكلاسيكيّات بالإنجليزيّة هي أهم الكتب.

قالت: أعيش لأقرأ. أقرأ على الأغلب كتبًا تاريخيّة وكتبًا تتعلّق بالأحداث الرّاهنة.

بدا هذا ممتعًا كمتعة مراقبة ذوبان الثّلج. سألتها: ماذا قرأت حين كنتِ في عمري؟

- أحببت الرّوايات، مثل رواية الحديقة السّريّة. اهتم أخي التّوأم بقراءة الأخبار.

توأم. أردت أنْ أسألها عن اسمه، لكنّها واصلت الحديث. قالت: «الباريسيّون يستمتعون بالطّعام كاستمتاعهم بالأدب». مضت أكثر من أربعين سنة، لكنّها ما زالت تتذكّر المعجنات التي جلبها والدها لها بعد يومها الأوّل في العمل، كعكة اسمها (فينانسييه). أغلقت عينيها، قالتْ «إنّ طعم طحين اللوز بالزّبدة أشعرها أنّها في الجنّة». أحبّت أمّها (أوبرا)، وهي قطعة كاكاو عميقة تغلفها طبقات من الكعك المشبّع بالقهوة. في-نان-سييه. أو-بي-را. جرّبت نطق الكلمتيْن وأحببت تأثيرهما في لساني.

قالت: باريس مدينة تكلّمكِ. مدينة تترنّم بأغنية تخصّها. في الصّيف يُبقي الباريسيّون نوافذهم مفتوحة، فيسمع المرء نقرات جاره على البيانو، أو تدوير أوراق اللعب بيد أحدهم، التّشويش حين يعبث أحدهم بمقبض المذياع. هنالك طفلٌ يضحك دائمًا، وشخصٌ يناقش الآخرين، وعازف كلارينيت في الميدان.

فقالت أمي بنبرة حالمة: يبدو هذا رائعًا.

عادةً، في أيّام الآحاد بعد الكنيسة، ارتخت كتفا السّيدة غوستافسون، وعيناها بلا تألّق كلافتة النّيون فوق حانة أويسيس يوم الأحد. لكنّهما الآن متهلّلتان. ازداد كلٌّ من صوتها وملامحها عذوبة مع حديثها عن باريس. سألت نفسي عن سبب مغادرتها باريس.

فاجأتني أمّي بسؤالها: كيف كانت الحياة خلال الحرب؟

«صعبة». أحكمت السّيدة غوستافسون مسك كوب الشّاي. إذا انطلقت صافرات الإنذار، اختبأت أسرتها في القبو مع طعام التّموين. استلم كل شخص بيضة واحدة في الشّهر. ازداد الجميع نحافة حتّى يُعتقد أنّهم سيختفون. على الشّوارع، أخضع النّازيّون الباريسيين لنقاط تفتيش عشوائيّة. كالذّئاب، بقوا في جماعات. اعتقلوا النّاس دون أسباب، أو لأسباب بسيطة كالبقاء خارج منازلهم بعد بدء حظر التّجوّل. أليس الحظر للمراهقين؟ يُحظر على أخت ماري لويز -أنجل- الخروج من المنزل.

سألتها: ما أكثر ما تفتقدين في باريس؟

«الأهل والأصحاب». أصبحت عينا السّيدة غوستافسون البنيّتان حزينتيْن، ثمّ أردفت: «والأشخاص الذين يفهمونني. أشتاق إلى اللغة الفرنسيّة. أشتاق إلى وطني».

لم أعرف ما أقول. عمّ الصّمت الغرفة. أُصبنا أنا وأمّي بالقلق، لكن لم يبدُ أنّ له تأثيرًا في جارتنا التي ارتشفت آخر قطرة شاي.

لاحظت أمّي أنّ فنجان السّيدة غوستافسون فارغ، فوقفت بغتة، وقالت: سأجهز الإبريق.

في منتصف الطّريق إلى المطبخ، توقّفت أمّي على حين غرّة. اختل توازنها، فرفعت يدًا لتتمسّك بخزانة الأواني. قبل أنْ أفكّر في التّحرك، وقفت السّيدة غوستافسون، ووضعت يدها حول خصر أمّي، ثمّ أجلستها. جثمتُ على الأرض قرب أمّي. خدّاها محمرّان، وتنفّسها بطيء وسطحي كأنّ الهواء لا يصل إلى رئتيْها.

قالت: سأكون بخير. وقفتُ فجأة. هذا هو السّبب.

سألتها السّيدة غوستافسون: هل حدث هذا من قبل؟

نظـرَت أمّـي إلـيّ فرجعـت إلـى كرسـيي، وادعيْـت أنّـي أنظّـف فتـات البسـكويت.

أقرّت: بضع مرّات.

هاتفـت السّـيدة غوسـتافسـون الطّبيـب سـتانشـفيلد. فـي فرويـد، يكـرّر جميـع الرّاشـدين ذات الأمـر: فـي المدينـة، تهاتـف طبيبًـا، فـلا يأتـي، مهمـا بلغـت شـدّة مرضـك. هنـا، تجيـب السـكرتيرة فـورًا عـن أسـئلتك فـور رفـع السّـماعة، فيـزور الطّبيـب منزلـك فـي غضـون دقائـق. وَلّـد الطّبيـب سـتانشـفيلد أطفـالًا فـي ثـلاث مقاطعـات؛ أوّل مـن حمـل معظمنـا بيـن ذراعيْـه الدّافئتيْـن الملطّختيـن بالدّمـاء.

طرَق الطّبيب الباب ودخل حاملًا حقيبته الجلديّة.

«مـا كان عليـك أنْ تأتـي» قالـت أمّـي بارتبـاك. أخذتنـي أمّـي إلـى هـذا الطّبيـب إذا تكـرّر عطسـي، لكنّهـا لـم تحجـز موعـدًا معـه لمعالجـة الرّبـو الـذي تعانيـه.

«دعينـي أقـرّر السّـبب». حـرّك شـعرها جانبًـا بلطـف، ووضـع سـمّاعته علـى ظهرهـا. «خـذي نفسًـا عميقًـا».

تنفّسَت.

«إذا فهـذا نفسـك العميـق...» أخـذ الطّبيـب قـراءات ضغطهـا، ثـمّ عبـس. قـال إنّ الأرقـام مرتفعـة، فوصـف بعـض الحبـوب.

لعلّ أمّي أخطأت حين قالت إنّه ربو.

***

بعد العشاء، تمدّدت مع ماري لويز على سجّادتي لننجز تقريرنا. سألتني: ماذا قالت السّيدة غوستافسون؟

- إنّ الحرب خطِرة.

- خطِرة؟ كيف؟

«الأعداء في كلّ مكان». تخيّلت السّيدة غوستافسون ذاهبة إلى عملها، والشّوارع ممتلئة بالذّئاب. بعضها يعوي، وبعضها يعضُّ كعبيْها العاليين. وهي تواصل المشي. لعلّها لم تسلك ذات الطريق معظم الأيّام.

- كان عليها التّسلّل هنا وهناك؟

- أعتقد هذا.

- ألن يكون رائعًا لو عرفنا أنّها جاسوسة؟

«فعلًا». تخيّلتها وهي توصل الرّسائل في كتب بالية.

«بمناسبة حديثنا عن الأسرار». وضعت قلمها جانبًا. «دخّنت سيجارة من سجائر أختي أنجل».

- دخّنتها بنفسك؟ لا لم تفعلي.

لم تقل شيئًا.

كرّرت قولي: لم تفعلي.

- مع تيفاني.

فاجأتني كلماتها. وقلت لها: إذا دخّنت، لن أتكلّم معك مرّة أخرى، ثمّ حبست أنفاسي.

أنا وهي في الثّانية عشرة من عمرنا، لكن ماري لويز عرفت كل شيء قبلي. بسبب أختها أنجل عرفت ماري لويز حفلات الشّرب والواقي الذّكري. لم يسمح لي والداي بوضع المكياج،

ولهذا سمحت لي ماري لويز باستخدام مكياجها. كانت أقوى وأسرع منّي، وتسبقني إذا تسابقنا.

قالت: لم أحبّ التّدخين كثيرًا على أي حال.

***

بمرور الأسابيع، فقدت أمّي شهيّتها، وأصبحت ثيابها فضفاضة. دواؤها غير ناجع. اصطحبها أبي إلى مختص قال إنّ القلق هو سبب مرضها. خارت قواها لدرجة أنّها لم تقوَ على الطّبخ، فعمل والدي الشّطائر. في عيد الشكر، تناولنا أنا وهو الجبن المشوي على مائدة المطبخ. نظرنا إلى باب المطبخ، على أمل أن تتعافى أمّي عمّا قريب وتشاركنا العشاء.

تنحنح، ثمّ سألني: كيف المدرسة؟

- حصلت على الدّرجات النّهائيّة، وليس لدي صديق. حاولت تيفاني إفْرس سرقة ماري لويز منّي، لكنّي قصرت إجابتي على كلمة «جيّدة».

- جيّدة؟

- الفتيات الأخريات يضعن المكياج، فلماذا لا تسمح لي بهذا؟

- فتاة جميلة مثلك لا تحتاج إلى كل تلك المواد اللزجة على وجهها.

لم أقتنع بإجابة أبي. لم أفهم مخاوفه، لم أنتبه لقوله أنّي جميلة. كل ما سمعته هو قول رديف لكلمة لا.

- لكن يا أبي...

- أرجو ألّا تزعجي أمّك بهذا الموضوع.

للمرّة الألف، نظرنا أنا وهو باتّجاه باب غرفة النّوم.

***

حقيبتا المدرسة على ظهرينْا، مشيت مع ماري لويز بإجهاد من المدرسة إلى بيتينا. توقفنا في الشّارع الأوّل للتربيت على كلب من نوع جرمن شيبارد، ثمّ واصلنا المشي ومررنا بمنزل آل فلشي الذين يملكون سبعة وأربعين تمثالًا من السّيراميك لأقزام موزّعة في فنائهم؛ قزم يرمز لكل سنة زواج. في الزّاوية، السّيدة موردوك تكنس ستائرها المصنوعة من الدّانتيل. إذا اختصرنا الطّريق من خلال المرور برواقها عوضًا عن المشي في الطّريق الجانبي، ستستدعي والدينْا.

في فرويد، تبضّعنا جميعًا من ذات المتجر، وشربنا جميعًا من ذات البئر. تشاركنا ذات الماضي، وتناقلنا ذات القصص. السّيدة موردوك لم تكن بهذا اللؤم قبل انزلاق زوجها على الثّلج المجروف. بَك غوستافسون تغيّر كثيرًا بعد الحرب. قرأنا ذات الجريدة، واعتمدنا على ذات الطّبيب. في طريقنا إلى أنحاء البلدة، قدنا على طرقٍ قذرة، وشاهدنا شاحنات الحصاد حول الحقول، تنزع القمح. النّسيم نقي. نظيف. أفواهنا وأنوفنا ممتلئة برائحة بالحشيش المجفّف اللطيفة، وغبار الحصاد يندفع في دمائنا.

«لننتقل إلى مدينة كبيرة». ماري لويز حدّقت إلى السّيدة موردوك. «حيث لا يتدخل أي شخص في شؤوننا».

أضفت: حيث يمكننا القيام بأي شيء، كالصّراخ في الكنيسة.

– أو عدم الذّهاب إلى الكنيسة أساسًا.

سكتنا. فكرة مهيبة احتجنا إلى وقت لاستيعابها. مشينا إلى آخر الطّريق باتّجاه منزلي بصمت. من الشّارع، رأيت أمّي عند النّافذة. انعكاس صورتها على الزّجاج جعلها باهتة كشبح.

توجّهَت ماري لويز إلى منزلها، وتوجّهتُ أنا إلى صندوق البريد وأمسكت بالرّسائل، دون استعداد للدّخول. اعتادت أمّي صنع البسكويت والحديث مع صديقاتها على مائدة المطبخ. أحيانًا، كانت تأخذني من المدرسة بالسّيارة، وكنّا نذهب إلى بحيرة مدسن رفيوج؛ مكانها المفضّل لرصد الطّيور. في عربة المحطّة، أجلس مع أمّي في ذات الاتّجاه؛ الطّريق الممتد أمامنا يشي بحدوث أي شيء. كان من السّهل الإسرار لها عن كرهي لتيفاني إفرس أو حصولي درجة سيّئة في اختبار. كان بإمكاني إخبارها عن الأمور الجيّدة أيضًا، كتلك المرّة في حصّة التّربية البدنيّة حين كان روبي قائد الفريق واختارني أوّلًا، حتّى قبل أنْ يختار أي فتى آخر. في كل مرّة خسرت فيها، تذمّروا بشدّة، لكنّه آزرني بقوله: ستنالين منهم في المرّة القادمة.

عرَفت أمّي كلّ شيء عنّي.

270 فصيلة طيور في بحيرة مدسن. مشينا على الحشيش المدبّب الذي يصل طوله إلى ركبتيْنا. المنظار معلّق حول رقبة أمّي، قالت: الصّقور أكثر الطّيور هيبة، وعصافير الدّوري الزّقزاق تحمل أجمل اسم، ومع هذا أفضّل طائر أبا الحناء.

مازحتها لأنّها قادت مسافة طويلة لمراقبة طيور موجودة في حديقة منزلنا الأماميّة.

قالت لي: «طيور أبي الحناء بهيّة. إشارة ميمونة، تذكرنا بالأشياء المميّزة التي تبصرها أعيننا»، ثمّ عانقتني بشدّة. لكنّها الآن، تبقى في المنزل وحيدة وبالكاد تتكلّم، حتّى معي.

فـي تلـك اللحظـة، توجّهـت السّـيدة غوستافسـون إلـى بريدهـا، فمشـيت متجـاوزة الحشـيش الفاصـل بيننـا. قرّبَـت رسـالة مـن صدرهـا.

- ممن هذه الرّسالة؟

- مـن صديقتـي لوسين المقيمـة فـي شـيكاغو. نتراسـل منـذ عقـود. جئـت معهـا علـى باخـرة واحـدة؛ ثلاثـة أسـابيع يسـتحيل نسـيانها مـن نورمانـدي إلـى نيويـورك. حيّتنـي، ثـمّ سـألتني: أكلّ شـيء علـى مـا يـرام؟

«أنـا بخيـر». نعـرف جميعًـا قواعـد الـكلام: لا تجـذب الانتبـاه لنفسـك؛ فـلا أحـد يحـب التّباهـي. لا تمـش حـول الكنيسـة حتّـى لـو وجـدت قنبلـة خلفـك. إذا سـألك شـخص عـن حالـك أجبـه: «أنـا بخيـر» حتّـى لـو كنـت محزونـًا مذعـورًا.

سـألتني: أترغبيـن فـي دخـول منزلـي؟ أنزلـتُ حقيبتـي أمـام الرّفـوف. كتـبٌ كثيـرة فـي كل مـكان، لكـن توجـد ثـلاث صـور فقـط. صغيـرة بحجـم صـور كاميـرات البولارويـد. فـي منزلـي، الصّـور أكثـر مـن الكتـب (الكتـاب المُقـدّس، المرشـد لرحـلات أمّـي، وموسـوعة مكوّنـة مـن أجـزاء وجدناهـا بحسـم فـي سـوق).

أوّل صـورة فـي منزلهـا لشـاب يعمـل فـي البحريّـة. عينـاه تشـابه عينـي السّـيدة غوسـتافسـون.

وقفت إلى جانبي، وقالت: ابني، مارك. قُتل في ڤييتنام.

فـي إحـدى المـرّات، حيـن كنـت أُسـلّم النّشـرات فـي الكنيسـة، اقتربـت نسـاء مـن المـاء المقدّس. مـع دخـول السّـيدة غوسـتافسـون، همسَـت السّـيدة إفـرس: يصـادف يـوم غـد الذّكـرى السّـنويّة لوفـاة

مـارك». هـزّت السّـيدة موردوك رأسـها بأسـى، وقالـت: لا أسـوأ مـن فقـدان ابـن. يجـب أنْ نرسـل الأزهـار أو...

زجرتهـن السّـيدة غوسـتافسـون: توقّفـن عـن الغيبـة. علـى الأقـل فـي القـداس.

أغطسـت النّسـاء أصابعهـن المرتعشـة فـي المـاء المقـدّس، وأديـن إشـارة الصّليـب فـورًا، وتوجّهـن بهـدوء إلـى المقاعـد.

مَـرّرتُ يـدي علـى الجـزء العلـوي مـن إطـار الصّـورة، وقلـت لهـا: أُعَزّيـكِ.

– «أُعزّي نفسـي»

الغصّـة التـي فـي صـوت السّـيدة غوسـتافسـون أوجعتنـي. لـم يزرهـا أحـد قـط. لا أصهارهـا، ولا أسـرتها الفرنسـيّة. مـاذا لـو أنّ جميـع أحبّائهـا قـد قضـوا نحبهـم؟ لعلّهـا لا تحبّـذ وجـودي فـي منزلهـا، لأنّـي أنبـش خسـاراتها. هممـت بحمـل حقيبتـي للرّحيـل.

سـألتني: أتريدين البسـكويت؟

فـي المطبـخ، أخـذت أكبـر قطعتيْـن فـي الطّبـق، والتهمتهمـا قبـل أن تلمس يدهـا قطعتهـا. رقيقـة وهشّـة، بسـكويت السّـكر مُغلّفـة علـى شـكل مناظيـر مُصغّـرة.

كانـت قـد أنهـت إعـداد الدّفعـة الأولـى منهـا، فسـاعدتها فـي السّـاعة التّاليـة فـي فـرد العجيـن المتبقّـي. قـدّرت عـدم قولهـا أي شـيء عـن أمّـي. لـم تقـل: «اشـتقنا إلـى أمّـك فـي القـداس، أخبريهـا بـأن كل شـخص يقـوم بنصيبـه مـن العمـل» أو «اللحـم المُحمّـر يُعالـج كل شـيء». لـم يكـن الصّمـت بهـذا الجمـال يومًـا.

سـألتها وأنا آخذ قطعة أخرى: ما اسم هذا البسكويت؟

- سجائر روسيّة.

بسكويت شيوعي؟ أرجعته إلى الطّبق. سألتها: من علمك إعداده؟

- أخذت الوصفة من صديقة كانت تعدّه حين كنت أعيرها الكتب في منزلها.

- لماذا لم تستعر كتبها بنفسها؟

- لم يُسمح لها بدخول المكتبات خلال الحرب.

قبل أنْ أسألها عن السّبب، سمعنا قرعًا على الباب. «سيّدة غوستافسون؟»

إنّه أبي. هذا يعني أنّها السّادسة مساء؛ وقت العشاء، وأنا في مأزق. أبعدت بقايا البسكويت عن فمي، جهّزت حقيبتي. الوقت يمر سريعًا، وكان عليّ البقاء لمساعدتها في إنهاء...

فتحت السّيدة غوستافسون الباب، وكنت قد توقّعت غضب والدي.

عيناه واسعتان، وربطة عنقه مِعوجّة. «سآخذ بريندا إلى المستشفى. هلّا اعتنيتِ بليلي؟»

تمنيت لو أنّها رفضت، لكنّه خرج مسرعًا، دون انتظار إجابتها.

3

أوديل

باريس. فبراير 1939

سقطت ظلال كنيسة القدّيس أوغسطين على أمي ورِمي وعليّ في أثناء خروجنا منها بعد يوم آخر قضيناه في قداس الأحد. بمجرّد خروجي من الكنيسة أخذت نفسًا طويلًا من هواء الشتاء المنعش لأتخلص من رائحة البخور الخانقة، حينها ارتحت لابتعادي عن الرّاهب وعظته الكئيبة. مشت أمّي معنا على طول الطّريق، مررنا بثاني متجر يحبّه رِمي، ثمّ مررنا بالمخبز والخبّاز ذي القلب الكسير لاحتراق خبزه، فدخلنا المبنى الذي فيه شقّتنا.

سألت أمّي: من سيزورنا اليوم؟ بيير أم بول؟

بغضب قالت: لا يهم. سيصل إلى هنا خلال أي دقيقة. أوديل، إيّاك والتّجهّم. أبوكِ يريد التّعرّف إلى الرّجليْن حتمًا. لا يعمل جميع الرّجال في مكتبه. أحدهم قد يكون زوجًا لك.

غداء آخر مع شرطي كسب ثقة أبي. اهتمام رجل بي غريب، وتجاهله لي مُهين.

أضافت قبل أنْ تذهب إلى المطبخ لتفقّد التّحمير في الفرن: وغيّري بلوزتك! لا أصدّقك أنّك ارتديتها في الكنيسة. ماذا سيقول النّاس؟

في رواق شقّتنا، أمام مرآة إطارها ذهبي مقشر اللون، فككت ضفائري الكستنائيّة، ووضع رِمي دهانًا على شعره الأشعث. غداء

الأحد تقليد مهمّ في كل تفاصيله عند العائلات الفرنسيّة كأنّه قداس، وماما أصرّت على أنْ نكون في أفضل هيئة.

سأل رمي: كيف كان ديوي ليصنّف هذا الغداء؟

- تصنيفٌ سهلٌ. 841: موسم في الجحيم.

ضحك.

- ما عدد المرؤوسين الذين دعاهم أبي إلى منزلنا حتّى الآن؟

- أربعة عشر. أراهن أنّهم يخشون رفض طلباته.

- لماذا تفلت أنتَ من هذا التّعذيب؟

- لأنّ لا أحد يهتم بزواج الرّجال.

ابتسم ابتسامة شقية وخطف وشاحي الصوفي من حول رقبتي، ثم أدخل رأسه من خلاله وربطه تحت ذقنه. قال لي: يا صغيرتي، للنّساء دور محدود في الحياة.

قهقهت. رِمي يعرف دائمًا طريقة إبهاجي.

قلّد أمّي بصوتها العالي: بمنهجك هذا في الحياة ستُركنين على الرّف إلى الأبد!

- رف مكتبة عندما أحصل على الوظيفة.

- هذا إذا تحصّلتِ عليها.

- أرجو ...

أنزل رِمي الوشاح، وأضاف: لديك شهادة جامعيّة في تخصص المكتبات، وتتكلّمين الإنجليزيّة بطلاقة، ودرجاتك عالية في التّدريب الدّاخلي. أثق بكِ، فثقي بنفسك.

طُرِقَ باب المنزل. فتحناه ووجدنا شرطيًا يرتدي معطفًا جلديًا قصيرًا. ترقّبت؛ الشّاب الذي حضر في الأسبوع الماضي هنّأني بمسح خدّه الدّهني بخدّي.

«أنا پول» قال هذا الشّاب. لمس خدّاه خدّيّ لمسة سطحيّة.

قال وهو يصافح يد رِمي: يسرّني لقاؤكما. سمعت أمورًا جيّدة عنكما.

بدا صادقًا، لكن واجهت صعوبة في تصديق أنّ بابا قد قال أي شيء إيجابي عنّا. كل الذي سمعناه عنّا هو تذمّره من درجات رِمي (رغم أنّه أفضل مُناظر في مقرّر القانون!)، وسوء تدبيري المنزل (كيف تنامين على سرير عليه كتب؟).

قال الشّاب لأمّي: انتظرت هذا اليوم طوال الأسبوع.

قالت له: وجبة مطبوخة في المنزل ستنفع صحّتك. حضورك يسعدنا.

دفع أبي ضيفه للجلوس على الأريكة قرب المدفأة، ثمّ قدّم المشروب (فيرمونت للرّجال، وشيري للنّساء)، في حين إنّ أمّي قد انتقلت من المقعد القريب من نباتاتها إلى المطبخ. حرصت على تنفيذ العاملة تعليماتها. جلس أبي على كرسيّه الذي على طراز كرسي لويس الخامس عشر. شارب أبي المبروم يُؤكّد فرض سيطرته على كل شيء. «من يحتاج إلى مثقّف عاطل عن العمل؟ لم لا يؤلّف المثقّف العاطل قصصه في أثناء عمله في المنجم. هل هناك أي بلد آخر يُفرّق بين المُشرّد الذّكي والغبي؟ أهكذا تُستغل ضرائبي!» يتغيّر الخاطب كل يوم أحد، أما خطبة أبي العصماء فلا.

مرّة أخرى، وضّحت: «لا أحد يُجبرك على مساعدة الفنّانين والكُتّاب. يمكنك اختيار البريد العادي أو ذلك الذي له ضريبة إضافيّة».

لعلّ هذا الخاطب ليس بسوء من سبقوه.

التفت بابا إلى پول: زُملاؤنا يمرّون بأوقات عصيبة في معسكرات الاعتقال قرب الحدود. اللاجئون يتراكمون، وقريبًا سيكون عدد الإسبان في فرنسا أكثر من عددهم في موطنهم.

قال رِمي: هناك حرب أهليّة. سيحتاجون إلى المُساعدة.

- هؤلاء اللاجئون ينهبون وطننا!

سأل پول أبي: ما الذي سيفعله المدنيّون؟ هل سيبقون في منازلهم ليُنحروا؟

لمرّة واحدة، لم يتحتّم على أبي الإجابة. تأمّلت ضيفنا؛ لم أفكّر في شعره القصير المنكوش، ولا عينيْه الزّرقاويْن اللتين طابقتا لون لباسه، بل قوّة شخصيّته وجسارته الهادئة للذّود عن مبادئه.

قال رِمي: هناك أمرٌ واحد مؤكّد مع كل تصعيد سياسي؛ ستندلع الحرب.

أبي: هراء! استُثمرت ملايين الفرنكات في الأمن. مع خط ماجينو، فرنسا في غاية الأمان.

تصوّرت الخط على أنّه خندق على الحدود الفرنسيّة مع إيطاليا وسويسرا وألمانيا حيث سيهوي الأعداء.

قالت أمّي: هل علينا مناقشة الحرب؟ كل هذا الحديث الكدر يوم الأحد! رِمي لماذا لا تكلمنا عن محاضراتك؟

قال أبي: يريد ابني الانسحاب من كليّة الحقوق. عرفت من مصدر موثوق أنّه يفوّت دروسه.

فكّرت مليًا في شيء لأقوله. تكلّم پول قبل أنْ أتكلّم. التفت إلى رِمي ثمّ قال: ماذا ستفعل إذا لم تدرس الحقوق؟

سؤال وددتُ لو أنّ أبي قد سأله من قبل.

رِمي: خوض الانتخابات. سأحاول تغيير الأمور.

قلّب أبي عينيْه، ثمّ قال لپول: أو أنْ يصبح حارس متنزه وحارسًا. سيحمي أكواز الصّنوبر وخراء الدّببة.

پول: غاباتنا مهمّة كمتحف اللوفر.

تعليق آخر أجبر أبي على السّكوت. نظرت إلى رِمي لأفهم رأيه في پول، لكنّه التفت باتّجاه النّافذة، تتضاربه الأفكار، كما يحدث عادة خلال غداءات يوم الأحد الطّويلة. هذه المرّة، قرّرت البقاء. أردت أنْ أسمع كلام پول.

حاولت إبعاد انتباه أبي عن رِمي، بقول: رائحة الغداء شهيّة!

أضاف پول بشجاعة: صحيح. لم أتناول طعامًا مُحضّرًا في المنزل منذ شهور.

أبي: كيف ستساعد لاجئي وطنك إذا انسحبت من كليّة القانون؟ يجب أنْ تستقر على أمرٍ واحد.

«الشّوربة جاهزة...» قطعت أمّي بتوتّر ورقة من سراخسها.

دون أي كلمة، توجّه رِمي إلى غرفة الطّعام.

صاح أبي: لا تريد أنْ تعمل، لكنّك أوّل من يأكل دائمًا!

عجز أبي عن كبح غيظه، حتّى أمام الضّيف. أكلنا حساء البطاطا بالبصل كعادتنا.

أطرى پول على حساء أمّي الكريمي، تمتمت بشيء لم أفهمه تمامًا بخصوص أنّ الوصفة جيّدة. احتكاك الملعقة بالبورسلان

دلّ على انتهاء الطّبق الأوّل. فتحت أمّي فمها قليلًا، كأنّها أرادت أن تطلب منه أنْ يكون لطيفًا. لكنّها لا تتجرأ على مناكفة أبي.

أحضرت العاملة البطاطا المهروسة بإكليل الجبل، والخنزير المُحمّر. حدّقت إلى السّاعة التي على إطار المدفأة. يستغرق إعداد الغداء وقتًا طويلًا، لكنّي تفاجأت عندما شاهدت أنّ السّاعة هي الثّانية فقط.

پول: أأنتِ طالبة أيضًا؟

- لا، أنهيت دراستي، وقدّمت قبل مدة قصيرة طلبًا للعمل في المكتبة الأمريكيّة.

ابتسم وقال: لن أمانع العمل في مكان جيّد وهادئ مثلها.

عينا بابا السّوداوان التمعتا اهتمامًا. «پول، إذا لم تقتنع بالعمل في القطاع الثّامن، لماذا لا تنتقل للعمل في دائرتي؟ هناك منصب شاغر لرقيب محترف».

«أشكرك يا سيّدي، لكنّي مرتاح في مكاني». عينا پول لم تفارقا وجهي بتاتًا. «أنا راضٍ تمامًا».

شعرت فجأة كأن لا أحد في المكان إلّا أنا وهو. أرجع ظهره إلى الكرسي، دون أن تفارق عيناه عينيها. لعلّه شاهد تحيّرًا في عينيها، كانت سترمي نفسها بين ذراعيّه، لتُسِرَّ له بمكنونات قلبها.

تهكّم أبي: فتيات عاملات! لماذا لم تقدّمي أوراقك على الأقل إلى المكتبة الفرنسيّة؟

بأسى، أشحت نظري عن مشهد پول العذب، إلى جانب كتاب ديكنز.

- بابا، الأمريكيّون لا يرتبون كتبهم بالحروف فقط. إنّهم يستخدمون أرقامًا أطلقوا عليها اسم «نظام ديوي العشري» ...
- أرقام لتصنيف الحروف؟ لا بدّ أنّ الفكرة من وحي شخص رأس مالي؛ الأمريكيّون يهتمّون بالأرقام أكثر من الحروف! ما الخطأ في طريقة تصنيفنا؟
- تقول الآنسة ريدر أنّ لا بأس في اختلافنا.
- أجانب! الرّب يعلم مع من ستتعاملين أيضًا!
- امنح النّاس فرصة، قد يفاجئونك...
- أنتِ من ستتفاجئين. أشار بشوكته باتّجاهي.
- التّعامل مع النّاس عسير. السّبب؟ استدعوني البارحة بسبب إلقاء القبض على سيناتور للاقتحام والدّخول. امرأة عجوز ضئيلة الحجم وجدته فاقدًا الوعي على أرضها. لم يقبل الانضباط ولم يتوقّف عن الشّتم إلّا عندما تقيّأ. وجب رشّه بخرطوم الماء لنفهم حكايته. حسَبَ أنّه في بناية عشيقته، لكنّ مفتاحه لم يفتح الباب، فتسلّق السّياج ودخل من النّافذة. صدّقيني، لا تريدين التّعامل مع البشر، ولا ترغميني على الحديث عن الأوباش الذين يدمّرون هذا البلد.

ها قد بدأ من جديد؛ يتذمّر بخصوص الأجانب، والسّياسيين، والنّساء المتعجرفات. أصدرت أنينًا فوضع رِمي قدمه على رجلي. أراحتني هذه اللمسة البسيطة، شعرت أنّ التّوتّر قد انزاح عن كاهليّ بعض الشّيء. ابتدعنا هذه الطّريقة السريّة لمواساة بعضنا حين كنّا صغارًا. واجهنا سخط أبينا معًا. قال أبي: «مرّتان هذا الأسبوع اعتمرت يا رِمي قبعة الطّلبة المعاقبين في الكلية! يجب

أن أثبّتها على رأسك». لا أجد طريقة أواسي فيها أخي. في آخر مرّة ساندته فيها، قال لي أبي: أتؤازرينه؟ يجب أنْ أضربكما ضربًا مبرحًا.

«سيعيّنون أمريكيّة، ولن يعيّنوكِ» ختم بابا حديثه.

تمنيت لو أنّ بمقدوري إثبات خطأ ضابط الشّرطة هذا الذي يدّعي معرفة كلّ شيء. تمنيت لو أنّه يحترم قراراتي، عوضًا عن إخباري بما يجب أن أرغب فيه.

باعتراض قلت: ربع المشتركين في المكتبة باريسيّون.

- يحتاجون إلى كتب فرنسيّة.

قالت أمّي بقلق: ما الذي سيعتقده النّاس؟ سيقولون إنّ أباك لا يعيلك.

رِمي: فتيات كثيرات يعملن هذه الأيّام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أبي: أوديل ليست بحاجة إلى العمل.

قلتُ بلطف: لكنّها تريد ذلك.

«لا تجادلي». سكبت ماما الشّوكولاتة في أطباق صغيرة من الكريستال. الحلوى، لذيذة جدًّا، جذبت اهتمامنا وجعلتنا نتّفق على أمرٍ واحد؛ ماما تعدّ أفضل حلوى.

عند الثّالثة مساء، وقف پول قائلًا: أشكركم على الغداء. أستميحكم عذرًا، يجب أنْ أغادر، سيبدأ عملي قريبًا.

لحقنا به إلى الباب. أمسك أبي بيده ثمّ قال: فكّر في عرض العمل.

أردت شكر پول على مساندته إياي ورِمي، لكنّي آثرت الصّمت لوجود والدي. اقترب پول حتّى وقف أمامي. حبست أنفاسي.

همست: أرجو أنْ تنال الوظيفة.

قبّلني قبلة الوداع. شفتاه رقيقتان على خدّي؛ ما أشعرني بفضول لمعرفة شعور شفتيْه على شفتي. تخيّلت قبلتنا، فزادت سرعة نبضات قلبي كما حدث حين قرأت رواية غرفة ذات إطلالة. بكيت لأحد أحداثها؛ وانتظرت إفصاح جورج ولوسي الملائميْن لبعضيْهما عن حبّهما المتّقد لحظة تعانقهما في ميدان مهجور. أتمنّى لو أنّ بوسعي تقليب صفحات حياتي أسرع لأعرف إذا كنت سأقابل پول مرّة أخرى.

توجّهت إلى النّافذة ورأيته يحث خطاه في الشّارع.

سمعت خلفي صوت سكب أبي الشّراب في كأس. غداء الأحد هو المناسبة الوحيدة في الأسبوع التي ينغمس فيها مع أمّي في سرده ذكريات الحرب العظمى الأليمة. بعد رشفات قليلة، ذكرَت بإجلال أسماء الجيران الذين قضوا نحبهم، كأنّهم حبّات خرز في مسبحتها. بالنّسبة إلى أبي، فالمعارك التي ربحتها كتيبته أقرب إلى الهزائم نظرًا لوفاة كثير من زملائه الجنود.

وقف رِمي إلى جانبي عند النّافذة يأكل سراخس أمّي. قال: أفزعْنا خاطبًا آخر.

- تقصد بابا هو من أفزعه.

- يقودني إلى الجنون. إنّه ضيّق الأفق. لا يملك أدنى فكرة عمّا يحصل.

لطالما آزرت رِمي، لكن هذه المرّة، تمنيت لو أنّ أبي على حق.

«أتعني ما قلته... عن الحرب؟»

- نعم. ستحل أوقات عصيبة.

أوقات عصيبة. 823. الأدب البريطاني.

- يموت المدنيّون في إسبانيا. اليهود يُضطهدون في ألمانيا. تابع حديثه عابسًا وهو ينظر إلى ورقة السّرخس التي بين أصابعه. «وأنا عالق في فصل دراسي».

- نشرتَ مقالات رفعت من وعي النّاس عن مآسي اللاجئين، وجمعت الملابس لهم، وأشركت كلّ أسرتنا في هذا العمل. أنا فخورة بك.

- هذا لا يكفي.

- تحتاج إلى التّركيز على دروسك الآن. لم تحرز درجات عالية مؤخّرًا. ستكون محظوظًا لو تخرجت.

- سئمت من دراسة قضايا المحاكم النّظريّة. الشّعب يحتاج إلى مساعدته الآن. السّياسيّون لا يؤدون دورهم. لا يمكنني الجلوس في المنزل فقط. يجب أن نفعل شيئًا.

- يجب أنْ تتخرّج.

- لن تشكل الشّهادة الدّراسيّة أي فرق.

قلت له بلطف: بابا على حق جزئيًا. عليك إنهاء ما بدأته.

- أحاول أنْ أقول لكِ...

«من فضلك أخبرني بأنّك لم تُقدم على أمرٍ آخر طائش». كان قد تبرّع بمدّخراته لمساعدة اللاجئين. دون استشارة أمّي. أعطى الطّعام الذي في المخزن للفقراء، إلى آخر ذرّة طحين. هرعت مع أمّي إلى السّوق لشراء طعام ووضعه على المائدة قبل عودة أبي إلى المنزل لكيلا يكتشف المسألة فيتشاجر مع رِمي.

قال: كنتِ تفهمينني، ثمّ خرج من الغرفة وأغلق الباب بقوّة.

جفلت عند سماع رأيه بي. أردت أنْ أصرخ وأقول له العنف ليس من فطرته، لكنّي أعرف أنّ لا فائدة من الشّجار. سأكلّمه حين يهدأ. الآن، أريد نسيان بابا وپول وحتّى رِمي. أوقات صعبة. سحبت الرّواية من الرّف.

4

لِيلي

فرويد. مونتانا. يناير 1984

أنـا وأبـي واقفـان إلـى جانبـي سـرير أمّـي فـي المستشـفى. حاولَتْ التّبسُّـم، لكـنّ فمهـا ارتعـش. اختفـى رونـق شـفتيْها، وكانـت ترمـش ببـطء. حولهـا، أصـوات الأجهـزة الطّبيّـة. لمـاذا لـم أذهـب إلـى المنـزل بعـد انتهـاء المدرسـة مباشـرة؟ لربمـا لـو فعلـت هـذا، لـم تكـن أمـي هنـا.

أغمضـت عينـي، وأبعـدت أمّـي عـن طبـق ممتلـئ فيـه هـلام أخضـر أكلـت نصفـه فقـط وعـن رائحـة المستشـفى والمطهـرات الكريهة، إلى البحيـرة. مـع تنفّـس رائحـة العشـب النـدي، مشـينا طويـلًا، انتعـش وجههـا بسـبب الـدّفء والشّـمس. لاحظَـت شيئًا فـي العشـب. اقتربنـا منـه، ووجدنـا علـب بيـرة. أخرجَتْ كيسًـا بلاسـتيكيًا مـن جيـب معطـف المطـر الـذي ترتديـه والتقطـت العلـب. أردت الاسـتمتاع باللحظـة فحسـب، قلـت لهـا: هيّـا، انسـي القـاذورات، لكنّهـا تجاهلتنـي. كان مـن المهـم بالنّسـبة إليهـا تـرك المـكان أنظـف ممّـا كان عليـه.

أعادنـي د. ستانشـفيلد إلـى الواقـع. جـاء لتفسـير تقريـر الأشـعة؛ مـع المتخصّـص. أظهـر التّخطيـط الكهربائـي للقلـب أنّ أمّـي قـد أصيبـت بسـكتات قلبيّـة صامتـة، سـبّبت لهـا ضـررًا بالغًـا. لـم أعـرف كيـف انتقلنـا مـن إصـرار أمّـي علـى معاناتهـا ضيـقَ التّنفّـس إلـى السّـكتات القلبيّـة. طريـق طويـل لا إشـارات تحذيريّـة فيـه؛ لا علامـة

(خطر سقوط حجارة)، لا علامة (خطر رياح مُتقلّبة). كيف وصلنا إلى هنا؟ كم ستبقى أمّي في المستشفى؟

على العشاء، سخّن أبي لحمًا مجمّدًا وجهّز طاولتيْن صغيرتيْن. قال لنتمكّن من مشاهدة الأخبار، لكنّي علمت أنّ السّبب ليس المذيع الكهل غراهام بريوستر الذي استضاف أعضاء من اتّحاد العلماء المهتمّين للحديث عن الحرب النّوويّة.

سألت أبي: هل تتحسّن أمّي؟

- لا أعرف. تبدو أقلّ تعبًا.

قال الباحث الفيزيائي على التلفاز: أكثر من225 طنًّا من الدّخان ستُقذف في الهواء.

- متى ستعود إلى المنزل؟

- ليتنا نعرف. لم يخبرنا الطبيب. عمّا قريب.

سيغطّي الشّمس دخانٌ يعيدنا إلى العصر الجليدي.

- أنا خائفة.

أبي: كُلي شيئًا.

اختتم المتخصّص حديثه وقال: مهما كانت الأمور سيّئة الآن، فإنّها قد تزداد سوءًا.

حرّكت اللحم بشوكتي. معدتي تصدر أصواتًا وقعها طويل وبطيء، كقلب معتل.

بعد العشاء، دلف أبي إلى مخبئه. لففت سلك الهاتف حول إصبعي وهاتفت ماري لويز. الخط مشغول. إذا لم تكن أختها أنجل في موعد غرامي، فستتكلم عبر الهاتف. نظرت حولي لأتأكّد من عدم وجود أبي حولي قبل الاتّصال برقم 5896. أتمنّى أنْ يكون

روبـي فـي المنـزل. «مرحبًـا» أجـاب. «مرحبًـا؟ مَـن علـى الخـط؟».
تمنيـت لـو أنّ بإمكانـي الحديـث معـه لكنّـي أجهـل طريقـة فعل هـذا.
أغلقـت السّـماعة ببطء شـديد؛ صوتـه رخيـم، أشـعرني بوحـدة أقل.

حدّقـت فـي البـدر مـن نافـذة غرفتـي، وحـدق إلـيّ بـدوره. هـزت الرّيـح الأغصـان الهشّـة. كلّمـا خفـت فـي صغـري مـن عاصفـة، كانـت أمّـي تدّعـي أنّ سـريري قـارب، وأن ريـاح العاصفـة أمـواج، وأن البحـر الهائـج فـي حديقتنـا سـينقلنا إلـى أرض بعيـدة. دونهـا باتـت الرّيـح مجـرّد ريـح، تعصـف وهـي فـي طريقهـا إلـى مـكان أفضـل.

***

بعـد عشـرة أيّـام، عـادت أمّـي إلـى المنـزل، فتدثَّـرتُ فـي سـريرها. أعـدّ أبـي كأس بابونـج. جلسـت إلـى جانبهـا تحـت البطّانيّـة ذات اللـون الأصفـر الليمونـي. رائحـة أمّـي كصابـون العـاج. رقاقـة ثلـج تدلّـت مـن السّـقف. غلّـف الثّلـج خطـوط الهاتـف. السّـماء مديـدة زرقـاء، أمّـا عالمنـا فأبيـض.

«كنّـا محظوظيـن اليـوم» قالـت ثـمّ أشـارت إلـى النّافـذة. «صقـورٌ كثيـرة». تطيـر فـوق المراعـي أحيانًـا قـرب الشّـارع، وأحيانًـا تحلّـق علـى علـو منخفـض بحثًـا عـن فئـران. قالـت أمّـي إنّ مراقبـة الطّيـور أفضـل مـن مشـاهدة التّلفـاز.

«فـي أثنـاء حملـي، أنـا وأبـوك تعانقنـا علـى مقعـد النّافـذة وشـاهدنا طيـور أبـي الحنـاء. أحـبَّ صدورهـا زاهيـة اللـون؛ علامـة مؤكّـدة حلول فصـل الرّبيـع، لكنّـي أحببـت طريقتهـا فـي التهـام الدّيـدان. قلـت لـه: اعتبرهـا سـباغيتي»

- يا للقرف!

«كنا سنسميك على اسم طائر أبي الحناء بالإنجليزية. بعد مولدك، أخبرت الممرضة أنّ اسمك (روبين)، رغم أنّ أباكِ فضّل اسم لِيلي، لأنّ زنابق الوادي كانت مزهرة حين اشترينا المنزل. ثمّ شاهدتكِ معه، أصابعك تقبض على خنصره. ذكّرتني بالأزهار الصّغيرة. مال إليك ثمّ قبّل بطنكِ. طريقته في النّظر إليك... مع حبّ كحبّه غيّرت رأيي». روت القصّة مرارًا، لكن، لسبب ما اليوم، أضافت: «لا يعمل أبوك لمصلحته الشّخصيّة، بل لكي نشعر بالأمان. نشأ فقيرًا. يخشى في قرارة نفسه خسارة كلّ شيء. هل تفهمين؟»

- تقريبًا.

- النّاس مرهقون، لا يعرفون ما عليهم فعله أو قوله، فلا تعاتبيهم، لأنّك لا تعرفين ما في قلوبهم.

النّاس مُرهقون. لا تعاتبيهم. لا تعرفين ما في قلوبهم. ماذا تقصد؟ مسألة تخصها؟ أم تخص أبي؟ سمعت أم ماري لويز تقول إنّ أبي يحسب نفسه سمسارًا في بورصة وول ستريت وأنّه يحب المال أكثر من البشر.

قلت لأمّي: بابا مشغول.

- أوه، عزيزتي، مع الأسف لا يتذكّر الأطفال الكثير عن احتفائنا بمجيئهم. حملك أبوك طول الليل.

قالت إنّه كان كطائر العقاب؛ هادئ وشجاع. عرفت من أمّي أنّ العقاب وأنثاه يتبادلان الرّقود على البيض.

استكملت حديثها وقالت: للبشر أقارب وجماعات، لكن ما اسم جماعة الإوز [بالإنجليزيّة]؟

تعجّبتُ من سؤالها.

«A gaggle of geese» [سرب إوز]

«ماذا عن جماعة عصافير الدّوري؟»

«A host of sparrows» [سرب عصافير دوريّة]

«سربٌ من طيور البازِ؟»

«A cast» [سرب باز]

ندّت عنها قهقهة. [cast طاقم عمل] كما في البرامج التلفزيونيّة.

«أتعرفين ما اسم جماعة الغربان الشّائعة؟ An unkindness of ravens»

اسم في غاية الغرابة. تأمّلتُ وجه أمّي بحثًا عن الحقيقة، لكنّها بدت في غاية الجديّة. سألتها: ماذا عن جماعة الغربان الأصغر حجمًا؟

فأجابتني: «A murder of crows» [سرب غربان]

كرّرتُ الجواب: «A murder of crows»

خامرني شعور بعودة الأيّام الخوالي، حين كان كلّ شيء بخير. عانقتها، بقوّة، وتمنيت خلود تلك اللحظة؛ اللحظة التي جمعتني وأمي في دفء السرير النحاسي الضخم.

* * *

في الصّباح، أطلت البقاء مع أبي عند طاولة المطبخ مع أمّي. أخبرني أنّ لا بأس في عدم الذّهاب إلى المدرسة اليوم.

أمّي: لا أحتاج إلى جليسة أطفال!

أبي: قال الطّبيب إنّه كان من المفروض أن تبقي في المستشفى.

أكلنا اللحم المُقدّد مع البيض بصمت. في اللحظة التي انتهينا فيها، دفعتنا أمّي نحو الباب. في المدرسة، شغلَت تفكيري؛ لم تكن وحيدة على الأقل في المستشفى. خلال حصّة الرّياضيّات، ركلت تيفاني إفْرس كرسيي. نادتني: «يا حمقاء. السّيد غودان سألكِ سؤالًا». رفعتُ رأسي، لكنّه كان قد ابتعد عنّي. حين رنّ الجرس الأخير، هرعت باتّجاه المنزل. شاهدتُ والدي داخل المنزل. توجّهت إلى الباب الخلفي، ودخلت إلى المطبخ بهدوء.

سمعته يقول: اقترح الطّبيب الاستعانة بممرضة.

- أرجوك! أنا بخير.

- هل من ضير في الحصول على مساعدة في تدبير المنزل؟

أعتقد أنّ تنفّس لِيلي سيتحسّن.

وأنا أعتقد أنّ أبي على حق.

أمّي: بمن ستستعين؟

- سو بوب؟

انتبهت أكثر من انتباهي عندما سمعت اسم والدة ماري لويز.

أمّي: لا أريد أنْ تراني صديقة على هذا الحال.

تراجع أبي عن كلامه: مجرّد اقتراح.

قد تقدر السّيدة غوستافسون على المساعدة. طرقت الباب. انتظرت هذه المرّة الإذن بالدّخول.

- ماما لا تزال مريضة.

- يؤسفني سماع هذا.

- ونحن بحاجة إلى بعض المساعدة في المنزل، لكيلا تنهك

نفسـها. هـل تسـتطيعين...

«ليلـي؟» سـمعت صـوت أبـي خلفـي. «مـاذا تفعليـن؟ يجـب أنْ نعـود إلـى أمّـك».

السّيدة غوستافسون: أعتقد أنّ بإمكاني المساعدة.

أبي: لا داعي لذلك. سنتدبّر أمرنا.

نقّلـت نظرهـا مـن أبـي إلـيّ. «دعونـي أحضّـر العشـاء. سـأجلب بعـض المكوّنـات فقـط». دخلـت وعـادت بخضـراوات وعلبـة قشـطة بيْـن ذراعيْهـا.

علـى طاولـة مطبخنـا، قشَّـرَت البطاطـس بإتقـان لدرجة أنّ القشـر كان شـديد الرّقة.

- ماذا تطبخين؟

- حساء البطاطس والكرّاث.

- ما معنى كرّاث؟

- أكثر نبات يتجاهله النّاس في شرق مونتانا.

قطّعَـت الجـذور الملتفّـة قبـل تنظيـف النّبتـة. رائحتـه كرائحـة بصلـة وديعـة. قطّعـت الكـرّاث وبشـرت القطـع فـي القـدر، فـي زبـدة سـاخنة، فـي أثنـاء غلـي البطاطـس. ثـمّ نقلـت البطاطس والكـرّاث إلـى الخـلاط، وأضافـت بعدهـا كريمـة وصبّـت الحسـاء الأبيـض فـي الأطبـاق.

نادتنا: العشاء جاهز.

مشـى أبـي إلـى جانـب أمّـي، يـداه تتأرجحـان إلـى جانـب خصرهـا كأنّـه ممـرض المستشـفى. كنـت فـي السّـابق أشـيح النظـر إذا قبّـلا بعضهمـا، لكـن الآن أتمنـى لـو يعـودان إلـى حميميّتهمـا.

بعـد صـلاة الطّعـام، تحدّبـت علـى طبقـي وتناولـت ملعقـة مملـوءة فـي

فمي. الحساء طيّب المذاق. أردت تناوله بسرعة، لكنّه كان حارًا.

«الحساء يعلمنا الصّبر» قالت السّيدة غوستافسون. كان ظهرها مستقيمًا هي تقرّب الملعقة من فمها. مددت عمودي الفقري إلى الأمام.

أمّي: لذيذ.

«كان حساء ابني المفضّل». بريق عيني السّيدة غوستافسون خبت لوهلة. «نحتاج إلى مكوّنات بسيطة لإعداد وجبة صحيّة، ومع هذا فإنّ شركات تصنيع الطّعام أوهمت الأمريكيين بعدم وجود وقت للطّبخ. يأكل النّاس حساء بلا نكهة من علب، رغم أنّ الكرّاث المحمّر بالزّبدة أشهى. قال السّيدة غوستافسون:

- شُح الطّعام جعلني أكثر تقديرًا لهذه الوجبة. افتقدت أمّي السّكر أكثر من أي شيء آخر خلال الحرب، في حين أنّي اشتقت إلى طعم الزّبدة.

أبي: أكان الحصول على الطّعام صعبًا؟

- نعم، الطّعام الشّهي كان نادرًا. لم أعرف أي نقاة الطّعام كان أسوأ؛ خبز الباغيت مع نشارة الخشب لشح الطّحين، أم الحساء الذي بلا مذاق المُعد بالماء والكرنب. الطّوابير اللا نهائيّة طلبًا للحم، والألبان، والفواكه، وأغلب الخضراوات، لكنّ البائعين عجزوا عن التّخلي عن الكرنب. وحين عدت إلى مونتانا، أتعرفون أوّل ما وضعته حماتي في كل حساء؟ كرنب!

ضحكنا. أبهجتنا بحديثها عن أمور متفرّقة، وألهتنا عن الهدوء الغريب الذي أطبق على أسرتنا. حين همّت بالمغادرة، قالت أمّي: «شكرًا أوديل». بدت جارتنا مدهوشة. تساءلت إذا كان السّبب

عدم اعتيادها سماع اسمها الأوّل. ما لبثت أنْ قالت: «على الرّحب والسّعة».

* * *

وصلتُ إلى المنزل مع ماري لويز، وسمعنا ضحكات مصدرها غرفة والديّ. مشت أوديل بكعبها العالي نحو الكرسي الهزّاز المُجاور للسّرير. غُسل شعر أمّي حديثًا ثمّ سُرّح، ووضعت أحمر شفاه قانيًا كالذي تضعه أوديل. كانت جميلة.

ماري لويز سألت أمّي: ما المضحك؟

«أخبرتني أوديل أنّ أهل زوجها [الأمريكيين] واجهوا صعوبة في نطق اسمها»

- نادوني باسم أورديل!

«الزّواج: على الحلوة والمرّة، ومهما كان والدَا الزّوج معتوهيْن» قالت أمّي، ثمّ ضحكتا.

مع خروجنا أنا وماري لويز إلى غرفتي لندرس، سمعنا أمّي تقول: اسمحي لي بهذا السّؤال: أين قابلتِ زوجك؟

- في مستشفى في باريس. في تلك الأيّام، على المجنّد الحصول على موافقة رئيسه للزّواج. رفض رئيسه، فتحدّاه للعبة الكريبج - سنتزوّج إذا فاز، أمّا إذا خسر فسينظّف نونيّة السّرير شهرًا كاملًا.

- كان ذا عزيمة!

صارت كلماتهما همسات، ولهذا اقتربت مع ماري لويز من الباب.

واصلت أوديل كلامها: لم يخبرني، وحين وصلت، كانت هناك

فضيحة. أردت العودة إلى فرنسا، لكنّي لم أملك ثمن تذكرة العودة. اعتقدت أنّ النّاس سيسامحون... لا أنّي بحاجة إلى مغفرتهم!

همست ماري لويز: أي فضيحة؟ أكانت أوديل إحدى راقصات الكنكان الفرنسيّة؟ ألهذا لا يكلّمها النّاس؟

تأفّفت ثمّ قلت: هي من ترفض الحديث معهم.

***

أمضت أمّي الشّتاء في النّوم. استلقيت إلى جانبها بعد المدرسة وحدثتها عن يومي. كانت تومئ دون فتح عينيْها. لم يفارقها أبي وهو يحمل البابونج في كوبها الخزفي المفضّل عندها. وصف الطّبيب ستانشفيلد مزيدًا من الحبوب، لكنّ حالها لم تتحسّن.

«لماذا لا تستطيع النّهوض؟» سأله أبي. توجّهنا نحن الثّلاثة إلى مدخل المنزل الرّئيس. «حتّى أبسط مجهود ينهكها».

الطّبيب: تضرّر قلبها كثيرًا. أيّامها معدودات.

أبي: أشهر؟

- أسابيع.

وضع أبي ذراعيْه على كتفي عند ذكر الحقيقة المُرّة.

***

أصرّ والداي على أنّ الغياب عن المدرسة مرفوض، لكنّ أبي أخذ إذنًا ليغيب عن عمله ليلازم أمّي ولا يفارقها أبدًا.

«أنتَ تخنقني!» سمعتها تقول له. لم يتشاجرا بتاتًا، لكنّه الآن لا يحسن فعل شيء. انزعجت، فواجهت صعوبة في التّنفّس. خاف من ارتكاب خطأ آخر، فعاد إلى عمله، يخرج بهدوء صباحًا ويعود بعد حلول الظّلام. لكيلا يزعجها، نام على الأريكة. ليلًا، عندما

يعـم الهـدوء المنـزل، سـمعت أنيـن أمّـي. أذعرنـي كلّ استنشـاق، كلّ سـعلة، كلّ تنهيـدة. تكومـت فـي سـريري، وخشـيت الذّهـاب لتفقـد حالهـا. بعـد إخبـار أوديل عـن سـعال أمّـي الشّـديد، شـعرت بتحسّـن. عرفت أوديل مـا يجب فعله. حتّـى أنّهـا حرّكت سـريرًا صغيـرًا لتنـام فيـه إلـى جـوار أمّـي. عندمـا اعترضـت إمّـي، طمأنتهـا أوديـل أنّ لا مشـكلة فـي هـذا الفعـل، وقالـت: نمـت مـع عشـرات الجنـود.

صـاحت أمّي وعينها تغمز باتّجاهي: أوديل!

- إلى جوارهم في جناح المشفى، خلال الحرب.

عنـد التّاسـعة مسـاء، فُتـح بـاب المنـزل الخلفـي. عـاد أبـي إلـى المنـزل. قامـت أوديـل مـن السّـرير إلـى المطبـخ. علـى أطـراف أصابعـي خلفهـا، التصقـت بالألـواح الخشـبيّة علـى جـدار.

أوديل: زوجتك تحتاج إليك، وابنتك أيضًا.

- تقـول برينـدا أنّهـا تشـعر بتعاسـة شـديدة وتوشـك أن تمـوت إذا رأتنـي.

- ألهذا ترفض زيارة صديقاتها؟

- لا يمكنهـا تحمّـل العَبـرات، حتّـى لـو ذُرفـت مـن أجلهـا. ترفـض التّعاطـف معهـا. أردت أنْ أكـون إلـى جانبهـا مـن أجلهـا، لكنّـي أومـن الآن أنّ مـن الأفضـل منحهـا البعـد الـذي تريـده.

«أتمنّـى ألّا تنـدَم» قالـت السّـيدة غوسـتافسـون لأبـي بنبـرة فيهـا لطـف كنبـرة صـوت أمّـي.

- - هذا قرارها.

فـي آخـر الـرّواق، سـعلت أمّـي. أكانـت مسـتيقظة؟ هـل تحتـاج إلـيّ؟

هرعت نحو الغرفة. فزعت فجأة، توقّفت عند حافة السّرير.
ناداها أبي: بريندا، عزيزتي؟

دفعتني أوديل نحو أمّي، لكنّي قاومت، كتفاي تقاومان راحتي يديْها. اقتربت من أمّي. خفت من مسك يدها، وخفت من عدم فعل ذلك. ضمّتني، لكنّي تصلّبت بين ذراعيْها.

قالت بهمس: أيام عمري معدودات. كوني شجاعة...

حاولت أن أقول لها إنّي سأفعل، بيْد أنّ الهلع نهب صوتي. بعد لحظة طويلة، أبعدَت جسدي عن جسدها ونظرت إلي. عالقة في نظرة أمّي الحزينة، تذكّرت أشياء قالتها: ينام الأطفال بالحب. سرب إوز، سرب غربان. النّاس مرهقون، لا يعرفون ما عليهم فعله أو قوله، فلا تعاتبيهم، لأنّك لا تعرفين ما في قلوبهم. أردت أنْ أسمّيكِ روبن [أبو الحناء] لكنّك لِيلي. آه يا لِيلي.

5

أوديل

باريس. مارس 1939

اتّصلت الآنسة ريدر. أخبرتني ماما مع دخولي أنا ورِمي من الباب: تريد مقابلتك.

التفتّ إلى رِمي، رأيت بصيص أملي واطمئناني منعكسيْن في عينيْه.

ماما: هل أنتِ متأكّدة من أنّ قبول الوظيفة فكرة جيّدة؟

- متأكّدة، ثمّ عانقتها.

أعطاني رِمي حقيبته الخضراء. «كي تجلب لك الحظ، ولتجلبي فيها الكتب إلى المنزل».

أسرعت إلى المكتبة قبل أنْ تغيّر الآنسة ريدر رأيها، مشيت في الفناء وارتقت السّلالم اللولبيّة، ومشيت حتّى توقّفت عند باب مكتبها، حيث جلست تراجع وثائق والقلم الفضّي بيدها. عيناها مرهقتان، تلاشى أحمر شفاهها قبل وقت طويل، بدت شاحبة. كانت بعد السّابعة مساء. أشارت لي لأجلس.

«أوشكت أن أنتهي من الميزانيّة». أوضحت أنّ المكتبة مؤسّسة خاصّة، ولهذا لا تستلم دعمًا حكوميًا؛ تعتمد على الأوصياء والمتبرّعين في كل شيء؛ من شراء الكتب إلى دفع ثمن التّدفئة.

«لكن لا تقلقي بهذا الشّأن» أغلقت الملف.

- أثنت البروفيسورة كوهن عليكِ، وقد أبهرتني شخصيًا. لنتكلّم عن الوظيفة. الحقيقة هي أنّنا عيّنا مرشحين لم يتمكّنوا من الاستمرار في الوظيفة لسبب أو لآخر، ولهذا طلبنا من موظّفينا توقيع عقد عمل مدّة سنتين.
- ما سبب عدم استمرارهم في العمل؟
- منهم من كان أجنبيًا، وفرنسا بعيدة جدًّا عن موطنه. ومنهم من واجه صعوبة في التّعامل مع العامّة. كتبتِ في رسالتكِ أنّك تعدّين المكتبة ملاذًا آمنًا، ولهذا على العاملين فيها أنْ يبذلوا جهدهم لتبقى كذلك.
- يمكنني تولّي المسؤوليّة.
- الأجر متواضع. هل لديك مشكلة في هذا؟
- لا بتاتًا.
- أمرٌ آخر. الموظّفون يتناوبون للعمل في نهاية الأسبوع.

لا حضور للقداس ولا مقابلة الخاطبين؟ قلت لها: «أريد العمل أيّام الأحد».

قالت بجديّة: إذن فالوظيفة لكِ.

قفزت فرحًا: حقًّا؟

- حقًّا.
- أشكركِ. لن أخذلكِ.

غمزَت بشغب: يمنع ضرب رؤوس القراء بالكتب!

ضحكت: لن أعدك بما أعجز عن فعله.

«ستبدئين غدًا» قالت، ثمّ عادت إلى أوراق الميزانيّة.

خرجت من المكتبة مسرعة على أمل اللحاق برِمي قبل ذهابه إلى اجتماعه السّياسي، اصطدمت به على الممر الجانبي.

- جئت!

سألني: ما النّتيجة؟ طال بقاؤك هناك.

- عشرون دقيقة.

قلت بتذمّر: لا فرق.

- حصلت على الوظيفة!

- قلت لكِ ستفوزين بمبتغاكِ.

- حسبتك في الاجتماع.

- هناك قضايا أهم.

- أنت رئيسهم. يحتاجون إليك.

وضع رجله على رجلي. «وأنا أحتاج إليك. لا وجود لي، دونك»

***

في المنزل، دخلت إلى غرفة الجلوس، حيث كانت أمّي تحيك وشاحًا لي.

«ماذا حدث؟» وضعت إبرتي الحياكة جانبًا.

«أنا أمينة مكتبة!» اقتربت منها ورقصت الفالس معها في الغرفة.

واحد-اثنان-ثلاثة.

الكتب-الاستقلاليّة-السّعادة.

قالت لي: مبارك يا ابنتي، سأقنع أباك، أعدك.

بهدف الاستعداد للعمل، ذهبت إلى غرفتي لمراجعة ملاحظاتي عن ترتيب ديوي العشري. أمس، في حدائق لوكسمبورغ، رأيت

الكثير من 598 (الطّيور). يومًا ما، سأتعلّم 469 (البرتغاليّة)... هل هناك رقم لموضوع الحب؟ لو حددت له رقمًا، فماذا سأختار؟

فكّرت في الخالة كارو – هي أوّل من عرّفني على ترتيب ديوي العَشري. كم أحببت الجلوس على حجرها خلال ساعة القصّة في طفولتي! بعد سنوات، في التّاسعة من عمري – عرّفتني على بطاقات التّصنيف، قطعة خشب غريبة فيها أدراج صغيرة، على كلّ درج حرف.مكتبة .. سُر مَن قرأ

«داخله ستجدين أسرار الكون». فتحت الخالة كارو درج حرف النّون، فشاهدت عشرات البطاقات الورقيّة. «على كل واحدة منها معلومات ستفتح عوالم كاملة. لمَ لا تلقين نظرة، ستجدين ما يسرّك بلا شك».

حدّقت إلى داخل الدّرج، قلّبت البطاقات، فوجدت المسرّة في بطاقة كتب عليها اسم حلوى. «نوجة!»

علّمتني كيف أعثر على الدّليل التّالي، رقم استدعاء سيقودنا إلى القسم، إلى الرّف، إلى الكتاب المقصود. مثل رحلة البحث عن كنز!

تمتعت الخالة كارو بأصغر خصرٍ، وأكبر عقلٍ. مثل أمّي، عيناها زرقاوان، لكنّ عيني أمّي أصبحتا باهتتين كأحد قمصان أبي، أمّا عينا الخالة كارو فكانتا تلمعان بالحياة. بصفتها قارئة، كانت تقرأ في كل المجالات؛ العلوم، والرّياضيّات، والتّاريخ، والمسرحيّات، والشّعر. رفوف كتبها مكدسة، ولهذا فإنّ على تسريحتها خليط من بودرة الخد الورديّة ودوروثي باركر، الماسكرا ومونتين. في خزانتها: هوراس وأحذية ذات كعوب عالية، جوارب وشتاينبك.

عشقها للكتب وعشقها لي أشبع كياني كرائحة العنبر من عطر شاليمار التي رشته خلف آذاننا.

ذكرياتي المتعلّقة بالخالة كارو ذكّرتني بسبب حاجتي إلى الوظيفة.

***

في يومي الأوّل، شعرت بتوتّر أكبر من الذي شعرت به في المقابلة. ماذا لو خذلت الآنسة ريدر؟ ماذا لو سأل أحدهم أسئلة لا أعرف إجابتها؟ ماذا لو لم تفارقنا الخالة كارو؟ كنت سأخبرها ألّا تزورني في اليوم الأوّل، لكنّها ستأتي على أي حال. كانت ستأتي محملة بكتب شيلي وبليك. كانت لتغمز لي، وكان توتري سيختفي حين أتذكّر ما ستقوله: الإجابات في المكتبة، كل ما على المرء فعله هو البحث عنها فقط.

«دعيني أعرفك إلى زملائك» قالت المديرة بنشاط، وقدّمت بورِس نتكايف، رئيس أمناء المكتبة من أصول روسية-فرنسية. بهي الطّلعة كعادته في بدلته الزّرقاء والبدلة. عند مكتب الإعارة، طابور بشر يمرّون أمامه كأنّهم أمام كاهن الأبرشيّة؛ لقربان مقدّس أو موضوع خاص. بريق عينيْه لم يخفت، حتّى عند استماعه إلى قصص مستعيري الكتب المستفيضة. عرف من أيْن يشتري أرقى الثّياب («رأي البائع في بازار قصر البلديّة سديد») والخيول. قالت السّيدة ترنبل إنّه كان أرستقراطيًّا امتلك إسطبل خيولٍ أصيلة. أمّا السّيد بريس-جونز فقال إنّ بورِس كان في الجيش الرّوسي. شائعات كثيرة كالكتب في المكتبة.

عُرف عن بورِس عشقه للكتب. كان يعرف أي كتاب سيفطر قلب قارئه، وأي كتاب قراءته تلائم يومًا صيفيًا، وأي رواية تلائم فرارًا جسورًا. المرّة الأولى التي عدت فيها إلى المكتبة دون الخالة كارو، بعد عشرة أعوام، الرّفوف العالية صارت في متناول يدي. العناوين بارزة على كعوب قصص لم تكلّمني كما حدث سابقًا. انتبهت لدموعي وأنا أحدّق إلى كتب مشوّشة في ناظري.

بقلق، اقترب بورِس منّي. قال: ألم تحضر عمّتكِ؟ لم نرها منذ مدة.

- لن تعود.

اختار كتابًا من الرّف. «إنّه عن العائلة والفقد، وكيف نعثر على البهجة حتّى في أوقات الحزن».

أنا لا أهاب العواصف، لأنّي أتعلّم الإبحار بسفينتي.

نساء صغيرات لا تزال إحدى رواياتي المفضّلة.

الآنسة ريدر: بدأ بورِس العمل هنا عاملًا -شبه متدرّب- وهو محيط بأدق خفايا المكتبة.

رحّب فيّ: أأنت أمينة مكتبة؟

أومأت بالإيجاب، يسرّني أنّه تعرف على عملي. قبل أنْ أتمكّن من الإجابة، وجّهنا إلى قاعة القراءة حيث اقتربنا من امرأة تكتب قرب النّافذة. شعرها الرّمادي منسدل على وجهها، ونظارتها السّوداء متّزنة على طرف أنفها. على الطّاولة أمامها، كتب عن إنجلترا الإليزابيثيّة. عرّفتني الآنسة ريدر على المموّلة، الكونتيسة كلارا دي شامبرون. أعرفت اسمها. أنهيت مؤخّرًا قراءة رواية **مداعبة الأرواح**. إنّها كونتيسة وكاتبة حقيقيّة.

المديـرة: أتبحثيـن عـن كتـاب آخـر عـن الشّـاعر؟ لـمَ لا تسـتخدمين مكتبـي؟

الكونتيسـة: لا داعـي لمعاملـة خاصّـة! أسـتعير الكتب كأي شـخص آخـر.

لهجـة الكونتيسـة لـم تكـن فرنسـيّة حتمًـا، ولا بريطانيّـة. هـل يوجـد كونتيسّـات فـي أمريـكا؟ سـأحل اللغـز فـي يـوم آخـر. رافقتنـي المديـرة نحـو قاعـة الدّوريـات حيـث سـأعمل. فـي الطّريـق، عرفتنـي إلـى سـكرتيرتها الآنسـة فريخـارت (فرنسيّة-سويسـريّة)، المحاسـبة الآنسـة وِد (بريطانيّـة)، ومؤرشـف الكتـب بيتـر أوسـتينوف (أمريكـي).

تفحّصـت الأرفـف الممتـدة التـي تحمـل خمسـين صحيفـة يوميّـة وثلاثمئـة دوريّـة مـن أمريـكا، وإنجلتـرا، وفرنسـا، وألمانيـا، وبـلاد قصيّـة كاليابـان. حيـن أخبرتنـي الآنسـة ريـدر أنّـي سـأكون مسـؤولة أيضًـا عـن سـبّورة الإعلانـات، والنّشـرة الإعلاميّـة، وعمـود أخبـار المكتبـة الأمريكيّـة فـي باريـس فـي صحيفـة **ذاهيرالد** فزعـت لشـكّي فـي قدرتـي علـى تولّـي مسـؤوليّة كل هـذا.

قالـت لـي: بـدأت عملـي فـي هـذا القسـم، وانظـري إلـى المنصـب الـذي وصلـت أشـغله الآن.

اسـتمتعنا بلحظـة تأمّـل مشـتركة تأمّلنـا فيهـا روّاد المكتبـة وهـم يقـرؤون بانكبـاب علـى كتـب يحملونهـا بيـن أيديهـم باحتـرام.

اقتـرب السّـيد بريس-جونـز. تخيّلتـه قـارورة رش ترتـدي ربطـة عنـق. رافقـه أحـد روّاد المكتبـة شـعره أبيـض أشـعث يشـبه حيـوان الفـظ. «مرحبًـا أيّهـا السّـيدان، مـن فضلكمـا رحّبـا بالموظّفـة الجديدة فـي طاقمـي عملنـا» قالـت الآنسـة ريـدر قبـل أنْ تعـود إلـى عملهـا.

قلت للسيّد بيرس-جونز: شكرًا على النّصيحة بخصوص التّجهيز للمقابلة.

قال: «يسعدني حصولك على الوظيفة» ربطة عنقه تهتز. أشار إلى صديقه، ثمّ أضاف: «هذا الصّحفي المتآمر هو جوفري دو نيرسيات. يعتقد أنّ نسخة المكتبة من جريدة ذاهيرالد ملكه».

السّيد دو نيرسيات: أتنشر الأكاذيب مجدّدًا أيّها الكهل؟ هذا ما تتقنونه أيّها الدّبلوماسيّون.

مازحتهم بقولي: أنا أوديل؛ أمينة مكتبة وحكم الملعب.

السّيد بريس-جونز: أين صافرتك؟ ستحتاجين إلى واحدة معنا.

تفاخر دو نارسيات: شجاراتنا أسطوريّة.

- الشّخص الوحيد الذي يمكنه رفع صوته أعلى من أصواتنا هي الكونتيسة.

- التي علمنا حين تمكّنت من دس نفسها بيننا، وأصرّت على نقل اختلافاتنا في الخارج. حدّق الرّجل الفرنسي إلى كلارا دي شامبرون.

- هدوء! أرعبتني! كادت تهمس شيئًا في أذني.

ابتسم دو نيرسيات ابتسامة عريضة: بإمكان تلك الغيداء أخذي إلى أي مكان تريد.

- لا أعتقد أنّ زوجها سيوافق.

- زوجها جنرال! احذر!

واصل الثّنائي التّشاحن؛ تركت الصّحف اليوميّة، وحاولت التّعرف على المجلّات. سرعان ما انهمكت في قوائم المحتويات، فكري ممتلئ بالتّاريخ، والتّأنّق، والأحداث الجارية.

- يا آنسة؟ أوديل؟

تهيأ لي سماع اسمي في أثناء انهماكي في العمل.

- من فضلك يا آنسة؟

شعرت بيد على كتفي. رفعت ناظري فشاهدت پول.

بدا مستعجلًا في بدلته الرّسميّة. طرفا ياقته مدبّبان كجناحي السّنونو. شرطي يتنقّل على درّاجة. معطفه لفت الانتباه إلى عرض منكبيْه. لا بدّ أنّه قد جاء من عمله مباشره.

ذات مرّة، حين كنت أقرأ في يوم تعصف فيه الرّيح في الحديقة، حرّكت الرّياح الصّفحات فقدت الصّفحة التي كنت أقرؤها. جعل پول قلبي يرفرف كتلك الصّفحات.

ثمّ خطرت في ذهني فكرة مرعبة: ماذا لو أنّ أبي أرسله؟

سألته: ماذا تفعل هنا؟

لم آت بسببك.

كذبت وقلت: لم أفكر في هذا.

- يسأل سيّاحٌ كثر رجال الشّرطة عن الاتّجاهات. أحتاج إلى كتاب لتحسين إنجليزيّتي.

- هل أخبرك أبي عن حصولي على الوظيفة؟

- سمعته يتذمّر عن نساء معتدّات بأنفسهن.

قلت له على نحو لاذع: تبعت طرف خيط. سيجعلك عمّا قريب مسؤول تحرٍّ. كما تريد تمامًا.

«لا تعرفين ماذا أريد». أخرج حزمة ورود من حقيبة مكتبيّة. «ورود تعبّر عن أمنيتي لك بيوم جيّد في اليوم الأوّل».

كان عليّ تقبيله على وجنتيْه، لكنّي شعرت بالحرج فدفنت وجهي بين الأزهار. زهوري المفضّلة، نرجس بريّ يشير إلى فصل الرّبيع.

- هل أساعدك في إيجاد بعض الكتب؟

«العثور عليها سيكون تدريبًا جيّدًا». رفع بطاقة الاستعارة من المكتبة. «أخطّط لقضاء بعض الوقت هنا».

ثمّ توجّه نحو قاعة المراجع وتركني بلا هدف في الممر. بطاقته حديثة الإصدار. لعلّه جاء من أجلي.

خلال فترة الصّباح، ينتظر معظم الرّاغبين في الاستعارة بهدوء في أثناء مساعدتهم على العثور على الدّوريات المطلوبة؛ لم يتذمّر إلّا شخصٌ واحد. «لماذا لا يهتم أي شخص بصحيفة **ذاهيراد**؟». عثرت على الجريدة فيما بعد مطويّة تحت حقيبة ملفات السّيد دو نيرسيات.

مشاجرة أخرجتني من قاعة الدّوريّات إلى مكتب الإعارة، حيث لوّحت امرأة إلى جانبه بكتاب أمام وجه بورِس، وقالت بصراخ إنّ على المكتبة أنْ تتوقّف عن إعارة الرّوايات «اللاأخلاقيّة»، حين رفضنا الرّقابة على الكتب، استشاطت غضبًا.

قال لي: لا تتفاجئي. يحدث هذا مرّة أسبوعيًا على الأقل. لا بدّ من وجود شخص يخال أنّ مهمّته الذّود عن الأخلاق.

- من باب الفضول، ما عنوان الكتاب الذي كانت تقصده؟

- **ستَدْ لونيغان**[1].

---

(1) -ثلاثيّة للرّوائي جيمس فارل. (المترجمة)

- سأحرص على قراءتها.

ضحك، وشاهدته، ولم أستطع منع نفسي تأمّل غرابة -وجمال- أنّنا الآن زميلان.

قال: لدي شيء لكِ.

«حقًا؟» تمنيت لو أنّه قد اختار رواية لي. وبدلًا من ذلك، ناولني قائمة فيها سبعون كتابًا عليّ تجهيزها لراغبين في الاستعارة من خارج البلدة. طالعت ساعتي. الثّانية مساء. انشغلت كثيرًا لدرجة نسيان الغداء. فات الأوان الآن. من صيف: 813، إلى كحول: 841. رحلة البحث عن الكتب أخذتني إلى ثلاثة أدوار من أكوام الكتب. عند السّادسة مساءً، شعرت بألم في رجلي ورأسي. لم أشعر بإرهاق كهذا من قبل، ولا حتّى خلال أسبوع الاختبارات. قابلت اليوم عشرين شخصًا وأعجز عن تذكّر اسم واحد. تكلّمت بالإنجليزيّة طوال اليوم، وأجبت عن عشرات الاستفسارات: (هل صحيح أنّ الرّجال الفرنسيين يأكلون أقدام الضّفادع؟ وإذا كان هذا صحيحًا، فماذا يفعلون ببقيّة أجساد الضّفادع؟ هل يمكنني الدّخول إلى أقسام الأرشيف؟ أين دورة المياه؟ ماذا قلتِ يا فتاة؟ ارفعي صوتك!). مع انتهاء مدة عملي، تخلّت اللغة عنّي. كرواية يفتحها المرء فلا يجد إلا صفحات بيضاء خاوية من الكلمات.

ممسكة النرجس البرّي، خرجت من المكتبة إلى برد الليل القارس. غطّى الثّلج الطّريق؛ ما جعله زلقًا. قروح قدمي تنبض. طريق العودة إلى المنزل بدا أنّه سيستغرق خمسة عشر عامًا عوضًا عن خمس عشرة دقيقة. بعرج مشيت، لاحظت في الجانب الآخر من الطّريق، تحت نور عمود الإنارة الخافت، سيارة سوداء توقّفت. ترجّل أبي منها وفتح باب الرّاكب.

«أوه، بابا، أشكرك». ارتحت للرّجوع إلى اللغة الفرنسيّة، للاسترخاء على المقعد، للجلوس لأوّل مرّة منذ طعام الإفطار.

«هل أنتِ جائعة؟» قدّم لي علبة معجنات. فتحتها، تنشّقت رائحة كعك (فينانسيغ) ثمّ قضمت قضمة. تفتت الكعك في فمي. أغمضت عيني ومضغت ببطء.

سألني: أأنت بخير؟ يومك الأوّل وأنت مرهقة بالفعل. لديك صداع، أليس كذلك؟

- أنا بخير يا بابا.

قال بلطف وحنان: في مثل عمرك. كنّا قد نجونا أنا وأمّك من الحرب حديثًا، وكنّا ننتحب لخسارة الأصدقاء والعائلة. أنتِ في العشرين فقط، ونريدك أنْ تستمتعي بشبابك، أن تجدي حبيبًا، أنْ تذهبي إلى حفلات الرّقص، لا أنْ تُستعبدي في مصنع كتب.

«بابا، من فضلك، في وقت آخر...». لا يتكلّم أبي إلّا عن الحرب المنصرمة؛ دبّابات، خنادق، غاز الخردل السّام، وجنود مُثّل بهم.

- حسنًا، سنتكلّم عن أمر آخر. الآن، أعرف أنّك تعملين أيّام الآحاد، ولهذا دعوت زميلًا لتناول العشاء يوم الأربعاء. قال إنّه يحب القراءة!

6

أوديل

كلّ صباح قبل فتح أبواب المكتبة لمرتاديها، زرت قسمًا مختلفًا. الاثنين، كان لدي موعد في المحاسبة، حيث السّيدة وِد، مسؤولة الحسابات، المعروفة بتفكيرها الثّاقب وكعكاتها الشّهيّة. حين مالت إلى سجل الحسابات، رأيت ثلاثة أقلام رصاص مثبّتة في شعرها الذي على شكل كعكة. بعد أنْ شرحت صفوف المصروفات - كلّ شيء من الفحم والحطب، إلى الكتب وصمغ الأغلفة، سألتها إذا كان بإمكاني إجراء مقابلة معها. لدي فكرة للنّشرة الشّهريّة التي أوكلت الآنسة ريدر مسؤوليتها إليّ. إضافة إلى المراجعات العلميّة المعتادة، وقائمة الكتب الأكثر قراءة، أردت إضافة تفاصيل فيها خصوصيّة أكبر عن مستعيري الكتب وفريق العمل.

سألت والمفكّرة بين يدي: أي نوع من القرّاء أنتِ؟

- أحببت مادّة الرّياضيّات في المدرسة. أفهم الأرقام أكثر من البشر، ولهذا كتبي المفضّلة من تأليف الإغريق القدماء: فيثاغورث وهرقليطس. ما زلنا نستخدم نظرياتهم؛ أفكارهم.

«أنا مختلفة عن بورِس والآنسة ريدر؛ لا أجيد التّعامل مع النّاس». أدخلت قلمًا رابعًا في شعرها، «لكنّي أتمنّى أنّ مساهمتي البسيطة هنا مهمّة. لأكثر من عقد كامل، ملأت دفاتر كاملة بحكايات متبرّعين وموظّفين واسعي الاطّلاع الذين يعملون ساعات طويلة، إلّا أنّي أكتب سطورًا رأسيّة لا أفقيّة».

مقابلتها كانت أشبه بمشاهدة تفتّح زهرة: أينعت وجنتاها المتورّدتان بالشّغف. قلت لها: «أشكركِ. سيحب القرّاء إجاباتك، وأنا أتوق إلى استكشاف هرقليطس».

استمتعت أيضًا بالتّعرّف إلى زملائي. أمّا يوم الثّلاثاء، فقضيته مع موظف الأرشيف بيتر، الوحيد الذي تمكّن من الوصول إلى الرّفوف العليا بسبب طوله. من خلال ترتيب الكتب في العربة بأرقام حسب نظام ديوي العشري، وضع عشرة كتب خلال وضعي كتابيْن. امتلك البنية الجسديّة لملاكم، لكن حين سمعنا صوت مدام فروت فوغورن الوقورة بين الكتب: «بيتر العزيز، أوه بيتر» هرب إلى دورة المياه ليتجنّب هذه المتيّمة.

في يوم الأربعاء، توجّهت إلى قاعة الأطفال، حيث الرّفوف المنخفضة المثبّتة إلى الجدران، والطّاولات والكراسي الصّغيرة أمام المدفأة. رغم أنّي لم أقابل أمينة قسم الأطفال – موريل جوبر، شعرت أنّي أعرفها، بسبب إمضائها الأنيق الذي شاهدته على بطاقات الاستعارة في الكتب التي استعرتها. خلال الأسبوع الماضي وحده، تغلّبت عليّ بقراءة: **عزيزتي أنطونيا** [ويلّا كاثر]، **بيليندا** [لماريّا إيدجوورث]، **والرّواية المشوّقة لحياة أولادا إكويانو** [أو سيرة غوستافوس فازا الإفريقي للمناضل أولادا إكويانو]. بتأمّل كل قراءاتها، تخيّلت سيّدة قد غزا الشّيب مفرقها، لكنّني فوجئت عندما شاهدت فتاة في مثل عمري تراقبني باهتمام. حتّى مع الجديلة السّوداء التي تطوّق رأسها كتاج، كانت قصيرة القامة.

– آنسة جوبر؟

طلبت منّي أن أناديها بِتّسي، كما يفعل الجميع، منذ أنْ حدجها أحد مستعيري الكتب من تكساس بنظرة ثمّ صاح: «أنت ضئيلة البنية!». قالت أنّها تمنّت التّعرف إليّ مذ لاحظت اسمي مكتوبًا على بطاقات الاستعارة في رواياتها المفضّلة.

«نحن توأم في الكتب» قالت بنبرة قاطعة يمكن استخدامها لقول: «السّماء زرقاء» أو «باريس هي أفضل مدن العالم». فضّلتُ استخدام «توأم روح»، لكن يمكنني الإيمان بتوأم الكتب، روحان يجمعهما عشق الكتب. قدّمت لي الإخوة كارامازوف. قالت: «انتحبت حالما أنهيت الرّواية». صوتها مفعم بعاطفة جيّاشة. «أولًا، لأنّي كنت سعيدة لقراءتي إياها. ثانيًا، لأنّ القصّة آسرة. ثالثًا، لأنّي لن أتمكّن من تجربة استكشافها مرّة أخرى».

قلت لها: دوستويفسكي هو كاتبي الرّاحل المفضّل.

- كاتبي المفضّل أيضًا [من بين الكُتّاب الأموات]. من هو كاتبك المفضّل من بين الأحياء؟

أجبتها: زورا نيل هيرستون. المرّة الأولى التي طالعت فيها فصول كتاب **أعينهم كانت تراقب الرّب**، التهمت الكلمات التهامًا. احتجت إلى معرفة ما سيحدث فيما بعد؛ هل ستتزوج جاني الرّجل الخاطئ؟ هل سيرقى تي كيك إلى مستوى آمالي لجاني؟ إذن، مع الصّفحات القليلة الباقية، بدأت أمقت حقيقة أنّ هذا العالم الذي أحببت على وشك الفناء. لم أكن مستعدة لتوديعه. قرأت الرّواية بتمهل، للاستمتاع بالمشاهد فقط.

أومَأت بالإيجاب، وقالت: أفعل ذات الأمر، لجعل قراءة كل صفحة أطول قدر الإمكان.

- أنهيت الرّواية خلال أربعة أيّام، لكنّي أبقيتها معي أسبوعيْن كامليْن. في اليوم الموعود، وضعتها على طاولة الاستعارة، وظلّت يدي على الغلاف، غير مستعدّة لمفارقة الرّواية. وجد بورِس ثلاث رواية أخرى للأديبة هرستون.
- قرأت بنهم تلك الكتب أيضًا كما تلتهم كعكة الشوكولاتة، كما يلتهم الحب. شغَلت شخوص الرّواية فكري لدرجة أنّها أصبحت حقيقيّة. شعرت أنّي أعرف جاني، أنها قد تدخل المكتبة يومًا ما وتدعوني إلى شرب القهوة.

بِتْسي: شعرت بذات الأمر مع كل شخصيّاتي أيضًا.

اقتربت أمٌ منّا. «اختار ابني هاتين». رفعت قصّتيْن، ثمّ أضافت: لكن يظهر أنّ... صفحاتها قُلّبت كثيرًا.

أجابت بِتْسي: قصّتان حصدتا إعجاب قرّاء كُثر. تتوافر لدينا كتب جديدة على رف «كتب وصلت حديثًا» إذا أردتِ.

حين نطقت بتسي كلمتيّ: «لنعد إلى العمل»، وقادتهما إلى ذلك الرّف، اختلستُ النّظر إلى قاعة المراجع، على أمل رؤية پول، لكنّه ليس موجودًا.

بإحباط، توجّهت إلى مكتبي حيث وجدت مستعيرة تضرب الأرض بقدمها، تريد مجلّة هاربرس بازار. وبّختني السّيدة سيمون: أين ذهبتِ؟

حين سلّمتها العدد الأخير الذي كان لا يزال بتغليفه البنّي، انفرجت أساريرها، وأسرّت لي أنّها لا تواكب الموضة في وطنها.

طقم أسنانها يهتز وهي تتكلم، أوضحَت أنّ كل ما تملكه - معطف الفرو الذي ورثته من عمّة فارقت الحياة، والأسنان

الصّناعيّة التي امتلكتها حماتها - استفاد منها آخرون قبلها. لكنّها هنا أوّل من يستمتع بمستجدّات الموضة، رغم عدم وجود شيء يمكنها تحمّل تكلفته. «أو على قياسها» كما قالت بحسرة، يدها السّمينة تشير إلى جسدها الضّخم. استقرت إلى جانب البروفيسور كوهِن.

شاهدَت بورِس ثمّ قالت: يقولون إنّ أسرته قد فقدت ثروتها خلال الثّورة الرّوسيّة. بدأ من الصّفر هنا في فرنسا. لا يملك شروى نقير.

قالت البروفيسورة: مهما كانت ظروفه، هو من الأشراف.

- زوجته أميرة، أو كانت أميرة. هي الآن محاسبة. سقوط العمالقة!

- تقول هذا من تعيل نفسها.

أقبلت كلارا دي شامبرون تحمل أوراقًا. «بمناسبة الحديث عن السّمو» ضحكت السّيدة، «لا توجد أي كونتيسة في أوهايو».

هناك نحلة في قبّعتك اليوم، ثائرة. كلارا وصيّة ممتاز، تعرف كيفيّة جمع الأموال. لولاها ما كنّا سنجلس هنا. بما أنّك شغوفة بالموضة، سأقول هذا: الاستهزاء بالآخرين مرفوض.

7

مارغريت

باريس، مارس 1939

ربّتت مارغريت على عقدها المصنوع من اللؤلؤ بتوتر، وتردّدت في الدّخول إلى المكتبة الأمريكيّة. الصّمت مطبق كأنّها في كاتدرائية. مارغريت ليست أمريكيّة قطعًا، ولم تكن مهتمّة بالكتب. لكن بعد أربعة أشهر في باريس، اشتقت إلى التّكلّم بالإنجليزيّة الإنجليزيّة بأي طريقة. اللغة الفرنسيّة غامضة إلى حد أنّها عانت الأمرّين في المحلّات، وعند الكوافيرة، وفي محل المعجّنات. لم يتكلّم أي شخص في هذه الأماكن بالإنجليزيّة. اقتصر تعاملها معهم على الإشارات؛ رفعت إصبعها وأشارت إلى الكرواسون، ثمّ أومأت بالإيجاب، إذا فهم البائع قصدها، أو تهز كتفيْها بالرّفض إذا لم يفهم.

في المنزل، تكلّم زوجها لورنس معظم الوقت. المربية ترعى كرستينا، وجيمسون ينظّف الشّقّة بكفاءة كما فعل في لندن. لم يحتج أي شخص إليها. بالكاد تكلّمت.

خلتها ستحب باريس. الأزياء النّسائيّة، الملابس الدّاخليّة، العطور. لكنّ التّسوّق وحده لم يكن ممتعًا؛ لا صديقات يمتدحن قوامها إذا تأنّقت. تاقت إلى رأي أمّها أكثر من آراء الآخرين - أكان هذا الرّداء لونها؟ هل عليها التّكلّم مع لورنس بصراحة أم لا؟ أكثر مسألة فاجأت مارغريت في باريس لم تكن تأنّق جيني لافانين أو القبّعات الكلاسيكيّة الأنيقة، بلا اشتياقها إلى والدتها.

لـم تفهـم العملـة الجديـدة، وقـد خدعتهـا البائعـة! حيـن اشـترت جوربيـْن طويليـن، أخبرنهـا، بلغتهـم المعقّـدة، أنّ خمسـة وسـبعين فرنكًا هـو ثمـن كل واحـد منهـا. بينمـا اشـترت سيّدة باريسيّة ذات الجوربيـْن بنصـف الثّمـن. لـم تتشـاجر مارغريـت مـع البائعـة. كل مـا فعلتـه هـو ضـرب الأرض بقـدم؛ مـا جعـل البائعـات فـي المحـل يقهقهـن. الضّحـك علـى حسـابها كان غالـي الثّمـن.

لـم تعـد تخـرج مـن المنـزل، توقّفـت عـن المحاولـة، تمشّـت فـي الشّـقّة، أو تكوّرت وبكت بثياب المسـاء. رغم التّعاسـة محض سـخافة فـي هـذه المدينـة الرّائعـة. كم تباهـت أمـام صديقاتهـا! سـأنتقل لأكثر مـدن العالـم رومانيّـة! أولالا! سـيلاطفني رجـال فرنسـيّون! أولالا! نبيـذ! شـوكولاتة! يجـب أنْ تزوروهـا! كـم أحرجهـا الواقـع! لـن تجـرؤ علـى إخبارهـن بالحقيقـة. لـم يهاتفنهـا أو يكاتبنهـا أصـلًا، كأنّهـا تـوارت عـن وجـه الخليقـة.

هـذا الصّبـاح، زارتهـا زوجـة القنصـل، وهـي امـرأة لطيفـة ومحافظـة بعـض الشّـيء. حيـن أعلـن جيمسـون عـن وصولهـا، هـرعت مارغريـت إلـى المـرآة. لـم تتذكّـر متـى غسـلت شـعرها آخـر مـرّة. عيناها محمرّتان. أخجلها شـكلها المثير للشّـفقة، أرادت ألّا يسـتقبل الخـادم السّـيدة ديفـس، لكنّهـا تاقـت إلـى مجالسـة الصّديقـات، وهـذه زائرتهـا الأولـى. غيّـرت ثيابهـا المتّسـخة وارتـدت فسـتانًا بلـون اللبـلاب. عاينـت زوجـة القنصـل فـي مارغريـت وأصـرّت أنْ تـزور مكتبـة باريـس، عصـر هـذا اليـوم، وهـا قـد وصلـت.

فـي هـذا المـكان أُلفـة لـم ترهـا مـن قبـل. لـم تسـألها النّسـاء «مـاذا يعمـل زوجـك؟» بـل أردن أنْ يعرفـن «مـاذا تقرئيـن؟». تنهّـدت. حـوار آخـر لـم يربكهـا.

- مرحبًا بك في المكتبة.

فستان أمينة المكتبة كان كئيبًا، لكنّها جميلة جدًّا بشعرها المرفوع بشريطة سوداء. عيناها لامعتان كالقرطيْن اللذيْن أهداها إيّاهما زوج مارجوري سيمبسون الثّاني لعيد زواجهما الثّاني. توقّف لورنس عن إهداء مارغريت جواهر مثل تلك.

- هل أساعدك في الحصول على شيء؟

عضّت مارغريت شفتها العليا، وتمنّت لو أنّ بإمكانها أنْ تقول ماذا تريد ولو لمرّة واحدة. عوضًا عن ذلك، سألت: هل لديكم أي كتب لابنتي؟ في الرّابعة من عمرها؟

أمالت أمينة المكتبة رأسها: ماذا عن المعزة بيلّا؟

- لا يمكنك أنْ تعرفي مدى شعوري بالرّاحة لوجودي في مكان يتحدّث أفراده بالإنجليزيّة. باريس غريبة عنّي جدًّا». صمتت. لم تحسن التّعبير. كل كلامها خطأ. «أدرك بلا شك أنّي أنا غريبة في فرنسا».

واستها أمينة المكتبة بقولها: ستتأقلمين هنا. يرتاد مكتبتنا أشخاص كُثر من إنجلترا وكندا.

- جميل. هل لديكم كتب لي؟

- رواية من تأليف دوروثي ويبل؟ الدّير. إحدى الرّوايات المفضّلة لدي.

في الواقع، كانت مارغريت تقصد المجلّات. لم تفتح كتابًا منذ قرأت لـ(ت. اس. إليوت) الكئيب في السّنة الأخيرة من الدّراسة.

- أو الآنسة بيتيفرو تعيش ليوم واحد؛ تشبه حكاية سندريلّا لكنّها للكبار.

لا تحب مارغريت الحكايات الخرافيّة.

- لدينا كتب قواعد رائعة بما أنّك تواجهين مشكلة في فهم الفرنسيّة.

تأثّرت مارغريت من هذه المبادرة. في فعاليّات السّفارة، حين تكلّم النّاس مع مارغريت، كانوا يتكلّمون معها وفي ذات الوقت يراقبون الموجودين في القاعة، فإذا شاهدوا شخصًا مكانته الاجتماعيّة أهم قطعوا المحادثة.

أضافت أمينة المكتبة: وإذا شئتِ فلدينا مجلّة فوغ.

ظهرت عليها أمارات الإحباط، فقالت: أفضّل الكتب.

سُرّت أمينة المكتبة أيّما سرور: لنذهب إلى المجلّة. اسمي أوديل بالمناسبة.

- اسمي مارغريت.

لكن عوضًا عن التّوجّه إلى رفوف الكتب، ارتقت أوديل السّلالم. تبعتها مارغريت، ومع مرورها بلافتة على باب كُتب عليها: «للموظّفين فقط»، سألت: إلى أين سنذهب؟

- ستعرفين قريبًا.

في غرفة استراحة صغيرة، جهّزت أوديل الطّاولة بكأسي شاي غير متطابقتيْن وطبق كعك. حين استدارت أمينة المكتبة لوضع الغلاية على السّخان، مرّرت مارغريت أناملها على سطع الكعك، يشبه الذي كانت تعدّه أمّها. أجل، باريس ملأى بمباهج الطّبخ، وفيها أطايب المعجّنات. ومع هذا تاقت إلى شيء تألفه روحها.

جلست أوديل، وأشارت إلى ضيفتها لتجلس إلى جانبها.

«Racconte تعني احكي لي»

لأوّل مرّة منذ وصولها إلى باريس، شعرت مارغريت بالسّعادة، بأنّها لم تبرح موطنها.

8
أوديل

L'heure bleue، ذلك الوقت السّاحر بين الليل والنّهار قد حل. مع توثيق استعارات روّاد المكتبة ومغادرتهم، أطبق الصّمت على المكان. أحببت المكتبة بهذا الشّكل، مع لفيف من الصّمت شعرت بأنّه يشبهني.

في الدّفتر الجلدي السّميك، ساعدت بورِس في إحصاء عدد روّاد المكتبة اليوم (287)، وعدد الكتب المُستعارة (936)، وتفاصيل تتعلّق بالمكتبة (حامل أخرى فقدت الوعي - قرأت صفحة 43 من كتاب الأم المُرتقبة).

قال لي: تأخّر الوقت. لا داعي لبقائك.

- أريد مساعدتَك.

أشار بورِس إلى قاعة القراءة الخالية، على يده الأنيقة جروح سببها الورق. «يا إلهي، أليست؟» وهكذا بدأ رقصنا المسائي، تحسّنت حركاتنا خلال الشّهر الماضي. تأكّد من إغلاق النّوافذ وأسدل السّتائر. خففت الأنوار لتحذير الباحثين في قاعة المراجع من أنّ المكتبة على وشك الإغلاق. لم يقل أي منّا أي كلمة في أثناء إرجاع الكراسي إلى مكانها. كانت هناك مشكلات لمناقشتها، مهام لتوزيعها، لكن كلّها ستنتظر إلى الصباح. بعد يوم قضيناه في الإجابة عن أسئلة روّاد المكتبة، الصّمت هو جائزتنا. تساءلت إذا كانت مدام سيمون على حق؛ أنّه أرستقراطي. تساءلت إذا كان سيثق بي لدرجة أنْ يخبرني كل شيء عن حياته.

كان دوري لإخراج روّاد المكتبة، ففعلت. مشيت بيْن صفوف الأدب الواقعي، ولاحظت عناوين لم أنتبه لها طوال اليوم. (هذا المساء، رأيت كيف تغلي الماء في كيس ورقي). في قاعة المراجع، عاينت صفوف الكتب واكتشفت اكتشافي الأعظم؛ پول هنا! كان يدرس من كتاب لقواعد الإنجليزيّة.

قبّلني على وجنتيّ، وحاولت استنشاق رائحته. لجلده رائحة التّبغ، مثل (لابسانغ سوشنغ)، الشّاي الذي أفضّله. حسبت أنّ عليّ التّراجع، لكنّ الكتب كنّ وصيفات حليمات.

سألني: أحان وقت الإغلاق؟ أعتذر عن تأخيرك.

«لا بأس». أخّرني. أخّرني من أجلك وحدك.

- جئت مرّات عدّة.

- فعلًا؟

- لكن كنت منشغلة مع روّاد المكتبة.

تفصلنا سنتمترات، لكنّه بدا في غاية البعد. اقترَبت، فقبّل شفتيّ. سمحت لأصابعي بلمس وجنتيْه. أمس، لو أنّ شخصًا أخبرني أنّنا سنقبّل بعضنا بين رفوف الكتب، كنت سأتّهمه بشم الصّمغ، ومع هذا فإنّ هذا التّلاقي مثالي وصائب.

قرأت عن العشق –آنّا وفرونسكي، جين والسّيد روشستر– وشعرت بارتعاشات حسيّة، لعلّي تخيلتها. لا يمكن لأي صفحة من كتاب أنْ تنقل لذّة هذه القبلة.

سماعنا صوت كعب عال، فابتعدنا عن بعضنا. لمساتنا كانت بسيطة، إلّا أنّي شعرت أنّي أريده.

«ها أنتِ هنا» نقّلت الآنسة ريدر نظرها منّي إلى پول.

قال: أشكرك يا آنسة سوشيت. أعرف الآن مكان العثور على المعلومة، الماضي التّام. رفع كتاب القواعد وخرج مسرعًا من الغرفة.

فم المديرة تمدّد بسرور. الآنسة وِد تريدك.

- الآنسة وِد؟

- إنّه يوم الرّواتب.

بالطّبع! يوم الأجور. كيف نسيت!

- ماذا ستفعلين براتبك الأوّل؟

«أفعل؟» تشوّش تفكيري.

- ترغبين حتمًا في توفير معظمه - الادّخار مهم، لكن من المهم أيضًا الاحتفاء بالمهمّة، لربما تريدين إهداء من شجّعك وآزرك.

«فكرة رائعة». تمنيت لو أنّ الفكرة فكرتي.

«من ستشكرين؟ أهديت أمّي وصديقتي المقرّبة روايات. الآن من فضلك، لا تجعلي مس وِد تنتظر».

ذهبت إلى المحاسبة المبتسمة. قلمان فقط في شعرها الليلة. «أنتِ محقّة بخصوص الفيلسوف الإغريقي هرقليطس. أحببت مقولته: لا يدوس المرء ذات المستنقع مرتيّن.

أيّدتني: التّغيير سُنّة الحياة.

أحصَت راتبي. كل فرنك يرمز إلى فوز الإجابة عن سؤال، وإحراج إذا اضطربت، وأيّام من الحديث بلغة أجنبيّة، وليالٍ من القراءة لتقديم اقتراحات كتب. متيقنة من عشقي لعملي، لكنّ متطلّباته فاجأتني.

دسست المال في جيبي. كان هذا السّبب الرّئيس الذي أردت الوظيفة من أجله؛ المال والاستقرار صنوان. رفضت أنْ ينتهي بي المطاف مثل الخالة كارولين.

* * *

ظهر اليوم التّالي، عرّجت على المصرف لإيداع الرّاتب، وأبقيت بضع فرانكات لمصروفي. التّالي، ذهبت إلى محطة القطار لشراء تذكرتيّن إلى فونتينبلو، شيء من أجل رِمي لشكره على دعمه الرّاسخ. أكثر من الموسيقى والكتب، أحبَّ التّسكّع حول الغابة. فكّرت في إهدائه الهديّة على طعام العشاء، لكنّه تناول قضمات قليلة ثمّ قام.

تذمّرت أمّي: لم يعد يأكل أي شيء. ألا يحب طبخي؟

أمسك أبي يدها، وقال: وجبة شهيّة.

أجابته بحدّة: تفضّل تناول العشاء خارج المنزل هذه الأيّام.

حاول ملاطفتها: الآن يا هورتينز.

قالت لي أمّي: لم لا تذهبين لتفقّد رِمي؟

كان جالسًا إلى مكتبه الذي تناثرت الأوراق عليه. أعطيته التّذكرتيْن، معتقدة أنّه سيصر على الذّهاب فورًا. لكنّه قبّل وجنتيّ بذهن شارد. ازداد شرود ذهنه أكثر من ذي قبل كأنّه لم يعد موجودًا. لم يقل أي شيء لي الآن، رغم أنّه لم يرجع إلى كتابة مقاله.

- هل ذهبت إلى الكليّة اليوم؟

- ما فائدة دراسة قوانين لا يحترمها أحد؟ ألمانيا غزت النّمسا... أغار الجنود اليابانيّون على الصّين... جنّ العالم، ولا أحد يكترث.

كان على حق بشكل ما. الجدالات بيْن روّاد المكتبة بدت واقعيّة أكثر من الصّراعات البعيدة. تذكّرت الجدال الأخير، فأمسكت بورقة ورفعتها إلى عنقي. «هنا السّيد بريس-جونز بربطة عنقه الصّغيرة». قرّبت الورقة من فمي. «وهذا السّيد نيرسيات، ذو الشّارب الكثيف».

ربطة العنق: إعادة التّسلّح هي الخيار الأمثل! علينا الاستعداد للحرب.

الشّارب: نحتاج إلى الحرب، لا مزيد من الأسلحة.

ربطة العنق: يا نعامة! لا تدفن رأسك في الرّمل.

الشّارب: أنْ أكون نعامة أفضل من أنْ أكون مغفّلًا. في الحرب العُظمى...

ربطة العنق: لا أعرف لماذا تكرّر كلامك عن الحرب! الشّيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو قصّتك الفظيعة.

ضحك رِمي.

- إذا وجدت تمثيلي مضحكًا، عليك أنْ تحضر الوقائع الحقيقيّة في المكتبة.

- اقترب موعد تسليم المقالة.

بلطف قلت له: تعال. ستقابل من يشاركونك الاهتمامات.

* * *

يوم الخميس هو يوم القصّة. فعاليتي المفضّلة في الأسبوع. أحببت مشاهدة انغماس الأطفال في القصص، كما كنت أفعل مع الخالة كارو. في طريقي إلى هناك، اختلست النّظر إلى قاعة المراجع، على أمل أنْ أرى پول. ليس موجودًا. موت القلب: 823.

قلت لنفسي إنّه لا يستطيع زيارة المكتبة يوميًا. تذكّرت قبلته، فلمست شفتي. لربما في يوم قريب؟

في قاعة الأطفال، انتقلت إلى المدفأة حيث اجتمعت بعض الأمّهات. أغلبهن كنّ يكلمن بعضهن، لكنّ إحداهنّ كانت تقف جانبًا. «مرحبًا» قالت وهي تعبث بعقد اللؤلؤ. «تسرّني رؤيتك من جديد».

كانت امرأة إنجليزيّة وحيدة. مارغوت؟ لا، اسمها مارغريت.

- تصفّحت ثلاثة روايات للكاتبة ويپل، لم أكن أقرأ الكتب من قبل، لكنّي الآن مصرّة أنْ نقرأ أنا وابنتي معًا.

سألتها: أيهنّ ابنتك؟

أشارت مارغريت إلى الفتاة الشّقراء التي تجلس إلى جانب هيلين؛ ابنة بورِس الصّغيرة. تكلّمت الفتاتان بحيويّة في انتظار أنْ تبدأ بِتْسي الحكاية. حدّقت إلى السّاعة فوق الباب وتفاجأت من دخول رِمي. توجّه ناحيتي وهو يتجنّب التّعثّر بالأطفال.

قلت له: يسعدني مجيئك.

- لم أقاوم رغبة المجيء بعد مسرحيّتك ذات البطلة الواحد. أردت قضاء بعض الوقت في مكانك المفضّل. شُغلنا كثيرًا في الآونة الأخيرة...

- أنت هنا الآن، وهذا هو المهم.

على مقعد، قلّبت بِتْسي صفحات كتاب. تنحنحت، فعم الصّمت المكان. اقترب عشرون طفلًا منها. خلال قراءتها قصّة الآنسة مايسي، تغلّظ صوت بِتْسي، وعيناها نومتا الحضور مغناطيسيًّا. بافتتان، لمس طفل تنّورتها، التي انتفخت فوق خفّيها.

لمحت رِمي، فرأيت أنّ لبِتّسي معجبًا آخر - لم يشح بوجهه عنها. حين انتهت، صفّقَ، وصفّق الآخرون.

- إذن، هذه توأمك في الكتب. هل تحب القراءة بنهم مثلك؟
- ربّما أكثر.
- إنّها موهوبة.
- نفخت الرّوح في الشّخصيات.

«لا، بل تجسّدت هي في الشّخصيّات». مشى إلى جانب بِتْسي. لحقتُ به.

قال لبِتّسي: «Vous êtes magnifique» [أنت جميلة].

Merci– [شكرًا] وعينها على الأرض.

أردتُ تقديمه إلى السّيد بريس-جونز والسّيد نيرسيات، ضغطت على ذراعه. لم يلاحظ.

- لا بدّ أنّك ظمآنة. هل تريدين الذّهاب لشرب ليموناضة؟

كانت المرّة الأولى التي أراه منجذبًا إلى امرأة. ست زميلات دراسة قد صادقنني ليتعرفن على رِمي. كان مهذّبًا، ويصغي إلى مكلّمه، ولم يبدأ أي حوار مع فتاة. تمنيت أنْ تقبل بِتْسي دعوته. لن يضرها ترك العمل باكرًا، هذه المرة.

وضعت بِتْسي يدها في ذراعه. أغمض عينيْه وقتًا أطول من إغماضة عاديّة؛ شكرًا صامتة، قبل أنْ يخرج معها. شعرتُ بأنّهما نسياني، حاولت أنْ أقول لنفسي إنّ خروج رِمي معها عادي. لم يقصدا تركي.

ربَّتَ بورِس على ظهري. قال لي: الخبر السّعيد هو أنّنا نتبرّع بالكتب.

- وما النّبأ التعيس؟

- هناك أكثر من ثلاثمئة كتاب، وفرزها مسؤوليتك.

ناولني قائمة، ومع قراءتي العناوين، عدت إلى الواقع من شعور الأسى على نفسي. إذن، فزيارة رِمي لم تنته كما شئت. لا بدّ من وجود زيارة أخرى.

قلت بمزاح: حين عرفت أنّ المكتبة قد وزّعت آلاف الكتب إلى الجامعات، أعجبتني بالفعل. قبل أنْ أكون المسؤولة عن ترتيبها طبعًا!

ضحك بورِس. «أنتِ أفضل منّي».

الغرفة الخلفيّة مكتظّة بصناديق خالية وأكوام كتب. «رحلة آمنة» قلت إلى كتاب غلافه سميك وضعته في صندوق سيُرسل إلى الكليّة الأمريكيّة في طهران، وآخر سيُرسل إلى مؤسّسة سيمانز في إيطاليا، وثالث ورابع وخامس سترسل معًا إلى تركيا. اعتقدت أنّي قد عملت لساعات، لكن حين رأيت السّاعة، مرّت عشر دقائق فقط. كان مساء طويلًا موحشًا.

سمعت طرقات على الباب. مارغريت: سألت الرّجل الذي في المكتب الأمامي عن مكانك، فأرسلني إلى هنا.

قلت لها: أحتاج إلى مؤانسة. هلّا عاونتني؟ لاحظتُ فستانها الحريري الوردي الذي سيكسوه الغبار. على أي حال، النّساء الأنيقات لا يعملن.

- لم لا؟ لا شيء أفضل لفعله.

عرضت عليها إحضار ابنتها، لكنّها قالت إنّ ابنتها مستمتعة بصداقتها مع هيلين ووالدها. بيّنت لمارغريت كيفيّة العثور على

مكان لكل كتاب. تحرّكت بين الصّناديق بانسيابيّة، ووضعت فيها الكتب بعناية. «رحلة آمنة» قالت بهمس لكل كتاب.

حدّقت إليها.

قالت: لا بدّ أنّك تحسبينني فاقدة الرّشد لأنّي أكلّم الكتب.

- غير صحيح.

- «رحلة آمنة» العبارة الوحيدة التي أتذكرها من دروس اللغة الفرنسيّة في المدرسة. أمّي على حق؛ كان عليّ الدّراسة باجتهاد أكبر.

- هناك وقت دائمًا! سأعلّمك بعض العبارات. Bon vent تعني رياحًا جيّدة، ونقولها إذا تمنينا لأحد رحلة موفّقة أو حظًا سعيدًا. نقول bon courage لدعوة أحدهم للتّحلي بالشّجاعة.

قالت: «Bon courage!» لكتيّب إرشادات في الكيمياء.

وقلت: «Bon vent!» وقلت لكتاب تمهيدي عن الرّياضيات.

ضحكنا ونحن نتمنّى السّلامة للكتب.

- ما سبب مجيئك إلى باريس؟

- زوجي ملحق في السّفارة البريطانيّة.

- وسط جيّد ليكون المرء فيه.

«بل وسط فاسد». جفلت. «أوه، من فضلك لا تخبري أي شخص أنّي قلت هذا. عرفتِ الآن ما سبب عدم كوني دبلوماسيّة».

خجلَت فجأة، وعادت إلى فرز الكتب.

قلت وفي خاطري أنْ تكلّمني عن الحفلات: لا بدّ أنّك تحضرين فعاليات رائعة.

- البارحة، كان هناك حفل شاي في مقر إقامة السّفير الهولندي، لكنّي أستمتع بوقتي الآن أكثر.
- هل يُعقل؟ تقابلين أشخاصًا من كل العالم.

سالت دموع على وجنتيّها: إنّهم مهتمّون بزوجي أكثر منّي. أشتاق إلى أمّي، أشتاق إلى لقاءاتي مع صديقاتي لشرب الشّاي.

لم أعرف ماذا أقول لها. قالت الآنسة ريدر إنّ الأجانب يشعرون عادة بالحنين في الوطن في باريس وأنّ بإمكان موظّفي المكتبة تهوين إحساسهم بالغربة.

كفكفت دموعها وقالت: لم أتعمّد البكاء. تسمّيني أمّي «الإبريق الذي يُسرّب».

«ستسميكِ الباريسيّة عمّا قريب». أغلقت آخر صندوق. «ساعدتني كثيرًا».

- حقًّا؟
- يجب أنْ تتطوّعي للعمل هنا.
- لم أتلقَّ أي تدريب. ماذا لو ارتكبت خطأ؟
- إنّها مكتبة، وليست عمليّة جراحيّة! لن يموت أي شخص إذا وضعتِ كتابًا في المكان الخاطئ.
- أنا متردّدة...
- ستكوّنين صداقات جيّدة، وسأعلّمك الفرنسيّة.

رافقت مارغريت إلى الفناء، حيث كانت ابنتها هيلين تلعب. خيّم الغروب على المدينة والظّلال على الجدران، والبستان، واللبلاب في الإناء، نحو المكتبة. الظّلام وشيك، والأنوار في قاعة القراءة ساطعة. ذهبت مع مارغريت إلى الفناء. من خلال

النّافذة، شاهدنا مدام سيمون وهي تخرج كلبًا من فصيلة بودل من حقيبتها، ثمّ وضعته في حجرها، وفركت هي والبروفيسورة كوهِن بطنه. غارقيْن في سعادتهما، لم يلحظا أنّ بورِس وزوجته وآنّا في الزّاوية، يميلان رأسيهما باتّجاه بعضيهما. الاثنان لم يتلامسا، لكنّ المودة ظاهرة عليهما. رفعت السّيدة ترنبل إصبعها إلى فمها في محاولة لإسكات بعض الطّلبة.. بيتر مؤرشف الكتب المسكين متوارٍ بين رفوف الكتب ليتجنّب المشرفة التي تتعقبه كأنّه طريدة. تراقبه محاسبة المكتبة التي غطّت فمها لتكبح ضحكها.

في نظرة مارغريت وهي تشاهد ما يحدث في المكتبة كلام. أخبرني شيءٌ ما أنّها تحتاج إلى المكتبة، وأنّ المكتبة تحتاج إليها. على الكتب المغبرة، تدفّقت أحاديثنا كنهر السين. تمنيت كثيرًا انضمام مارغريت إلى فريق عملنا.

9

أوديل

باريس. يونيو/يوليو1939

أسبوع الاختبارات، وطاولات المكتبة مكتظة جميعًا إلّا مكانًا واحدًا. جلس السّيد غروسجين مرتديًا واقي أذنيْن لونه برتقالي مُحمر في قلب قاعة القراءة. أراقبه مع وبورِس استعدادًا للأسوأ. سألني: ماذا يفعل راهبنا الغريب؟

بدأ السيّد يقرأ بصوت مرتفع من كتاب: «اسمي إسماعيل. قبل أعوام –لا أتذكّر كم تحديدًا- كان لدي مال قليل أو لا شيء في جيبي، ولا شيء يجذب انتباهي إلى الشّاطئ، اعتقدت أنّي سأبحر قليلًا وأرى الجزء المائي من العالم...». حين أشار بورِس إلى الكرسي الخالي ودعاه ليقرأ سرًّا، أجاب السّيد: «سأهلك قبل جلوسي على أولئك اليهود المُعطّرين».

اقتربت الآنسة ريدر منه. كانت المرّة الأولى التي أراها غاضبة. تراجع السّيد خطوة. «سأعود إليك خلال دقيقة» قالت له باقتضاب. رحّبت المديرة بالشّابات –طالبات في جامعة السّوربون– واعتذرت منهم، ووعدتهن بأنّهن سيتمكّن من الدّراسة بهدوء. عاتبت السّيد غروسجين بقولها: لا مجال لهذا الكلام في المكتبة.

قال بتذمّر: أقول ما يقوله الآخرون.

قالت له: فكّر قبل أنْ تتكلّم.

«لا تخبريني بما عليّ فعله!» رفع السّيد يده وكاد يضربها. أمسك بورس ذراع الرّجل ورافقه إلى الباب. كان بورِس بارعًا في مهمّة الطّرد.

- أردت قراءة فقرة: نوفمبر النّدي الممطر بوجداني!

بورِس: أي وجدان؟

- اتركني...

«لستَ متّهمًا» قال بورِس وهو يُجبره على الخروج. «وجودك غير مرحّب به لأنّك أهنت عددًا كبيرًا من النّاس. قل كلمة أخرى وسأحرص على عدم دخولك إلى المكتبة مرّة أخرى».

هدَّأت السّيدة ريدر روّاد المكتبة، وقرّرتُ التّحقّق من بورِس. ألفيته آخر الفناء، قرب الزّهور القرمزيّة التي قال كان الحارس يكلّمها كأنّها أطفال. مال بورِس إلى الجدار، سيجارة بين إصبعيه.

- أأنتَ بخير؟

لم يجبني، فملت أنا أيضًا إلى الجدار، وشاهدنا انتشار وتصاعد الدّخان.

- بعد الثّورة، أُجبِرت مع أخي على مفارقة موطننا. مغادرته موجعة، آمنّا أنّ الأمور ستتحسّن بمجيئنا إلى مكان أفضل وأكثر أناقة. أليست فرنسا بلد التّنوير؟ في روسيا، قُتل أشخاص كثر في المذابح المُدبّرة. قُتل جارنا فقط لكونه يهوديًا. لهذا عندما أسمع كلامًا كهذا...

- أنا آسف.

«أعتقد أنّ الكراهيّة في كلّ مكان». نفث الدّخان كتنهيدة. «حتّى في مكتبتنا».

* * *

أبـي علـى حـق. العمـل مـع البشـر قـد يكـون مُحبطًـا. فـي طريـق العـودة فـي الحافلـة، انغمسـت فـي قـراءة صديقتـي المفضّلـة، 813، روايـة أعينهـم كانـت تراقـب الـرّب، والتفـت نحـو النّافـذة لأرى النّـور الواهـي.

كانـت تعـرف أشـياء لـم يخبرهـا بهـا أحـد قـط. لغـات الأشـجار والرّيـح علـى سـبيل المثـال.

كلّمـت البـذور المتسـاقطة عـادة بقولهـا: «أتمنـى أنْ تسـقطي علـى أرض طريـةّ»؛ لأنّهـا

سـمعت أنّ البـذور تقـول تتمنـى هـذا لبعضهـا إذا تلاقـت. عرَفـت أنّ العالـم يـدور فـي الأثيـر، وأنّ الـرّب يشُـق

العالـم القديـم كلّ ليلـة ليبنـي عالمًـا شمسـه مشـرقة. مشـاهدة تكوّنـه ممتعـة. النّـاس والأشـياء المألوفـة قـد خذلوهـا

فجلسـت علـى بوّابـة ونظـرت إلـى الطّريـق إلـى مـا هـو فـي مـد بصرهـا.

حيـن سـمعت صـوت احتـكاك عجـلات الحافلـة بـالأرض لتتوقّـف خرجـت مـن روايتـي. أيـن توقّفنـا؟ بحثـت عـن علامـة مألوفـة ووجـدت مبنـى التّمويـن العسـكري الضّخـم الـذي يعمـل فيـه أبـي. كنـت بعيـدًا عـن المنـزل، لكـن ربّمـا أعـود مـع أبـي إذا كان لا يـزال فـي العمـل. عاينـت الشّـارع بحثًـا عـن سيّارته. وجدتـه لكـن علـى رأسـه قبّعـة فيـدورا، ومعـه امـرأة تتأبّـط ذراعـه. لعلّـه كان يواسـي ضحيّـة إحـدى الجرائـم، بائعـة فـي متجـر تعرّضـت للسّـرقة. لاحظـت اسـم المبنـى خلفهمـا، فنـدق نورمانـدي. لا، لعلّهـا موظّفـة الاسـتقبال أو خادمـة. عبـس أبـي مـن أمـر قالتـه، وقبّلهـا؛ لا علـى إحـدى وجنتيْهـا لكـن قبّلـة حميميّـة علـى شـفتيها.

كيف يخون أمّي؟ الفاجرة ليست جميلة حتّى مع شعرها الخفيف ووجنتيْها البارزتيْن. لحسن الحظ، أصبحت إشارة المرور خضراء، وابتعدت الحافلة.

تألّمت، فنزلت عند المحطّة التّالية. في الطّريق إلى المنزل، حاولت فهم ما شاهدته. منذ متى وهذا يحدث؟ ما الفعل الذي ارتكبته ماما لتستحق هذا؟ ما الذي لم تفعله؟ قلّبت صفحات ذاكرتي. عند المساء وقت تناول طعام العشاء، قالت ماما إنّ أبي يفضّل «تناول العشاء خارج المنزل». أكانت تُلمّح لعلاقة غراميّة؟

في الرّدهة، أسقطت حقيبة كتبي وناديت رِمي. كان يقرأ الفئران والرّجال. قلت له: «يمكن لشتاينبك الانتظار». ذهبنا إلى مكاننا المفضّل، بعيدًا عن والدينا، بعيدًا عن العالم، تحت سريري حيث الظّلمة. رِمي، وبعده أنا، زحفنا على الأرضيّة. في العودة إلى الطّفولة شعورٌ مرضٍ، إلى آخر مكان سيعثرون فيه علينا. واجهته بأنفاس متهدّجة، وقلت: بابا مع امرأة. ليست ماما.

- لماذا أنتِ متفاجئة؟

فتور مشاعره أوجعني تمامًا كما أوجعتني مشاهدة أبي مع العاهرة. «عرفت؟ لمَ لمْ تخبرني؟»

- ليس علينا إخبار بعضنا بكلّ شيء.

- منذ متى؟

- للرّجال المهمّين عشيقات. حالة رمزية تشبه ارتداء ساعة.

أيؤمن رِمي بهذا الأمر؟ أيؤمن پول به؟ علاقة بابا الغراميّة خيانة لماما ولأسرتنا أيضًا. كيف أمكن لرِمي ألّا يرى هذا؟ حدجته بنظري، لكنّي لم أفهم تعبير وجهه. لم أعرف فيمَ فكّر.

لـم أعـرف فيـمَ علـيّ التّفكيـر. قبضـت علـى زنابـك مرتبـة السّـرير.

ختـم حديثـه: بِتْسـي قالـت إنّ إدراك أنّ لوالديْنـا حيـاةً تخصّهمـا، ورغباتهمـا جـزءٌ مـن النّضـوج.

قالت بِتْسـي!

أتذكّـر أنّـي ورِمـي لـم نكـن ننظـر إلـى عينـي بعضنـا. فـي الصّيـف الـذي بلغنـا فيـه التّاسـعة مـن عمرينـا، بسـبب علّـة فـي الرّئـة، ظـلّ طريـح الفـراش، ومامـا غطّـت صـدره المنهـك بلصقـات الخـردل لتخفيـف الاحتقـان. لازمتُ سـريره، وقـرأت الكتـب لـه، وشـاهدته فـي أثنـاء اسـتغراقه فـي النّـوم، كلّ يـوم عـدا يـوم الأحـد، حيـن ذهبنـا أنـا وأمّـي مـع الخالـة ليونـل والخالـة كارو. أحببـت الخـال ليونـل لأنّـه قـال دائمًـا إنّـه تمنّـى لـو أنّـه رزق بابنـة مثلـي؛ مـا أحـزن زوجتـه، فكانـت أمّـي تواسـيها بأنّهمـا سـيرزقان بطفـل قريبًـا. لكنّ مامـا -التـي قالـت إنّهـا علـى حق دائمًـا- سـتجد أنّهـا قـد جانبـت الصّـواب هـذه المـرّة.

حيـن توقّـف زوجهـا عـن حضـور القـداس، تعلّلـت الخالـة كارو بعفويّـة أنّـه مصـاب بالإنفلونـزا أو يحتـاج إلـى أخـذ عميـل إلـى كالايـس. لـم يلحـظ أي شـخص خطـأ فـي هـذا. فـي المـرّة الأخيـرة، مـع خروجنـا مـن الكنيسـة، قالـت مامـا: يسـعدني أننـا فتيـات جميعًـا.

قفزت خطوات إلى الأمام وأنا أشتهي حلوى.

الخالة كارو: يريحني أنّ هذا شعورك. لدي خبر.

الحشـرجة التـي فـي صوتهـا أوقفتنـي عـن المسـير. لـم أنظـر خلفـي. لـم أرد أنْ تتهمنـي أمـي بالتّجسّـس.

تابعت الخالة كلامها: ليونل بعيد.

- بعيد؟

- شعرت أنّ هناك أمرًا آخر. سألته، فاعترف بأنّ لديه عشيقة.

أمّي: هكذا يسير عالمنا. يفاجئني أنّه أخبرك بالحقيقة.

بدت خالتي في غاية الأسى لدرجة أنّي استدرت. لم تلحظاني.

قالت الخالة كارو بعينيْن مغرورقتيْن بالدّموع: كان مجبرًا. تسبب في حملها. بدأت إجراءات الطّلاق.

شحبت ماما. «ماذا ستقولين للنّاس؟»

أمّي تفكّر في النّاس دائمًا. اختلست النّظر بتوتّر إلى السّيد كليمون وهو على عتبات الكنيسة.

الخالة: هذا كل ما لديكِ لقوله؟

- لن تتمكنّي من حضور القدّاس.

- هذا مؤسف، لكن يمكنني قراءة الكتاب المقدّس. لنغادر.

لم تتحرّك أمّي. «غادري وحدك»

- أريد البقاء معكِ.

- يجب أنْ تذهبي إلى شقّتكِ.

- لا أستطيع. أسكنها ليونيل في منزلنا.

- هذا ليس من شأني.

من الصّادم رؤية ماما التي تكره المواجهات، تتجادل أمام الكنيسة وأمام الرّب والجميع. كيف تقسو على من هي من لحمها ودمها؟

الخالة كارو: أرجوكِ. لا أطيق الوحدة.

رمقتني أمّي بنظرتها. توقّعت أنّها ستعانق أختها كما فعلت معي حين سقطت وجرحت ركبتي، لكنّ ماما اكتفت بقول: لا أريد أنْ يتأثّر أطفالي.

المرأة المطلّقة أقل مرتبة من الباغية. آمنت أمّي بما قالته الكنيسة لها، ولم تستثن أختها من هذا الكلام.

خالتي: لا يوجد مكان أذهب إليه. لا زاد ولا مال عندي.

«أرجوكِ ماما» قلت، لكنّ وجهها ازداد تجهّمًا.

- الطّلاق خطيئة.

قلت لها: يمكننا أنّ نطلب الغفران للخطايا عند الاعتراف.

حين عجزت أمّي عن كسب الجدال بالمنطق، استخدمت القوّة. سحبت ذراعي وجرتني في الشّارع باتّجاه المنزل. نظرت إلى الخالة كارو التي شاهدت مغادرتنا، ويدها ترتجف على صدرها.

بمجرّد وصولنا إلى المنزل، ذهبت إلى غرفة رِمي. لكن مع إدارتي مقبض الباب، نهرتني أمّي: لا تزعجي أخاكِ.

على مدار الأيّام التّالية، سألت عن الخالة كارو وأنا أكيدة من أنّ ماما ستعدِل عن رأيها. «اذكريها مرة إضافيّة، وسأطردك من المنزل». صدّقتُها.

ولأسبوعيْن، التزمت الصّمت، أو لازمني الصّمت. غير قادرة على الاحتفاظ بالسّر عن رِمي أكثر من هذا، جلست إلى جانبه على السّرير. وجهه شاحب، فأدركت أنّه كان منهكًا من السّعال المتعاقب الذي آلم صدره. مازحته وقلت: بسبب لاصق الخردل رائحتك كرائحة شواء يوم الأحد.

- دمّك خفيف.

«أعتذر». اقتربت منه لأنكش شعره بيدي؛ إذا سمح لي، فهذا يعني أنّه سامحني على استظرافي. إذا لم يسامحني، فهذا يعني أنّه لا يزال غاضبًا.

سمح لي.

- هل تحسّنت؟

- لا، حقيقة.

«أوه». لم أجرؤ على إخباره. حذّرتني ماما من إزعاجه. أنا ووالداي عشنا بهلع من انتكاس صحّته. همسنا إذا اعتقدنا أنّه نائم، ومشينا على أطراف أصابعنا عند اقترابنا من غرفته.

ما الأمر؟ تهيّأ لي أنّه سأل.

لا شيء، أجبت.

أخبريني قال بإصرار.

تواصلنا أحيانًا بهذه الطّريقة. أصغى مع انهمار ألمي. آمنت بأنّ حبّ أمنا يتدفّق تدفّقًا لا مشروطًا، ومع ذلك أغلقته كصنبور ماء. ماذا سيحل بالخالة كارو؟

قال ببطء: أخبرتني أمّي أنّ الخالة كارو أرادت العودة إلى ماكون الفرنسيّة.

أرجعت رأسي إلى الوراء. أرادت؟

جادلته: إذن لماذا لم تودعنا؟ لماذا لم تراسلنا؟

هذي المرّة الأولى التي لم يقارع فيها أخي الحجّة بالحجّة.

اتّهمتُه: أنت تفضّل تصديق ما يريحك عوضًا عن تصديق الواقع.

«أسأتِ الفهم حتمًا. يستحيل أنْ تكون ماما قاسية». رفضه تصديقي مؤلم كنبذ أمّنا لأختها.

قلت له: لم تكن معنا. تتمارض كعادتك.

امتقع وجهه. جلس وفتح فمه. ملكت زمام نفسي، غير أنّه سعل سعلة قويّة صاحبها دم أسود اللون. بحزن، ناولته منديلي ومسّدت ظهره. تلاشى إصراري على كسب النّقاش.

بعد شهريْن، عاود رِمي حضور القداس. مثل ماما، ركع بحب أمام الصّليب، مؤمنًا بأنّ إيمانه قد أعاد له صحّته. سمحت له بتصديق ما احتاجَ إليه. تعلّمتُ أنّ الدّاء يفتِق الجفن، والحبّ يجرح الجوانح. الحب ليس لزامًا، لأنّ أقرب النّاس سيتخلون عنّا كأنّنا لم نكن يومًا. لنعتمد على أنفسنا.

تعمّق حبّي للقراءة؛ الكتب لا تخون. أنفقَ رِمي مدّخراته على الحلويات، واحتفظت أنا بمالي. كان مهرّجًا في محاضراته، أمّا أنا فكنت طالبة نجيبة. حين طلب منّي رفاقه الخروج معهم، رفضت. الحب مرفوض. قد أتعلّم تجارة، أو أنْ أتحصّل على وظيفة، لأدّخر المال، حتّى أتمكّن من إنقاذ نفسي إذا تحقّق المحتوم.

***

عيناي متورّمتان بعد السّهد. حاولتُ مساعدة روّاد المكتبة قدر استطاعتي. في التّغافل مشقّة؛ لأبي عشيقة، ورِمي يمضي كلّ ثانية مع بِتْسي، وبول لم يرجع إلي. وقفت عند مكتب الإعارة على أمل أن ينصحني بورِس بقراءة كتاب.

«تبدين حزينةً اليوم». أعطاني (891.73). «اذهبي إلى رف كتب (البعث بعد الموت). لن يزعجك أي مخلوق هناك».

قرّبت رواية تشيخوف من صدري، ارتقت السّلالم، مررت بالباحثين الجالسين في الطّابق الثّاني الذين لم يلحظوا جمال

فصـل ربيـع، إلـى الطّابـق الثّالـث الهـادئ، حيـث احتفظنـا بكتـب لا تُقـرأ كثيـرًا؛ كتـب البعـث بعـد المـوت.

مـررت بذلـك الـرّف، ففشـتني سـكينة. بيـن الكتـب اختبـأت، وقـرأت: «كانـت لديـه حياتـان: حيـاة علنيّـة مكشـوفة، وحيـاة يعرفهـا مـن يهمهـم معرفتهـا، ... وحيـاة أخـرى وقائعهـا سـريّة». لا يمكننـا أنْ نعـرف أحبّاءنـا، ولا يمكنهـم أنْ يعرفونـا كليًّـا. مسـألة تفطـر القلـب، لكنّهـا واقعيّـة. ومـع ذلـك، هنـاك سـلوان: فـي قـراءة قصـص الآخريـن، عرفـت أنّـي لسـت وحيـدة.

«وجدتـك!» قالـت مارغريـت. علـى وجههـا بـودرة موضوعـة بدقـة عـادة - تميّـزت فـي عملهـا. الزّوجـة المتـردّدة التـي قابلتهـا أوّل مـرّة، حلّـت مكانهـا امـرأة كفء واثقـة بنفسـها.

- ما مهمّة اليوم؟

قالـت وهـي تنفـض الغبـار: تغييـر موقـع دوائـر المعـارف. يجـب أنْ يتحلّـى المـرء بالقـوّة الجسـديّة للعمـل هنـا.

- أنت لطيفة لتعطينا الكثير من وقتك.

- الأمر سهل إذا آمنّا بأهميّة ما نفعل، وأنا أومن بالمكتبة.

فكّـرت فـي منـح حبّـي الصّـادق لپـول، فسـألتها: مـاذا لـو لـم تتلقـي أي شـيء بالمقابـل؟

نظـرت إلـيّ بتحيّـر: لسـت أكيـدة مـن أنّ المـرء يجـب أنْ يتوقّـع الحصـول علـى شـيء إذا أعطـى. مـاذا تفعليـن هنـا بمفـردك؟

- أجرد الكتب.

- تبدين شاردة الذّهن.

- أنا بخير.

قالت باستخفاف: نعم، هذا واضح. اختنقت هنا. تحتاجين إلى الهواء المنعش.

خرجنا وأخذت كتاب السّيدة مع الكلب وقصصًا أخرى معي.

سألتني: أين سنذهب؟

قطّبت جبيني. هل يعمل پول في حي واشنطن؟

رأيت قصص حب نهايتها تعيسة. أريد أنْ أرى الآن حبًا نهايته سعيدة. احتجت إلى معرفة إذا كان يشاركني الشّعور؛ تفاؤل حذر. تحصّلت على وظيفة ساعدتني على استقلالي المادي أكثر فأكثر. لعلّ بوسعي استغلال الفرصة.

- أكلّ شيء على ما يرام؟

«أنا ...» لم أعرف كيفيّة التّعبير عن مكنونات صدري، وعلى أي حال، مارغريت عالميّة الاهتمامات، مشكلاتي لن تهمها.

- أتريدين حضور حفل السّفارة في يوم الباستيل السّنوي؟

التفت إليها. «حقًا؟»

- بالطّبع! أريد إبهاجك. تعالي إلى شقّتي، سنستعد معًا. أعلم أنّك تملكين فساتين تخصّك، لكن يمكنك استعارة أحد فساتيني.

لم أصخ السّمع. ها هو مركز الشّرطة. توقفت قليلًا. لاحظت مارغريت القضبان على النّوافذ. وارتسم على وجهها الإحباط حين خرج شرطي وسيم. «أتتمنين لقاء أحد رواد المكتبة؟ أتمنّى أنْ يكون شرطيًا، لا لصًا!»

- شرطي.

- اذهبي لتحيّته.

- لا يسمح أبي لي بهذا. يقول إنّ مركز الشّرطة مرتع المجرمين.
- هل أبوكِ هنا؟
- لا.

«إذن لا مانع من دخولك!». فتحَت الباب الخشبي ودفعتني إلى داخل المبنى. طغى على النّور الخافت دخان السّجائر. على المقعد إلى جانبي، رجل قميصه متّسخ وينظر إليّ بشبق. قرّبت كتاب السّيدة إلى صدري. اقترب مسافة قليلة، وابتعدتُ مسافة كبيرة. لعل پول قبل بالوظيفة التي عرضها أبي علي، ولم يعد يعمل هنا. لعله لم يعمل هنا أساسًا. أنا حمقاء. ما كان عليّ المجيء إلى هنا. في أثناء خروجنا، شعرت بيد على مرفقي. ارتعدت فرائصي، وتأهّبت لقذف المشرّد الذي لمسني بكتاب بتشيخوف؛ لكنّي رأيت عينيْن قلقتيْن علي.

پول: حلمت برؤيتك، لكن ليس في هذا المكان.

أخفضت الكتاب. «أردت رؤيتي مرّة أخرى؟»

- بلا شك، لكن بعد أنّ أحرجتك أمام رئيسة عملك...
- لم تحرجني. على أي حال، اشتقنا إليك... في المكتبة.
- وأنا اشتقت إلى المكتبة أيضًا.

انتظرت أنْ يضيف شيئًا، لكنّه سكت، فقلت: يجب أنْ أذهب. صديقتي تنتظرني...

- انتهت نوبة عملي، أيمكنني دعوتكما لتناول العشاء؟

في حانة صغيرة، قادنا نادل يرتدي ربطة عنق وسترة سوداء إلى طاولة هادئة قرب الجدار الخلفي، بعيدًا عن رجال الشرطة الذين حدجونا بنظراتهم. لا أعرف أحدًا منهم، لكنّي تساءلت لو أنّ أحدهم قد زارنا خلال غداء الأحد.

انبعثت من المطبخ رائحة التّفاح المكسو بطبقة الكراميل من المطبخ.

مارغريت: ما هذه الرّائحة الشّهيّة؟

فأجبتها: كعك (تاتين). ثالث حلوى مفضّلة لدي، بعد فطيرة الكريمة والشّوكولاتة.

بول: رابع حلوى مفضّلة لدي.

مارغريت: لم أتذوقها من قبل، لكنّي متأكدة من كونها الحلوى المفضّلة لدي الآن.

خجِلْت فجأة، أبعدتُ فتات الخبز عن غطاء المائدة. قالت: «كلّميه». ازدادت مدة الصّمت في أثناء محاولتي قول شيء ما. لربما عليّ أنْ أسأله عن وظيفته. فكّرت في أبي الذي عاد إلى المنزل بعد العمل بمزاج متعكّر، مشتكيًا من أوغاد تعامل معهم. لم نعرف أنا ورِمي إذا كان يقصد مجرمين أم زملاء.

سألته: لماذا أصبحت شرطيًّا؟

مارغريت: إنّها تقصد أنّها وظيفة خطِرة. حدّثتني عن إعجابها برجالنا الذين يرتدون البدلة الزّرقاء.

بول: حلمي منذ الصّغر هو مساعدة النّاس، وتوفير الأمن لهم.

مارغريت: هدف سامٍ.

سأل وفي عينيه بريق: ولماذا بحق السّماء أصبحتِ أمينة مكتبة؟

- أحبُّ الكتب أكثر من البشر أحيانًا.

بول: الكتب لا تكذب ولا تسرق. أهلٌ لثقتنا.

فاجأني كلامه، ولان قلبي أكثر.

سألته: ماذا تحب أنْ تقرأ؟

پول: هل الإجابة لكِ أم لنشرة المكتبة الدّوريّة؟

شعرت بالزّهو. «أتقرأ نشرتي؟»

پول: أحببت إجابة الآنسة وِد، وبحثت عن هرقليطس.

«لا نقع في ذات النّهر مرّتين» قال وقلت في وقت واحد.

قلت له بخجل: أسألك لاهتمامي الشّخصي.

پول: لا أفضّل الرّوايات. أحبّ الجغرافيا على وجه الخصوص. استمتعت بدراسة قواعد الإنجليزيّة، الأمور التي لها قواعد. المسائل التي يمكنني أنْ أشير إليها وأقول نعم، بهذه الطريقة تُحل. أعتقد لأنّي أحتاج إلى أمور حقيقيّة.

كنتُ على استعداد لمجادلته بشأن أنّ الرّوايات قد تكون أكثر واقعيّة من الحياة ذاتها، لكنّه تابع كلامه: «ربّما لأني أقضي وقتًا مع المجرمين الذين يتجاهلون القوانين. لا يهم المجرمين من سيتضرّر من أفعالهم. إنّهم يروون قصصًا جيّدة، وأعتقد أنّ لديهم سببًا وجيهًا لأفعالهم. شعور أنْ يكذب أحدهم عليك صعب».

- «إنّه مؤلم». قلت وأنا أفكّر في أبي وعاهرته.

تتحنح النّادل. نسيت أنّنا في مكان مزدحم، ونسيت أنّ مارغريت العزيزة إلى جانبي. بعد أنْ دوّن طلباتنا، قال پول لمارغريت بإنجليزيّة غير متقنة: «لا أعتقد أنّ بإمكاني العيش بعيدًا عن وطني. أنا معجب بشجاعتك».

مارغريت: هذا لطفٌ منك. شعرت بحنين بالغ قبل الالتقاء بأوديل.

أنا: أعانتني مارغريت كثيرًا في المكتبة.

سألَته بخجل: هل خطّطت للإجازة؟

پول: كل صيفٍ، أعين عمّتي في المزرعة.

مارغريت: قريبة من باريس؟

پول: في بريتاني.

«ستسافر؟» تساءَلْت بتجهّم. أحضر النّادل طعامنا. فقدت شهيّتي، فأكلت القليل من البطاطس المقليّة.

بعد العشاء، شكرت مارغريت پول، وغادرَت في سيارة أجرة. تحت أنوار الشّوارع البسيطة، مشى معي إلى المنزل. لم أعرف إذا كان عليّ التّعجّل كما أفعل دائمًا أو الانسجام مع خطواته. لم أعرف إذا كان عليّ وضع يدي في جيبي، أم تركها إلى جانبي حتّى يتمكّن من الإمساك بها، إذا شاء. صعدنا السّلالم، تساءلت إذا كان سيميل حتّى تلتقي الشّفاه، حتّى أستطيع تنفّسه كالهواء. عند الشّقة، لم يقترب. أخفيت إحباطي بإخفاض رأسي بحثًا عن المفتاح، كأنّه في قعر حقيبتي اليدويّة.

أولجت المفتاح في القفل، فقبض پول على رسغي. تجمّدت في مكاني.

قال: كنت سأطلب منك الخروج في موعد.

- كنت؟

- ثمّ عرض والدك الوظيفة علي.

تركت المفتاح.

أحبّني پول بسبب والدي. وضعتُ نفسي في موقف سخيف بالذّهاب إلى مركز الشّرطة. شعرت بالغثيان. احتجت إلى الانتقال إلى الجانب الآخر من المصطبّة، وإغلاق الباب ليفصل

بيننـا. انحنيـت، وأدرت المفتـاح، لكـن پـول كان أسـرع، أمسـكه بيـد، وأمسـك ذراعـي بيـده الأخـرى.

قـال وهـو يُصـوّب فهمـي: أنـا مؤهّـل للوظيفـة، وبصراحـة، أحتـاج إلـى الزيـادة فـي الرّاتـب لأتمكّـن مـن العيـش بكرامـة.

حدّقـت إلـى زر قميصـه الأزرق الصّغيـر. «مبـارك. متـى تباشـر العمـل؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

- رفضت عرضه.
- حقًا؟
- لا أريدكِ أنْ تظنّي ظنّ السّوء في مشاعري.

ابتهـج قلبـي. قبّلنـي. فـي البدايـة، كانت شـفتاي مغلقتيـن كممثلات الأفـلام، ثـم فتحتهمـا ولمـس لسـانه لسـاني. حيـن رفـع رأسـه، نظـرت إليـه بتعجّـب، شـعرت أنّـي قـد هويـت فـي مرتفعـات ودزرنـغ.

* * *

فـي يـوم الباسـتيل، إلـى شـقّة مارغريـت، قادنـي رئيـس الخـدم إلـى غرفـة المعيشـة، حيـث شـاهدت رسـومات لرجـال تتجـه أنظارهـم المتعجرفـة نحـوي. بفـزع، ابتعـدت عـن تلـك اللوحـات وتوجّهـت إلـى بيانـو ضخـم فـي زاويـة المـكان. كان بحجـم سيّارة أبـي. نقـرت عليـه بضـع مـرّات. لا أعـرف أحـدًا لديـه خـادم أو بيانـو – عيشـة رفيعـة قـرأت عنهـا فـي الرّوايـات فقـط. النّافـذة تطـل علـى الكنيسـة ذات القبّـة الذّهبيـة حيـث دفـن نابليـون. الجيـران هنـا مـن الطّبقـة الرّاقيـة. ينـدر فتحنـا النّوافـذ التـي فـي شـقّتنا بسـبب ذرّات الفحـم المتطايـرة مـن محطّـة القطـار. الأسـقف الخفيضـة فـي شـقّتنا منحتنـا الـدفء فـي بعـض الأيّـام، وأشـعرتنا بالاختنـاق فـي أيّـامٍ أُخَـر. تطـل غرفتـي

على العمـارة المقابلـة لعمارتنـا -علـى بعـد عشـرة أقـدام- حيـث تعلّـق مـدام فيلدمـان ثيابهـا الدّاخليّـة فـوق أصُـص نباتاتهـا. أشـعّة الشّـمس والمناظـر فـي غايـة الفخامـة هنـا. مارغريـت زوجـة لا تنسـجم مـع مفهومـي عـن الزّوجـات.

قالـت مارغريـت وابنتهـا بيـن ذراعيْهـا: هـل انتظـرتِ طويـلاً؟ رفضـت كرسـتينا الخـروج مـن حـوض الاسـتحمام.

خبّـأت الصّغيـرة وجههـا فـي بلـوزة مارغريـت. لـم أشـاهد إلّا جديلتيْـن مبتلّتيْـن.

ذَكّـرت كرسـتينا: التقينـا فـي سـاعة القـراءة؛ إنّـه وقتـي المفضّـل فـي الأسـبوع.

تحسّن مزاج الطّفلة، وقالت: وقتي المفضّل أنا أيضًا.

جـاءت المُربّيـة لتأخـذ كرسـتينا، ثـمّ مشـيت خلـف مارغريـت فـي غرفـة نومهـا المطليّـة بـالأزرق الفاتـح باتّجـاه غرفـة تبديـل الثّيـاب التـي كانـت بحجـم مكتـب الآنسـة ريـدر. علّقـت مارغريـت إلـى أحـد الجـدران فسـاتين النّهـار، أمّـا الجـدار الآخـر فعلّقـت فسـاتين السّـهرة؛ كل فسـتان يسـاوي راتبـي لمـدة تزيـد علـى سـنة. وجـدت صعوبـة فـي تصديـق أنّ امـرأة واحـدة امتلكـت هـذا العـدد مـن الثّيـاب، مـن المسـتحيل عـدم التّحديـق ببلاهـة. الألـوان! لـون التّفـاح الأحمـر، العسـلي، الأخضـر النّعناعـي، لـون عـرق السّـوس! لـم أتوقّـف عـن لمـس الفسـاتين.

- أتريدين تجريب أحدها؟

- أكيد!

لـم أتمكّـن مـن الاختيـار، ولهـذا ناولتنـي مارغريـت الفسـتان الأسـود. قرّبتـه مـن جسـمي، وطفـت حـول الغرفـة. «هيّـا، مـاذا تنتظريـن؟"

سَـحبَت الفسـتان الأخضـر وشـاركتني الطّـواف فـي الغرفـة. ترنمنـا بكلمـات أغنيـة «حبيبـي المحـارب» [Mon Légionnaire] حتّـى أنهكنـا الغنـاء والرّقـص والضّحـك، وارتمينـا علـى كومـة ثيـاب حريريّـة.

«هـل قاطعتكمـا؟» تكلّـمَ الرّجـل بإنجليزيّـة فيهـا لكنـة فرنسـيّة ظاهـرة. شـاربه الأسـود الرّفيـع يشـبه شـارب سـلڤادور دالـي.

وقفنا. عرّفتنا مارغريت إلى بعضنا.

قال لي: Enchanté [تشرّفنا].

أطلقت صحـف المجتمع عليـه لقب أفضـل مصفّـف شـعر بسـبب أناقـة زبائنـه. لـم يستشـرهم فـي مـا يريـدون. كان يعـرف مـا يجـب فعلـه بـكل بسـاطة. منحـتُ مارغريـت أيّامًـا مـلأى برتـق الكتـب، ومنحتنـي موعـدًا مـع أهـم مصفّـف شـعر فـي باريـس.

جعلتنـي مارغريت أجـرّب الفسـتان الأسـود لتتمكّـن خادمتهـا مـن ترتيـب حاشـيته، ثـمّ أجلسـتني علـى كرسـيّها أمـام مرآتهـا المزخرفـة.

قالت حين بدأ السّيد ز بتسريح شعري: پول شـاب لطيف.

- أتعتقديـن أنّ بيننـا أمـورًا مشـتركة بشـكل كافٍ؟ هـو شـرطي، وأنـا مجـرّد أنـا.

«لورنـس ورفاقـه فـي كامبريـدج يمكنهـم إنشـاد السّـونيتات، لكـن هـذا لا يعنـي أنّهـم يعرفـون أي شـيء عـن الحـب. مـن الواضـح أنّ پول يهتـم بكِ، وهـذا أهـم مـن مسـمّاه الوظيفـي، أو الكتـب التـي يقرؤهـا».

كنت سأخبرها بأنّي أقدّر تطميناتها، لكنّ السّيد ز بدأ بعمل مساج لفروة رأسي، فاستمتعت بالتّجربة. لم أدرك مقدار التّوتّر الذي شعرت به -بخصوص مشاعري المتزايدة نحو پول، والبعد المؤلم بيني وبين رِمي، وأبي الذي يهملنا بسبب عشيقته- حتّى تلاشى. كلّما قصّت أمّي شعري، واجهت صعوبة مع التّشابك، أمّا السّيد ز فكان مشطه يتخلّل خصلات شعري كسكّين على زبدة.

كانت تلك المرّة الأولى التي أجرب فيها تصفيف شعري باحترافيّة، وقد أذهلني المصفّف حين لفّ خصلات شعري حول أداة ساخنة لتكوين خصلات متماوجة.

انتهى، ولوّح بيديه فقال: «ها قد انتهينا!». صاحت مارغريت: «مثل تصفيفة شعر [الممثلة الأمريكيّة] بتي ديڤيس. ستغوين الجميع بجمالك».

ربط المصفّف شعر مارغريت على شكل كعكة مرتفعة. سألتني حينها: أتعتقدين أنّ لدى الآنسة ريدر حبيب؟

- اصطحبها السّفير إلى حفل المكتبة.
- يقولون إنّ بِل بوليت مفاوض بارع، لكن ليس مخلصًا. أعرف قنصلًا نرويجيًا يلائمها. سأنصحه بالاشتراك في المكتبة.
- سيتعيّن عليه الوقوف في الطّابور مع الآخرين.

انتهى المصفف من شعر مارغريت، فنظرت إليّ عوضًا عن النّظر إلى المرآة. وسألتني: «ما رأيك؟»

«رائعة. قلبًا وقالبًا» قلت لها من صميم قلبي.

خجلت، ثمّ تساءلتُ متى أثنى أحدهم عليها آخر مرّة.

قلت لها: سيقع لورنس في غرامك من جديد.

- صعب... إنّه مشغول جدًّا.

«لا يراني الجميع كما ترينني يا أوديل». وقفت دون أن تلمح نفسها في المرآة.

ارتدت الفستان الأخضر بلا حمّالة صدر، وناولتني الفستان ذا الحاشية. انزلق الحرير على جسدي. مختلف كثيرًا عن الصّوف الذي ارتديته في الشّتاء، أو اللينين في الصّيف. أغلقت سحّاب فستاني، وانقطع نفسي لحظة حين شاهدت انعكاس شكلي في المرآة. تبدو فساتيني كغطاء مائدة علي، أمّا هذا الفستان فكان بمقاس خصري، ضاغطًا على نهدين كنت أجهل أنّي أمتلكهما. ضيّق، لكنّي كنت أعلم أنّي مثيرة. تمتلك مارغريت الكثير، ولا أملك إلّا القليل.

قالت لي: هذه هي المرّة الأولى التي أستمتع فيها بالاستعداد لحفل في باريس. أتمنى أنْ تزوريني مرّة أخرى.

فساتين ومصففو شعر... يمكنني الاعتياد على الفخامة. دعوتها هذه أزالت الحسد من قلبي.

في أثناء نزولنا إلى القاعة للانضمام إلى لورنس في مختلاه، سمعت هسهسة حسيّة من فستاني وهو يلامس ساقي. تمنيت لو أنّ پول يراني.

لورنس جالس على أريكة، تغطي صحيفة ذاهيرالد نصفه العلوي. تنحنحت مارغريت الواقفة إلى جانبي. أنزل الجريدة. رموشه الدّاكنة حجبت عينيه الزّرقاوين. قال لي: «تسلبين الألباب!» وقف وقبّل يدي. توقّعت تقبيله يد زوجته، لكنّه لم يشح ببصره عنّي، ظلّ ممسكًا يدي. «لو لم أكن متزوجًا...». هزّ حاجبيْه، وضحكت بسرور ظاهر.

«هل تعرف السّيد بريس-جونز؟» سألته وفي نيّتي التّفاخر أنّي أنا أيضًا أعرف شخصًا ينتمي إلى الوسط الدّبلوماسي الرّفيع.

- أسطورة! لقد كتب اتّفاقيّات العلاقات البريطانيّة-الفرانكفونيّة، ولم يهزم في نقاش منذ 1926. كيف تعرّفتِ إليه؟

قالت مارغريت باعتزاز: إنّه أحد روّاد المكتبة.

لم يشح لورنس ببصره عنّي. «غمرتِها بلطفك، فجعلتها تؤدي دور أمينة المكتبة».

إلى جانبي، تيبّست مارغريت. تذكرت جملة من أعينهم كانت تراقب الرّب:

ثمّ نشّت وجهها، وكوته، حسب ما يريد الآخرون رؤيته...

أجبته: «لم تؤد أي دور»، ثمّ أبعدت يدي عن يده، وأحطت بخصرها. «مارغريت منافسة قويّة».

عمّ المكان شعورٌ بعدم الرّاحة. تحوّل لورنس من الجاذب لي إلى المتعالي، أمّا مارغريت فكانت لا مبالية. تذكّرت نصيحة أمّي إلى قريبتنا كلوتيلد: حاولي تمديد أمد العلاقة قدر الإمكان.

«تبدو وسيمًا». قالت مارغريت بنبرة تشي بأنّها منهكة من تعاسة لا تريد الاستمرار فيها.

«وأنت أيضًا» قال بشرود وهو ينظر إلى ساعة جيبه.

- هل نغادر؟ السّائق ينتظر.

في مقر إقامة السّفير البريطاني، تحت أنوار الثّريات السّاطعة، نساء يرتدين الجواهر الباهرة. مثل لورنس، ارتدى كل الرّجال بذلًا رسميّة سوداء. حفلة تناسب أحلامي. تقت إلى سماع قصص أسفار الحضور، والكتب التي قرؤوها.

تركنا لورنس الذي توجّه نحو سيّدة ناهد، قال لها: إذا لم تكوني سعيدة في زواجك، فسوف آخذك لنفسي.

مسّدت صدره كأن مارغريت ليست موجودة، وقالت: عزيزي، لا تدع الزّواج يعيقك!

هذا وسط فاسد. فهمت رأي مارغريت المتعلّق بالأوساط الدّبلوماسيّة. تجهّمت في وجه لورنس، وغضبت منه لأنّه أهان مارغريت بهذه الطّريقة، وغضبت منّي لأنّي قد صدّقت ملاطفته.

«لا تسمحي له بإفساد مسائك». أشارت مارغريت إلى سيّدة بدينة. «هذه زوجة القنصل. إنّها مسؤولة عمّن واجهوا صعوبة في الاندماج مع الآخرين.

مارغريت: سيّدة ديفيس، تسعدني رؤيتك. جزيل الشّكر لنصيحتك بزيارة المكتبة.

أجابت بود: تبدين أفضل.

مارغريت: هل قابلتِ صديقتي الجديدة العزيزة؟

السّيدة ديفيس: يمكن صديقة واحدة إحداث تغيّر جذري. أجل، تقابلنا في محاضرات البروفيسور كوهِن.

لم أكن أعلم أنّ السّيدة ديفيس منتدبة غير رسميّة في الوفد الدّبلوماسي، ورحّبت بكل ضيف جديد شخصيًا. «ما أجملكِ!» قالت لسيّدة شاحبة أبهجها الثناء. «هل تأقلمتِ؟» سألت إيطاليّة وحيدة بدت متوتّرة. «قد تكون فرنسا حلم النّساء، لكن الاعتياد عليها يحتاج إلى وقت».

«يستحيل أنْ نسمح لهتلر بالتّقدم في أوروبا!» قال السّيد بيرس-جونز بصوت انتشر صداه في قاعة الاحتفال كما حدث مع السيّد نيرسيات. «يجب أن نتضامن ونحاربه».

سألت: أيدرك أنّه في حفل؟

أجابتني مارغريت: الجميع يتحدّث عن الحرب هذه الأيّام.

سألتُ السّيدة ديڤيس: هل شاهدتِ مسرحيّة **عطيل** الأسبوع الماضي؟

تحدّث عدد قليل من الضّيوف بحيويّة فيما لا يتعلّق بالحرب. «ما أسوأ مسرحيات شكسبير باللغة الفرنسيّة!». «Trè bizarre» [في غاية الغرابة]. «دزدمونا مسكينة».

- قال الجنرال ويغاند إنّ الجيش الفرنسي أقوى ممّا كان عليه من أي وقت سابق.
- قال الجنرال ويس إنّ القوّة الجويّة الفرنسيّة هي الأفضل في أوروبا. لا مبرّر للقلق!

أضاف لورنس بإصرار: يجب أن نكوّن تحالفات. إيطاليا كانت حليفة، لكنّ موسوليني قد أمضى على معاهدة تعاون مع هتلر.

- أيعرف أحدكم اسم مصمّم الأزياء المُوقّر؟
- يجب أنْ تذهب إلى شيز جينڤييڤ. إيما جين كيربي فعلت. فستانها فخم!

همست مارغريت، وهي تحدّق إلى الجميلة الشّقراء: أتصدقين أنّ إيما تلاطف رجلًا أكبر من عمرها بثلاثة أضعاف. لا بدّ أنّه في غاية الثّراء!

أجبتها: هذا الكهل يتصابى.

السّيد بريس-جونز: لورنس الشّاب على حق! علينا مراقبة الأحداث المحيطة بنا.

السّفير: هراء. علينا تهدئة هتلر.

مارغريت: كهل أحمق سخيف!

قهقه لورنس: أحمق غير كفء!

نادت زوجة القنصل: نبيذ! مزيدًا من النّبيذ.

Fantastique [رائع]! المرّة الأخيرة التي شربت فيها نبيذًا كانت في احتفال السّنة الجديدة. فُتحت القناني؛ إشارة إلى الاحتفال. الصّوت المفضّل لدي في العالم كلّه – غلمان يطوفون في الغرفة لتقديم كؤوس النّبيذ. كل ما قُدّم لي كان على صوان من فضّة. الفقاعات متلألئة في كأسي، نُهير بارد تدفّق في بلعومي. كنت في غاية الانبهار، ونسيت تصرّف لورنس الفظ، ونسيت مناوشات أعضاء السّلك الدّبلوماسي. انتبهت إلى لوحات ترنر على الجدران، تذوقت الكافيار الذي قدمه رجالٌ يرتدون قفّازات بيضاء. تملك مارغريت كل هذا، بفضلها عشت ليلة استمتعت بكل تفاصيلها. انفجرت ألعاب ناريّة في السّماء. أردت مشاهدتها، فجذبت مارغريت إلى الخارج، حيث انضممنا إلى المحتفلين في الحديقة. عبق الأزهار أحاط بنا. الجدران العالية حجبت المدينة عن بصرنا. المنزل الضّخم بأنواره المضاءة متألّق. فوقه، مصابيح تضيء وتخفت، وجذل امتلأت به، كل المخاوف المتعلّقة بأخي رِمي، بأبي، وبول قد تلاشت.

10
أوديل

جاء پول إلى المكتبة مرارًا لدرجة أنّ الآنسة ريدر أطلقت عليه لقب «أكثر رواد مكتبتنا إخلاصًا». في فترات بعد الظّهيرة كان في الخفارة، ركن درّاجته الهوائيّة في الفناء وساعدني في المهام كنزع التّغليف الذي يحمي المجلّات، مثل مجلّتيْ لايف وتايمز اللتين تعبران القارّة. مع الأسف، تحت أنظار سيمون، كان اختلاس قبلة أمرًا مستحيلًا.

المنزل ليس مكانًا أفضل. فصلتني عنه مسافة نصف متر تقريبًا، تركنا أنا وهو كؤوس الشّاي دون شربها. «أتعتقد أنّ المطر سيتوقّف؟» سألته، وأمّي تسمعنا بالقرب منّا.

- ستنقشع السّحب.

سيغادر إلى بريتاني غدًا، ومع ذلك كنّا نناقش هطول المطر كغرباء في محطّة حافلات.

قال لي: لنتمشَ. أريد أن آخذك إلى مكاني المفضّل في باريس.

قالت أمّي التي في الرّواق: غير مسموح.

«أرجوكِ ماما» قلت والقلق ظاهر في صوتي. «سيغيب عنّي معظم شهر أغسطس».

- هذه المرّة فقط. لكن لا تتأخّري.

دفّأت يده ظهري في الحي، وسط سيمفونية من أبواق السّيّارات، مرورًا ببائع دخّن سيجارته خارج محلّه، وصولًا إلى

محطّـة (غـار دو نـورد). تحـت سـقفها المزجّـج، يحمـل عتّالـون يرتـدون ثيابًـا زرقـاء الأمتعـة، والمسـافرون يصـرخـون ويتدافعـون ليشـقّوا طريقهـم إلـى القطـارات.

أشـار پول إلـى الرّصيـف، حيـث قبّـل شـابٌ يرتـدي نظّـارة طبيّـة امـرأة نزلـت مـن عربـة. «آتـي إلـى هنـا لأكـون فـي حضـرة الحـب. لعلّـكِ تحسـبينني مجنونًـا، أتجسّـس علـى النّـاس...».

هـززت رأسـي نفيًـا. أنـا أقـرأ الكتـب لهـذا السّـبب؛ لأختلس النّظـر إلـى حيـوات الآخرين.

مـرّ بنـا موسـيقي يحمـل آلـة الترومبيت متعجّلًا، ومجموعة كشّـافة حدّقـوا إلـى القاطـرة، وامـرأة أفلتـت يـد طفلهـا، ليركضـا باتّجـاه رجـلٍ يرتـدي معطـف مطـر. عانقهمـا ورفعهمـا ودار بهمـا.

قلت: يا للجمال!

فكرة العودة إلى الوطن جعلته يتسمّر في مكانه.

سألته: ما الأمر.

- لا شيء.

- لا شيء؟

ظلّ يراقـب الأسـرة حتّـى خرجـت المحطّـة. كنـت أعيـش مـع أهلـي علـى مقربـة قطعـة سـكنيّة واحـدة مـن هنـا.

- حقًّا؟

- غـادر أبـي... حيـن كنـت فـي السّـابعة مـن عمـري. قالـت أمّـي إنّـه قـد سـافر فـي رحلـة طويلـة بالقطـار. مقتنعًـا أنّـه سـيرجع، جئـت إلـى هنـا». التفـت إلـيّ. «ومـا زلـت آتـي إلـى هنـا».

قرّبته منّي، فدفن وجهه في شعري. شعرت بضربات قلبه على ضربات قلبي. ربما لا خطورة في الثّقة.

قال: لم أخبر أحدًا عن الموضوع من قبل.

في الطّريق إلى المنزل، لم ينطق أي منّا بكلمة. ارتقينا السّلالم بخطوات وئيدة إلى الشّقة.

سألته: أيمكنك البقاء؟

قبّل صَدغي، وجنتي، شفتي. «وأدَّعي أنّ الابتعاد عنكِ لا يحزنني؟ لا أستطيع».

شاهدتُه وهو ينزل السّلالم، وسمعت صوت فتح باب الشّقة خلفي.

رِمي: كأنّي سمعت صوتًا. أكنتِ تكلّمين نفسكِ؟

«كلّمت پول» أردت إخبار رِمي عن تلك اللحظة الوحيدة التي شعرت فيها بالسّعادة والخفّة كأنّني يراعة، ومع ذلك أحيانًا، كهذا الوقت الذي انفصلت فيه عن پول، شعرت بالتّعاسة. «يشغل تفكيري». حاولت إبقاء پول في هوامش ذاكرتي، لكنّه انتقل إلى تلافيفها، إلى مركز قصّتي.

رِمي: أنتِ عاشقة. سعادتك تسعدني.

- أتمنّى أنّك سعيدٌ أيضًا.

- هذا ما كنت سأقوله لكِ. أغرمتُ بِبتْسي.

ملائمان لبعضهما، وشعرت بشيء من الاعتزاز لأنّي أديت دورًا بسيطًا في تقريبهما من بعض. «حاولت تعريفك إلى السّيد نيرسيات والسّيد بريس-جونز، لكن قد تكون بِتْسي أفضل منهما».

- قد؟

- هل أخبرتها بشعورك؟
- أردت إخبارك أوّلًا.

تشاركنا الكثير من تفاصيل حياتَيْنا. هو القارئ الأوّل لنشرتي المكتبيّة، والوحيدة المسموح لي بتنقيح مراجعاته لكتب القانون. كنّا نتكلّم حتّى جوف الليل في أثناء شرب الشّاي في المطبخ. أحطنا بأسرار بعضنا. رِمي ملاذي.

غير أنّ الأمور كانت تتغيّر. كنت مع پول؛ وهو مع بِتّسي. أنا موظّفة، وهو قد تخرّج. لعل هذا العام هو الأخير الذي نقيم فيه معًا تحت سقفٍ واحد. أنا معه من قبل ولادتنا، لكنّنا سنعيش حياتَيْن منفصلتَيْن. تساءلت كم عشنا معًا.

***

اختبرتُ مارغريت في درس اللغة الفرنسية في درس البارحة بعد انتهاء العمل. «تنقسم الأفعال إلى ثلاث أسر: أن تحب، أن تتكلم، أن تأكل تنتمي إلى أي أسرة؟»

أجابتي: «Aimer، parler، manger تنتمي إلى الأفعال المنتهية بـ -er. أسرة... ما أجملها من كلمة لوصف الكلمات».

- لا تنسي اللغة الفرنسيّة إذا سافرتِ إلى لندن.
- سأسافر أسبوعين فقط.

مشينا حتّى الفناء، حيث دراجة رِمي المثبّتة إلى الجدار.

- Merci [شكرًا] على اقتراح التّطوّع. أشعر أخيرًا بالانتماء إلى شيء.
- Merci à toi [الشّكر لكِ] لولاكِ لكنت ما زلت أملأ الصّناديق، أو أنتظر أمام مركز الشّرطة.

«لا تبالغي!» احمرّت وجنتاها، وسُرّت أيّما سرور.

«لا أعرف ما يمكنني فعله دونك». يمكنني إخبارها بالمزيد من الأشياء، لكن في أسرتي، لم نناقش مشاعرنا. دونك، لم أملك شجاعة البحث عن پول. تعليمكِ قد ذكّرني بجمال الفرنسيّة، جمال سلّمت بوجوده. المهام الباعثة على الملل –كشحن الكتب، ترميم المجلّات، نقل الجرائد القديمة إلى قسم الأرشيف– السّاعات تمضي سراعًا بمؤازرتكِ.

حين قالت: «صديقتي العزيزة، لا أعرف ما كنت سأفعل لولا مساعدتك أيضًا»، تمنيت لو أنّي قد قبّلت وجنتيْها. لكنّي، كنت أفكّر في طعام العشاء، فجلست على درّاجة رِمي.

سألتني: أتعرفين ركوبها؟

«ألا تعرفين؟» أبعد رجلي عن الدّواسة، وعرضت عليها تعليمها.

– لن أتمكّن من التّعلم، وسأجعل من نفسي أضحوكة إذا سقطت.

– لماذا تهتمين إذا جرحتِ نفسك أمام الباريسيين؟ لن يعلم أي شخص في وطنك.

أمسكتْ الدّراجة بعزم. دارتْ رجلها على الدّواسة. تأرجحتْ مع تقدمها. أمسكت ذراعي بيد، والمقود باليد الأخرى.

– لا أستطيع.

– استطعتِ. أحكمي مسك المقبضيْن.

– لا أعتقد أنّها فكرة جيّدة.

– قلت لها، وأنا أدفعها بلطف في ذات الوقت: تتعلّمين الفرنسيّة وتعيشين في بلد غريب. ركوب الدّراجة أقل منهما بكثير. Bon vent! [بالتّوفيق]

مع ازدياد سرعة مارغريت، طارت تنورتها فوق ركبتيها. «سأحاول مرّة أخرى إذا وقعت».

- هذا هو المطلوب!

قادت ببطء.

- أنا خائفة.

أسرعت إلى جانبها: ثقي بي! لن أسمح بحدوث شيء لك.

«أنا أثق بكِ» صرخت. طغى ابتهاجها على التّردد الذي في صوتها.

أفلتها، وكنت على استعداد للإمساك بها إذا سقطت.

* * *

باريس حارّة ورطبة في الصّيف، كثير من روّاد المكتبة ذهبوا للتّشمّس في نيس وبيارتز، أو أوطانهم لزيارة أقاربهم في نيويورك أو تشينشيناتي. استمتعت مع الآنسة بلحظة نادرة من الهدوء إلى مكتبي. بدت سعيدة في فستانها المنقّط. شعرها مسرّح إلى الخلف، وقلمها الرّمادي جاهز في يدها لكتابة خطاب أو رسالة شكر.

أغلب النّاس الذين في حياتي -من أبي وأساتذتي إلى الموظّفين والنُّدُل- رفضوا أخذي إلى دروس الباليه، وقالوا: لا، يجب أنْ يكون قوامك مثاليًا. وحين أردت أخذ دروس في الرّسم، قالوا: لا، لا تمتلكين الخبرة اللازمة، وحين أردت شرب نبيذٍ أحمر، قالوا: لا، الأبيض أفضل مع الطّبق الذي طلبته». الآنسة ريدر مختلفة. حين سألتها إذا كان بإمكاني إجراء بعض التّعديلات في قاعة الدّوريّات، كان من الصّادم سماع: نعم.

أردت أنْ أسـألها أسـئلة كثيـرة. مـا رأي والديـك فـي اسـتقرارك هنـا؟ مـن أيّـن جاءتـك شـجاعة الانتقـال إلـى بلـد أجنبـي؟ هـل سـأحظى بشـجاعتك يومًـا مـا؟ سـمعت صـوت أمّـي فـي ذهنـي: لا تتطفّلـي عليهـا. انشـغلي بأمـورك! اضطربـت الأسـئلة فـي داخلـي، حتـى سـألها أحدهـم: مـا سـبب مجيئـك إلـى فرنسـا؟

«علاقة حب». التمعت مُقلتاها العسليّتان.

ملتُ إليها. «حقًّا؟»

- أُغرمت بمدام دو ستيل.

- الكاتبة؟

- فـي شـبابها، قـال النّـاس إنّـه كانـت هنـاك ثـلاث قـوى عظمـى فـي أوروبـا: بريطانيـا العظمـى، روسـيا، ومـدام دو سـتيل. أهانـت نابليـون بقولهـا: «الخطـاب ليـس مـن تأليفـك»، فحـرق كتابهـا ونفاهـا.

- لم تكن تهاب أي شخص.

- هـل تصدّقيـن أنّـي تسـللت إلـى المنـزل الـذي عاشـت فيـه؟ أردت دخـول الفنـاء فقـط، لكـن حيـن حيّانـي خـادم بتحيّـة الصّبـاح، كأنّـي أنتمـي إلـى المـكان، تمشّـيت، ومـرّرت يـدي علـى الدّرابزيـن، حدّقـت إلـى الجـدران التـي عُلّقـت عليهـا صـور عائلتهـا يومًـا مـا. لعـل هـذا يبـدو مدهشًـا.

- يبدو حبًّا. جئتِ فعلًا من أجل كاتبة؟

- كنـت فـي إسـبانيا لتنظيـم جنـاح مكتبـة الكونغـرس فـي معـرض إيبيريـا. كانـت هنـاك فرصـة عمـل، فاسـتغللتها. مـاذا عنـكِ؟ أتحبيـن السّـفر؟ أتمنيـتِ أن تكونـي أمينـة مكتبـة؟

- أردت العمل هنا دائمًا. في رسالتي، أخبرتكِ أنّي أردت العمل في هذه المكتبة لأنّي اعتدت المجيء إليها مع خالتي. أنتِ تذكرينني فيها – بطريقة تسريح شعرك على شكل كعكة، ومعاملتك للآخرين بلطف، وحبّكِ للكتب.

اقتربت الكونتيسة. ملفّات تحت ذراعيْها. ذكّرني شعرها بالبحر في يوم غائم؛ خصلات سُرحت لتكون على شكل أمواج فوق شيب ظاهر. نظارة القراءة مثبّتة على أنفها أوحت بأنّها ستلقي محاضرة علينا.

قالت للآنسة ريدر: يجب أنْ نتكلّم.

«يمكننا استكمال حوارنا لاحقًا إذا شئتِ» قالت لي الآنسة ريدر قبل مرافقة المتبرعة إلى مكتبها.

في أثناء تعديل صفحات الجرائد، قرأ بورِس لي من جريدة لوفيغارو: «أشار السّيد نيفيل تشامرلين إلى تأجيل جلسات البرلمان –من الرّابع من أغسطس إلى الثّالث من أكتوبر– ما لم يستجد أمر استثنائي يدعو إلى استئناف الجلسات».

قلت له: «أريد إجازة» وفي خاطري لقاء پول.

فأجابني: رشّحي نفسك للبرلمان.

على الأقل سيكون بإمكاني ترقب غداء يوم الأحد ولو لمرّة واحدة. دعوة رِمي لبِتْسي، بمثابة إعلان خطوبة. خشيت فقط أنْ يفسد أبي كل شيء بإهانته له.

جمعت جرائد الأسبوع الماضي، وأخذتها إلى قسم الأرشيف، مرورًا بمكتب الآنسة ريدر في الطّابق العلوي. كان الباب مفتوحًا، فدخلت.

ملامح وجهها لا تبشر بالخير، قالت: استلمت رسالة من مكتبة الجامعة في ستراسبورغ. كتب السّيد وِكرشام أنّه قد جهّز وهرّب 250 صندوق كتب بمساعدة مدام كولمان.

«الحرب وشيكة» أضافت الكونتيسة بصوت مرتعش.

ستراسبورغ قريبة جدًّا من ألمانيا. نقل أمناء المكتبة الكتب إلى مكان آمن، ولم يقل السّياسيّون شيئًا عن إخلاء البشر؟

قالت الآنسة ريدر: شُحنت الصّناديق إلى إقليم بوي دي دوم. يجب أن نستعد.

سألت نفسي: هل الجنوب الشّرقي آمن من ستراسبورغ؟ آمن مِن باريس؟

- سأنقل كتبنا الثّمينة إلى منزلي الرّيفي؛ أوراق [الشّاعر] ألان سيكر، والطّبعات الأولى. لن تتضرّر.
- سنشتري كميّات كبيرة من الطّعام المعلّب، والمياه المعبّأة، والفحم. رمال لإطفاء النّيران.

تنهّدت الكونتيسة. «وأقنعة غاز، قد تشبه هذه الحرب سابقتها. عشرة ملايين قتيل، والكثير من الجرحى والمشوّهين. لا أصدّق أنّ هذه يحدث مجدّدًا».

موتى، جرحى، مشوّهون. تجنّبت كلّ حديث عن الحرب، حوّلت دفّة الحديث كلّما تكلّم رِمي عنه، أو هرعت إلى قاعة كتب الأطفال إذا تطرّق السّيد بريس-جونز بحديثه عنها. لكن يبدو الآن أنّ المكتبة في خطر. قد نكون في خطر. يجب أنْ أواجه حقيقة أنّ الحرب على الأبواب.

11
أوديل

عند الساعة 11:55، وتحديدًا وقت الغداء في يوم إعلان خطوبة بِتْسي، جلسنا أنا وأهلي على الأريكة. ارتديت بلوزة حريريّة ورديّة اللون استعرتها من مارغريت لهذه المناسبة السّعيدة. وجنتا أمّي ورديّتان كخوخ شهي، وقد تزيّنت ببروش نسائي على الطّراز الفكتوري، ارتدته للمناسبات الخاصّة. بذلة أبي ضيّقة، وقد أرخى ربطة عنقه. رنّ جرس الباب، فهرع رِمي لفتحه. كالعادة، شعرها مجدول على شكل تاج، لكنها ارتدت فستانًا أخضر ليمونيًّا عوضًا عن فستانها البنّي. تبادلا النّظّرات. مشهد حبس أنفاسي، وآلمني بعض الشيء، إذ تمنيت وجود پول معي.

حين لاحَظت بِتْسي وجودنا، تجنّبت النّظر إلى عيني. خجلًا أم غضبًا من أمر ما؟ ألأنّي اعتدت ترك كأس الشّاي دون غسلها في المكتبة، حيث ذكّرتني أكثر من مرّة أنّ لا أحد سينظّف مكاني.

تهلّل وجه أمّي فقالت لبِتْسي: أوديل ورِمي قالا أمورًا تسرّ الخاطر عنكِ.

أبي: سمعت أنّك إحدى الفتيات اللاتي يعملن، أيضًا.

فأجابته وهي تنظر مباشرة إلى عينيّه: أنا أساعد أسرتي يا سيّدي.

أبي: فعلٌ حميد.

تنفّست أمّي بتوتّر أملًا في أنْ يحسن أبي التّصرف.

قال لبِتّسي: تعملين مع الأطفال. هذا يعني أنّك تتمنين الإنجاب.

استحت بِتّسي، وطوّقها رِمي بذراعه لحمايتها، وقال لها: تجاهلي زلّة لسانه.

حملقت إلى أبي، وعجزت عن تلطيف الحديث. اعتاد التّفوّه بكل ما يفكّر فيه.

«هل تحيكين الصّوف؟» سألتها أمّي في محاولة لإعادة الأمور إلى نصابها.

«بعد القراءة، هي الأمر المفضّل الذي أقضي به وقتي. أحبُّ الصّيد أيضًا».

أشار أبي إلى غرفة الجلوس، حيث جهّزنا أواني الشّراب، لكنّ أمّي أشارت إلى غرفة العشاء. لم تتمكّن أمّي من إيقاف بابا عن مضايقة بِتّسي بأسئلته كأنّه سيعينها في وظيفة عنده، لكنّ الشّابة ستتصدّى له.

جلس أبي إلى رأس المائدة. كنت إلى جانب أمّي، الثّنائيّان السّعيدان أمامنا، وبِتّسي إلى جانب أبي. أحضرت العاملة اللحم المُحمّر والبطاطس، ووضع أبي الطّعام لبِتّسي ولي ولأمي، ثمّ لرِمي ولنفسه. تجنّبَت بِتّسي النّظر إلى عيني خلال تناول الطّعام. شعرت بأنّ أمّي تفكّر في صندوق جواهرها بحثًا عن خاتم جدّتها من الأوبال لتعطيه لرِمي ليهديه إلى بِتّسي. سيقام حفل زفاف، وشهر عسل. تساءلت إذا كان العروسان سيقيمان معنا، على الأقل في البداية. نظر رِمي إلى بِتّسي الممسكة بيده. كان أكثر ثقة بنفسه وهي معه.

قال: أريد الإعلان عن شيء.

إذن هذا هو الأمر. مخطوبان منذ مدة. تجنّبت بِتْسي نظراتي لأنّها تحتفظ بسر. حسنًا، لم يعد سرًّا! رفعت نظارتي لأهنئهما.

«وما هو؟» ابتسم أبي ابتسامة عريضة في وجه بِتْسي.

رِمي: التحقت بالجيش.

وضعت أمّي يدها على فمها من هول الخبر. تدلى فك أبي. توقّفت ذراعي عن الحركة. نقل الخبر ببرود، حَسْم القرار في صوته هو الذي آلمني. كأنّه أفرغ الرّصاص في المائدة، في كؤوس الماء، وما تبقى من الصّلصة. لم ألاحظ ارتعاش مفاصلي إلّا عندما انتبهت إلى اهتزاز النّبيذ في الكأس. بِتْسي الوحيدة التي حافظت على هدوئها. ناقش رِمي خطّته معها. أيّدَته حتمًا. لعلّها هي من شجّعته.

«ماذا؟ لماذا؟» تساءلت أمي.

فأجابها رِمي: لا يمكنني الجلوس في المنزل. علينا التّصرّف.

«تصرّف هنا» أشارت لأبي. «التحق بالشّرطة».

يمكنني قراءة أفكار رِمي: آخر ما أريد هو أنْ أصبح مثله.

أبعد أبي نفسه عن المائدة. كشَطَ كرسيّه الأرض واختلّ توازنه. توقّعت أنْ يهاجم شقيقي بالسّلاح الذي في عهدته. باستهزاء قال: كيف ستصبح جنديًّا؟ بالكاد يمكنك الوقوف باستقامة. بازدراء أضاف: رفضت قطع شجرة عيد الميلاد معي، وأشك في مقدرتك على قتل إنسان. بتأنيب: ما الذي ستسبّبه لأمك المسكينة؟ برجولة: أتعتقد أنّ الجيش سيقبلون بمهزوز الشّخصيّة مثلك؟ لا يقبلون إلّا بالرّجال الحقيقيين مثلي. بغضب: أنا ربُّ هذه

الأسـرة. كيـف سـجّلت اسـمك فـي الجيـش دون إبلاغـي!

غـادر أبـي الغرفـة دون أنْ ينبـس ببنـت شـفّة. بعـد ثانيـة، سـمعنا صَفْقَ البـاب. تبادلـت مـع أمّـي نظـرات حائـرة. همسـت بِتْسـي فـي أذن رِمـي. نظـر إلـيّ.

إذن؟ سمعته يقول في ذهنـي.

انتَظَـرَ أنْ أتمنـى لـه التّوفيـق، لكـن كل مـا تمكّنـت مـن قولـه هـو: لا تفعـل...

فـي عينيه ألم. كان متيقنًا من مساندتـي له.

لا أريـد أنْ تفرّقنـا مسـافة مكانيّـة. ليـس فـي هـذه الفتـرة الزّمنيّـة. «أتجهـل كـم سـأشـتاق إليـك؟» قلـت بسـرور فيـه ادّعـاء. «يجـب أنْ نسـتغل كل دقيقـة مـن وقتنـا قبـل مغادرتـك».

- سـأغادر خلال ثلاثة أيّام.

- ماذا؟

- لأبـي معـارف فـي كلّ مـكان، ولا أريـد منحـه الوقـت ليعثـر علـى شـخص قـادر علـى طـردي مـن الجيـش قبـل أنْ أطـأ أرض المعسـكر.

قامت أمّي لتعديل كرسي أبي.

12

لِيلي

فرويد. مونتانا. مارس 1984

أقيمت جنازة أمّي في أوّل يوم من فصل الرّبيع. مقابل الكنيسة، ورود حمراء على نعشها. يصعب تصديق أنّها في التّابوت بدل المنزل، جالسة على مقعد قرب النّافذة. جثمت مع أبي أمام الجثمان، أوديل وماري لويز إلى جانبنا. لم تتوقّف شفتي السّفلى عن الارتجاف، فغطّيت فمي بيدي، وأمسكت أوديل بيدي الأخرى. لا أريدها أنْ تترك يدي.

نظر أبي إلى كل مكان باستثناء التّابوت - إلى لوحة يسوع باهتة الألوان، إلى زجاج الكنيسة الملوّن الذي حجب رؤية المشهد في الخارج. يشبه أبي شخصًا استقلّ الحافلة الخطأ، وانتهى به المطاف في مكان غير متوقّع. خلفنا، د. ستانشفيلد، حقيبته إلى جانبه كزوجة مخلصة. روبي بين والديْه. والد ماري لويز دهن خدّه بمرهم عشبي. سو بوب تشتُم بصوت خفيض. حتّى أنجل جاءت، وكل معلم ومعلمة درّسوني.

بأصوات مرتعشة، قرأ الرّجال والنّساء الكتاب المقدّس. ثمّ تكلّمت صديقات أمّي واحدة تلو الأخرى. قالت سو بوب إنّ أمي كانت خفيفة الظّل، أمّا كاي فقالت إنّ أمّي تمتعت بأنعم كتف يمكن البكاء عليه. مخاط من أنفي، عجزت عن بلع لعابي، غصّة في حلقي. حرقة في أحشائي. حاولت إخفاء حزني، لكنّي غصصت وبدأت أسعل. ضربت ماري لويز ظهري بقوة. ألم أراحني.

أعلن صوت الأورغن انتهاء مراسم التشييع؛ نغماته الحزينة أخرجتنا من الكنيسة. انتقل المعزّون إلى القاعة. عادة، يتذمّر الرّجال من الضّرائب، والنّساء من بعضهن. تحرّروا من أكبال القداس. أمّا الأطفال فكانوا يلعبون بفظاظة. اليوم، مشينا بصمت. دسّت أنجل شريط كاسيت في جيبي. طوّق رب عمل أبي زوجته بذراعه، كأنّه خاف أنّ يختطفها الموت أيضًا. مشى روبي بتثاقل. استبدل ثيابًا سوداء بالجينز، وحمل منديلًا. أخذته. أدخل يديه في جيبي بنطاله، وعاد إلى والديّه اللذين أومآ بالإيجاب. أعتقد أنّهما كانا يعلّمانه كيفيّة التّصرّف كرجل.

طاولة ممتدّة ممتلئة بصنوف الطّعام. ساعدت سيّدة أبي على الجلوس، ثمّ ساعدتني. شرائح لحم مشوي، بطاطس مهروسة، ومرق لحم. لم نجهّز شيئًا من هذا. السّيدات، والمتمرّسات في شؤون الموت، قمن بالمطلوب بكفاءة وهدوء: طبخن، ونظفن. خلف البوفيه أو في المطبخ، فعلن كل ما في وسعهن لتسهيل مرور أسوأ يوم في حياتنا.

حولنا، أناس يتكلّمون، يحاول ادّعاء أنّ الحياة مستمرّة.

- قدّاس جميل.

- في عز شبابه...

- ماذا سيفعل مع لِيلي؟

بعد هذا، الأب مالوني وأبي وأنا لحقنا النّعش إلى المقبرة. في موقع الدّفن، في أثناء تلاوة الرّاهب تبريكاته، أفرحني وجودي أنا وأبي مع أمّي في لحظة هدوء. على مقربة منّا، عصفور التقط شيئًا من العشب. حين لاحظه أبي، وضع يده على كتفي، فانهمرت دموعي.

استيقظنا والظّلام يلفنا. اعتادت أمّي فتح السّتائر، بعدها أستيقظ فأقبلها على جبينها وتدخل أشعّة الشّمس. منذ الجنازة، ارتشف أبي قهوته وأكلت حبوب الإفطار بشرود. لم يخطر ببالنا إدخال نور الشّمس إلى المنزل.

كان بيتنا ممتلئًا بالحياة والحيويّة ذات يوم؛ ولائم عشاء. أمّي وصديقتها يقهقهن عصر أيّام الأحد. كلّما عدت من المدرسة ألفيتها تنتظرني في المنزل. أمّا الآن، فأعود إلى منزل يعمّه صمتٌ مطبق. إذا مشيت من الصّالة إلى غرفة النّوم، لا أحد يتمنّى «أحلامًا سعيدة!» لي. في المدرسة، أمام الخزانات المقفلة، يبتعد الطّلبة إذا رأوني، خوفًا من أنْ يحدث لهم ما حدث لي. لم يسألني الأساتذة عن الواجبات بتاتًا. في يوم الأحد، إذا مشيت مع أبي إلى مقعدنا ببطء، هدوء تام.

كنت أعود إلى المنزل يوميًّا بأخبار كثيرة أود أنْ أحكيها لأمّي. أفتقد أسئلتها عن يومي. أشتاق إليها. أمرّر أصابعي حول أطراف كوبها. أبقيه في خزانة الأواني. أخاف كسر أشيائها، لم أستخدمه بتاتًا. تمنيت العودة إلى تلك اللحظة. كنت سأقول إنّك أعظم أم في العالم. أحتاج إليك. نحتاج إليك. أحببت طريقتنا في مراقبة العصافير وتوقنا إلى رؤية طائر الطّنّان. تمنيت لو حظينا بصباح أخير فقط. عناق أخير. فرصة أخيرة أخبرك فيها كم أحبك.

***

أمضيت نهايات الأسابيع على كرسي قماشي (بين باغ) في منزل ماري لويز. كالعادة، تذمّرنا من الشّيئيْن الوحيديْن اللذيْن

نعرفهما: الأسرة والمدرسة. قلت بتعجّب: يفتح بابا علبة الحساء بصعوبة.

«حتّى أنتِ لا تعرفين يا غبيّة» قالت أنجل وهي ترتدي سترتها المصنوعة من السّتان.

- إذن لماذا رسبتِ في الحساب لو أنّكِ عبقريّة؟

- على الأقل، لدي حياة أعيشها، على عكسك.

مماحكاتهما أفضل من الصّمت الذي في المنزل. والدة ماري لويز الوحيدة التي لم تغيّر معاملتها لي. في تأنيبها: «لا تكوني وقحة» سلوان غريب.

تضافر كل من في البلدة لإطعامنا. اشترى أبي برّادًا كبيرة لتخزين اللحم البقري. على طعام العشاء، بالكاد تكلّمنا. مذيع الأخبار في التّلفاز كان ضيفنا الدّائم. تكلّم عوضًا عنّا. حواراتنا متكلّفة، ومدد الصّمت طولها بطول الإعلانات التّرويجيّة.

حين بدأت الإجازة الصّيفيّة، أنجل عرّفتني أنا وماري لويز على شخصيتي بو وهوب في مسلسل أيّام من حياتنا. قصّة حبّهما أنستني فقدي أمّي مدّة ساعة واحدة تعلّمت فيها أنّ الحبّ: هو الشّوق، هو الوجع، هو الجنس. تخيلتني أنا وروبي، جسدانا وروحانا في اتّحاد.

أدمنت المسلسل مدة شهر. حين ارتفعت درجة الحرارة ارتفاعًا كبيرًا في البلدة، ترك أبي عمله باكرًا وأخذني من منزل ماري لويز. نظر إلى التّلفاز فشاهد لقطة حميميّة.

ارتفع حاجباه، ثمّ عبَس. «جئت لآخذك لشراء المثلّجات» قال لي. كان يقصد دعوة ماري لويز معنا، لكن بما أنّه غاضب

الآن، يلومها على خطأ أنا من اتّخذ قرار ارتكابه. شاهدت ردّة فعله، فظلّت في مكانها دون حراك. غادرت على مضض، وركبت السّيارة، وبوّزت طوال الطّريق إلى محل (تيستي فريز) للمثلّجات. مخفوق اللبن مع الفراولة لم يُحسن مزاجي.

- لماذا لا يحق لي مشاهدة ما أريد؟

«ما شاهدته لم يكن ليعجب أمّك». أفضل طريقة لإسكاتي.

توقّف عند منزل أوديل. وهو مستند إلى هيكل السّيارة، سمعته يتذمّر من خطورة ما يعرضه التّلفاز في الوقت الحالي، ووالدي ماري لويز المتساهليْن في التّربية. وقف بقامته الفارعة تحت السّقيفة أمام أوديل، ثمّ فتح محفظته، وأخرج مالًا. اعتَقد أنّ الجميع مهتمّون بالمال مثله. أبعدَت يده.

«أحتاج إلى شخص يعتني بابنتي». قال، ثمّ أضاف تحذيرًا: دون مسلسلات اجتماعيّة.

صرخْت: لا أحتاج إلى جليسة أطفال.

في صباح اليوم التّالي، ألفيتُ نفسي في المكان الذي أريد؛ في منزل أوديل. لكنّ سبب وجودي هنا جعلني أستشيط غضبًا. فهمت وبقيت مشغولة في حديقتها. على الغداء، حاولت الحفاظ على تجهّم وجهي، لكنّ شطائر اللحم والجبن التي أعدتها تغلّبت على تحفّظي. أكلنا بالملعقة والشّوكة نظرًا لوجود طبقة الجبن المشوي أعلى الشّطيرة. أوديل أنيقة في كل التّفاصيل، حتّى في طريقة أكلها الشّطيرة. كانت تلفت أنظار الجميع في فرويد، لكن لعلّها كانت مجرّد امرأة عاديّة في باريس. أتحرى رؤية عالمها. هل ستعود إليه يومًا ما؟ هل ستأخذني معها؟

في أثناء غسلنا الأطباق، طلبتْ منّي أنْ أعلّمها طريقة صنع طبق الحلوى المفضّل عندي؛ بسكويت برقاقات الشّوكولاتة. أثار استغرابي جهلها بأبسط الأساسيّات، كحقيقة أنّ من المفترض ألّا يعلق العجين بالمضرب. هذا سر العجن.

سمحت لي أمّي بأكل البسكويت كلّما أردت، لكنّ أوديل سمحت لي بقطعتين فقط. حين حاولت صنع المزيد، أجابت: اثنتان تكفيان بطنك، والباقي سيذهب إلى روحك. سنعثر على طريقة أخرى لتغذية روحك. ناولتني كتابًا. تغذية الرّوح بالأدب لا بالحلوى.

تأفّفت وجلست بقوّة على أريكتها الفخمة، أمّا هي فجلست على ما أسمته (كرسي لوي الخامس عشر). أرجله الخشبيّة المزخرفة أوحته بأنّه باهظ الثّمن. لعلّها ثريّة، وحين كانت بمثل عمري أجبرَتها مربيتها على المشي حول القلعة بإنجيل عتيق ضخم على رأسها. عشت بمحاذاة منزل أوديل منذ الأبد، حسب مفهومي الزّمني، ولا أعرف شيئًا عن حياتها إلّا النّزر اليسير. نظرت إلى أدراج خزانة أدوات المائدة، وتساءلت عمّا بداخلها. ربّما بوسعي اختلاس النظر...

«اقرئي» أمرتني.

بدأت رواية الأمير الصّغير بصبي رسم رسومات بسيطة لم تعجب الكبار حين أراهم إيّاها. عرفت شعوره؛ لا يعرف أي شخص مقدار شوقي إلى أمّي. «يحتاج إليها يسوع في الجنّة يا حبيبتي» قالت السّيدات، كأنّي لا أحتاج إليها هنا على الأرض. واصلت القراءة. «إنّه مكان غامض، أرض الدّموع» - كلمات طيّار

ميت ألهمتني الصّبر أكثر من عبارات الأحياء المحيطين بي. «بالبصيرة نبصر ما غاب عن البصر». نقلني هذا الكتاب إلى عالم آخر، إلى مكان جعلني أنسى.

قالت أوديل إنّ الأمير الصّغير قد كُتبت بالفرنسيّة وأنّي أقرأ التّرجمة. أردت قراءة الأصل، لأفهم القصّة كما فهمتني. أردت أنْ أكون فصيحة اللسان كالأمير، وأنيقة كأوديل. قلت لها إنّي أريد تعلّم الفرنسيّة. «كم أود تعليمكِ إيّاها!» قالت. كتب في دفتر: le mariage [الزّواج]، la rose [الوردة]، la bible [الإنجيل]، la table [الطّاولة]. حين سألتها متى أضع le أو la، أجابتني إنّ المفردات الفرنسيّة إمّا مذكرة وإما مؤنّثة.

- ماذا؟

- بعبارة أخرى إمّا فتيان وإما فتيات.

- الطّاولات فتيات باللغة الفرنسيّة؟

ضحِكت ضحكة رقيقة جميلة. «شيء من هذا القبيل».

La table؟ تخيّلت طاولات يرتدين فساتين. تنورات قصيرة من الجينز، أو فستانًا زهريًا يصل إلى الأرض. قد تبدو الفكرة سخيفة، لكنّي تذكرت ماما وهي تمشّط شعرها أمام تسريحتها، مرتدية تنورة قطنية. فكرة أنّ الطّاولة امرأة معقولة بالنّسبة إليّ. مضت أربعة أشهر على وفاة أمّي، ولأوّل مرّة، لم أشعر بانفطار القلب إذا فكّرت فيها.

* * *

أمضيت الليالي وحيدة؛ انعزل أبي في حجرته. على مكتبي، راجعت دروس الفرنسيّة يوميًا، كرّرت الكلمات حتّى ألفتها.

أهدتني أوديل قاموسًا (إنجليزي-فرنسي). البرتقالة هي une orange، لكن الليمونةun citron.

Je voyage en France [أسافر في فرنسا] ، Je préfère Robby [أنا أفضّل روبي]، Odile est belle [أوديل جميلة]، Paris est magnifique [باريس جميلة]. جمل أساسيّة، مسرّات بسيطة، كلمة في إثر كلمة، كلّ الجمل في الزّمن المضارع، لا أسى على ماضٍ، ولا مخاوف تتعلّق ب le future [المستقبل]. أحببتle français [الفرنسيّة]، جسرٌ إلى la France [فرنسا]، عالمٌ لا يعرفه إلّا أوديل وأنا، مكان فيه حلويّات شهيّة، وحدائق سريّة، مكان يمكنني الاختباء فيه. لا يمكنني إتقان التّحكم في أوجاع القلب، لكن يمكنني إتقان تصريف الأفعال. أنا أبدأ : je commence، أنت تنتهي: Tu finis. في هذه اللغة السّرية للفقد، أتكلّم عن أمّي: j'aime Maman [أحبّ أمّي].

***

في أوّل يومٍ دراسي، تثاءبنا أنا وماري لويز أمام وحدات المطبخ. فصلنا كان الاقتصاد المنزلي، إلزامي طلبة الصّف الثّامن. تمنيت أنْ يكون روبي في فصلنا، وتنهّدت براحة حين دخل.

جمعت الأستاذة آدمز كل طالبيْن معًا بملحوظات على لوح الملاحظات. «ليلي مع روبي».

دون تصديق لحسن طالعي ضربت ماري لويز بمرفقي. اقتربت منه، عجزت عن التّفكير بأي كلمة أقولها له. لا «مرحبًا»، ولا «كيف كان الحصاد؟». ابتسم لي، هذا كاف.

أمسكت الأستاذة ببطاقة وصفة طبخ. لم أبادر أو يبادر روبي لأخذها، فوضَعَتها على الطّاولة الطويلة إلى جانب علب الطّحين، والسّكر، والملح. جنبًا إلى جنب، قرأنا التّعليمات، شعرت بحرارة جسده. قست المكوّنات، أمّا هو فخلطها بملعقة خفق. صببنا الخليط في القوالب، وكوالدين فخورين، وضعناها في الفرن لنشاهد ارتفاع القوالب.

حين أصبح لونها ذهبيًا-بنيًا، أخرجتها. رغم حرارتها، قضم روبي قضمة. لاكها مرّتين، ثمّ قال: مقرفة!

«توقّف عن المزاح». وضعت قطعة في فمي. طعمها كطعم إسفنج فاسد مشبّع بالملح. بصقت اللقمة في القمامة. «لا بدّ أنّي أخطأت بين الملح والسّكر».

- لا بأس.

«أتمزح؟» قلت له وأنا أبكي، على الأغلب من الملح السّاخن، لكن أيضًا لأنّي لا أريد الرّسوب.

- أنتِ قلقة على علاماتك التّراكميّة.

وضع قطعة في فمه، وأجبر نفسه على بلعها دون مضغ. دمعت عيناه، لكنّه أمسك بقطعة أخرى. فعلت مثلما فعل، وغصصت بقطعة صلبة.

امتدحت الأستاذة آدمز تيفاني وماري لويز ثمّ جاءت إلينا. رفَعَت طبقنا الفارغ. «كيف سأقيمكما الآن؟». قطّبتُ وجهي لملوحة الطّعام، أمّا روبي فظهرت عليه أمارات الاستهجان.

قالت الأستاذة: لا تقفا هكذا! ابدآ التّنظيف.

عند حوض الغسل، غطّسنا أيدينا في ماء فاتر مع صابون لغسل الوعاء وأواني الطّهي. تصاعدت فقّاعة في الهواء، وراقبناها وهي تبتعد. سررت سرورًا بالغًا.

في الدّراسات الاجتماعيّة، غضبت الآنسة ديڤيس من مقاطعة الاتّحاد السّوڤيتي للأولمبياد المقام في لوس أنجلوس. «لعلّهم خشوا إخفاق لاعبيهم! كيف سنربح الحرب الباردة إذا لم نتنافس؟». لم أنتبه لحديث المعلّمة السّاخر، لأنّي كنت أتبادل الرّسائل مع ماري لويز. كتَبت لها: أتضوّر جوعًا. بطاطس مقليّة للغداء؟

قرب خزانة كتبي، وضعَت شيئًا من أحمر شفاه ماري لويز، ثمّ عبرنا الشّارع إلى مطعم (هسكي هاوس). دفعت الباب الزّجاجي، ووجدت في منتصف المكان روبي مع تيفاني إڤرس جالسةً في حجره، حذاءاها الزّرقاوان من طراز رعاة البقر مرتفعين عن الأرض. اتّسعت عيناي وجمدت برهة.

اصطدمت ماري لويز بي. «ما بالك!»، ثمّ أبصرت ما أبصرت؛ روبي يتلوّى وتيفاني تبتسم بابتسامة توحي بالانتصار.

سألت: لماذا روبي بالذّات؟ يمكنها الحصول على أي شخص تريده.

قالت ماري لويز: لا يمكننا اختيار من نحب.

- لماذا تدافعين عنها دائمًا؟

- لماذا سمحتِ لها بالتّقرّب منكِ؟

شعرت بحرقة في قلبي إمّا بسبب الملح، أو بسبب مشهد جلوس تيفاني في حجر روبي. «سأذهب إلى المنزل».

- لا تسمحي لها بالانتصار.

هرعت إلى منزل أوديل ودخلته. سألتني: لماذا لست في المدرسة؟ هل حدث شيء؟

كنت متعرّقة. «شاهدت شيئًا... وأشعر بالمرض».

في أثناء ذهابها لإحضار كأس ماء تصفّحت قاموسًا (فرنسي-إنجليزي). شربت الماء، ثمّ سألت: ما أسوأ النّعوت باللغة الفرنسيّة؟

- odieux [بغيض]، odious [بغيض].

أردت «فاسقة»، و«عاهرة»، لكنّ هاتين الكلمتين تؤديان المعنى.

- ما سبب تركيزك على النّعوت السّلبيّة، يا عزيزتي؟ ألهذا علاقة بالفتى الذي شغل تفكيرك في الكنيسة؟

يا ربّاه، أيعرف المسألة كل رعايا الكنيسة؟

- إذن؟

حين أخبرتها، قالت: نقرأ الإشارات على نحو خاطئ أحيانًا. افترضت الكثير بخصوص پول، حبيبي... الأوّل، لكن كنت مخطئة. لعلّ روبي تلوّى لأنّها أزعجته.

«لا فرق». كتّفت ذراعيّ. «انتهى أمره بالنّسبة إليّ».

«لا تغلقي باب الحب».

فكّرت في الحب الذي خسرته أوديل في الماضي، وشعرت بالسّخافة لتذمّري. «اجتزتِ الحرب، أمّا أنا فلا أستطيع اجتياز المرحلة الإعداديّة».

- نشترك في أمور كثيرة أكثر ممّا تتخيّلين. دعيني أذكر الكلمات التي تصفك: belle [جميلة]، intelligente [ذكيّة]،pétillante.

شعرت بتحسّن. «ما معنى الكلمة الأخيرة؟»

- لامعة.

«تعتقدين أنّي ألمع؟»

ابتسمت بتهكّم. «ظهرتِ في حياتي كنجمة المساء»

***

إذا أراد روبي أنْ يكون مع تيفاني، فلا بأس. في الفصل، طالعت المعلّمة طوال الوقت. لم أنظر إليه. لا أستطيع. مرّرت ماري لويز ملاحظة لي، همست: «إنّها من روبي». لعلّها دعوة لحفل زفافه. قذفتها في la poubelle [القمامة]. Je déteste l'amour [أكره الحب]. Je déteste Tiffany Ivers [أكره تيفاني إفرس]. Je déteste الجميع.

أفزعني مشهد مواعدة روبي وتيفاني - يطوقها بذراعه وهما يستمعان إلى الجوقة الموسيقيّة أو يتشاركان أكل قطعة (دونت) بعد القداس، لكنّ ذلك اليوم لم يأت. مع اقتراب الهالوين، أدركت أنّ أوديل محقّة بشأن قراءة الإشارات على نحو خاطئ. حاولت جذب نظره إليّ، لكنّه لم يعد ينظر في اتّجاهي.

لكن شخصًا آخر كان يواعد. سيّدات فرويد دفعن كل عزباء في طريق والدي. في قاعة الكنيسة، دبّروا له موعدًا مع شقراء كثيرة الضّحك بدأت العمل حديثًا في المصرف.

السّيدة موردوك: إنّه نحيل جدًّا.

السّيدة إفرس: فقد شهيّته. لكنّ حسابه المصرفي ضخم.

خلال حفل الخريف الموسيقي، أجبروه على مواعدة منسّقة زهور شعرها دهني. «إنّه مورّد ممتاز» همست السّيدة إفرس في

أثناء معزوفة رقصة الموت [Danse Macabre]. في عشاء لتناول سباغيتي هدفه جمع التّبرعات جعله يواعد معلّمتي التي تعلّمني الإنجليزيّة. يبدو أنّ أبي لم يسعده سماع ثرثرتها عن ماكبث، لكنّه لم يستعجل إنهاء عشائه. ماري لويز كنّا أوّل المغادرين.

«مثير للغثيان» قلت لها وأنا أركل أوراق الشّجر اليابسة في الممشى.

أيدتني ماري لويز.

«والدك يواعد أكثر منك» قالت تيفاني إفرس حين مرّت إلى جانبنا.

في غرفة ماري لويز، غنينا You May Be Right [قد تكون على حق] بكل قوّة باستخدام ميكرفون أنجل. خاطبني شيء ما في صوت بيلي جويل. قرعت سو بوب الباب عند منتصف الليل وأمرتنا أنْ نخرس.

في الصّباح، جريت مع ماري لويز في ممر ضيّق؛ طريق مختصر إلى منزل. قبل منزلين من منزلينا تجمدنا في مكاننا حين شاهدنا أبي عند الباب الخلفي مع موظّفة المصرف الشّقراء التي كانت تلمس قميصه بخجل، وهو يمرّر أصابعه في خصلات شعرها.

ماري لويز: مقزّز! إنّها يمارسان الحب.

- أتعتقدين أنّه سيتزوجها؟

مضى على وفاة أمّي ثمانية أشهر.

***

الكمد بحر ماؤه دموعنا، عبابه أدهم عليك أن تسبح بالسّرعة التي تناسبك. الجَلَد يحتاج إلى وقت لتكوينه. شعرت في بعض الأيّام أنّ ذراعيّ تشطران الماء، وأنّ الأمور ستكون بخير، وأنّ الشاطئ قريب. غير أنّ ذكرى واحدة، لحظة واحدة ستغرقني، وسأعود إلى البداية، أصارع للبقاء فوق الموج، مرهقة، غارقة في أحزاني.

بعد أسبوع واحد، بعد القداس، كنّا أنا وأبي وماري لويز نختار معجّنات في ردهة الكنيسة حين اقتربت الشّقراء، وحيّته بحماس. نقّلَ نظره بيني وبينها مرارًا وتكرارًا. «بنات، أريد تعريفكن إلى إلينور. إنّها... هذه ليلي وهذه ماري لويز؛ شريكتها في الجريمة».

تشرفت بلقائكما. سمعت الكثير عنكما» قالت بصوت حاد كأنّها ببغاء معتوه.

«ليلي؟» سمعت أبي يقول. «أأنت بخير؟» أومأت رأسي بالإيجاب. يمكنه المضي قدمًا في حياته. سأبقى مع أمّي. تذكّرت يدها، ملطّخة بالطّحين، وهي تعطيني المضرب الملطّخ بعجين البسكويت؛ ضحكتها حين رأتني ألعق المعدن لأتذوّق ما علق به. تذكّرت لباس المهرّج الذي خاطته لي بمناسبة الهالوين، قدمها على عجلة آلة الخياطة، ورأسها مائل بتركيز. تذكرت أشياء اعتقدت أنّي لن أتذكرها. أمّي تشاهدني وأنا نائمة. ماما بملامحها الرّقيقة، تضرب بطنها الكبير برفق، كأنّي داخله. تذكّرت أنّي رفضت لبس سترة حاكتها لأنّها لم تكن جاهزة من متجر مثل التي اشترتها تيفاني إڤرس. تذكّرت تبسّم أمّي انكسار قلبها. سأرتدي السّترة يوميًا إذا وجدتها.

* * *

لعيد ميلادي الرّابع عشر، أخذني أبي إلى متجر ثياب، صاحبته السّيدة تايلور التي جلست ثلاث أرائك أمامنا واعتمدت تسريحة شعر منتفخة. أنجل وصديقاتها قد طبعن أسماءهن على قمصانهن من الخلف، وهو ما فعله أبي معي. أذهلني أنّ الفكرة فكرته.

خمسة ألوان للقمصان؛ البرتقالي الوحيد الذي لاءم مقاسي. ثمّ، الملصق. صور أرانب، طيور، أو فرق روك. في السّابق، كان أبي يتفحّص ساعته عشرين مرّة مخافة التّأخّر عن عمله، لكنّه الآن يتفحّص كلّ صورة معي.

قال برقّة لم أسمعها من قبل: كانت أمّك لتختار النّسر.

اخترت النّسر. أحضرت الآنسة تايلور رسائل مخمليّة – كبيرة، متوسطة، وصغيرة، وحمراء، وسوداء، وزرقاء. لمستها مع أبي جميعًا.

– اهتمّت أمّك بالهدايا. لم أفهم كل شيء فعلته.

«شكرًا بابا» قلت، ثمّ عانقته بقوّة، تمامًا كما تمنيت أنْ أعانق أمّي في ذلك اليوم.

ارتديْت القميص في المنزل.

أحضرَت أوديل كعكة –chocolat! [شوكولاتة]– وماري لويز وعدد قليل من الفتيات الأخريات من المدرسة شاهدنني وأنا أنفخ الشّمعات. في أثناء تصاعد الدّخان دخلت إليونور كارلسون دون طرق الباب.

قالت ماري لويز بتجهّم: ما الذي تفعله هنا؟

«يا لها من مفاجأة جميلة». قبّل أبي وجنتها.

«عيد ميلاد سعيد!» بصوتها الحاد.

«رؤيتك تسرّنا»، ثمّ لكزتني أوديل.

«رائع» تمتمت.

كتّفت ماري لويز ذراعيْها ولم تنطق بكلمة.

تجنّب أبي وإلينور لمس بعضيْهما، وترك مسافة كافية بينهما. لكنّه ابتسم لها أكثر ممّا ابتسم لي، رغم أنّه عيد ميلادي. أردت انقضاء اليوم، أكلت الكعكة على عجل وفتحت الهدايا.

بعد انتهاء الحفل، رميت مع ماري لويز الصّحون الورقية في القمامة، أمّا أبي فصنع قهوته الطّازجة. فتحت صديقته خزانة الأكواب. من بين جميع الأكواب اختارت كوب أمّي المفضّل. طبعًا ستقوم بها بالفعل. لم يظهر التّفاجؤ.

ماري لويز فهمت كل شيء، وجعي مكتوب على تقطيبة جبينها؛ كانت تعرف أنّي لن أستخدم الكوب. بنبرة خفيضة غاضبة، تكلّمت بغضبي، بأمي، بقلبي. «تلك العاهرة تعتقد أنّ بإمكانها القدوم وأخذ كل شيء ببساطة؟»

وضعت إلينور الكوب وصحنه، ثمّ أمسكت إبريق القهوة. مسحت ماري لويز الأرض، صوت الكوب وهو يتشظّى فجأة كان باعثًا للرّاحة. زجاج أبيض وأزرق تناثر. لم يتحرّك أحد. شاهدنا آخر قطعة تتوقّف تحت الثّلاجة.

«فعلت هذا عمدًا» صرخ أبي على ماري لويز. «لماذا فعلتِ أمرًا لعينًا مثل هذا؟»

استمرّ في إهاناته، لكنّها كانت معتادة الصّراخ عليها. بعينيْن نصف مغمضتيْن لكيلا يدخل فيها بصاق أبي، استعانَت بالصّبر الجميل.

راقبت صديقة أبي المشهد، لعلّها تساءلت عن سبب حنقه.

«ما بالك. مجرّد كوب!» قالت إلينور. أخذت المكنسة وكنست بدءًا من خلف الباب. كنست بقايا أمّي.

13

أوديل

باريس. أغسطس 1939

استعدّ رِمي للانضمام إلى الجيش بذات الطّريقة التي يستعد فيها إلى المدرسة، برش الماء البارد على وجهه ووضع مجموعة كتب في حقيبة سفر. جلست بكآبة على سريره. الاستياء يفصلنا عن بعض؛ شعرت بأنّه ينبذني، ويستعجل الخطر. أحبطه عدم تأييدي قراره. لم يكن عليه الذّهاب، لم يطق الانتظار حتى يغادر،

قلت: خذ سترة معك.

- لا أريد. سيوفّرون كل حاجاتي.

كنت قد ذهبت إلى المصرف وسحبت مدّخراتي. «تفضّل» قلت له.

- لا أحتاج إلى مالك.

- ستأخذه.

«سأتأخّر». وضع المال على السّرير.

تبعته إلى مدخل البيت حيث انتظره والدانا. عاملته ماما بتدليل، عدّلت ياقته وسألته: «أتملك منديلًا نظيفًا؟"

أعطاه أبي بوصلة نحاسيّة، وقال بصوته الأجش: من أيّام التحاقي بالتّجنيد.

«شكرًا بابا» رفع البوصلة في الهواء، ثمّ دسّها في جيبه. «سألقّن أولئك الألمان درسًا».

قلت له: عدني بأنّك ستراسلني.

قبّل وجنتيّ، وقال: أعدك.

نزل الدّرج وحقيبته على ظهره كأنه خارج لشراء خبز الباغيت.

***

تحسّبًا للغارات الجويّة، ظلّت مدينة الأنوار [باريس] ظلماء ليلًا؛ دون أنوار في الشّوارع، دون إضاءات نيون للكباريهات، دون مصابيح منارة في قاعة القراءة. نُصح الباريسيّون بارتداء أقنعة غاز. كثير من الأشخاص، مثل أبناء عمّي، جمعوا حاجاتهم في السّيارات وغادروا منازلهم. ساعدت الآنسة ريدر بقلق في إعادة الكتب إلى أصاحبها المواطنين في أمريكا. قطع المعلّمون إجازاتهم الصّيفيّة للمساعدة في تهريب الطّلبة إلى الرّيف. الهدوء في غرف الأطفال مرعب.

كان منزلنا هادئًا أيضًا. هذه هي المرّة الأولى التي أنفصل فيها عن رِمي أكثر من أربعة أيام. مثل شروق الشّمس، مثل الطّاولة، كان حاضرًا بروحه على الدّوام، يحتسي قهوة بالحليب، يغرغر بعد تفريش أسنانه، يتمتم كلّما قرأنا معًا. رِمي أشبه بنوتة موسيقيّة هزّت أوتار حياتي. غير أنّ حياتي الآن محض صمت مطبق.

تكتّمَ على قرار التحاقه بالجيش، وفي هذا عزاء بسيط. تأسّيْت بأمي وأبي. في السّابق، أنا ورِمي آزرنا بعضنا، بينما آزر أمي وأبي بعضهما. الآن، وحّدت مع أمّي وأبي القلق؛ نظرنا بتوجّس إلى كرسي رِمي الفارغ. لم يكاتبنا.

«متى سيعود پول من بريتاني؟» سألت ماما التي بذلت ما في وسعها لتقليل وقع صمتنا الغريب.

وضعت يدي في جيبي ولمست رسالته الأخيرة. راسلني يوميًا، وأخبرني عن مقدار اشتياقه إليّ، وعدد الهكتارات المتبقي حصادها.

تنهدَت. «بعد وقت طويل».

***

في غرفة الاستراحة أقنعة جلدية بنية اللون مضادّة للغازات طُبع عليها من الأمام (المكتبة الأمريكيّة في باريس) مسندة إلى الباب. مع سقوط قناعي على الأرض، دخلت بِتْسي وحيّتني بتحيّة الصّباح. لم أجبها.

سألتني: ماذا تقرئين هذه الأيّام؟ أنهيت للتو رواية إيما.

- لا أستطيع القراءة ورِمي بعيد عنّا.

قالت وهي تخرج: «ليست مسابقة يفوز فيها من يشتاق إليه أكثر».

لا أعرف ما علي قوله، أو بالأحرى كان لدي الكثير لأقوله. كيف تجرّأَت وشجّعَته على الالتحاق بالجيش؟ ماذا لو سعى إلى حتفه بظلفه؟ دخلت مارغريت وعلّقت قبّعتها القماشيّة على الإبزيم. سألتني: ما خطبك؟

- - بِتْسي هي الخطب.

قالت مارغريت إنّها ستعد الشّاي وتريد التّحدث معي في مكتبي. «أخبريني الآن ماذا حدث؟» سألتني وهي تصب شايًا من نوع (دارجيلنغ).

- رِمي هش البنية؛ أوّل من يصاب بالبرد، وآخر من يُختار في صف اللياقة البدنيّة. ومع هذا، شجّعَته بِتْسي على إلقاء نفسه في التّهلكة. ولم يخبرني بقراره.

- هل هناك سبب لعدم ثقته بكِ؟

نظرات مارغريت الجديّة جعلتني أدرك الآن حقيقة غابت عنّي؛ «حاول إخباري». اهتزّ الكوب في يدي. تمنيت لو أنّي أصغيت إليه. آزرني على الدوام، ولكن في المرّة الوحيدة التي احتاج إليّ فيها...

- لا تقسي على نفسك.

- كان بإمكاني إقناعه بالانسحاب.

- لعلّه شعر بأنّ من واجبه الإقدام على هذه الخطوة.

- ربّما.

أشارت مارغريت إلى المشهد الذي أمامنا. بيتر المسؤول عن الأرشيف كان يُعلّم هيلين، أحدث موظّفة لدينا؛ أمينة مكتبة من رود آيلاند شعرها مجعّد وعيناها ناعستان. مشيا بين الأرفف وتذكرا إنجلترا الحديثة: (917.4)؛ أكثر مكان خلّاب على وجه البسيطة. قرأت قصص حب كثيرة لدرجة أنّي بتُّ أعرف إحداها منذ رؤية أبطالها للوهلة الأولى.

اقترب بورِس وبيده أسطوانة ورق طويلة، وقال إنّ علينا تغطية زجاج النّوافذ لنحمي أنفسنا من الزّجاج المتناثر في حال حدوث قصف.

«كيف حال أخيك؟» سألني وهو يضع الأسطوانة على الطّاولة.

قطعت قطعة ورق طويلة. «لم يراسلنا بعد».

- كم مضى على مغادرته؟

- أسبوعان.

قال وهو يضع الغراء على الورق بفرشاة دهان قديمة: حين التحقت بالجيش، تدربنا تدريبًا قاسيًا لدرجة أنّنا كنّا ننام كالموتى من أثر التّعب. لم نجد الوقت لكتابة الرّسائل. هذا ما أراده الرّقيب؛ أنْ نترك حيواتنا السّابقة خلف ظهورنا».

- لعلكَ على حق...

- الصعوبة تكمن في أنه هو من أدار ظهره للحياة.

تفهمني بورِس. كلام قليل بليغ خلال حجب النّور من الدّخول إلى المكتبة. انتهينا من نوافذ كثيرة بعد يوميّن.

في الأوّل من سبتمبر، استدعى الجيش الرّجال من عمر الثّامنة عشرة وحتى الخامسة والثّلاثين: بورِس، وشباب الحي الذي كبرت معهم، باحثي الدّكتوراه الذين قضوا أيّامهم في قاعة المراجع، والخبّاز الذي حرق الباغيت قد استُدعوا جميعًا للخدمة. طلب أبي إبقاء ضبّاطه في باريس؛ نال پول إعفاء للعمل في مزرعة عمته، لمدة مؤقتة.

في كلّ مكان، رأيت بوادر حرب حتميّة: في الجيش الذي ضاعف صفوفه، في عناوين أخبار متشائمة في صحيفة **ذاهيرالد**، وعلى لوح إعلانات المكتبة التي بجانبها قائمة الأفضل مبيعًا، وفي تصريح جديد للسفارة الأمريكيّة: نظرًا للأزمة الرّاهنة في أوروبا ندعو رعايانا للعودة إلى الولايات المتحدة.

هل ستنفّذ الآنسة ريدر إرشادات السّفارة؟ ماذا لو أصدر السّفير البريطاني تصريحًا مماثلًا وخسرتُ مارغريت؟

ركضت متجاوزة صندوق بطاقات فهرسة الكتب حيث عرفتني الخالة كارو على تصنيف ديوي وكل الموظفين، وتجاوزت الرّفوف

التي قبّلني پول بينها أوّل مرّة، وعبرت الغرفة الخلفية التي توطّدت فيها صداقتي بمارغريت، حتى وصلت إلى مكتب الآنسة ريدر.

استدار كرسيّها قليلًا، والقلم بيدها، انهمكت باهتمام في المستندات الموجودة على مكتبها. رائحة قهوتها ملأت المكان. لا أثر لصناديق، أو حزم للأمتعة. إنّها هنا. سيكون كلّ شيء بخير طالما كانت هنا. استرخيت، وتنفّست تنفّسًا بطيئًا وعميقًا.

سألتها: ألن تعودي إلى وطنك؟

- وطني؟

- ألن تسافري؟

قطّبت حاجبيْها، ونظرت إليّ باستغراب كأنّ الفكرة لم تخطر ببالها. أجابت: أنا في وطني.

1 سبتمبر 1939

پول العزيز:

أشتاق إليك، وإلى يدك حول خصري، وهمساتك المطمئنة قرب صدغي. انقبض قلبي لالتحاق رِمي بالجيش. أكره مفارقته. ستتحسن أموري بعودتك.

أغلب رجال الوطن قد استُدعوا للجيش، ولا بدّ أنّ عمّتك تحتاج إليك الآن أكثر من ذي قبل، لكنّي أحتاج إليك أيضًا، وأعدُّ الأيّام للقياك.

كل المحبّة،

حبيبتك أمينة المكتبة

لم أستطع تجاوز أنّ لرِمي الآن امرأة أخرى يثق بها، لكن بإمكاني تجنّبها بالبقاء في قاعدة الدّوريات قدر الإمكان. اليوم وكالعادة، أبهجتني رؤية زائرة المكتبة المفضّلة إلي، مرتدية وشاحها البنفسجي. تنهّدت البروفيسورة كوهِن عند قراءة فقرة جميلة من رواية **رحلة في الظّلام**. إلى جانبها، مدام سيمون التي أصدر طقم أسنانها الاصطناعي صوتًا وهي تطالع الأزياء بإعجاب في مجلّة هاربرز بازار. يقابلهما نيرسيات والسّيد برِس-جونز اللذان كانا يتبادلان النّكات.

السّيد برس-جونز: أفضل شراب صنع في إسكتلندا. أنا نصف إنجليزي.

السّيد دو نيرسيات: أعرف. والنّصف الآخر هو المياه الغازيّة.

- غليندرونك هو الأفضل!

جادل السّيد دو نيرسيات الفرنسي الذي يرفض الاعتراف بأنّ بريطانيا العظمى تنتج شيئًا له قيمة: جورج دكل من تينيسي هو أفضل شراب.

قلت لهما: اختبار التّذوّق سبيلنا الوحيد لمعرفة من على حق.

- أوديل أنتِ عبقريّة!

بِتْسي إلى جانبي، قالت: «استدعوا أخي للجيش. غادر البارحة».

- غادر أخي قبل أسابيع. تعرفين كل التّفاصيل، أليس كذلك؟

- كانوا سيستدعون رِمي في كل الأحوال.

قلت بحنق: أيُفترض أنْ يُحسّن هذا من شعوري؟

تعجّب القراء في المكتبة. «جميعنا قلقون» قالت البروفسورة كوهِن لتهدئتي.

أدرت ظهري لبتسي، وفتحت الجريدة، ثمّ قرأت الافتتاحيّة: «بالنّسبة إلى كل التّوتر في الوضع الرّاهن، الحرب العظمى قد لا تندلع بتاتًا. لا أحد قطعًا، حتّى هتلر، يمكنه ذلك». لم أنتبه إلى أنّي قرأت بصوتٍ مرتفع حتّى تجهّمت مدام سيمون.

تساءلت باستهزاء: أي حرب؟ أوروبا منهكة، ولا أحد يريد القتال.

البروفسورة كوهِن: تتوهّمين. الأطفال يتقاتلون على الألعاب، والرّجال على الدّول.

السّيد دو نيرسيات وهو ينظر إليّ بقلق: من فضلكما، لنتجنّب التّفكير فيها الآن. أمسك الجريدة وفتح صفحات المجتمع حيث وجد عمودين كاملين يعلنان أخبار الأمريكيين في باريس. «السّيد إلي غروبِكر من نيويورك، سافر إلى أوروبا على متن باخرة سريعة. السّيد والسّيدة بروموند من تشيكاغو من جُملة زائري برلين مؤخّرًا موجودان في فندق لو بريستول باريس. السّيدة ميني كاف أوبنهايمر والآنسة روث أوبنهايمر من ميامي في فندق كونتِننتال».

السّيد برِس-جونز: لن تعيق الحرب الاشتراكيين عن التّسوّق.

- وأخبار البريطانيين تقول أنّ مهراجا تريبوريا وأميرة باريا في أحد فنادق طريق جورج الخامس. أمّا كونتيسة أبينغدون فقد انضمت إلى زوجها في فندق (برنس دو غال).

ضحكنا أنا والبروفسورة كوهِن. يأخذ الاشتراكيّون أنفسهم

علـى محمـل الجـد، لكـنّ أخبارهـم أنسـتنا لمـدة وجيـزة التّوتّـر السّياسـي الرّاهـن.

بعـد العمـل، توجّهـت إلـى المنـزل علـى أمـل أنْ أجـد رسـالة مـن رِمـي، لكنّ الصّينيّة فـي مدخـل المنـزل فارغـة. سـمعت أصواتًـا فـي صالـة الجلوس، فاختلسـت النّظـر. پول! وثَـب مـن مكانـه حيـن رآنـي. وضعـت يدي علـى عجـل أعلـى كتفـه حيـن قبّلنـي علـى وجنتـي بسـبب وجـود أبـي.

على الأريكة، فصلتنا مسـافة عشـرين سنتمترًا، همسـت: اشـتقت إليك.

- اشـتقت إليـكِ أكثـر. حظيـتِ برفقـة جميـع مـن فـي المكتبـة، أمّـا أنـا –بغـض النّظـر عـن عمّتـي– فقـد حظيـت برفقـة البقـر، والدّجاجـات، والماعـز.
- يمكننا أنّ نقول إنّ السّيد برِس-جونز يشبه معزة عنيدة.
- نعم لكنّه لم يعضّك!

عاملنـا أبـي بتعجـرف ظاهـر: كنـت أعـرف أنّ پـول هـو الملائـم لـكِ.

- صحيـح بابـا. الخاطـب الرّابـع عشـر الـذي أحضرتـه إلـى المنـزل هـو سـعيد الحـظ.
- سـتحظيان بوقـت أكبـر معًـا عمّـا قريـب. مـع كل مـا يقـال عـن الحـرب، فـإنّ زمـلاءكِ سـيغادرون باريـس، وسـتُغلق المكتبـة أبوابهـا.
- تقـول الآنسـة ريـدر إنّهـا سـتظل مفتوحـة. لـن يذهـب أي موظّـف إلـى أي مـكان.

أبي: سترتاحين، وستتناولين العشاء معنا في وقته.

إذا تكلّم أبي عن وظيفته، تكلّم عن أداء الواجب. لم يتفهّم حبّي للمكتبة. السّاعات الإضافيّة التي قضيتها مع هيلين لأتعلّم كيفيّة العثور على إجابات رواد المكتبة لم تكن عملًا رتيبًا، بل كانت بحثًا عن كنوز. «لا تنسي أنّ طلب المعونة صعب» ذكّرتني. «لا تفقدي الصّبر؛ لكل سؤال قيمة». بحثت معها بتدقيق في المراجع المتخصّصة ودوائر المعارف لنعثر على كلّ التفاصيل من تعداد سكّان كوبا إلى القيمة المتوقّعة للمزهريّة الصّينيّة. وصلتنا يوميًا استفسارات تحتاج إلى إجابات. بعد كتابة عشرات الأوراق الأكاديميّة، قرّرت البروفسورة كوهِن كتابة رواية وكانت تبحث عن معلومات متعلّقة بإيطاليا القرن السّادس عشر؛ «ماذا ارتدى سكّان ڤينيسيا؟ ماذا شربوا؟ ماذا وضعوا في جيوبهم؟».

هيلين: أأنت متأكّدة من وجود جيوب في ثيابهم؟

«لا طبعًا!» أجابت البروفسورة، فانطلقنا نحن الثّلاثة إلى ڤينيسيا وأبحرنا بين رفوف تحمل كتبًا عنها.

كانوا بحاجة إليّ في المكتبة. كنت سعيدة هناك.

قلت لأبي: لا أستطيع أخذ إجازة. تقول الآنسة ريدر إنّ الكتب تنشر الوعي الذي يحتاج إليه المجتمع الآن أكثر من ذي قبل.

فتح فمه ليجادل، لكنّ أمّي نادته من غرفتهما، فأغلقا الباب.

اقتربت من پول. «إنّه لا يطاق!»

- يخاف عليكِ.

- أعتقد...

قبّل پول يدي، وجنتي، وشفتي. أردت المزيد. جلده على جلدي، تلامس جسدينا. التّقبيل توطئة كتاب مدهش أريد قراءته حتّى الصّفحة الأخيرة.

دار مقبض الباب، ابتعدنا. توجّهت ماما نحو أحواض الزّهور وسقتها.

حين كنت صغيرة في العمر، أحببت القراءة في السّرير. كلّ مساء، بعد أنْ تأمرني أمّي بإطفاء النّور، أرجوها لإنهاء الفصل، لكن لا فائدة. ماما لم تتغيّر، وهي التي تحدّد وقت التّوقف عن أي شيء.

* * *

في أثناء تجهيز الجرائد لوقت المساء، شاهدت الآنسة ريدر شاحبة كالغراء، تدخل قاعة القراءة بتردد. أدركنا فورًا وقوع قارعة. السّيد برِس-جونز والسّيد نيرسيات توقّفا عن المجادلة. رفعت البروفسورة كوهِن نظرها من الكتاب. قالت لنا المديرة وهي واقفة أمام النّوافذ المغطّاة: اتّصلت السّفارة. أبلغوني أنّ إنجلترا وفرنسا قد أعلنتا الحرب.

حين تكلّم أبي عن سنواته في الخنادق، تخيلت القتال في الحرب كصورة قديمة تلاشت ألوانها، والتُقطت من مسافة بعيدة. الآن، صورة الدّبابات والجنود الجرحى بالألوان في ذهني. هل رمِي في أرض المعركة؟ هل جُرح؟

«أأخبروكِ عن موقع المعركة؟» سبقتني بتسي وسألت.

«ليتني أعرف المزيد» قالت الآنسة ريدر. «سيطلعنا السّفير بوليت على المستجدات».

بعد طمأنة القرّاء في المكتبة، اجتمعت بفريق العمل في مكتبها. «يجب أنْ تغادروا إلى أوطانكم، أو الرّيف حيث ستكونون بأمان» قالت لنا بنبرة آمرة تخيّلت معها أنّي أرمي فستاني الأصفر ووشاحي الأزرق في حقيبة السّفر.

«ماذا ستفعلين؟» سألت السّيدة ترنبل بحزم.

«سأبقى» أجابت الآنسة ريدر بلا تردّد.

«أريد البقاء» قالت المحاسبة الآنسة وِد.

«أنا أيضًا» أعدت ثيابي إلى الخزانة في مخيّلتي. مكاني هنا. أردت فعل كل ما يمكن فعله لإبقاء مكتبتنا مفتوحة الأبواب. «لا أستطيع العودة إلى رود آيلند» قالت هيلين، أمّا بيتر فقد حدّق إليها وقال: «لا أريد المغادرة».

شكرتنا الآنسة ريدر بامتنان، ثمّ قالت: «ومع هذا، علينا بذل قصارى جهدنا للمحافظة على سلامة روّاد المكتبة».

جرّ بيتر أكياس رمل إلى الطّابق العلوي في حال تسبّبت الغارات الجويّة بنيران. ألصقت الآنسة وِد خريطة أقرب ملجأ -محطّة قطار الأنفاق- على الحائط. حين رنّت صفّارة الإنذار، أخلت الآنسة ريدر قاعة القراءة، وعانقت الطّلبة الخائفين. أخرجتُ القُرّاء من قاعة الدّوريات. سحبت البروفسورة كوهِن جريدتي صباح الخير، ومنتصف الليل من الرّف كأنّها تنقذ عزيزيْن من مبنى اشتعلت فيه النّار، ثمّ صاحت: «لن أترك [الأديبة] جين ريس». أمّا هيلين فحملت قوارير ماء شرب؛ قطع الحارس الكهرباء. عند الباب، بِتْسي لوّحت بالفانوس. ومشى مجموعة من عشّاق الكتب بذهول مسافة مربعيْن سكنيّين إلى المحطّة. في سرداب المحطة شّبه المعتم، تساءلنا ماذا سيحدث ومتى؟

14
أوديل

طاف بورِس في قاعة القراءة كما لو أنّه غاب عنها لتناول غدائه وقتًا طويلًا، لا مجرّد ستّة أيّام مع الجيش. تجمّع القرّاء في المكتبة ليتلقوه بالتّرحاب. السّيد نيرسيات والسّيد برِس-جونز أوّل من صافحاه بحرارة، ثمّ البروفسورة كوهِن. «تسرّنا عودتك سالمًا. زوجتك وابنتك مرتاحتان الآن حتمًا». حاولت الوصول إليه، لكنّ عشّاق الكتب أحاطوا به. انسحبت إلى التنظيم وسحبت كتابًا لإعادته إلى الرّف الصّحيح. الرّقم المكتوب على كعبه 223. الدين أم الفلسفة؟ الأشياء التي أعرفها تمام المعرفة زادتني حيرة. منذ أنْ غادر رِمي، وجدت نفسي غالبًا وسط قاعة، غير قادرة على تحديد إلى ماذا أنتمي.

وجدني بورِس في عمق 200. «كيف حالك؟» سألني.

- قلقة على رِمي.

وضع كتابي على الرّف. «أعرف الشّعور. التحق أخي أولغ في الفيلق الأجنبي»

- أتمنى أنْ يكون سالمًا. تمكّنتَ من العودة على الأقل.

- الفضل للآنسة ريدر التي خاطبت الجيش برسالة. يبدو أنّني ساعدها الأيمن.

- ساعدها الأيمن. للكلمة وقع جميل.

تمكَّنَت أيضًا من إبقاء الحارس. لحسن الحظ، سُمح لأبي بإبقاء ضباط قسمه في باريس. أراد حماية رجاله حتّى لو لم

يتمكن من حماية ابنه. جزعت على رِمي، لكنّي ممتنة، في غاية الامتنان لأنّي لم أخسر پول. وضع بورِس كتابًا آخر في مكانه على الرّف، وقال: أديتُ الخدمة في الجيش الفرنسي. قاتلت فعليًا في حرب سابقة.

- صدقًا؟

- كنت طالبًا عسكريًا حين اندلعت الثّورة الرّوسيّة. بعض الجنود لم يبلغوا الخامسة عشرة من أعمارهم، لكنّنا هربنا من منازلنا للانضمام إلى الجيش.

- خمس عشرة...

أوضح أنّه ورفاقه ظنّوا أنّ إطلاق فراولة لتهشيم هدف بعشر سرعات جعلهم رجالًا، وهو ما جعله هو ورفاقه يخططون للسرقة، اهتمامهم الأكبر كان أي بذلة رسمية ستجعلهم يبدون أكثر أناقة. «تساءلنا إن كان علينا الذّهاب سيرًا على الأقدام أم على خيل. أنبقى جائعين أم نسطو على المخزن ونجازف بإيقاظ الطّباخ الفظ. الالتحاق بالجيش كان سهلًا. مثل معظم الأطفال، لم يتجاوز خيالنا مدة أسبوع من المستقبل.

لهذا غادر رِمي، توقًا إلى مغامرة، رغبةً في إثبات رجولته لأبي.

- نقيب فرقتنا مقارب لعمري. أمرنا بإطلاق الرّصاص لنقتل، لكن قتل زميلي الذي من الرّيف صعب. تحشرج صوت بورِس. «من الصّعب قتل أي شخص».

الأرفف عالية، مبجّلة مثل كرسي الاعتراف. حدّق إلى صفوف الكتب التي ذكّرته بصفوف العسكر. «أحد حرّاسهم على الجانب

الآخر من النّهر. عدو روسي. سحبت الزّناد وكشطت شحمة أذنه بالطّلقة».

- شحمة أذنه؟

- كانت طلقة نزيهة. لم أرغب في قتل غلام. أردت تحذيره فقط.

- أحسنت صنعًا.

أمسك كتابًا ومرّر أصابعه على غلافه بتجهّم. «لاحقًا، واجه فيلقي فيلقَه، وقتل ذلك الجندي صديقي المقرّب».

- أنا آسفة.

«أُصبت مرّتيْن». لمست إصبعه ندبة على خدّه. ندبة خفيفة كنت أعتقد أنّها خط ضحك. «لكن حمّى التيفوس كادت تقضي على حياتي. كان المشفى أسوأ من الجبهة الأماميّة. ترعرعت في أسرة مرحة، وذهبت من المدرسة العسكريّة إلى الجيش. لم أحظ بثانية هدوء، لم أواجه أفكاري. وجودي وحيدًا في المستشفى كان نقطة الحضيض في حياتي. شيء واحد ساعدني على المقاومة؛ تفكيري في أنّ أختيّ بسلام معًا».

أشار إلى قاعة الأطفال، حيث مشت بِتّسي بتؤدة.

قلت له: لسنا أختيّن.

نظر إليّ بأسى. «عودة إلى طاولة الاستعارة» قال بنبرة استسلام، وتركني وحيدة مع غضبي وندمي.

15
أوديل

بعد إعلان الحرب بثلاثة أيّام، وضعت الآنسة ريدر خطة لخدمة العساكر. أرادت مواساة جنود الجيش الفرنسي والبريطاني، أنْ تقدم لهم ملاذًا [ذهنيًا]، وتعلمهم أنّ أصدقاءهم في المكتبة يهتمّون بهم. جهّزنا مجموعات كتب لمقاصف الجيش والمشافي الميدانيّة. أوصلت وبول الصّناديق إلى البريد. هدوء باريس كان غريبًا؛ كأنّها فندق ضخم لا يقيم فيه إلّا ضيوف يُعدّون على الأصابع، أمّا المكتبة فكانت تعج بالقراء الذي آمنوا بأنّها ستظل مفتوحة. واصلوا تصفح الجرائد لقراءة الأخبار واستعارة الكتب.

المديرة: النّاس يقرؤون. في الحرب وفي السّلم.

أعلنَت عن مناشدة للتبرّع النّقدي للمكتبة، راسَلت ممولي المكتبة المخلصين، من مثل: الكونتيسة كلارا دي شامبرون. استدعتني الآنسة ريدر إلى مكتبها وأوضحت أنّها قد دعت صحفيين إلى المكتبة، وأرادتني أنْ أكلمهم عن البرنامج. انتظروني في قاعة القراءة.

«أنا؟» تساءلت. «الصّحفيون... عنيدون». سلّمت جريدة **ذاهيرالد** أوّل مقال عن أخبار المكتبة الأمريكيّة في باريس، لاحظ أحدهم غلطة مطبعيّة؛ «علاقات عمة» عوضًا عن «علاقات عامّة». في كلّ مرّة أسلمهم مقالًا جديدًا يسألني أحدهم عن علاقاتي «الشّخصيّة».

الآنسة ريدر: قد يكونون نزقين. إنّهم يطوفون فرنسا لوصف جهود العامّة لمجابهة الحرب، لكن إذا تعامل أحدهم بفظاظة معكِ، فلقنيه درسًا.

تذكرت المقابلة التي هددت فيها بفعل ذات الأمر، فخجلت. «أو، لا، أنا...»

الآنسة ريدر: أعرف. لم تعودي تلك الشّابة. نضجتِ وتقومين بعمل عظيم. أحبَّ الجميع عمودك الصّحفي للجريدة، ونشراتك المكتبيّة ممتعة، خاصّة مقابلاتك التي بعنوان: أي نوع من القراء أنت؟ اكتشاف الأشخاص من قراءاتهم أمر رائع.

في طريقي إلى قاعة القراءة، سمحت لنفسي بالتمتّع بإطراء الآنسة ريدر. عند المدفأة، فركت قدمًا بقدم، حاولت جمع الشّجاعة للحديث مع الصّحفيين الضّجرين. كلّموني قبل أنْ أكلمهم.

«هل يهتم الفرنسيّون بالكتب الأمريكيّة؟» سألني صحفي في شعره خصلة شيب. وجهه متعب، لا، منهك.

- وهل يملك الجنود الوقت للقراءة؟

قلت بهمّة: أرسل الجنرال شاحنات من خط ماجينو الدّفاعي لجمع الكتب. يملك الجنود الوقت، وهدفنا مساعدة المرضى والجرحى والوحيدين. يجب أنْ نعزّز معنوياتهم.

قال صحفي شعره أحمر بمزاح: معنويات؟ لماذا كتب؟ لماذا لا نعززها بالنّبيذ؟ هذا ما. كنت لأتمناه.

فسألته: ومن قال إما الكتب وإما النّبيذ؟

ضحكوا.

أضفت: لكن حقيقة، لماذا الكتب؟ لأنّ لا شيء له قدرة خفيّة على رؤية الحياة بأعين الآخرين. المكتبة جسر من الكتب بيْن الثّقافات.

واحدًا تلو الآخر، نزعوا معاطفهم، ثمّ جلسوا خلال حديثي عن طريقة التّبرّع لنا. مِن الصّحفيين مَن دوّن المعلومات، ومنهم من استذكر كتبًا قرأها. أمّا ذلك الصّحفي المرهق، فقد تأمّل الرّفوف؛ لعله تذكّر رواية جلبت له الرّاحة بعد العناء.

قلت: لكل منّا كتاب قلب حياته رأسًا على عقب. كتاب علّمنا أنّنا لسنا وحيدين. ما كتابك المفضّل؟

أجاب: كل شيء هادئ على الجبهة الغربيّة.

833. «ساعدونا في نشر الخبر. ساعدونا في توصيل الكتب التي أحببتموها إلى جنودنا».

***

وصلتنا تبرعات كثيرة مع انتشار الخبر. جمع طاقم العمل في المكتبة خمسين مجلّة ومئة كتاب لكل فيلق. عند التّاسعة مساء، انتهيت مع مارغريت والآنسة ريدر من كتابة محتويات كل مجموعة، ووضعنا الكتب في الصّناديق.

دخلت بِتْسي الغرفة مسرعة، وهي تلوح برسالة. «وجدتها حين وصلت إلى المنزل».

هل راسلها رِمي قبلي؟

قالت مارغريت: من الجميل معرفة أخباره.

رمقتني الآنسة ريدر بنظرة، وقالت: أليس لطفًا من بِتْسي القدوم لمشاركة الخبر؟

إنّها على حق. لم تكن مسابقة لمعرفة من سيستلم رسالة أوّلًا. لكنّي...

- إنّه بالقرب من مدينة ليل. بعيد عن الخطر.

قلت بحدّة: بأمان مؤقّتًا.

فقالت: هو من أراد الالتحاق بالجيش.

- أنتِ من شجعته.

- لينفّذ ما يؤمن به.

«ماذا لو قتلوه؟» وضعت رواية ضخمة لفكتور هوغو في الصّندوق بسخط.

«من فضلك». أمسكت يديّ الملطختيْن بالحبر بيديْها النّاعمتيْن، وقالت: «أحتاج إلى مرافقة شخص يحبه غيري».

ابتعدت عنها. «يجب أنْ أخبر والدي. سيرتاحان».

«أوديل، عزيزتي...» قالت الآنسة ريدر ورأسها مائل بتعاطف.

اللطف يبكيني دائمًا، لهذا ودعتهن: «أراكن غدًا» ونزلت عبر السّلالم. أخبرت أهلي بالرّسالة، لا بدّ أنّ هناك شيئًا من الألم في صوتي، لأنّ ماما قالت إنّ التحاقه بالجيش ليس غلطة بِتّسي. مع كل المقالات السّياسية التي كتَبها، يجب ألّا يكون اختياره مفاجئًا. قال أبي إنّ عليّ معاملة بِتّسي بلطف، من أجل رِمي.

بعد يوميْن، وصلت رسالة:

نتمركز الآن في المزارع. قطّة من الحظيرة تتبعنا ككلب، حتّى خلال تمريناتنا. لم نشاهد قتالًا من أي نوع، باستثناء من منّا سيغسل الأطباق.

التّنفّس أسهل الآن.

انهالت تبرعات بآلاف الكتب من كل أنحاء فرنسا، والجزائر، وسوريا، والمراكز البريطانيّة في لندن. موظّفون ومتطوّعون من الصّليب الأحمر، وجمعية الشّبان المسيحيين، وأعضاء المجتمع الدّيني توافدوا على الغرفة الخلفيّة للمساهمة في توصيل الكتب إلى الجنود. راعينا اهتمامات الجنود كتب واقعية، رواية، غموض، مذكرات)، لغات (الإنجليزيّة، الفرنسيّة، أو كلاهما). حرصنا على استلام كل جندي طلب كتابًا صندوقًا فيه حاجاته الأساسيّة مرتيْن شهريًا.

التقطت الآنسة ريدر صورًا للمتطوّعين وهم يجهزون الكتب، كتبت بِتْسي ملاحظات تشجيعيّة للجنود، أمّا مارغريت وأنا فتلقينا الطّلبات. قرأتُ طلبًا من أستاذ في اللغة الإنجليزيّة، أصبح الآن عريفًا وأراد كتبًا لتعليم زملائه.

بِتْسي: ماذا سنرسل له؟

ادّعيت عدم سماع ما قالته.

نظرت مارغريت إلى بِتْسي ثمّ إلي، وقالت: أنا في شرق فرنسا، ومن الجنود من يقرأ الكتب الإنجليزيّة، هل يمكننا الحصول على كتب ومجلات، وبعض الفتيات (لسن عجائز) ليراسلننا؟

نال هذا الطّلب استحساني، قرأت بصوت عال رسالة أخرى: زملائي وأنا، في الرّيف الفرنسي، بين محميّة سار وموزيل. كما تعلمون مسرّاتنا قليلة. هل يمكنكم إرسال أي عدد قديم من مجلة **ناشيونال جيوغرافيك**؟ ستملأ هذه المجلّة أيّامنا حبورًا، لأنّنا معجبون بهذه المبادرة.

مارغريت: لا بدّ أنّ ابتعاد هؤلاء الجنود عن منازلهم صعب. من الرّائع مساعدتهم.

«شكرًا لتفانيك في العمل» قالت الآنسة ريدر بصوت مريح ككوب شوكولاتة ساخنة. «محظوظون لأنكِ معنا».

بكت مارغريت وقالت: ماذا كنت سأفعل دونكم؟

قالت الآنسة ريدر وعينها علي: مشاعرنا مرهفة جميعًا مؤخّرًا.

* * *

أُطلقت بضع رصاصات في فرنسا، رغم أنّ الموقف ظلّ محتدمًا على طول جبهة ماجينو حيث كان الجنرالات متأكدين من هجوم العدو من هذا المكان. نقلنا مئات الكتب إلى الجنود هناك. منهم من راسلونا وعبروا عن تقديرهم بإرسال: رسمة بألوان مائيّة للمطبخ في الجبهة، رسومات لطائرة العدو التي أسقطوها، علبة سجائر. قرأت مع مارجريت رسالة من نقيب بريطاني:

إرسال طرد الكتب الرّائع تصرف لطيف منكم. ممتن لما تفعلونه من أجلنا، من المهم منح الرّجال كل التّرفيه المتوافر.

نريد أنْ نعبّر لكم عن تقديرنا للعمل الجميل الذي تقومون به. لما قمتم به للحرب السّابقة، وما تفعلونه الآن، نشكركم جزيل الشّكر.

ازدادت رقعة خدمتنا للجنود -آلاف الكتب المُتبرّع بها، وعشرات المتطوّعين- لدرجة أنّ رجال الأعمال في المبنى المجاور قد منحونا طابقًا كاملًا. أكوام من الرّوايات والمجلّات وصلت إلى السّقف؛ برج

بيـزا الأدبـي. خبـزت الآنسـة وِد الكعـك لنـا، وسـجّلت إحصائيّـات عـن الكتـب التـي أرسـلناها. فـي ذلـك الخريـف، شـحنّا عشـرين ألـف كتـاب إلـى الفيالـق الفرنسـيّة، والبريطانيّـة، والتشيكوسـلوفاكيّة، إضافـة إلـى الجبهـة الفيلـق الأجنبـي. مثـل الآنسـة ريـدر، شـعرت بالفخـر بخدمتنـا هـذه وبكل جنـدي، وشـعرت بقلـة الفخـر لأنّـي بالـكاد تكلّمـت مـع بِتْسـي.

تذمّـرت أمّـي مـن عـدم عودتـي إلـى المنـزل، فمازحهـا پـول أنّ عليـه التّطـوّع إذا أراد قضـاء الوقـت معـي. مثـل رِمـي، اكتشـفت أنّـي بحاجـة إلـى فعـل أمـر مـا. بقـدر شـعوري بالفقـد، كنـت أعـي أنّ هـذا الشّـعور أسـوأ بالنّسـبة إلـى الجنـود المبعديـن عـن منازلهـم. وضعـت بطاقـات دوّنـت عليهـا عبـارات تشـجيع فـي كتبهـم.

انعـدام ثقتـي بالمسـتقبل دفعنـي لفتـح آخـر صفحـة مـن روايـة علـى أمـل العثـور علـى نهايـة سـعيدة. فـي ڤيليـت [لشـارلوت برونتـي]، 823، قـرأت: «قـف هنـا؛ قـف فـورًا. يكفـي مـا قيـل. لا غثـاء أيّهـا القلـب اللطيـف. دع خيـالات الأمـل المشـرقة، أيهـا القلـب الطيـب. دعهـا تسـتأنس ببهجـة تولـد مـن جديـد مـن رحـم الفـزع العظيـم، مـن جـذل الانتشـال مـن المهلكـة، مـن أعجوبـة الإعفـاء مـن الوجـل، بمتعـة العـودة». تمنيـت لـو أنّ بمقـدوري معرفـة نهايـة قصّتـي لأطمئـن نفسـي. سـتنتهي الحـرب، وسـيعود رِمـي، وسـأتزوّج پـول.

رميت نفسـي في السّرير من فرط التّعب وقرأت:

«جـاء وأمسَـك ذراعـي، وقبـضَ علـى خصـري. بـدا أنّـه سـيلتهمني بنظرتـه المسـتعرة...

«نهائيًـا» قـال وهـو يصـك علـى أسـنانه. «نهائيًـا، لـم يوجـد مـا هـو فـي غايـة الضعـف والتّمنـع فـي آن واحـد.

تبدين كقصبة بين يديّ! (ثمّ هزّني بكل ما أوتي من قوّة).
يمكنني إغواؤك... أيّتها المخلوقة الجميلة المتوحشة!

«بالطّبع يمكنك القدوم، ومعانقتي إذا شئتِ؛ أن أضع يدي عليك دون رغبة منك، يعني أنّك ستتملّصين منّي كعطر، ستتلاشين قبل أن أشمّك. أوه! تعالي يا أوديل، تعالي!»

«أوديل!» طرقت ماما الباب. «تجاوز الوقت منتصف الليل».
أمسكتُ بورقة وقلم وكتبت:

عزيزي رِمي:

يمكنني القراءة طوال الليل، لكنّ ماما ستضايقني حتّى أطفئ النّور. كان اليوم مرهقًا أيضًا.

المكتبة مزدحمة؛ عاد روّادها الذين غادروا في نهاية أغسطس، ونحن نبذل قصارى جهدنا

لتسليمكم الكتب. يأتي پول لأخذ الصّناديق إلى المحطّة. تقول مارغريت إنّه هنا من أجلي، لكنّي لست متأكدة. لا أعرف شعوره. لم نقل «أحبك» لبعضنا بتاتًا، ولم نكن بمفردنا. لعلّي لم أتح المجال له. الأمل مؤلم. أخشى أنّ مشاعره تجاهي ستتلاشى.

تذكّرت أبي وعمّي ليونيل اللذين عثرا على حب آخر. أعني، ألا يموت الحب؟

«أطفئي النّور يا أوديل!»

1 ديسمبر 1939

أوديل العزيزة،

أشكرك على الكتاب! جين أير مشاكسة مثلك. تدوين ملاحظاتك في الهوامش تصرف ذكي! تقليب كل صفحة أشعرني

بأنّنا نقرأ الرّواية معًا. لماذا تتعاطفين مع السّيد روشستر؟ إنّه وغد! بدأت أشك في ذوقك في الرّجال.

مارغريت على حق؛ پول يتطوّع ليكون قريبًا منكِ. من المفترض ألّا يكون الأمل مؤلمًا، يجب أن يمنحك التّطلّع للمستقبل، كنجوم متلألئة تعدك بالسّعادة.

لم أطلب إجازة بمناسبة عيد الميلاد. كثير من جنود فرقتي لديهم أبناء، وأريدهم أن يتمكنوا من قضاء الإجازة مع أهلهم. سأحاول الرّجوع إلى باريس في الرّبيع.

لم تذكري بِتّسي في رسالتك. في رسائلها أمر غامض. شعرت بأنّها لا تقضي الوقت الكافي مع الأصدقاء، ولا تضحك نهائيًّا. حياتها مجرّد ذهاب إلى العمل ورجوع إلى المنزل. مع تجنيد أخيها، تضاعفت تعاستها. يقتلني معرفة أنّها حزينة. لا أريدها أنْ تكون وحيدة. أرجوكِ اعتني بها من أجلي.

محبّة،

رِمي

16
أوديل

احتفت أسرتي بعيد الميلاد دون وجود توأمي لأوّل مرّة. أكلنا نحن الثّلاثة البطّة دون النّطق بأي كلمة. مشاعري مضطربة هذه الأيّام؛ بكيت، هدأت، ارتبكت، ارتحت. في المكتبة، واصلنا إرسال الكتب إلى جنودنا. الانشغال في تغليف الكتب، ومساعدة روّاد المكتبة احتوى مخاوفي.

ساهم پول في نقل الصّناديق إلى المحطّة، حيث ستشحن على القطارات. اليوم، حين شاهدني، فرح فرحًا عارمًا. تحكّمت بمشاعري لعلمي أنّ مدام سيمون تراقبنا. تبادلنا الترحيب مع قبلات سريعة على الوجنة كما فعلنا حين تعانقنا أوّل مرّة.

عند باب قاعة الأطفال، شاهدتنا بِتْسي ونحن نحرّك عربة باتّجاه الباب. تظاهرت بأنّي لم أرها. استلمتُ رسالة رِمي منذ أسبوعين ولم أنفّذ ما طلبه منّي حتّى الآن.

عند مدخل المكتبة، دخلت الآنسة ريدر المشهد، وقالت: لم تحيي بِتْسي.

- حييتها صباح اليوم.

- كنتما صديقتين.

قاطعنا پول: سيغادر القطار قريبًا. لنستعجل.

قالت لي بتأكيد: سنتكلّم إذا رجعتِ.

لم أقلق. في اللحظة التي ستدخل فيها الآنسة ريدر مكتبها، ستنهمك في متطلّبات رواد المكتبة والمموّلين، وستنساني.

دفع پول العربة في السّرداب. «هل لاحظتِ أنّ بورِس يستخدم قناع الحرب كحافظة للغداء؟ لعلها إشارة إلى أنّ الحياة قد عادت إلى طبيعتها رغم الحرب».

- العلامة الحقيقيّة أنّه قد عاد إلى كتابة «شغف بورِس».

- ماذا تعنين؟

- توثيق تاريخ المكتبة؛ حوادث مضحكة وإحصائيّات. يمكنه تخصيص فصل كامل عن كل من سأل عن رواية عناقيد الغضب دون أنْ يذكر اسمها الصّحيح: عناقيد الجرذات لشاينبوم، عناقيد الجاذبيّة، جفنة العناقيد، غضب غيب، ناهيك باغتصاب الغضب.

ضحك پول. «أجهل كيف يحافظ على جمود ملامح وجهه».

أمام المحطّة، تعثّرتُ بالرّصيف، ووضع پول يديه على ردفي لأتوازن، فنسيت الكتب كليًّا. لم أر غيره. لا أريد غيره. تقت لأقول له: أنا أحبك، لكنّي خفت. خفت ألا يشعر بذات الشّعور.

مسّد ظهري، وسأل: «Ça va?» [بخير؟]

- Oui [نعم]

- Je t'aime بهمس.

- أحبّك أيضًا.

كان يفترض حدوث رعدة في السّماء أو كسوف شمسيّ، بعض السّحر لإضافة التّميّز على اللحظة. عوضًا عن هذا، اصطدم بنا رجل وصاح: انتبها للطّريق!

ضحكنا لسخافة الموقف، والرّاحة التي أعقبت التّنفيس عمّا في قلبيْنا. «هيّا بنا» قلت له.

«هيا بنا» قال.

أكملنا المسير إلى المحطّة. بعد تنزيل الكتب عدنا إلى المكتبة. انتشر الحب كرائحة المخبوزات. لاحظت الزّخارف التي على شكل قلوب في الشّرفات. أغنية غراميّة عبر أثير مذياع بعيد في مقهى. قبّلني مليك فؤادي عند مدخل الفناء. بانتشاء مشيت على الحصى في الدّرب.

جلست الآنسة ريدر وحيدة إلى مكتب الإعارة. وجهها حزين.

سألتها: أكلّ شيء على ما يرام؟ أين بورِس؟

- قلت له إنّي أحتاج إلى التحدّث معكِ.

- معي؟

- الشّجارات تضر معنويات فريق العمل، وروّاد المكتبة يستحقون الأفضل.

أنا في مأزق بسبب بِتْسي؟ قلت لها: هي من بدأت الخلاف!

قالت: يحتاج المستشفى الأمريكي إلى متطوّعين. أريدكِ أنْ تذهبي إليه.

أريدكِ أنْ تذهبي.

جادلتها: لكن لدينا عمل كثير هنا.

- صحيح

- لم أقل أي كلمة لبِتْسي!

«هذه المشكلة. لم تقولي كلمة لها». لم تفارق عيناها عينيّ كأنها كانت تبحث عن حكمة ليست موجودة.

- يجب أنْ تتضجي. أسبوع من العمل في المستشفى سيعيد الأمور إلى نصابها.

- متى تريدينني أنْ أذهب؟
- الآن من فضلك. ستستلمين راتبك كالعادة. ابحثي عن الممرضة ليتسون في المستشفى. إنّها تنتظرك.

شعرت بتحجيم شأني. حبّة غبار أزاحتها الآنسة ريدر من الرّف. أعجزني الذّهول عن الحديث، أومأت بالموافقة ومشيت تحت الأعلام الفرنسيّة والأمريكيّة في الفناء، مرورًا بأزهار الثّالوث الذّاوية، إلى الشّارع. في مترو مونسو، نزلت السّلالم وهرعت إلى مارغريت. حين أخبرتها عن إقصائي عن المكتبة، أمالت رأسها بتعاطف. «تحترمين الآنسة ريدر كثيرًا. أترمين إلى شيء من هذا الفعل؟»

- لماذا يعتقد الجميع أنّها تملك كلّ الحلول؟
- تكلّمي مع بِتْسي. أليس هذا طلب رِمي؟

ماذا عمّا أريده أنا؟ لماذا لا ترى الآنسة ريدر أنّها ظلمتني؟ لا أستحق النّفي مثل جان مورو الذي مسح مخاط أنفه بالكتب التي لا توافق ذائقته. لم أرتكب أي خطأ.

- يجب أنْ أغادر.

في ضواحي نويي، تحت أشجار الكستناء في طريق فكتور هوغو، فتحت باب المستشفى الحديدي وتقدّمت. ممرضة قبعتها ومئزرها بلون أبيض قدّمت للمتطوعين الدّرس الأوّل قبل أنْ تأخذنا في جولة. «لو كنّا مثل الفرنسيين لكانت لدينا لوحات تعريفيّة في أرجاء المكان: جوزفين بيكر غنّت في هذه البقعة تحديدًا، أو هنا بدأ همنغوي كتابة ثمّ الشّمس تشرق بعد أنْ أزلنا الزّائدة الدّوديّة له.

عرفتنا إلى الطّبيب جاكسون الذي قال: الأمور هادئة في منطقة الصّراع، لكن علينا التّأهب للأسوأ.

أوراق ملصقة على النّوافذ، لكنّه قرّر أنّها ليست كافية لإخفاء النّور. تولّيت مسؤولية الطّابق الرّابع، لوّنت زجاج النّوافذ بالطّلاء الأزرق. لطخت ثيابي أكثر من الزّجاج. رغم اشتياقي إلى المكتبة وأنْ أكون محاطة بالكتب، انغمست في هذه المهمّة لأنسى الحفرة التي في قلبي؛ الحفرة التي حفرتها بيدي.

يتسع الجناح لمئة وخمسين سريرًا، وعشرات الجنود الذين جرحوا جرّاء القصف على طول الجبهة. كانوا يتألّمون، ولا يتمتّعون بالخصوصيّة. لا أسر ورفاق قادرون على زيارتهم. أرواحهم واهنة. حرصت على وضع الكتب للجنود على الطّاولة الصّغيرة قرب السّرير. ستعينهم القراءة على التّفكير في أمور أخرى غير آلامهم، ستقدّم لهم خصوصيّة ذهنيّة هم في أمس الحاجة إليها.

سرعان ما أصبح جندي من بريتاني شعره مموّج مريضي المفضّل لأنّه كان مشاكسًا مثل رِمي. في أثناء جمع صواني الغداء، قال: هلّا قرأتِ لي يا آنسة؟

- هل لديك كاتب مفضّل؟

- زين غري. أحب قصص رعاة البقر.

سحبت نسخة ورقيّة مهترئة من رواية نيڤادا من المكتبة التي في الزّاوية، جلست إلى جانبه وشرعت في القراءة. أنهيت الفصل الأوّل، ثمّ سألته: ما رأيك؟

عبس وقال: أعتقد أنّه كان عليّ قراءتها بنفسي. قدمي المصابة لا عقلي. لكنّ صوتكِ في غاية الجمال، أنتِ في غاية الجمال...

«مشاغب!» بأصابعي لخبطت ترتيب شعره، كما كنت أفعل مع أخي. يدي في الهواء توقّفت. ماذا لو حدث شيء لرِمي وأُدخل مستشفى لإصابة أو أمرٍ هو أسوأ؟ طلبَ منّي أمرًا واحدًا؛ يجب أنْ أقوّم علاقتي مع بِتْسي.

تمنيت لو أنْ بإمكاني التّذرع بالحرب لمعاملتي الفظّة معها، لكنّ الحقيقة هي أنّي لم أكن ناضجة. إذا أردت علاقة أفضل مع أخي وبِتْسي، يجب أنْ أتغيّر. أردت هذا، فهل سأتمكن؟

- هل أنتِ بخير يا آنسة؟

مازحته: أفضل منك. رجلي بخير.

بعد عملي، هرعت إلى المكتبة حيث تنفّست رائحة الكتب. وجدت بِتْسي ترتب قصص الأطفال على الرّفوف.

لنشرب الشّاي.

في عينْيها تفاؤل. «ماذا عن العمل؟»

- لن تمانع الآنسة ريدر.

«أنا مشتاقة إليه» همست بِتْسي.

وضعت قدمي على قدميْها كما كنت أفعل مع رِمي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

17

أوديل

باريس. مايو 1940

تفتّحت الأزهار في الفناء، وانتشر عبقها في المكتبة. أيّام عصيبة قلق فيها الجميع على أحبّائهم البعيدين عن منازلهم بسبب مستجدّات الحرب التي أعلنت حدوث معارك مميتة في فنلندا، وبسبب احتمال حدوث الأمر ذاته لفرنسا. أمر السّيد بريس-جونز السيد نيرسيات بالانصراف. امتدح بورِس حقيبة ملفات البروفسورة كوهِن، لكنّ مدام سيمون تمتمت: بينما أرى ممتلكاتكم يعمل رجال أخيار مثل ابني مقابل أجر زهيد... على الأقل أنا وبِتْسي كنّا متفاهمتيْن.

لم أسمع هسهسة خُفّيها حتّى اقتربت منّي. قالت لي: تريد الآنسة ريدر أنْ تقول لنا أمرًا. اجتماع للعاملين.

بِتْسي والحارس آخر الواصلين. وقفت إلى جانبي.

في مكتبها، تنحنحت الآنسة ريدر. لدي خبر. غزت القوّات الألمانيّة فرنسا، ولوكسمبورغ، ونذزلاندس. فجّر الألمان شمال فرنسا وشرقها.

الشّمال. رِمي في الشّمال. يا رب احفظه. قبضت على يد بِتْسي.

قالت الآنسة ريدر أنّ علينا الاستعداد للقصف وحتّى النّضال. لا سبيل للتنبؤ بمجرى الحرب. يجب أنْ يغادر فريق العمل المدينة، أمّا العاملون الأجانب فيجب أنْ يغادروا البلد.

هيلين: العودة إلى الوطن؟

الآنسة ريدر: أجل.

سألها بورِس: هل ستغادرين؟

«من فضلك لا تذهبي» تمتمت بِتْسي لنفسها.

الآنسة ريدر: لا. ستبقى المكتبة مفتوحة.

حمدًا للرّب. شدّت بِتْسي يدي. كنّا خائفين، لكن لدينا المكتبة على الأقل.

«هذا كل ما أردت قوله». هذه العبارة التي تذكر في نهاية الاجتماعات، فرّقتنا ككرات البلياردو لننشر الخبر، أو لنبكي في دورة المياه. شعرت بالدّوار، فدخلت قاعة الدّوريّات، حيث مشى پول نحو رفوف المجلّات.

قال: سمعت للتّو النّبأ. لا بدّ أنّك قلقة على رِمي. فتح ذراعيْه وارتميْت لمعانقته.

* * *

بعد أسبوع، اقتربت الآنسة ريدر، حاجباها مقطّبان بقلق، وقالت: وصل المستشفى الأمريكي إلى طاقته الاستيعابيّة القصوى. لماذا لا تساعدينهم بضعة أيّام؟ قد تقابلين من يعرف أخاك أو كتيبته.

- ماذا عن المكتبة؟

- الكتب تدوم أطول منّا جميعًا. اذهبي لتتحري أخبار أخيك.

هرعت الممرّضات من عمليّة إلى أخرى. قبعات التّمريض مائلة على رؤوسهن، ومآزرهنّ مشبّعة بالدّماء. الجنود بضمادات متّسخة على الكراسي في الرّواق. غسل المتطوّعون وجوه الجنود

وأرجلهم. ملأت حوضًا بماء دافئ وركعت أمام جندي تلو الآخر. في كلّ مرّة نظّفت فيها الدّم من وجه جندي شعره داكن اللون، تمنيت رؤيّة عيني رِمي المميّزتيْن. وجوه لا نهائيّة، وقفت لأتمدّد، لأرى إذا كان بمقدوري المساعدة في الجناح، حيث استلقى الجرحى على الأسرّة. لم أعرف إذا كان عليّ أنْ أرتاح أو أنْ أفزع لأنّ رِمي ليس بينهم.

عند الفجر، نمت على لحاف في غرفة هيئة التمريض، واستيقظت بعد ساعتين لأقدّم الإفطار. الجنود الفرنسيّون والإنجليزيّون في مناماتهم دون ثيابهم الرّسميّة وبلا مناصب وبلا جنسيّة. النّظام الاجتماعي يتحدّد بشدّة الإصابة. هكذا قيَّمت الإصابات؛ إذا لاطفني أحدهم، فهذا يعني أنّه يبدأ يتحسّن؛ إذا ظلّ صامتًا، فهذا يعني أنّه مُتألّم. على النّقالة، مباشرة بعد عمليّة، سمعت أنين أحدهم. اقتربت منه، مسحت حاجبه بمنديلي الذي غسلته أمّي بماء اللافندر.

قال: أنتِ.

أجبته: أنا.

«غسلتِ وجهي. لمستك حنونة...» ثمّ نام، فاستيقظ فجأة. «أحبّك».

- مع كلّ ما ضخّوه في جسدك، ستعشق عنزة.

في الجناح في المساء التّالي، ساعدته ليكتب رسالة إلى أهله في أمريكا. عبَر إلى كندا لينضم إلى القوّة الجويّة الملكيّة. «لم أكن ممن يتفرجون على مآسي الآخرين دون تقديم المساعدة» قال ثمّ أشار إلى يدي، المُحمرّة من غسل الجروح. «ولا أنتِ منهم».

- اعتدت ترقيع الكتب، لا البشر.

- الكتب؟

- أنا أمينة مكتبة.

- هل تُسكتين النّاس؟

قرصت ذراعه بمزاح «فقط الجنود الوقحين».

- ليتنا في المكتبة الآن.

«أي نوع من القراء أنت؟» هذه المرّة الأولى التي أسأل فيها هذا السّؤال منذ أسابيع.

- أحب قراءة الكتاب المقدّس. جئت من مكان يهتمون بقراءته.

- أتريد أن أحضره لك؟

- يا ربّاه، لا! أقصد، لا شكرًا. لقد قرأته.

- ما رأيك بإحضار شيء لك غدًا؟

- أتمنى.

تثاءب ونام بعد ثانية. السّاعة التّاسعة تقريبًا، ويجب أنْ أرجع إلى المنزل قبل أن تقلق أمّي. في أثناء مشيي نحو الباب، اقترب عسكري اسمه توماس منّي ولمس فستاني الملطّخ بالدّماء. كان في التّاسعة عشرة من عمره، وعمل حلّاقًا قبل الحرب. أمس، حين أحضرت له نسخة من مجلّة حياة على غلافها صورة لانا ترنر، رفض فتحها. قال بحزم: «لا حاجة إلى النّظر أكثر».

«لا تغادري يا من تعشقين الكتب». أمسك فستاني. مشّطت شعره. بني مثل شعر رِمي عند مفرقيه.

«لا تغادري» همس مرّة أخرى.

يمكن أمي الانتظار. طويت البطانية تحت ذقنه.

قال لي: كلّميني.

- عن ماذا؟

- أي شيء.

- أتمنى أن تلتقي زوار المكتبة. هناك رجل إنجليزي، تخيّل معي رافعة ترتدي ربطة عنق صغيرة، وصديقه الفرنسي الذي يشبه حيوان الفظ البحري بشاربه الأشعث. دخّنا سيجارًا يوميًا وتجادلنا في مواضيع مختلفة، موضوع اليوم: كعكة الأديب بروست. هل يُقصد بها الكرواسون؟ أمّا موضوع أمس: فما اسم أعظم رياضي يبدأ اسمه بحرف الجيم؟ جوني ويسمولر أم جيسي أوينز».

كافأني بابتسامة. «كلاهما على خطأ؛ إنّه جاك بيزيسفورد المجدّف في الماء. أكملي حديثك».

- وهناك مدام سيمون التي لا تشبع. أو لا لا، إنّها تحب الثرثرة.

- كالنّساء في الكنيسة. تابعي.

- آخر حديثي سيكون عن القارئة المفضّلة عندي في المكتبة؛ بروفسورة ماضيها غامض. بدأت مدام سيمون حديثها: «تزوَّجَت رجلًا عمره نصف عمرها»، لكنّ مُفَهرسة الكتب السّيدة ترنبل قاطعتها: «لا كان ضعف عمرها». كلاهما على حق، إذ إنّ زوج البروفسورة الأوّل كان ضعف عمرها، أمّا الثّاني فنصف عمرها. بعدها خمّنوا عمر الثّالث».

- الثّالث؟ يا لها من حياة.

اختلستُ النّظر إلى السّاعة. الحادية عشرة تقريبًا.

«لا تذهبي» قال لي.

غـدا الصّـوت أجـشّ، فرفعـت رأسـه ليرتشـف المـاء. «لـن تكـون وحيـدًا بتاتًـا» وعدتـه. «أأخبـرك بالمزيـد؟ ستتعرّف علـى البروفسـورة مـن بعيـد لأنّهـا ترتـدي اللـون البنفسـجي دائمًـا. إنّهـا تتكلّـم عـن الكتب كأنّهـا أصدقاؤهـا المفضّلـون..»

- أريد أنْ أقابلها.

بقيـت سـاهرة طـوال الليـل أحكـي لـه قصصًـا، وألطـف كوابيسـه التـي سـبّبتها الحمـى حتّـى مـات.

18

أوديل

باريس، 3 يونيو 1940

كنت ذاهبة إلى المكتبة لجلب كتبٍ لجنودي في المستشفى، حين أطبق الصّمت على المدينة فجأة. لا هدير حمام، لا أحاديث باريسيّة. رفعت عيني وشاهدت طائرات، عشرات الطّائرات. صعد قلبي حتّى ترقوتي. سمعت أصوات زجاج تهشّيهم وانفجارات قنابل في مسافة بعيدة. صفّارات إنذار في الشّوارع. ركض النّاس حولي، لا باتّجاهي. تذوقت طعم دخان، فعلمت أنّ عليّ البحث عن ملجأ. لكنّ الدّماء تجمّدت في أوصالي على الرّصيف، حين شاهدت الغارة الجويّة في السّماء الزّرقاء الصّافية. لم أفكّر إلّا في رِمي. أين هو؟ هل يشمّ ذات الرّوائح ويسمع ذات الأصوات؟

انتهى القصف الجوي. أدام ساعة أم ساعتيْن؟ أم عشرين دقيقة؟ خطوت بمحاذاة المباني حتّى المكتبة. أمام بابها، تجمّع الموظّفون حولي. نظرْتُ إلى بِتْسي التي قالت: «يا عزيزتي!»، ثمّ إلى المديرة التي بين حاجبيْها خط رفيع، ثمّ إلى مارغريت التي أمسكت بلآلئها، وبورِس الذي قال: «ستفقد الوعي!»

أجلستني الآنسة ريدر على كرسي، وصبّ بورِس نبيذًا في كوب شاي لتهدأ أعصابي.

بورِس: أنتِ بأمان.

مارغريت: لن تعبر القوّات الألمانيّة جبهة ماجينو.

الآنسة ريدر: اكتفيْنا من التّفكير الإيجابي. سننفّذ الخطط الآن.

بِتْسي: أتقصدين أنّ علينا المغادرة؟ لا أعرف إلى أين أذهب وأمّي؟

صافرات الإنذار في مسمعي. لم أفقه حرفًا ممّا فاهوا به. كل ما أعرفه هو أنّ عليّ العودة إلى المستشفى؛ جنودي يحتاجون إليّ. قمت من الكرسي.

بِتْسي: يجب أنْ تجلسي.

لا. أحتاج إلى الرّجوع إلى الجرحى.

لم يتضرّر المستشفى، لكن تأثّر كلُّ من فيه. الكتب بين يديّ المرتجفتيْن، دخلت الجناح، خطوت بين الأسرّة، بين الوجوه الخائفة. عند العشاء، فقد الجميع شهيّتهم. قدّمتُ مع الممرضات الحساء للجنود وحاولنا إقناعهم ليأكلوا.

في المنزل، ماما قلقة: تتأخّرين كلّ مساء. پول وأنا هنا، والأكل جاهز منذ ساعة.

- هل وصلت رسالة من رِمي؟

«لا» قال أبي.

«يوم عصيب» قال پول وفي أثناء أخذنا الأطباق. احتجت إلى الراحة التي تبعثها لمسته، فحرّكت قدمي لترتاح بيْن قدميْه.

«أخبار جيّدة في دونكريك. معركة طاحنة مستمرّة» قرأ أبي من بيان الحرب. «مقاومة باسلة لقوات التّحالف»

«أتمنّى انتهاء الحرب، وعودة رِمي إلى المنزل قريبًا» قالت ماما، ويدها على صدغها الذي يؤلمها، ويدها الأخرى على كرسي رِمي.

حين وصلت إلى المكتبة في اليوم التّالي، كانت الآنسة ريدر وحيدة على طاولة القراءة، تطالع الجريدة. رائعة في فستانها الأزرق، ماسكارا وأحمر شفاه. لم تسمح لذعرها بإعاقتها عن القدوم إلى العمل.

لعلّها شعرت بنظرتي، لأنّها رفعت ناظريْها. في ملامحها وجهها رأيت الكثير من القلق، والفضول، والشّجاعة، والعاطفة. سألتني: هل تأذّى أي شخص من عائلتك من القصف؟

- لا.

«جيّد». رفعت برقيّات، ثمّ أضافت: «عائلتي ترجوني لأعود».

- لا ألومهم. أحيانًا، حتّى أنا أريد المغادرة.

- ولماذا تبقين؟

بلطف، قرصَت وجنتي. «لأنّي أومن بقوّة الكتب. دورنا مهم في التّأكد من توافر المعرفة، وتكوين المجتمع، ولأنّي مؤمنة».

- بالرّب؟

- بالشّابات مثلك ومثل بِتْسي ومارغريت. أعلم أنّكن ستعدن العالم إلى صوابه.

جاء روّاد المكتبة لقراءة الأخبار. هنّأت جريدة لوفيغارو الباريسيين على سكينتهم. أعلنت أنّ القوّات الألمانيّة قد ألقت 1084 قنبلة، وقتلت 45 مدنيًّا، وجرحت 155. نشرت صورة مبنى فُجّر وغرفة بلا جدار، مكشوفة للعالم كمنزل دمى.

السّيد نيرسيات: كلُّ قتال إمّا أنْ يكون هزيمة نكراء وإما انتصارًا ساحقًا.

البروفسورة: تُطمس مقالات كثيرة يوميًا في الجريدة. ما الذي يخفيه الرّقيب؟

طلب السّيد بريس-جونز الحديث معي بخصوصيّة. في عينيه الزّرقاوين قلق. «لو كان لدي أخ، لأردت سلامته.

في دورة المياه، بين المظلّات والكراسي المكسورة، قال لي الدبلوماسي المتقاعد أنّ التّصريحات الرّسميّة لا تخبرنا بالقصّة الحقيقيّة.

- لكن... الجرائد تقول إنّنا منتصرون.

- غير صحيح. طبقًا لمصادري في السّفارة، ألقي القبض على عشرات الآلاف من الجنود الفرنسيين والبريطانيين. في دينكريك، أحاط الألمانيون بقوّات التّحالف الذين أعطوا ظهورهم للقناة. السّفن الإنجليزيّة أبحرت حماية لجنودها. قريبًا لن نجد أي قوّة عسكريّة بريطانيّة.

زاد ثقلي على الكرسي، وعجزت عن ردم الهوّة بين ما قرأت وما سمعت. انسحب البريطانيّون بعد أسابيع من بدء المعركة الحقيقيّة. ماذا سيحدث للقوّات الفرنسيّة؟ ماذا سيحدث لرِمي؟

- أنا آسف.

- شكرًا لأنّك أخبرتني بالحقيقة. ما سبب عدم إنقاذهم جنودنا؟

- حسب مصادري، ساعدوا أكبر عدد منهم. تذكري، نحن نتكلّم عن قوارب صيد وزوارق وسفن تحاول إخلاء ثلاثمئة ألف رجل.

ستحافظ جبهة ماجينو على أمننا، تملك فرنسا أفضل جيش؛ أكاذيب. أوه رِمي. أين أنت؟ كنت سأشعر لو أنّ مكروهًا أصابه، لكنّي لم أشعر بشيء.

بعد أيّام قليلة، في طريقي إلى المنزل عبر الشّارع المورق، توقّفت مشاهدة آنسات فرحات عبر زجاج عرض متجر قفازات كيسلاف (حرير، أو قطن، أو جلد، أو دانتيل)، وثياب نينا ريتشي (مشذّبة بذيول السّناجب) لكنّي شاهدت آلاف الأشخاص على الأرصفة والدّروب المكسوّة بالحصى، عددهم كبير إلى حد عجزي عن رؤية الجانب الآخر من الطّريق. كانوا جميعًا مرهقين ومذهولين. عجزت عن تخيّل ما مرّوا به من أهوال الحرب التي فرّوا منها.

بعض الأسر كانت على عربات تجرها ثيران، المفارش مكوّمة خلفهم. آخرون على أقدامهم، يجرّون أشياءهم أو يدفعون عربات أطفال فيها أطباق. شاهدت رجالًا من الرّيف بأحذية العمل الطّويلة، سكّان المدينة بأحذيتهم الأنيقة. جدّة ترتدي فستانًا عليه أثر عرق تهز مقلاة معدنيّة، وزوجها حمل كيس خيش. حتّى الأطفال حملوا شيئًا – إنجيلًا، حقيبة تسقط منها ثياب، وقفص طيور. مشى كثير منهم في مجموعات صغيرة، لكنّ الآخرين كانوا وحيدين. جندي ضماد ذراعه ملوّث كاد يصطدم بي. فتاة تمشي بتثاقل، في نفس عمري، وتحمل رضيعًا كأنّها لا تعرف كيفيّة مسكه. لعلّ زوجها التحق بالجيش، فتُركت وحيدة مع طفلها. هزّته بلطف كأنّها تريد إيقاظه. وجنتاه تشيران إلى مرضه، وأطرافه متجمّدة. عجزتُ عن مواجهة الحقيقة، فأدرت وجهي.

إلى جانبي، مزارع يحث ثوره ليمشي. أمّ تتمتم لطفل. لكنّ أغلبهم صامت كأنّهم بلا كلمات تصف ما رأوه. رأيت في وجوههم الذّاهلة أنّ الحياة لن تعود كما كانت. وقفت في الشّارع معهم من

باب الاحترام، كما يفعل المرء في عزاء وقبل توجهي إلى المنزل.

عند العشاء، قال أبي إنّه بمساعدة فريق عمله قد قدّموا القهوة إلى اللاجئين. أغلبهم من شمال شرق فرنسا. لم يغادر كثير منهم قراهم من قبل. «هربوا من الجنود الألمان. الرّجال الذين كلّمتهم مزارعون بسيطون وتجّار لم يتلقوا أي مساعدة أو إرشاد، رئيس بلدتهم كان أوّل الهاربين».

- ما الذي يحدث في العالم؟ إنّهم فقراء. أين سيذهبون؟

دلّك يدها، وقال: ستذهبين مع أوديل إلى الجنوب. سأؤدي واجبي هنا، لكنّي أريدكما أنْ تذهبا إلى مكان آمن.

كلامه عقلاني. توقّعت إذعان أمي، لكنّها مالت إلى الخلف كأنّه طلب الطّلاق.

- لا!

- ستذهبين الآن يا هورتينس.

أبعدت يدها عن يده. «إلى هنا سيعود رِمي. لن أغادر».

Point final

[قرار نهائي]

***

نحن –الباريسيّين– متبرّمون؛ مشينا بخطوات مسرعة، لكنّنا لم نستعجل. لم نراقب العشّاق في الحدائق. أنيقون حتى ونحن نخرج القمامة من المنزل. ببلاغة نهين الآخرين. لكن في بداية يونيو، مع أخبار الدّبابات الألمانيّة كانت على بعد أيّام من المدينة، نسينا أنفسنا. هنالك الكثير لفعله - إنهاء حزم أشيائنا، قفل الأبواب، الإسراع -لدرجة أنّنا تأتأنا في كلامنا. منّا من

هـرع إلـى المحطّـة ليطمئـن علـى سـلامة أحبّائـه علـى القطـارات. منّـا مـن انضـمّ إلـى العربـات البئيسـة المنطلقـة والعجـلات اليدويّـة والسيّارات والدّراجـات كالإسـكافيين، واللحاميـن، وصنّـاع القفـازات الذيـن غـادروا. كلّ شـقة أقفلـت، وكل بـاب أغلـق كان دليـلًا علـى قـرب حـدوث أمـرٍ مـا.

نصحـت السّـفارة البريطانيّـة رعاياهـا بمغـادرة باريـس، ولهـذا خطّـط كلٌّ مـن مارغريـت ولورنـس لقيـادة السّـيارة إلـى بريتانـي مـع ابنتهمـا. «بضعـة أسـابيع حتـى تهـدأ الأمـور» أكّـدت مارغريـت مغادرتهـم بضعـة أسـابيع فقـط. تذكـرتُ وجـوه الفرنسـيين المرتعبـة الذيـن أصبحـوا لاجئيـن فـي وطنهـم بيْـن ليلـة وضحاهـا، لـم أثـق بكلامهـا.

رغـم أنّ المدينـة غـدت مدينـة أشـباح، جـاء زوّار المكتبـة إلـى قسـم الدّوريـات. اجتمعنـا حـول الطّاولـة، طالعنـا الصّحـف. هـل ستُقصف باريس مـرّة أخـرى؟ هـل سيصل الألمـان إلـى هـذا التّوغـل؟ حتّـى قـادة الجيـش لـم يعرفـوا. لعـل أكثـر مـا يخيـف هـو جهلنـا بمـا سـيحدث.

سـألت البروفسورة السّيد بريس-جونز: هل ستذهب إلى لندن؟

أرجـع رأسـه إلـى الـوراء. «لا طبعًـا! دون باريـس لا أعـرف إلـى أيْـن سـأذهب».

سـأل السـيّد نيرسـيات عـن رِمـي، لكنّـي هـززت رأسـي نفيًـا فقـط مخافـة أنْ أبكـي إذا فتحـت فمـي.

«هـرب السّياسـيّون» غيّـر السّـيد بريس-جونـز دفّـة الحديـث بلطـف.

- حتّى الدّبلوماسيون.

تنحنح الرّجل الإنجليزي، فأضاف السّيد: أصدقاؤنا هنا مستثنون.

بريس-جونز: باريس بلا سياسيين كماخور بلا بائعات هوى.

سألته: أتقارن باريس بمكان سيِّئ السّمعة؟

السّيد: بل أسوأ. إنّه يقارن السّياسيين ببائعات الهوى.

«إذا لاءمهم الوضع» قلت وضحك الرّجل.

«بل بوليت لا يزال هنا» قال السّيد بريس-جونز وهو يشير إلى صورة في لوفيغارو. «قال إنّ لم يسبق لأي دبلوماسي أمريكي الهروب - ولا خلال الثّورة الفرنسيّة، ولا حتى عندما جاء الألمان في 1914 - سحقًا لو أنّه كان الأوّل».

سألت: يقول ملصق إنّ باريس ستصبح مدينة مفتوحة. ماذا يقصدون؟

- أيّ أنّ باريس لن تدافع عن نفسها، والعدو لن يهاجم. إنّها طريقة لضمان سلامة قاطنيها.

«إذن لا مزيد من القنابل» سألت بتحفّظ. أخبار لا تصدّق دائمًا. لكنّي أومن بالسّيد بريس-جونز إيمانًا خالصًا.

- قنابل لا، ألمانيّون نعم.

هرعت مارغريت نحو المكتبة. شاحبة كلآلئها. نظرت إلى الغرفة وركضت باتّجاهي. «يجب أنْ أسألك للمرّة الأخيرة. هل أنتِ أكيدة من أنّكِ لا تريدين المجيء معنا؟»

- لو عاد رِمي...

- أفهمكِ. أمسكت يدي، وقالت: ماذا لو لم نشاهد بعضنا بعد هذه المرّة؟

سؤال بلا إجابة. كل ما تمكنت قوله هو: أنتِ صديقتي الأعز.

- لا أعرف ماذا سأفعل دونك. أحب المكتبة، وأحبّك أكثر.

سمعنا بوق سيّارة.

قالت لي باضطراب: إنّه لورنس. لا بدّ أنّ كرستينا قلقة. من الأفضل أنْ أذهب. تحلي بالشّجاعة.

أنا أحب المكتبة، وأحبّك أكثر. هذا شعوري تمامًا. كنّا مثل: جاني وفوبي من كتابي المفضّل. تكلّمنا في كلّ الأمور.

سافرت صديقتي، فاستدرت نحو إبريق يتسرّب منه الشّاي. لا أريد أنْ يراني أحد وأنا فاقدة أعصابي. رمشت رمشات متسارعة في أثناء مشيي باتّجاه صندوق البطاقات. انتقلت من بطاقة إلى أخرى، سمحت لدموعي بالتّساقط على الورق. أخفيت كل ذعري في صندوق حرف O.

«تصرّف مارغريت ذكي» وضعت البروفسورة شالًا على كتفيّ.

- هل ستغادرين أنتِ أيضًا؟

ابتسمت بامتعاض. «لم يقل لي أي شخص قط بأنّي تصرّفت تصرّفًا ذكيًا».

***

المكتبة محراب الحقائق، لكنّ الشّائعات شقّت طريقها إلى قاعة الدّوريات حيث تبادلت البروفسورة كوهن ومدام سيمون الأحاديث. «سمعتُ أنّ المدارس من الآن فصاعدًا ستعلّم اللغة الألمانيّة فقط» قالت لي مدام سيمون في أثناء تعديلي مجموعة

مجلّات. «لن يسمح لنا بالمشي على الأرصفة، فقط الألمانيّون. هل تصغين إليّ يا فتاة؟» وخزَت صدري بطرف إصبعها لتلفت انتباهي. «سيغتصبون كل ما له قدمين، خاصّة الجميلات مثلك». تمخّض الخوف في بطني في أثناء محاولة تجاهلها. «ادهني نفسك بالخردل ليشمئزّوا منكِ».

«كفى!» صاحت البروفسورة كوهِن.

***

جهّزت المديرة العربات لتنقل الزّملاء إلى أنغوليم حيث سيساعدون طاقم عمل عيادة أمريكيّة. أردت مشاهدتهم وهم يغادرون، لكن بابا أمرني بالبقاء في المنزل.

- أحتاج إلى توديعهم!

- مستحيل.

-«ستبقى الآنسة ريدر وحيدة إذا لم أذهب». تذكرت انهيار أحد روّاد المكتبة بالبكاء بين ذراعيْها. ستبقى في عملها رغم أنّ هذا ليس وطنها.

- أنا قلق عليكِ لا عليها.

- تقول الآنسة ريدر...

- تقول الآنسة ريدر! ماذا عمّا أقوله أنا؟

- ماذا عن المكتبة؟

«ما بها المكتبة؟»، ثم أضاف بسخط: «ألا تدركين حجم الخطر؟»

في صباح اليوم التّالي، استيقظنا على أصوات تدوي من مكبرات الصّوت: «المظاهرات والعنف ضد القوّات الألمانيّة عقابهما الموت!»

19

الآنسة ريدر

باريس. 16 يونيو 1940

أهذه باريس فعلًا؟ هذا ليس ما تعتقده الآنسة ريدر؛ الأحياء مهجورة، والرّفوف في الأسواق التجارية خاوية. حتّى العصافير هربت. مشَت بنشاط نحو نقطة توقّف الحافلة، مرّت بمحل الزّهور، حيث لمحت عناكب ميتة على زهور الهِدْرانَج، ثمّ مرّت بمخبز نوافذه مغطّاة بألواح خشبيّة. تاقت إلى رائحة الكرواسون المعتادة والسّاحرة. من عادتها أنْ تسلك طريق 28 إلى المكتبة، لكنّ المواصلات العامّة قد توقّفت. مشت وبيدها حقيبة ملفاتها وقناع الغاز. أفزعتها رؤية ثلاثة جنود ألمانيين في دوريّة استكشاف. تساءلت عن أماكن تجمّعهم، فتسارعت خطواتها، وأمرٌ واحد يشغل تفكيرها: المكتبة.

عبرت نهر السّين، لا توجد أي روح أخرى في ساحة الكونكورد الشّاسعة، ولا سيّارة واحدة تعبر الشّانزليزيه؛ أعظم خطر مروري. في أكثر مدينة حيويّة في العالم، تمكنت من سماع سقوط دبوس شعرها. السّكون غريب. لمن تشعر بمثل هذه الوحدة من قبل. ومع هذا، بعثت مشاهدة السّفارة الاطمئنان في روحها، فشعرت برغبة في التّوقف لإبلاغ السّفير بوليت أنّ المكتبة مفتوحة. في نهاية المطاف، هو مسؤولها المباشر. لكنها عرفت أنّ الحكومة الفرنسيّة قبل أنْ تسافر، طلب رئيس الوزراء من السّفير الأمريكي التّعامل مع القادة الألمان والمحافظة على النّظام. شعار النّازيّة

فـوق فنـدق أوبولنـت كريلـون، المواجـه للسّـفارة يشـير إلـى وجـود مهـام تشـغل السّـفير.

دخَلَـت فنـاء المكتبـة فـي أثنـاء رفـع الحـارس لضلفـة الشّـبّاك. وصلـت فـي الوقـت المناسـب لتـرى اسـتيقاظ عالمهـا المُحبّب مـن نومـه.

«سـأكون فـي مكتبـي. لا زوّار حتّـى التاسـعة مـن فضلـك» قالـت للحـارس كالعـادة قبـل أنْ تعـد إبريـق قهـوة. إلـى مكتبهـا، أعـادت قـراءة البرقيّـات، كأنّ محتواهـا سـيتغيّر خـلال الليـل، كتغيّـر باقـي الأشـياء. «مناشـدة تمويـل المكتبـة قـد رُفضـت» كتـب النّائـب الثّالـث لرئيـس مجلـس الإدارة مـن نيويـورك. «يُشـكّك أصدقاؤنـا فـي اسـتمرارية المكتبـة». كتـب آخـر: «نعدّ المكتبـة مغلقـة. لا أعتقـد أنّـه سيكون لهـا أي وجـود فـي المسـتقبل».

أرادت أنْ تصـرخ: «لـم أهجـر وظيفتـي! نحـن هنـا». احتاجـت إلـى إقناعهـم أنّ المكتبـة الأمريكيّـة فـي باريـس يجـب أنْ تبقـى مفتوحـة. «المكتبـات رئـات العالـم» دوّنـت أفكارهـا المنهمـرة، قلمهـا بالـكاد سـاير تدفّـق أفكارهـا. «الكتـب هـواء منعـش نسـتنشـقه لنحافـظ علـى نبـض القلـب، لنحافـظ علـى خيـال العقـل، لنحافـظ علـى بقـاء الأمـل. روّاد المكتبـة يعتمـدون علينـا مصـدرًا للأخبـار، والاجتمـاع ببعضهـم. الجنـود بحاجـة إلـى الكتـب، يحتاجـون إلـى معرفـة أنّ أصدقاءهـم فـي رعايـة المكتبـة. يجـب ألّا يتوقّـف عملنـا». أعـادت قـراءة السّـطور: واقعيّـة جدًّا، عاطفيّـة جدًّا. هـدّأت نفسـها، وكتبـت رسـائل أكثـر. هـذه الرّسـالة للسّـيد ميـلام العضـو فـي رابطـة المكتبـة الأمريكيّـة، وتلـك لمجلـس الإدارة فـي نيويـورك: «نحـن نوفّـر للطّـلاب

ما يحتاجون إليه، وللنّاس الكتب التي يريدونها، وللجنود ما نقدر عليه. المكتبة في نهاية المطاف، أمرٌ نتمسّك به، ونتمنّى مساهمة أكبر من الإنسانيّة».

صبّت القهوة لنفسها.

بل بوليت: هل بقي أي شخص في باريس؟

- السّفير.

قال لها: حضرة المديرة، تعرفين سبب وجودي.

قالت بيقين: لتنصحني بالعودة إلى الولايات المتّحدة.

- أمرني الرئيس روزفلت بمغادرة باريس، وما زلت هنا. لن آمرك بفعل ما لم أفعله.

قالت له بابتسامة واهنة: أين تفكيرك السّليم.

- لا بدّ أنّنا تركنا في الولايات المتّحدة.

شاهدته وهو يصب قهوة لنفسه.

جلس، ثمّ قال: اذهبي إلى فندق لوبريستول حيث باقي الأمريكيين.

- لا يمكنني تحمّل كلفة الإقامة فيه.

احتسى قهوته. «سأتدبّر الأمر».

- سأكون بخير في المنزل.

- أيوجد تحت المبنى الذي تقيمين فيه ملجأ يحميك من الغاز السّام؟

أشارت إلى قناع الغاز أمام حقيبة ملفّاتها.

قال: وسائل المواصلات لا تؤتمن في الوقت الرّاهن. الفندق على بعد أربعة مربعات سكنيّة.

- القرب من المكتبة مريح.

عمّ الصّمت.

قالت له: هل من أمر تريد أنْ تقوله؟

تلاشت نبرة التّأكيد من كلامه. «مررنا بتجربة مريرة في التّعامل مع الألمان. أعدك بأنّي سأكون حذرًا، وأنّك ستنتقلين إلى الفندق».

«سأذهب الليلة» سلّمته برقية ليرسلها مع الحقيبة الدّبلوماسيّة.

«لن أؤخركِ» خرج من مكتبها.

جزء بسيط من روحها تمنّى لو أنّها نفّذت طلب والديْها وغادرت على متن السّفينة. حملت صورتهما في محفظتها. في كلّ مرّة اشترت فيها خبز باغيت أو استخدمت منديلها، تراءى لها مشهد والديْها وهما يرجوانها لتعود. تمنّت لو أنّ بإمكانها أنْ تشرح لهما أنّ باريس وطنها. حياتها تتمحور حول العمل، وحياتها هنا.

البقاء هو الخيار الأمثل. لو أنّها تعلّمت أمرًا واحدًا من والديْها، فسيكون الذّود عن المبادئ، سواء عند التعامل مع زملاء المدرسة المشاكسين أو مع مُفهرس البطاقات المكتبيّة المُتسلّط في مكتبة الكونغرس. نحن لا شيء بلا مبادئ. لا مكان بلا مبادئ. لا نكون بلا إقدام. حتّى وهما يرجوانها لتعود إلى المنزل، كانا فخوريْن ببقائها. كتبت: أمّي وأبي العزيزيْن، أمورٌ كثيرة أودُّ قولها لكما. أفكار كثيرة عليّ إرسالها، لكن عليّ الاعتماد على حدسكما وإدراككما لتعرفا كل ما أحمله داخلي...

لوبريستول. سيطمئن والداها لإقامتها مع أشخاص من

وطنها. امتلك الفندق قائمة طويلة فيها أسماء الضّيوف المتوقّع استقبالهم: نجوم سينما، وريثات ثروات ضخمة، لوردات، سيّدات، والآن أمينة مكتبة. بعد العمل، مشت إلى المنزل الحي الأوّل دولا تشايس لتأخذ أغراضها. فتحت باب الشّقّة، فهرعت نحوها مدام پالِوسكي الشّاحب لونها.

الآنسة ريدر: ماذا حدث؟

- «كان زوجي في المكتبة البولنديّة. لقد جاؤوا». بدأت تبكي. «اقتحموا المكان، وطلبوا المفاتيح. فتّشوا أرجاء المكان. الأرشيفات، والمخطوطات السّريّة. حاول المدير إيقافهم، فهدّده الجنود بالاعتقال».

- هل زوجك بخير؟

- أجل، لكنّهم سرقوا كلّ شيء...

وصل النّازيّون منذ ثلاثة أيّام، وبدؤوا نهبهم مباشرة. تمنّت الآنسة ريدر ألّا يقتحموا أماكن العبادة الهادئة.

أدركت أنّها ستقابل العدو عمّا قريب.

20
أوديل

2 يوليو 1940

رِمي العزيز،

أين أنت؟ نتوق لرؤيتك، لاستلام الأخبار منك. نحن بخير. بعد أنْ أبقاني أبي عشرة أيّام في المنزل، سمح لي أخيرًا بالعودة إلى المكتبة. قلقت بشدّة على المديرة، وحيدة في المكتبة، لكنّها تصر على أنْ تكون الحامية الوحيدة لها. وحيدة كليًّا دون الآخرين الذي عادوا للتّو.

حين رأيت بِتْسي، صحت فرحًا؛ السّيد دو نيرسيات استمتع بإسكات أمينة مكتبة. لكنّ الخبر الإيجابي تبعه خبر سلبي؛ أوضح بورِس أنّ النّازيين قد وصلوا إلى أنغوليم أيضًا. السّيدة ترنبل الحازمة تسافر إلى وينيبغ [في كندا] مباشرة من هناك. الكنديون والبريطانيّون يُعدّون أعداء.

هنا، يشتري النّازيّون كميّات كبيرة من الصّابون وإبر الخياطة. نسميهم (سيّاحًا) لأنّهم يلتقطون صورًا مع النّصب التّذكاريّة كأنّهم في إجازة. حين يسألون عن الاتجاهات – أين قوس النّصر؟ أين مولان روج؟ – نقول لهم إنّنا لا نعرف. عند بدء حظر السّاعة التّاسعة مساء يعم الصّمت المدينة. أُجبرنا على تقديم ساعاتنا ساعة واحدة لتطابق توقيتهم. في كلّ مرّة أتفقّد فيها ساعتي، أتذكّر أنّنا نعيش بتوقيتهم، وفق شروطهم.

لا أحد يصدّق أنّ فرنسا قد هُزمت بلمح البصر. عند منصة الموعظة، رفع الرّاهب كتابه المقدّس وقال إنّ الهزيمة جزاء الرّب لنا لأخلاقنا المنحطّة.

قال أبي إنّ مجموعة أشخاص قد اعتقلوا لكتابتهم على الجدران أو قذف الصّخور على الجنود الألمان، عدا ذلك فالأمن مستتب. پول غاضب بشدة لدرجة أنّه قد يقتل أحدهم. يقول إنّ وظيفته الآن هي توجيه المرور للنّازيين. أمروه بارتداء قفازات بيضاء أشعرته أنّه خادم. سيساعد عمّا قريب في الحصاد في مزرعة عمّته. سينفعه التّغيير.

لا بدّ أنّ عجزك عن معانقة بتسي مريع. إنّها تشتاق إليك شوقًا عارمًا. أقسم أنّي سأعتني بها في غيابك.

لم تصلنا أخبار مارغريت ونتمنّى أنّها بخير. العدد القليل الباقي من روّاد المكتبة باتوا يستعيرون روايات أكثر من ذي قبل، ربّما ليهربوا من هذه التّحوّلات غير المستقرّة – يُسميها بورِس «فرنسا كافكا».

محبّة،

أوديل

«دمّر الأسطول الإنجليزي بارجتيْن فرنسيّتيْن. قُتل أكثر من 1000 بحّار فرنسي»، ذُكر في العنوان الرّئيس لجريدة ذاهيرالد، عبر البحر المتوسّط في وهران، خاف الإنجليز من سماح البحريّة الفرنسيّة للنّازيين بمصادرة سفنهم. أنذر الأدميرال الإنجليزي الفرنسيين إنذارًا نهائيًا: سلّموا سفنكم أو سنغرقها. لديكم ست ساعات للتّخلي عن السّفن. هاجم الإنجليز حين رفض الأدميرال

الانصياع لهم. قرأت المقالة مرّتين، لكن لم أفهمها حتّى الآن. أتهاجم دول التّحالف بعضها؟

«خائنون!» صرخ السّيد دو نيرسيات [الفرنسي] على السّيد بريس-جونز [الإنجليزي]. لم أحتج إلى قراءة الجريدة لأعرف أنّ فرنسا قد قطعت علاقاتها الدبلوماسيّة مع إنجلترا. لأيّام، شاهدت السّيد ستومب في المكتبة يتمتم بخصوص عدم عثوره على كرسي لم يدنسه خائن.

شعرت بوجود بورِس إلى جانبي. «مكالمة هاتفيّة» قال وفي عينيه حزن. «أبوك المتّصل». هرعت إلى طاولة الإعارة وقبضت على السّماعة. «بابا؟ هل هو رِمي؟»

أجابني: عودي إلى المنزل يا عزيزتي.

أحضرتُ بِتْسي التي كانت تقرأ لمجموعة أطفال. نظر الصّغار إلي، فأسقطَت بِتْسي الكتاب. خرجنا من المكتبة على عجل. أمسكت بيدها وسحبتها. عجلنا خطواتنا في الشّارع، نحو... توقّفت. «ما الأمر؟» سألتني. هززت رأسي. شعرت فجأة بأنّي أريد إبطاء خطواتي قدر الإمكان مخافة... لم أتمكّن من ذكره، ولا حتّى التّفكير فيه. رِمي حي الآن. لعلّه لن يكون على قيد الحياة إذا رجعنا إلى المنزل.

مرّت في خلدي حياتنا المشتركة؛ عيد ميلادنا الخامس، حين خبزت ماما كعكة شوكولاتة أطرافها محروقة، في اليوم الذي أخذنا فيه أبي لنركب الحصان القزم في بوا. تلك المرّة التي ملأنا فيها طبقًا للملح بالسّكر، ممّا تسبّب باختناق صديقاتها بالشّاي. اشتكت إلى أبي، متوقعة أنّه سيوبخنا، لكنّه ضحك

ضحكة لم أسمعها منذ ذلك الحين. ماما لا تقع في الفخ مرّتين؛ استخدمت مكعبات السّكر بعد تلك الواقعة. غداءات أيّام الأحد الكثيرة هي التي حافظت على سلامة عقلي. أهم وجبة في حياتي قابلت خلالها پول. رِمي حاضر في كل ذكرى.

رغم انضمامه إلى الجيش، كان أوّل شخص أتكلّم معه صباحًا، والأخير ليلًا. صديقي الأعز، نصفي الآخر. ماذا لو أنّنا قلنا كلماتنا الأخيرة لبعضنا بالفعل؟ أتذكّر آخر يوم غادر فيه المنزل. ماذا قلت له؟ خذ سترتك ستبرد؟ أسرع سيفوتك القطار؟

بِتْسي: توقّفي.

- ماذا؟

- عمّا تفعلين.

في المنزل، أجلسني أبي أنا وبِتْسي إلى جانب أمّي التي كانت شاحبة كحبّة إسبرين. استعدّ أمام المدفأة.

قال: استلمنا خبرًا من رِمي.

21

لِيلي

فرويد. مونتانا. أبريل 1985

وصلت مع أبي إلى الكنيسة عند الثّالثة والنّصف. غمست أصابعي في الماء المقدّس. لاحظت الورود الورديّة التي تزيّن المقاعد. عدد هذه الزّهور يكافئ تقريبًا عدد الزّهور التي كانت موجودة في جنازة أمّي، قبل أقل من عام تقريبًا. أعاني الصّداع. تمنيت لو أنّ بإمكاني الزّحف إلى السّرير والتّدثّر بذكريات أمّي.

مشت أم إلينور ذهابًا وإيابًا في المكان. سألت أبي: هل أنت مستعد لهذا اليوم؟ ثمّ عانقتني. لامس أنفي القرنفلة المثبّتة على صدرها فعطست. قالت: ناديني جدّتي بيرل، وقادتني إلى الغرفة الخلفيّة، حيث عرّفتني إلى ثلاث وصيفات للعروس كثيرات الضّحك، اللائي جئن من لويستاون مثل «جدّتي بيرل». كان لون فستاني ورديًا فاقعًا مثل فساتينهن. كانت إلينور تُهندم نفسها أمام مرآة طوليّة، ودانتيل يغطي وجهها وتصفيفة شعرها.

قلت لها: أنتِ جميلة مثل الأميرة ديانا. عبارة حقيقيّة لا رياء فيها؛ كلتاهما تملك عينين كأعين الظّباء.

أردت أنْ أتقبلها، وأردتها أنْ تتقبلني. ومع ذلك حين قرّبتني من صدرها اللماع وعانقتني بقوّة، خذلتني يداي؛ لم أكن مستعدّة لمعانقتها.

قالت لي: عزيزتي. أعدك بأنّي سأرعاكِ كأنّكِ ابنتي.

وعدٌ جميل كباقي الوعود، تعلّمت الرّد عليه؛ بعد انتهاء درسٍ عن النّعوت، قالت أوديل: سأعلّمك كلمات إنجليزيّة. جملة يُتوقّع منك نطقها: أتمنى لكما السّعادة معًا. قلت الجملة لإلينور ذات الجملة، ورغم تدربي عليها إلّا أنّها بدت مُتكلّفة.

في الفرنسيّة، هناك نوعان من المخاطب المفرد: بصيغة رسميّة وغير رسميّة. «أنت» للأصدقاء والمقربين، و«حضرتك» لمن نريد إبقاء مسافة بينهم. استخدمت tu [أنت] مع أبي، وvous [حضرتك] مع إلينور.

صدحت آلة الأورغن بمعزوفة باتشيلبيل، فذهبنا إلى آخر الكنيسة. السّيدة أولسون هي عازفة الأورغن الوحيدة في البلدة - لا تنتظر أي عروسة؛ حفلات الزّفاف تتم حسب جدولها. لاحظت وجود روبي في الصّف الرّابع من الخلف. راقبني. لم يراقب غيري. مسحت يديّ المتعرّقتين بفستاني وجلست بين أوديل وماري لويز في الصّف الأوّل. أقبل العروسان بانسجام. سمعت ملاحظات الإعجاب من الحضور: ها قد جاء العروسان ملأت القاعة. وقف أبي في ذات الموقع الذي كان فيه تابوت أمّي. تابوتها العاجي قد نُقل على ذات الممر.

«حبيبان» قالت أيرون-كولار مالوني، والدّموع في عينيّها. خشيت انزعاج أبي إذا رآها. وضعت أوديل رجلها على رجلي. منحني الضّغط شيئًا لأركّز عليه.

«تزوجا رغم وفاة بريندا قبل مدة قصيرة» قالت سو بوب.

«وجيمس يرتبط بفتاة أقلّ من عمره بكثير» قالت السّيدة إفرس، رغم أنّها هي من عرفتهما إلى بعض.

«إنّه يفعل هذا من أجل لِيلي. تحتاج الصّغيرة إلى أم» قالت السّيدة موردوك.

همسات. همسات. همسات. حاولت الإصغاء.

«يمكنك تقبيل العروس الآن» هذا جزئي المفضّل في مناسبات أخرى، لأنّه عاطفي ويشير إلى نهاية الزّفاف، لكنّ مشاهدة أبي وهو يقبّل امرأة غريبة كان غريبًا. لمسَت ماري لويز مرفقي، كأنّها لم تصدّق المشهد أيضًا.

في القاعة، قصاصات ورق صغيرة بألوان الباستيل طارت بين أضواء الفلورسنت. «كثرة اللون الوردي تجعلني أرغب في التّقيّؤ» قالت ماري لويز. بتراخٍ على كرسيين معدنيين قابليْن للطّي، شاهدنا العروسة والعريس يمشيان بين المُهنّئين. مسألة وقت وسيكون عندهما طفل، حينها سيستبدلانه بنا أنا وأمّي.

الكعكة بارتفاع إلينور تقريبًا، على شكل فستانها الخفيف. قطّعا الكعكة؛ يده فوق يدها التي تمسك السّكين الفضيّة. أطعما بعضهما. صورتهما الكاميرات. أشار أبي لي لآخذ قطعة. سبقتني تيفاني إفرس.

قالت: الكعكة جيّدة على الأقل.

«اخرسي». سحبتُ طبقيْن، لي ولماري لويز.

«أحاول أنْ أكون لطيفة». التفتَت نحو أبي، وقالت: مبارك سيّد وسيّدة جاكوبسن.

شاهد تلاسننا، ولعلّه تساءل لماذا لا تكون ابنتي لطيفة مثل تيفاني إفرس. ارتجف الطّبقان اللذان أمسكت بهما. وقبل أنْ يوبخني أبي، ركضت بين الضّيوف.

رأيت روبي أمامي. «مقزّز صحيح؟»

شعرت بالمعنى الكامن في هذه الجملة. آسف لأنّ أمّك ماتت. لا بدّ أنّ اليوم قاسٍ عليكِ.

- صحيح.

أعطى ماري لويز الطّبقين، توقّف دقيقة واحدة إلى المائدة، ثمّ عاد إلى أهله. أكلتُ كعكتي وكعكتها. حين شغّل (الدي جي) أغنية بطيئة، حدّقتُ إلى لوح كتب عليه (المخرج) فوق الباب لم أرغب في رؤية السّيد والسّيدة جاكوبسون متعانقيْن. ربّت أبي على ذراعي. «رقصة للأب مع ابنته لِيلي». وجّهني نحو المساحة المخصّصة للرّقص، حيث كان السّيد كارلسون يُدير إليونيور. كان يُفترض أنْ نرقص، لكنّنا وقفنا بلا حراك. قال أبي: رأيتكِ مطأطأة الرّأس في الكنيسة.

توتَّرت.

صارحني وقال: أشعر بشيء من الحزن.

أمسك يدي. راقصني ببطء، ولم يفارق أذني اعترافه.

ركب أبي معها سيارتنا المزيّنة بشعار «متزوجان حديثًا». أراحني انتهاء التّجربة القاسية، مشيت إلى المنزل مع ماري لويز. في غرفة نومي، ارتديت قميصي الذي طُبعت عليه صورة نسر، وركلت ماري الفستان الزّهري إلى تحت السّرير.

* * *

في منزل أوديل، استيقظت على رائحة الكرواسون المدهون بالزّبدة. لم آكل الكثير لشعوري بالانزعاج. تساءلت كيف ستكون

الحياة بعد عودتهما من شهر العسل. ستتغيّر الأمور وأقلقني عدم وجود مكان لي.

«تفكرين كثيرًا». أعطتني أوديل رواية الغرباء. «إنّها عن الأسرة، التي تولدين فيها، وتلك التي تكونينها مع الأرواح القريبة منك. إنّها عن كيفيّة تكوين مكان لنا في هذا العالم».

«كتبك محظوظة» قلت في أثناء ملاحظة رفوفها. «تحظى بالمكان الذي يجب أنْ تحظى به. كلُّ كتاب يعرف من يجاوره. تمنيت لو أنّ لي رقمًا في تصنيف ديوي العشري. نحن نخلق أرقامنا».

ولّد هذا نقاشًا. أيجب أنْ نكون في الأدب أو اللا رواية؟ أيجب أنْ يكون رقم أوديل بالفرنسيّة أم الأمريكيّة، وهل هناك رقم فرنسي أمريكي؟ أيجب أنْ نتشارك ذات الرّقم لنكون معًا؟ أضفنا 813 (الأمريكيّة)، 840 (الفرنسيّة)، و302.34 (صداقة)، وخصّصت رفًا للكتب القيمة 1955.34. من بين الكتب المفضّلة فيه: الأمير الصّغير، نساء صغيرات، الحديقة السّريّة، كانديد، الشّتاء الطّويل، شجرة تنمو في بروكلين، أعينهم كانت تراقب الرّب. بعد انتهائنا من ترتيب الكتب، شعرت بأنّ لي مكانًا دائمًا مع أوديل.

في صباح اليوم التّالي، جلست مع ماري لويز على أريكة أوديل وشربنا قهوة بالحليب -معظمها حليب- في أثناء رعايتها حديقتها. اختلسنا النّظر إلى أدراجها.

ماري لويز: أما زلتِ تعتقدين أنّها جاسوسة؟

حركت كتفي بلا مبالاة. عرفت من الفواتير أنّها تشتري ملابسها من تشيكاغو. ليس اكتشافًا مهمًا، لكن هذا يعني أنّها لا

تشتري ثيابها من متجر البلدة (جينز آن ثنغز). على بطاقة عيد ميلاد قديمة قرأت اسم لوسيان جادل. حاولت أوديل التّواصل مع والديْها قبل «فوات الأوان كثيرًا». همست ماري لويز: اقتربت منّا. ستكتشف فعلتك.

«حدث أمرٌ ما في باريس. هناك سبب لبقائها هنا». فُتح الباب المنزلق، وأغلقت الدّرج.

***

بعد انتهاء شهر العسل، عاد أبي ليأخذني من منزل أوديل، فور انتهائنا من اختبار قصير موضوعه الأفعال. دعته إلى الدّاخل، لكنّه رفض. تباطأنا في الرّواق، شمس الرّبيع أدفأتنا. أقلقني ما كانت ستقوله. يفكّر أبي في الأرقام بسهولة. إنّها تزداد دائمًا. الكلمات فيها خدعة أكبر. لم يفهم قيمتها قط.

قال: شكرًا لاهتمامكِ بليلي.

ابتسمت أوديل لي: من دواعي سروري.

قال: بما أنّ إليونور هنا، يمكنك التّنحّي.

كرَّرَت كلمته: أتنحى؟

- يجب أنْ تقضي لِيلي وقتًا أكبر في المنزل.

ابتعادي عن أوديل مستحيل. وقفَت إلى جانبي في كلّ الظّروف. يمكنني أنْ أحدّثها عن كلّ شيء. عاملني أبي باستبداد، وأوديل لم تفعل هذا. كانت تثق بصواب اختياراتي. كنت لأغسل سيّارتها، أجز عشب حديقتها - أي شيء لأستمر في تعلّم الفرنسيّة منها. قبل أنْ أقول لها هذا، قالت بالفرنسيّة: «ذات الوقت غدًا».

«Oui, merci» [حاضر، شكرًا] قلت لها، ثمّ خرجت بامتنان.

استقالت إليونور من وظيفتها، وعادت حياة أبي إلى وتيرتها. بعد يوم طويلٍ في المصرف، عاد إلى منزله ليجد زوجة، وابنة، وعشاءً ساخنًا. في صباحات يوم السّبت، جعلتني إليونور أكنس، وأمسح الأرضيّة بمنظّف برائحة الليمون في كل مكان. «يجب أنّ تتعلّم الشّابة هذه الأمور. ستشكرينني في مرحلة لاحقة من حياتك». حين تذمّرت، قال أبي إنّ عليّ أنْ «أسمع كلام إليونور». أي أنْ: أطيعها.

حتّى عند انتهاء المدرسة للإجازة الصّيفيّة، كانت تستيقظ باكرًا وتصفّف لفائف شعرها برغوة الشّعر. قبل ذلك عدّلت ربطة عنق أبي قبل ذهابه إلى عمله. لم تكوِ أمّي قمصاني إطلاقًا، لكنّ إليونور فعلت. «لن يقول أي شخص إنّي لا أعتني بكِ نهائيًا». على طعام العشاء، حين أوقعت ذرة على غطاء المائدة، ذهبَت إلى الحوض وعادت بخرقة لتمسح البقعة.

أردت إجازة أبتعد فيها عنها، وتُقت لأبدأ المرحلة الثّانويّة. تمنيت وقوع روبي في غرامي، ورحيل تيفاني بعيدًا (أو أفضل من هذا، أنْ تعود وهي مصابة بالكوليرا). مساءً، في غرفتي، راجعت المفردات الفرنسيّة، ثمّ نطقت بما أخجل من نطقه بالإنجليزيّة: Je t’aim [أحبّك]، Je t’adore [أعشقك].

في صباح اليوم الأوّل من الدّراسة، ارتديت قميصي الذي عليه صورة نسر، رغم أنّه أصبح أصغر منّي بقياسين، وتلاشي الصّورة المطبوعة عليه. ارتداؤه يذكرني بأمّي.

في المطبخ، هزّ أبي مفاتيح السّيارة، وسألني: جاهزة للذهاب إلى المدرسة؟

تأفّفت إليونور. «اشترينا ثيابًا جديدة لكِ. هلّا ارتديتها؟»

كتّفت ذراعيّ. «لا».

- لِيلي مشاغبة. ترتدي بنطالًا قصيرًا وقميصًا باليًا. ماذا كانت أمّها الحبيبة لتقول؟

«النّاس يتكلّمون. هذا لا يعني أنّ علينا الاستماع إلى ما يقولون». أشار أبي إلى ساعته. «سنتأخّر إذا لم نغادر الآن».

أذعنَت صاغرة.

لم يكن انتصارًا بمعنى الكلمة بالنّسبة إليّ.

جلست في الفصل في الصّف الأمامي، وماري لويز خلفي. يفصلني عن روبي ممر. حيّيته بالفرنسيّة، فنظر حوله كأنّي كلّمت غيره.

«لربما عليك الحديث بالإنجليزيّة فقط» نصحتني لويز.

«سكوت» طقطقت الآنسة بقلمها على الطّاولة. «أو سأعطيكم جميعًا فرضًا منزليًا إضافيًا!»

باختصار، واجهت في المرحلة الثّانوية ذات الإحباط، لكن في مبنى أكبر. في المنزل، فقد رحّبت إلينور بي بقائمة جديدة من الأعمال المنزليّة. «لست أنا من وعد بالمحبّة، وخفّة الظّل، والطّاعة» تمتمت، وأنا أمسح الأرض مسحًا سطحيًا.

حلمت بضع مرّات بأمّي. بالطّريقة التي شاهدنا فيها الإوز يطير، بالطّريقة التي غنينا فيها أغنية الميلاد بأعلى أصواتنا، بالطّريقة التي خبزنا البسكويت فيها. رنّت ساعتي، وغادرت أمّي. اعتصر الألم قلبي، فتكوّرت على سريري.

طرقَت باب غرفتي: استيقظي يا كسولة! ستتأخّرين عن المدرسة.

قلت بنشيج: لا أشعر أنّي بخير.

- تبدين بخير بالنّسبة إليّ.

مع هذا، عند عشاء الشّكر، فكَّرت إليونور بدعوة أوديل التي جعلت الديك الرّومي الجاف قابلًا للأكل. حين أسرّت لنا بأنّها قد قضت الإجازة وحيدة منذ وفاة زوجها، ربّت أبي على يد إليونور، وكان بإمكاننا أنْ نرى فخره بها. في أثناء تحريكي قطعة كبيرة من فطيرة اليقطين حول طبقي، طلبت إليونور من أوديل التقاط صورة لبطاقة عيد الميلاد. أوقفتُ تحريك شوكتي. وقف أبي وإليونور للاستعداد للصّورة، لكنّ قلبي احترق وأنا أفكّر في أمّي التي أزاحوها من خريطة الأسرة.

***

في إجازة عيد الميلاد. انتهت أعمال المنزل. عادت تيفاني إفرس إلى الشّرق لتزور عائلتها. ولا كسفة سحاب في السّماء. شكّلنا أنا وماري لويز رجل ثلج (بعينيْن من كرات رخام للعينين والفم والأذنيْن) مفاجأة للجدّة بيرل. في كلّ مرّة تنادي فيها إليونور، تطلب الحديث معي أيضًا. وشهريًا منذ حقل الزّفاف، ترسل لي شيئًا ما؛ بطاقة مرحة، أو اشتراكًا في مجلّة سفنتين، أو حذاءي مطر لونهما بنفسجي. لم أكن أكيدة من مشاعري تجاه إليونور، لكنّي أحببت الجدّة بيرل.

«ما رأيك به؟» سألت أوديل التي خرجت لإحضار البريد.

- يحتاج إلى شيء ملوّن.

خلعت ماري لويز وشاحها ذا اللون الوردي الفاقع الذي استعارته من أختها، ولفّته حول عنق رجل الثّلج. لسوء الحظ، مرّت أنجل ولمحت شيئًا يخصّها. فسحبت الرّفش وأفسد صنيعنا. لم نعثر على كرات الرّخام.

حين وصل والدا إليونور، عانقت الجدّة بيرل قبل أنْ تترجّل من السّيارة. حمل أبي والسّيد كارلسون الأمتعة وتوجّها إلى غرفة المعيشة، بينما ذهبنا -نحن النّساء- لصنع بسكويت الزّنجبيل. إلى طاولة المطبخ، ترنّمت أوديل بأغنية «ليلة صامتة» وهي ترقّق العجين بالأسطوانة. قطّعت العجين الملتصق بقوالب على شكل بابا نويل. حرّكت الجدّة عصير التّفاح السّاخن. تحرّكت إليونور في المكان بشكل أوحى أنّها تريد قضاء حاجتها.

سألتها أمّها: يا فتاة، ما خطبك؟

- لا أستطيع الحفاظ على السّر. أنا حامل!

الجدّة بيرل: طفلتي تحمل طفلًا!

إنّها ماذا؟

سألتها أمّها: متى ستلدين؟

-28 أبريل.

أيعرف أبي؟ لماذا لم يخبرني؟

- «طفل!» صفّقت أوديل. يا للجمال!

- أحتفظ بفستان تعميدك في صندوق أشيائي الخاصّة. سأرسله لكِ.

أوديل: اشتريت خيوط صوف تلائم حياكة بطّانية طفل.

لا نملك غرفة إضافيّة للطّفل. أين سيضعونه؟ عصافير الدّوري تسرق الأعشاش من السّنونوات، فتجبر صغارها على المغادرة.

الزّرازير تسرق الأعشاش من السّنونوات. سلوك وضيع، لكنّ أمّي قالت إنّها دورة الطّبيعة.

* * *

أُخرجت المكتب المعدني وخزانة الملفات، البيانات المصرفيّة وفواتير الهاتف وبرامج الحفلات للفرق الموسيقيّة وصور الطّيور؛ كل ذكريات حياة أمّي. قد تبدو مجرّد أوراق قديمة، لكنّها ذكريات بالنّسبة إليّ. لحسن الحظ، شاهدتها في القمامة، وخبأتها في غرفتي.

تحوّل مكتب أبي إلى غرفة للطّفل. أمسكت إليونور بعيّنات ألوان باستيل تشبه بيض عيد الفصح الذي لوّناه منذ مدة قريبة. في النّهاية، لوّنّا الغرفة بلون أصفر كالشّمس. كانت أمّي لتقول إنّ السّرير الخشبي يشبه عشًّا، لكنّي لم أقل هذا لإليونور. لم أعد أتكلّم عن أمّي، لأنّ أنف إليونور يتجعّد كلّما فعلت، كأنّ لكلماتي رائحة كريهة.

* * *

في الأوّل من مايو، شاهدتني وأنا ذاهبة إلى المدرسة، ويدها تتحرّك على بطنها الكبير. في ذلك المساء، استلقت على سرير المستشفى، بدت متعبة ولكن سعيدة، كأنّها ركضت في سباق وفازت. قدّم الرّجال السّيجار لأبي وضربوه على ظهره. عبس مثل دوبي أحد شخصيات الأقزام السّبعة. أهدت السّيدة إفرس الطّفل سند ادّخار، أمّا السّيدة موردوك ذات الأفكار الغريبة، فقد حاكت حذاءين للطّفل. جاء كل من في البلدة خلال ساعات الزّيارة. حين جاءت ماري لويز، حرّكنا أعيننا وحاكينا كلام الكبار:

- صبي! فليحيا الرّب!
- ذات الاسم سيستمر!

لاحقًا، حين حملتُ الطّفل، فكّرت في أمّي، فشعرت بحزن عميق. نام جو بين ذراعي، وملت لأشمّه. رائحته كبسكويت السّكر. لعلّ الأمور ستصبح على خير ما يرام.

بالكاد رقدت إليونور في المنزل. لو كان بإمكانها السّهر طوال الليل لفعلت. كانت أمّي على حق. لا يعرف الأطفال كم كانوا محظوظين حين ينامون بحب يحيط بهم. ثلاثة أشهر من عدم الرّاحة، تثاءبت إليونور باستمرار. لم تعد كببغاء مرح، بل كحمامة سمينة تتمايل من المهد إلى الكرسي الهزّاز. في بشرتها تصبّغات وشعرها خفيف.

«أنتِ أم، وامرأة أيضًا» قالت لها أوديل. «اعتني بنفسك. تحتاجين إلى الرّاحة والتّمرين». تبادلت مع أوديل حمل الصّغير جو حتّى تتمرّن إليونور كجين فوندا في شريط فيديو. اختلسنا النّظر إلى غرفة المعيشة لنشاهد إليونور في ثيابها الضّيقة ورجلاها تركلان بأقصى ارتفاع تقدر عليه. همست أوديل: مثل الرّاقصات في باريس.

***

في أثناء انتظارنا أنا وإليونور أبي ليعود من عمله، سألتني: كم كان وزن أمّك؟
- لا أعرف

في اليوم التّالي، حشرتني في الزّاوية. «ما نوع الحفاظات التي استخدمتها؟ هل أرضعتك رضاعة طبيعيّة؟»

لم يتبق إلّا أنْ تسألني عن طعم الحليب الذي ذقته. لم يكن في منزلنا ميزان حتّى مجيئها. اعتادت على وزن نفسها مرّة واحدة في الأسبوع. الآن ترغب في «خسارة وزن الطّفل»، أصبحت تقف على الميزان عشر مرّات في اليوم الواحد.

«هل أرضعتك رضاعة طبيعيّة؟» سألتني إليونور مرّة أخرى. «هل استخدمت حفاظات قماشيّة؟»

«استخدمت حفاظات حريريّة، وكانت ترضعني خمس مرات في الليلة الواحدة. زارتنا جدّتي، لكنّ أمّي لم تقبل بأي مساعدة. قالت إنّها لا تحتاج إليها».

توقّعت انتهاء الحوار، لكنّها سألتني: كم كان وزنها؟

- اسألي أبي.

- كم؟

قادتني أسئلتها الغبيّة إلى الجنون. بعد مدة زمنيّة أدركت أنّها كانت تقارن نفسها بأمّي. حسنًا، لقد أخذت دور أمّي، وأكلت من صحون أمّي، وعاشت في منزل أمّي، وربّتني كيفما تشاء، لكنّها لن تصبح أمّي. أجبتها إجابة مستحيلة: «45 كجم».

«45 كجم؟» فغرت فاهها.

* * *

بعد المدرسة، أحببت مشاهدة إليونور وأوديل تشربان الشّاي إلى المائدة، لأنّها لا تضايقني إذا زارنا أحد. اليوم، مع جو الذي يسيل لعابه في سريره إلى جانبهما، تكلمتا عن أحلامهما: ستعود إليونور في يوم ما إلى الجامعة، وستعود أوديل في يوم ما إلى لوسين؛ صديقتها في شيكاغو. حين قدّمت أوديل طبقًا فيه عنب لإليونور، ربّتت على بطنها، وقالت: أحاول خسارة وزني.

أضحكتني. كأنّ العنب سيزيد وزنها.

أوديل: لن تخسري الوزن لبضعة أشهر.

تجهّمت إليونور. «لماذا؟»

- أنتِ حامل.

طفلٌ آخر؟ توقّفت عن الضّحك.

استنكرت إليونور: لكنّي وضعت جو قبل خمسة أشهر.

- رأيت عددًا كافيًا من النّساء وأعرف الأعراض.

- قال لي جيمس أنّه سيكون حذرًا.

-- كم عمرك؟ أتصدقين ما يقوله الرّجال لك؟

ضحكت إليونور. مزحة؟ كأنّ في صوت أوديل شيء. شيء موجع. شيء دفعني لأتساءل عمّا قاله رجل لها.

***

أصبحت إليونور ضخمة كأنّ قصرًا ببطنها الكبير جدًّا؛ ما جعل رأسها يبدو صغيرًا. ملابس الحمل مضحكة عليها؛ صدرها ومؤخرتها تمرّدا على القطن الضّيق. توقّفت عن صبغ شعرها، وبان الشّيب.

«لم يحدث هذا مع جو» بدت مصابة بإعياء.

شاحبة ومنتفخة كأنّ الحمل في جيدها كلّه، لا بطنها فقط. أصيبت بالدّوار كلّما وقفت. ظلّت في السّرير طوال اليوم مثل أمّي، فبقيت إلى جانبها. تذكرت جملة من جسر إلى تيرابيثا: «الحياة رقيقة كهدباء بريّة. نفخة واحدة، وستتناثر في جميع الاتّجاهات». في طفولتي، اعتقدت أنّ كبار السّن هم من يفارقون الحياة. يختلف تفكيري الآن. ما سبب عدم لطفي مع إليونور؟

ساء ما توهّمت بخصوص الرضا الذي شعرت به كلّما آذيتها. لم تكن زوجة أب سيئة بمعنى الكلمة؛ أقنَعت أبي بأن يعطيني مصروفًا، وقالت له: «يجب أنْ تتعلّم ابنة المصرفية كيفيّة التّحكم في الميزانيّة». أرجوكِ لا تموتي. صلّيت.

زارتنا أوديل. أحببت أنّها لم تعد تقرع الباب، دخلت المنزل بكل بساطة كفرد من الأسرة.

قالت لإليونور: أنتِ وحيدة مثل مريم العذراء.

- حقًّا؟

بصدق؟ كانت أقرب إلى شخصيّة جابا في مسلسل حرب النّجوم. أعرف أنّ الحقيقية لن تفيد، فأومأتُ بالإيجاب.

- لكن لنهاتف د. ستانشفيلد للاطمئنان عليك.

قاس ضغطها مرّتيْن وقال إنّ عليها إجراء تحاليل. قال لأمّي ذات الجملة.

سألته: هل ستكون بخير؟

- ضغط دم زوجة أبيكِ مرتفع، وهذا الأمر غير صحي بالنّسبة إلى الطّفل.

في أثناء غفوة جو وإليونور، حاولت أوديل أنْ تشغل تفكري بتعليمي مفردات تتعلّق بالطّفل - couffin [مهد]، Couches [حفاظات] – لكن مع وجود إليونور في السّرير، لم أهتم بتاتًا.

- كيف تقولين (ضغط عال)؟

- La tension

توتّر [كالإنجليزيّة]. هذه الكلمة تختصر المسألة.

- هلّا تمشينا؟

كانت مولعة بنسمات الهواء المنعش. هبّت رياح الشّمال القاسية في أثناء مشينا على الشّارع الرّئيس، مرورًا بالكنيسة، مرورًا بأشجار الصّنوبر، وصولًا إلى المقبرة. كسائر النّساء، تحب أوديل المقابر. لست كذلك. مشاهدة عبارة: «برندا جاكوبسن. زوجة محبوبة وأم» على شاهد القبر أوجعتني. فارقتنا أمّي قبل عامَين. الأقحوان أسفل الشّاهد، ذات الزّهرة على قبرَي ابن أوديل وزوجها. عرفت أنّ عليّ الانحناء والصّلاة، لكنّي حدّقت إلى أوديل. طأطأت رأسها، ووجهها حزين. آلمني أنّها تفتقد أسرتها -بوك ومارك- ووالديها وأخاها التّوأم. أردت معرفة ما الذي حلّ بهم.

22

أوديل

باريس. أغسطس 1940

أبـي: لربّمـا كان مـن الأوفـق عـدم مهاتفتـك لأطلـب عودتـك إلـى المنـزل، لكنّـي افترضـت أنّـك تريديـن المعرفـة فـي أقـرب وقـت ممكـن...

اندفعت بِتّسي: سيّدي؟

- رمي على قيد الحياة.

تنفّستُ بعمق.

بِتّسي: وأين هو؟ هل هو في طريقه إلى المنزل؟

- أسروه.

كرّرت بِتّسي: أسروه؟

- إنّه في مكان يُطلق عليه ستالاغ. مخيّم لأسرى الحرب.

انتحبت ماما، فطوّقتها بذراعي.

قلت لها: إنّه حي.

أبي: نحن نعرف مكانه. ليكون في هذا عزاء لَكُن.

كان علـى حق. لـم تستلم بِتّسـي المسـكينة أي رسـالة مـن أخيهـا منـذ شـهور.

قال أبي لها بحنان: ليتنا نعرف أخبار جوليات.

عضّت شفتها، ولاحظت أنّها تقاوم البكاء.

سـحب أبـي بطاقـة مـن سـترته. حدّقـت إليهـا، فقـرأت: Je suis prisonnier [أنـا أسـير]. تحتهـا جملتـان:

1. صحتي ممتازة.
2. أنا جريح.

هناك دائرة على الجملة الثّانية. رِمي يتألّم وحيدًا.

بهت لون بِتْسي حين قرأت المكتوب، وقالت إنّ عليها إخبار أمّها. أوصلناها إلى الباب. قبّلت وجنتيْه، ما جعله يبتسم ابتسامة بسيطة.

عدنا إلى ماما. مال أبي إلى جانبها ومسح دموعها بلطف. استندَت إلينا حتّى انتهينا إلى السّرير. في غرفة نومهما، سار بابا بخطوات متوازنة، وواصلت أمّي النّعيب.

سألته: هل أهاتف الطّبيب توماس؟

قال: كلّ أدوية العالم لن تنفع. سأظلّ معها. ارتاحي.

هذه المرّة الأولى التي لا أجادله فيها. شعرت بالذّنب بخصوص ترك أمّي في حزنها، ومرتاحة لتمكّني من احتواء حزني. ستالاغ. كلمة جديدة في قاموس الفقد. حتّى اليوم، كنّا قادرين على إخبار أنفسنا أنّ رِمي في طريق العودة إلينا. ماذا سنقول لأنفسنا الآن؟

إلى مكتبي، وقلم الحبر بيدي، كتبت:

رِمي العزيز:

نكره أنّك أسير، نكره أنّك تتألّم وبعيد عن المنزل. نحن في أشد القلق عليك.

كتابة مشاعري جلبت الرّاحة لي، لكنّ الرّسالة لن تجلب الرّاحة له. فتحت القلم وتركت الحبر يتدفق. كتبت من جديد:

رِمي العزيز:

لم أستطع تجاوز هاتين الكلمتيْن. في الصّباح، ارتديت ثيابي وذهبت إلى غرفة والديّ. ماما كانت تحت اللحاف. بعينين

مغمضتيْن بكت كأنّها غير قادرة على الاستيقاظ من حلم. أمام الخزانة الكبيرة، أبي يغلق أزرار قميصه.

قلت له: سأبقى معها.

زجرني وقادني إلى الباب: لا تريدك أنْ تريها في هذه الحال. أعرف من يمكنه الاعتناء بها.

خارج المنزل، رأيت عددًا قليلا من الأشخاص على الرّصيف، ولم أر سيّارات. المكتبة هادئة على غير العادة أيضًا. اشتقت إلى مارغريت. اشتقت إلى پول، حتّى إنّي افتقدت صوت السّيدة ترنبل وهي تأمر الطّلبة بالهدوء.

«عرفت ما حدث لرِمي. أنا آسفة». أعطتني البروفسورة كوهِن رواية الشّتاء الطّويل للرّوائيّة لاورا إنجالس ويلدِر. وضعَت إشارة على فقرة لها وقع لا ينسى:

«خلال العاصفة الثّلجيّة، اجتمع أفراد الأسرة في كوخهم، غير قادرين على الحصول على الدّفء. احتال الأب على بناته الثّلاث، وطلب منهنّ الرّقص. قهقهن ورقصن، فحماهنّ هذا من التّجمّد حتّى الموت. كان عليه رعاية المواشي، وإلّا ستموت. خرج من المنزل، لكنّه عجز عن رؤية أكثر من ستّة سنتمترات أمامه. أمسك بحبل الغسيل ليصل إلى الحظيرة. في داخل المنزل، انتظرته الأم بقلق. حين أمسك الرّواية، وضعت البروفسورة يدها على يدي، وقالت: لا نعرف ما سيحدث لنا، لكنّنا جميعًا سنتمسّك بالحبل»

***

قبل العشاء، اختلست النّظر إلى أمّي النّائمة. جلست ممرضة إلى جانبها. شعرها البنّي يؤطّر وجهها المتورّد. بدت مألوفة. إحدى زائرات المكتبة؟ متطوّعة في المستشفى؟

- أنا أوديل.

- يوجين.

- كيف حالها؟

- لم تنفعل أمّك عاطفيًا. أخشى أنّها في مرحلة الصّدمة.

مرّت الأيّام. بعد العمل، تنزّهت مع بِتْسي حول حديقة تويلري.

- ما حال أمّك؟

- تنتظر عند الباب كأنّ أخي سيدخل في أي لحظة.

***

اعتاد الباريسيّون على وجود المحتلّين. منهم من تعامل معهم تجاريًا؛ باعهم أفلامًا لكاميراتهم أو البيرة ليطفؤوا عطشهم. رفض آخرون الاعتراف بوجودهم، وادّعوا أنّهم غير موجودين. تقبّلت بعض النّساء الإطراء ودعوات العشاء. أخريات عضضن شفاههن باشمئزاز. في محطّة قطار الأنفاق، عبستُ في وجه جندي ألماني أعجف حتّى نظر إلى الأسفل.

***

وجود يوجين في المنزل بعث الرّاحة في قلبي؛ عين على أمّي، وعين على القطعة التي تحيكها. ومع هذا، تساءلت كيف عرفتها. امرأة ساعدت الجنود؟ أم صديقة في المدرسة؟

في إحدى الليالي، رافقتها مع أبي إلى الباب، ساعدها في ارتداء سترتها وعرض عليها مرافقتها إلى المنزل. عرضٌ لم يقدمه من قبل لعاملة. تأفّفَت ثمّ نزَلت السّلالم. عرفت فجأة من هذه «الممرضة»؛ إنّها عشيقته التي كانت معه عند الفندق.

«كيـف تجـرّأت علـى إحضارهـا إلـى المنـزل؟» قلـت بصـوت خفيـض.

أُخذ على حين غـرّة لثانيـة واحـدة. وبحسـبة سـريعة فـي عينيـه: أضـاف مـا أعرفـه، ثـمّ طـرح شـعوره بالذّنـب، وافتـرض كيـف يمكنـه تقسـيم انتباهـه بيـن عشـيقته وأمّـي. بعـد التّفكيـر فـي عناصـر المعادلـة الفوضويّـة، اختـار الجـدال كمـا فعـل رِمـي فـي مناظـرات كليّـة الحقـوق.

- ومـا البديـل؟ أنْ أطلـب مـن عمّتـك العـودة مـن المنطقـة الحـرّة؟ أجـازف؟

- ربّمـا يمكننـا العثـور علـى الخالـة كارو. تريـد أنْ تعـرف مـا حصـل حتمًـا، وستسـاعد.

- ستصاب أمّك بنوبة هستيريّة إذا كلمنا كارولين دون علمها.

- لكن، بابا...

- لربما تريدين رعاية أمّك؟

خفـتُ الغـرق فـي اكتئابهـا ذي العمـق المجهـول. «ألا يمكننـا الاسـتعانة بممرضـة؟»

- الممرضـات الجيّـدات لـم يهربـن. إنّهـن يعملـن عشـر سـاعات فـي المستشـفى. يوجيـن تـؤدي المهمّـة بشـكل رائـع.

شخَرت. «متأكدة من أنّك استمتعت بقربها من المريضة»

- لا تتكلّمي عمّا لا تعرفين! يوجين شبه ممرضة.

- عملـي فـي المكتبـة لا يجعلنـي كتابًـا. مامـا تحتـاج إلـى ممرضـة حقيقيّـة.

توجّهت إلى غرفتي. أحضر عشيقته إلى منزله. لو أنّ پول هنا، سيتكلّم بعقلانيّة مع أبي. تكوّرت وأنا أتمنى لو أنّ پول هو من أحاطني بذراعيْه. حين يخذلني أبي، حين أواجه وقتًا عصيبًا مع أحد روّاد المكتبة، حين أشتاق إلى رِمي حدّ التّوجّع، يكون پول البلسم الشّافي لجروح روحي.

عند الثّامنة مساء، طرق أبي باب غرفتي. «وقت العشاء».

- فقدت شهيّتي!

سهرت طوال الليل وأنا أتخيّل تضييقي على العاهرة. وجهها محمر خزيًا، وستعتذر لأنّها تنفّست ذات الهواء الذي تنفّسته أمّي. ستعدني بألّا تطأ مصطبة منزلنا مرّة أخرى. لن تتكلّم مع أبي مرّة أخرى.

نظرت إلى أمّي قبل توجّهي إلى العمل. برقّة مُحِبّة، مسّدت يوجين شعر أمّي، ومسحت أنفها. لم أغير ولا مرّة ثياب أمّي، ولم أغير نونيّة السّرير. اقتحمت هذه الغريبة منزلنا، وقامت بما لم أفعل.

تبدّد حنقي تدريجيًا.

قبّلت وجنة أمّي. لم تتحرّك.

«لا تحسّن؟» ما زلت أواجه صعوبة في النّظر إلى عينيْ يوجين.

«ثمانية مناديل أمس. أفضل من قبل أمس حين استخدمت اثني عشر منديلًا».

- أوه، ماما...

يوجين: أعرف شعورها.

- ابنك أيضًا؟

«في الحرب العظمى. كان طفلًا حين فجّروا قريتنا. أتمنّى ألّا تعيش أمّك شعوري». مسّدت يوجين ذراع أمّي. «صعبة، في غاية الصّعوبة هذه الحياة. لكنّ أطفالك يجب أنْ يعرفوا. يمكن أنْ نراسل ابنك. ابنتك هنا، ألا تريدين رؤيتها؟»

رفعت أمّي رأسها، وحدّقت إليّ بعينيْن متوشّحتيْن بالبؤس.

***

25 أغسطس 1940

رِمي العزيز،

نشتاق إليك ونتمنى أنْ تتمكّن من العودة إلى المنزل. أخشى أنّ رسائلك لم تصل إلينا لو أنّك قد راسلتنا. ماما وبابا بخير. پول بعيد؛ يعين عمّته في الحصاد. أشتاق إليه ولا أتخيل مقدار اشتياقك إلى الآنسة بِتْسي.

يزداد عدد النّاس في المكتبة، للقاء بعضهم، أو الاسترخاء. هرب عدد كبير من روّاد المكتبة (وكتبنا معهم!)، نعم بأقصى طاقتنا. ترفض الآنسة ريدر أنْ تخذل أي شخص.

لم تراسلني مارغريت، لكنّ بِتْسي استلمت رسالة من أخيها أخيرًا، وهذا مطمئن. إنّها بخير، رغم شوقها إليك.

هل ستصلك هذه الرّسالة؟ أريد أنْ أقول أمورًا كثيرة لك.

محبّة،

أوديل

***

25 أغسطس 1940

بول العزيز،

اشكر عمّتك على دعوتها اللطيفة. كم أود لقاءها ورؤيتك، لكن يجب أنْ أبقى في باريس في حال وصول رسائل من رِمي.

أمس، استلمت بِتْسي بطاقة من أخيها. أسير حرب أيضًا. أردت البكاء حين سمعت الخبر. العمل لا يطاق في المكتبة أحيانًا، رغم محبّتي الكبيرة لها.

مواجهة بِتْسي تشبه مواجهة المرآة، أرى قلقي في حاجبها المتجعّد، وتعاستي في وجهها الشّاحب. حزنها مضاعف لأنّ أخاها وحبيبها في الحبس. أضع كوبًا مملوءًا بالزّهور على مكتبها. أتمنى لو أنّ بإمكاني فعل المزيد. أتمنّى لو أنّ لدي أخبارًا أفضل، أفكارًا فيها مشاعر أقل. هلّا عدت إلينا؟

مع كل محبّتي،

حبيبتك أمينة المكتبة

***

25 أغسطس 1940

مارغريت العزيزة:

كتبت لكِ مرارًا دون إجابة منكِ. أتمنّى أنّكِ بخير. المعيشة ضَنكٌ هنا. رِمي في ستالاغ. ماما منهارة، وبابا أحضر عشيقته لرعاية أمّي، أراهن على أنّها لم تكن تعلم أنّ عليها تنظيف المِبوَلة! حسنًا لكل موقف عوائق. استعادت أمّي بعض عافيتها. إنّها تحب أنْ تُخدم، أو لعلّها تعرف حقيقة هذه «الممرضة» وتريد

تعذيبها. لأنّي أعرف أمّي، أعتقد أن الأمر مزيج من الاثنين.

اجتاح النّازيّون باريس، حتّى المكتبة الوطنيّة. في المكتبة الأمريكيّة الوطنيّة، نستقبل طلبات من كلّ نزلاء الحرب، لكنّ السّلطات النّازيّة لن تسمح لنا بإرسال الكتب إلى جنود دول التّحالف المسجونين في ألمانيا، وهذا يفطر القلب.

تنظرين إليّ بحزم مثل مدام سيمون. سأرفق بعض الأخبار السّارة. بيتر مؤرشف الكتب وهيلين المسؤولة عن المراجع يقضيان وقتهما معًا - يتنزهان معًا في الفناء خلال ساعة الغداء، ويمسك أحدهما يد الآخر إذا اعتقدا أنّ لا أحد يراهما. عاشقان، ومشاهدتهما تجلب المسرّة.

عودي! لم تعد المكتبة كما كانت منذ غيابك.

محبّة،

أوديل

* * *

حل شهر سبتمبر، نزعت الآنسة ريدر الورق البنّي الذي غطّى النّوافذ. نظرتُ إلى الخارج، فلم أر الدّرب المكسو بالحصى ولا جرّة العاج. كلّ الذي رأيته حروف مفقودة وأصدقاء طال غيابهم. شاهدت مارغريت، تمشي على الحصى!

«رِمي؟» كانت الكلمة الأولى التي خرجت من فمها، فأحببتها أكثر. «هل وصلتك أخبار منه؟»

- لم يصلنا شيء منذ تلك البطاقة.

عانقتني. «صديقتي العزيزة. قلقت عليكِ وعلى رِمي، وعلى المكتبة...»

قلنا في وقت واحد: احكي لي! احكي! أريد معرفة كلّ شيء.

حكت لي عن الرّحلة إلى باريس. «الطّرق المزحومة بالسّيارات. أغار الطّيّارون الألمان على المدنيين، ولهذا كلّما طارت طائرة فوقنا، أصدرت السّيارات صريرًا للتّوقف، وهرب النّاس إلى خندق. هربنا من طوابير الحصول على الغاز فمشينا الأميال العشرة الأخيرة إلى مدينة كامبار. بكت كرستينا طوال الوقت. كيف نشرح الحرب لطفلة؟»

أراد لورنس إرسالهما إلى بريطانيا، لكنّ مارغريت رفضت. «لأوّل مرّة، أشعر بأهميّتي، كأنّ عملي التّطوعي في الواقع مهم».

أكّدت لها: أنتِ مهمّة. نحتاج إليك هنا.

“Sincèrement” [بوفاء] تسرني العودة لترقيع الكتب!»

- هل لورنس مسرور لعودتك؟

لمست مارغريت قرطها، وقالت: إنّه في المنطقة الحرّة.

قُسّمت فرنسا إلى نصفيّن؛ شمالها تحت الاحتلال الألماني، وجنوبها تحت حكم بطل الحرب العظمى (المارشال فيليب بيتان).

قلت لها: محزن أنّ لورنس بعيدٌ جدًا. هل يعمل هناك؟

- إنّه مع... صديق

- كم سيغيب؟

بحثت مارغريت عن كلمات كما أفعل بعد يوم طويل قضيته في التّنقل بيّن اللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة. «أوه، من يأبه به!». قالت أخيرًا: «دعيني من رحلة العودة. للتأكّد من وجود وقود كافٍ، ملأت أباريق الشّاي. أتمنّى أنّها لم تُسرّب الوقود!»

***

بعد أسبوع، حين وصل پول عند الباب - شعره بلون الدريس، وجنتاه محمرّتان، حدّقت إليه بكل بساطة. في سريري ليلًا، تخيّلت توحدنا مرّات عدّة. قذفت نفسي إلى صدره، وأمطرته بالقبل. ومع ذلك، حين أخذني بين ذراعيه في الوقع، صرت صنمًا. توتّرت شهورًا كثيرة، لم أتمكن من الاسترخاء. «أحبّك» قال لي. شعرت بشفتيه على جبيني، استرخيت وبكيت. احتضنني وأخذني إلى صالة الجلوس، عارفًا أنّي لا أريد إقلاق والديّ. اعتدت التّظاهر بالقوّة أمامهما، أمام بِتْسي، أمام مرتادي المكتبة، باستثناء پول؛ كنت على حقيقتي.

قال لي: سنجتاز هذا معًا.

توقّفت دموعي، واقتربت منه. يمكنني البقاء بين ذراعيْه مدى الحياة، أو حتى مجيء أمّي. لاحظَت سلال البطاطس، والزّبدة، واللحم المملّح الذي أحضره، قالت له: يبدأ الطّريق إلى قلب أوديل من بطنها.

أضاف أبي: مزوّد جيّد بالمؤن.

إلى المائدة، في صالة الجلوس، جلس والداي. اختفى بعض التّوتر من وجه أمّي، وضحك أبي للمرة الأولى منذ شهر.

همس پول في أذني: اشتقت إليك. أتمنى لو نحظى بخمس دقائق بمفردنا.

- لنلتق في منزلك غدًا.

- يقيم أربعة زملاء في الطّابق. ستتدمّر سمعتك إذا شاهدوكِ.

بريد أسرى الحرب

15 أغسطس 1940

أمّي وأبي العزيزيْن،

الأمور بخير. صحّتي تتحسّن. في الثّكنة، سرير طبيب من بوردو بجانب سريري. إنّه يشخر، لكنّ وجوده إلى جانبي يهدّئ من روعي. أشكركما على رسالتكما. هل يمكنكما إرسال بعض الأشياء: بلوزة باردة، وملابس داخليّة، ومناديل، وفوطة، وخيوط؟ صابون حلاقة وموس. ولو أمكن، أرسلا طعامًا محكم الإغلاق؛ مثل خبز البات.

لا تقلقا رجاء. يعاملوننا بعدالة، ولا شكاوى بسبب الظّروف الرّاهنة.

ابنكما المحب،

رِمي

بريد أسرى الحرب

15 أغسطس 1940

أوديل العزيزة،

كيف حالك؟ وكيف حال بِتْسي وماما وبابا وپول؟ كتفي تتعافى. قرب دونكريك، أطلقوا رصاصة علي. وجعها لا يُطاق! توجّعت أيضًا حين ركلتني تحت المائدة. ألقي القبض على أشخاص عدة من وحدتي العسكريّة. غضبنا أشدّ الغضب لأسرنا الذي ما لبث أنْ همد بعد أنْ عرفنا عدد القتلى.

نحـن -الجنـود الفرنسـيّين وبعـض البريطانييـن أيضًـا- مشـينا فيمـا يبـدو لنـا مسـافة كبيـرة مـن ألمانيـا بقليـل مـن الرّاحـة والطّعـام. تعرفيننـي؛ لـم أكـن رياضيًـا قـط. بعـد أسـابيع مـن المشـي، ارتـاح عـدد كبيـر منّـا للوصـول إلـى هنـا والنّـوم علـى سـرير، رغـم أنّهـا مجـرّد قطعـة خشـبيّة.

أشكرك على رسائلك. أعتذر لأنّي تأخرت في الرّد.

***

30 سبتمبر 1940

رِمي العزيز،

حمـدًا للـرّب لأنّـك أخبرتنـا عـن حاجاتـك؛ أرادت مامـا إرسـال مسـابيح، لتُسبّح أنـت وزمـلاؤك الـرّب «بطريقـة صحيحـة». حضَـرَت اليـوم القـداس لأوّل مـرّة منـذ مـدة طويلـة. لـم تكـن بخيـر، ولهـذا أحضـر أبـي ممرضـة لهـا.

فـي البدايـة، لـم أكـن متأكـدة مـن ضـرورة الاسـتعانة بامـرأة غريبـة، لكنّـي رأيت بعدهـا مـدى انسـجامهما. ترتـدي يوجيـن سـترة وبلـوزة بيضـاء. امـرأة عاديّـة كتفاهـا مرتخيتـان، وعيناهـا حزينتـان. بيـن الحيـن والآخـر، ترتسـم علـى وجههـا ابتسـامة حزينـة، مثـل أمّـي. فـي المسـاء، قبـل وصـول أبـي، نشـرب الشّـاي نحـن الثّلاثـة.

بـات يتأخّـر أكثـر. صـادروا سيّـارته، ولهذا صـار يسـتخدم الحافلة. لسـوء الحـظ، عـدد الحـافـلات قليل لشـح الوقود.

مـع رحيلـك، تضاعـف انتقـاد أبـي لـي، وأصبـح مفرطًـا فـي حمايتـي؛ لا يسـمح لـي بالخـروج مـن المنـزل، ولا حتّـى مشـاهدة فيلم فـي السّـينما خـلال النّهـار. للنّازيـن صـالات سـينما ومواخيـر

تخصّهم، وهذا يعني أنّي وبِتْسي ومارغريت بأمان حتمًا. الأنوار خفيفة، سنلتزم الصّمت إذا عرضت أخبار هتلر.

مع «soldaten» [جنود] أخبرونا بما هو «verboten» [ممنوع] تغلغلت اللغة الألمانيّة في عقولنا، تعلّم جنودهم الفرنسيّة. حاول آمرٌ عسكريٌّ أحولُ الحديثَ مع المحاسبة عندنا - أتذكرها؟ خبّازة الكعك الشّجاعة مع علماء الحساب الإغريق؟ قال لها الضّابط: «Bonjour, Madmoiselle. Vous êtes belle» [صباح الخير يا آنسة. حضرتك جميلة]. أجابته الآنسة وِد: «Heave,ho!» [انصرف]. لم يفهم، فأضافت: «Auf Wiedersehen» [وداعًا].

محبّة،

أوديل.

* * *

الحفاظ على إيجاز الرّسائل لم يكن سهلًا، خاصّة بعد انتشار النّازيين في جميع أنحاء باريس. في اجتماع العمل، أعلمنا بورِس أنّهم نهبوا أكثر من مئة ألف كتاب من المكتبة الرّوسيّة قرب نوتردام.

كرّرت مارغريت: أكثر من مئة ألف كتاب.

في أحد الأيّام، حين كنت صغيرة في العمر، ذهبت مع الخالة كارو إلى هناك. بعد القداس في كاتدرائيّة كوازيمودو على جزيرة في نهر السين، اجتزنا الضّفة اليسرى وانعطفنا إلى حي (دو لا بوتشيري) إلى قصر مميّز. فُتحت أبوابه، فدخلنا. رحبوا بنا. أمينة المكتبة التي ارتدت نظّارة طبيّة سلسلتها فضيّة، ناولتني كتابًا مصوّرًا. أدهشتنا الكلمات؛ لغتها، وحروف هجائها جديدة.

الجدران مغطّاة برفوف الكتب من القاع إلى السّقف؛ في غاية الارتفاع لدرجة أنّ المرء يحتاج إلى سلّم ليصل إلى الرّف العلوي. سمحت لي الخالة كارو بصعود السّلّم حتّى الرّف العلوي. ذلك اليوم كان رائعًا ككل الأيّام التي قضيتها مع خالتي.

أتخيّل الآن خلو تلك الرّفوف من الكتب. أتخيّل عيني أمينة المكتبة مغرورقتيْن بالدّموع. أتخيّل قدوم شخص ليعد كتابًا استعاره، ليتفاجأ أنّ الكتاب الذي بيده هو الوحيد الباقي.

سألت بِتّسي: لماذا ينهبون المكتبات؟

أوضح بورِس لها أنّ النّازيين أرادوا محو ثقافات دول بعينها، من خلال مصادرة مُمنهجة للكتب العلميّة والأدبيّة والفلسفيّة، ثمّ أضاف أنّ النّازيين قد سرقوا المجموعات الخاصّة للأسر اليهوديّة المرموقة.

قلت: قرّاء يهود بينهم البروفسورة كوهِن.

أمس في قاعة القراءة، على الطّاولة التي في الزّاوية، لمحت أكوام كتب. خلفها، تعرفت على شعر أبيض وريشة طاووس. كأنّ البروفسورة قد صنعت حاجزًا من كتب المكتبة؛ من بينها أعمال تشوسر، وميلتون، وأوستن.

لم تلحظ البروفسورة اقترابي منها.

سألتها: أتعيدين قراءة الكلاسيكيّات؟

فأجابتني: سرق النّازيّون كتبي. اقتحموا منزلي ووضعوا كل كتبي في صناديق؛ من بينها طبعات أولى، بل وأخذوا أيضًا الصّفحة الأخيرة من مقالة كنت أكتبها على الآلة الكاتبة عن ملحمة بيوولف.

«لا...» طوّقت كتفيْها بذراعي. «أنا في غاية الأسف...»

«أنا أيضًا». أشارت بقنوط إلى أكوام الكتب. «أردت الجلوس مع كتبي المفضّلة مرّة أخرى».

قالت مارغريت في اجتماع العمل: أربعون عامًا من البحث العلمي ذهبت سدى.

بِتْسي: نحن نعرف كتبها المفضّلة. يمكنني البحث عند باعة الكتب لاستبدالها.

الآنسة ريدر: ماذا عن روّاد مكتبتنا الآخرين؟

بورِس: ماذا عن المكتبة الرّوسيّة؟

أنا: ماذا عن مكتبتنا؟

الآنسة ريدر: إنّها على حق. سيأتينا النّازيّون عمّا قريب.

***

في أكتوبر، بدأت الدّراسة مرّة أخرى. برهان على أنّ الحياة مستمرّة مهما كانت الظّروف. كوت الأمّهات قمصان أطفالهن، وحرصن على توفير الدّفاتر وأقلام الرّصاص. شح في بعض أصناف الطّعام، فانتظرت ربّات البيوت في طوابير طويلة أمام متاجر اللحوم. مجلّات الأزياء تعطي النّاس نصائح كثيرة عن طريقة ارتداء قبّعاتهن (تدبيب القبّعة إلى الخلف). وضعت مع مارغريت الكتب في صناديق لإرسالها إلى معسكرات الاعتقال في الأرياف الفرنسيّة، حيث الشّيوعيون، والغجر، والأجانب الأعداء -مدنيون تحارب دولهم ألمانيا- قد سجنوا.

كثّف الإعلام النّازي عمله لإثارة حنق الفرنسيين؛ ملصقاتهم على البنايات، ومحطّات القطار، وردهات صالات السّينما أظهرت

بحارًا فرنسيًّا يغرق ويُلوّح بعلم فرنسا، ويرجونا ألّا ننسى معركة وهران [المرسى الكبير] التي دمّر فيها الطّيران البريطاني سفننا. كيف لنا أنْ ننسى؟ قتلوا أكثر من ألف بحارٍ فرنسي. السّيد دو نيرسيات يرفض الحديث مع السّيد برِس-جونز حتّى الآن.

رفض الباريسيّون الانجراف خلف البروبغندا النّازيّة، فأتلفوا الملصقات. غطّوا كلمة «وهران»، وأضافوا كلمتيْن أخريين، فصارت العبارة: لا تنسوا ثياب السّباحة.

في وقت الغداء اليوم، ذهبت مع پول إلى حديقة مونسيو. مشى على الطّريق الرّملي وهو يشتاط غضبًا، وواجهت صعوبة في مجاراته.

قال: أمروني بإصلاح الملصقات. هذا أسوأ من إدارة المرور بقفّازين أبيضيْن. كلّما رآني النّاس في أثناء مسح الرّسومات على الجدران، ضحكوا.

فقلت: إنّهم لا يضحكون عليك، ثمّ تأبّطت ذراعه، لكنّ هذا الفعل لم يُحسّن مزاجه.

قال: إذلال. اعتاد رجال الشّرطة حمل الأسلحة، الآن نحمل إسفنج التّنظيف. اعتدت الحفاظ على أمن النّاس، أمّا الآن فأنا أمسح الكتابات.

- على الأقل أنت هنا.
- أفضّل أنّ أكون مع رِمي.
- لا تقل هذا.
- قاتل على الأقل. حافظ على رجولته.
- أنت تؤدّي واجبك.

- بإبقاء حملاتهم الإعلاميّة نظيفة؟ أمرٌ مهين.

بريد أسرى الحرب

20أكتوبر 1940

أوديل العزيزة،

شكرًا على الخبز. أعجب الجميع. رغم أنّ أغلب من يصلهم طعام من المنزل يشاركونه مع الآخرين، إلّا أنّ هناك من يكتنزون الطّعام. أمرٌ مُحبط ألّا نساعد بعضنا في هذه الظّروف.

أرسل پول قصاصات جرائد فيها أخبار ولوحة رسمها لساعة القراءة في المكتبة. تحمل بِتْسي كتابًا مفتوحًا على رأسها كأنّه سقف. تهيّأ لي سماع صوتها وهي تقول للأطفال إنّ الكتب ملاذ. أسعدني معرفة بعض أخبار باريس. لا تخشي إخباري بالمستجدّات. أريد أنْ أعرف ما يحدث فيها. تشغلني هذه الأخبار عمّا يحدث في المعتقل. مجهوليّة مدة الاعتقال ستفقدنا عقولنا. علّمني أحد المعتقلين لعبة الجسر. يظهر أنّ كل ما نملكه هنا هو الوقت.

محبّة،

رِمي

* * *

12نوڤمبر 1940

رِمي العزيز،

يسعدني أنّك أحببت الرّسمة. پول موهوب، أليس كذلك؟ ماما دعته مع بِتْسي إلى المنزل كثيرًا. على العشاء، في الأسبوع الماضي، أرتها صورك وأنت طفل. لا يتكلم بكلام فارغ معها.

أتمنى لو ترى كيف جذبت اهتمامه. أتمنى لو أنّ بإمكانك العودة إلى المنزل، نقطة. تظاهر البارحة زهاء ألفي طالب تظاهروا ضد الاحتلال. الرّجال الكبار في العمر مثل المارشال بيتان قد يحكم البلد، لكنّ الشّباب سيديرونها.

محبّة،

أوديل

لم أقل لِرمي إنّ الخبز الذي أرسلته كان من حصتنا التّموينيّة لأسبوع. لم أقل له إنّ المظاهرة لم تدم طويلًا لأنّ السّلطات فضّتها. لم أقل له إنّ النّازيّين قد احتلّوا المكتبة التشيكوسلوفاكيّة. لم أخبره بأنّ الآمر العسكري قد أخبرنا بأنّ Bibliotheksschutz ستفتّش مكتبتنا.

الآنسة ريدر، وبورِس، وبِتّسي فروا أفواههم حين عرفوا القرار.

سألت بِتّسي: ما هي Bibliotheksschutz؟

أجابتها المديرة: قوّات حماية المكتبة.

قلت: هذا جيّد، أليس كذلك؟

هزّت الآنسة ريدر رأسها بحزن: الكلمة ساخرة. أعتقد أنّهم سيستولون على كتبنا.

أوضح بورِس: إنّها الشّرطة السّريّة للنّازية.

***

في يوم التّفتيش، دخّن بورِس جيتان قبل الظّهيرة. انكبّت الآنسة ريدر على مراجعة الأوراق لتتأكّد من عدم وجود أي سبب يؤدّي إلى إغلاق المكتبة، أمّا أنا فجمعت الكتب لأرتبها على الرّفوف. غاتسبي العظيم، غرين بانكس، أعينهم كانت تراقب

الـرّب؛ روايـات كرفقـة عزيـزة. نظـرت إلـى مارغريـت، عرفـت أنّنـا نفكّـر فـي أمـر واحـد: كيـف سـنعيش دون المكتبـة؟

قالـت: لنأخـذ الشّـاي إلـى الآنسـة ريـدر. يجـب أنْ نفعـل شيئًا وإلّا سنجن!

كنـت فـي غايـة التّوتّـر، فذهبـت مارغريـت بالصّينيّـة. فـي أثنـاء وضعهـا علـى مكتـب الآنسـة ريـدر، سـألت: كيـف حالـك؟

أجابتنـي المديـرة: متعبـة ومتألّمـة. أنتظـر جلالتهـم؛ حمـاة الكتب. وأتمنـى ألّا تغلـق المكتبـة.

صبّـت مارغريـت شـاي البابونـج. دفّـأ الكـوب المصنـوع مـن البورسـلان يـدي. كنـت علـى وشـك احتسـاء رشـفة حيـن سـمعت وطء أقـدام ثقيلـة علـى الأرض الخشـبيّة، وصـدى بيـن رفـوف الكتـب.

علـى كرسـيّها، شـدّت المديـرة كتفيْهـا. دخـل ثلاثـة رجـال يرتـدون الثّيـاب الرّسـميّة للنّازيّـة. لـم يقـل أي شـخص أي شـيء؛ لا مرحبًـا، ولا Bonjour، ولا Guten Tag، ولا أنتـم تحـت رهـن الاعتقـال، ولا عـاش هتلـر. اثنـان منهمـا ليسـا أكبـر منّـي – كانـا مفتولـي العضـلات، أمّـا الثّالـث فـكان هزيـلًا يرتـدي نظـارة إطارهـا ذهبـي وكان يحمـل حقيبـة جلديّـة للملفّـات.

عايـن الثّلاثـي فـي محتويـات المكتبـة: الأوراق التـي علـى المكتـب، الرّفـوف الخاليـة التـي وُضعـت عليهـا المخطوطـات النّـادرة والطّبعـات الأولـى قبـل إخراجهـا مـن المكتبـة تحسـبًا لهـذه اللحظـة، كمـا لاحظـوا المديـرة وبشـرتها الجميلـة، وشـعرها المربـوط إلـى الخلـف، وشـفتيها المزمومتيْن.

إذا كانت الآنسة ريدر مذعورة، فلن يعرف أي شخص في الغرفة. لم أشاهدها جالسة بظهر مستقيم هكذا أبدًا، ولم أر وجهها خاليًا من الدّفء قط. كانت تقوم دائمًا للتّرحيب بالزّوار، متجاهلة البروتوكولات الجندريّة التي سمحت لها بالجلوس والتّرحيب بالآخرين ومد يدها فقط. لكنّ هؤلاء الضّيوف الذين جاؤوا بلا دعوة لم يستحقوا اهتمامها.

لا بدّ أنّ «حماة المكتبة» قد توقعوا مقابلة مدير، لا مديرة. حدّقوا إليها، ثمّ تكلّموا بالألمانية بنبرة ثقيلة، وأعطى أوامره بسرعة. الجندي الأصغر الذي على اليسار، أغلق الباب بهدوء خلفهم كأنّه خادم. حين بقيت المديرة صامتة، قال لها بفرنسيّة ممتازة: يا لها من مكتبة رائعة. أذهلتِني يا آنسة ريدر. لا شيء في أوروبا يضاهيها!

حدجتُ الجندي بنظري حين سمعت اسمها. «د. فوكس؟ أنت هنا في باريس؟ لم أكن أعرف». ضمت يديها معًا كأنّ رؤية صديق قد أسعدتها. «أعترف لاحظت ثيابكم لا وجوهكم».

«أوكلوا إليّ هذه المهمة الأسبوع الماضي. أنا الآن مسؤول عن النّشاط الثّقافي في هولندا، وبلجيكا، والجزء المحتل من فرنسا». قال بفخر طفولي كأنّه راغب في الإطراء عليه. وجنتاه المضيئتان وشعره الأشقر منحاه هيئة الأستاذ في مدارس الأحد.

«لا بدّ أنّك مشتاق إلى مكتبتك». مال رأسها بشفقة. «في الواقع، لا تحتاج إليّ المكتبة الوطنيّة الألمانيّة، لكنْ هل أستطيع العيش دونها فهذه مسألة أخرى».

افترضت أنّ النّازيين سيكونون جاهلين متوحشين، لكنّه عمل في أفخم مكتبة في برلين. انتظرنا أنا ومارغريت تعليمات المديرة. هي وحامي الكتب مشغولان ببعضهما.

واصل كلامه: أنت المديرة الآن؟ تقبّلي التّهاني.

عبست: نحن محظوظون لوجود طاقم عمل متفانٍ في عمله والمتطوّعين. لدينا... تغيّرت الأمور. غادر الزّملاء.

«لا بدّ أنّ إدارة المكتبة وحدك أمرٌ صعب». كتب رقم هاتفه على قصاصة ورق ووضعها على مكتبها. «في حال حاجتك إلى التّواصل معي».

قالت بمواربة: مضى وقت طويل.

تمتم: منذ مؤتمر المعهد العالمي للتّعاون الثّقافي. أيّام أبسط من حياتنا الآن.

قالت: لو أنّهم أخبروني باسم حامي المكتبة، لوفّرت على نفسي أسبوعًا من القلق. كنت أختار ألفاظًا رفيعة لشتائمي فور علمنا بموضوع «التّفتيش».

سألها وهو لا يزال واقفًا بانتباه: وماذا كنت ستقولين؟

أشارت إلى الكرسي وقالت: ابقَ لشرب الشّاي.

ذهبت مارغريت لإحضار كوب آخر. كنت أعلم أنّ عليّ المغادرة، لكن انقلاب الأحوال هذا أدهشني.

قالت الآنسة ريدر: كنت سأقول لحماة الكتب أنّ المكتبة دون عشّاقها مجرّد مقبرة كتب؛ لا وجود لها دون تواصل الآخرين معها.

أجاب: تعبير جميل.

أضافت: كنت جاهزة للتّذلل لإبقاء المكتبة مفتوحة. لم أتوقّع أنّ القادم أنت.

أجابها: تدركين أنّي لن أسمح بتاتًا بإغلاق المكتبة، لكن...

قاطعته: أجل؟

أكمل حديثه: ستلتزمين قوانين فُرضت على المكتبة الوطنيّة. يمنع اطّلاع القرّاء على بعض الكتب. أخرج قائمة من حقيبة أوراقه.

سألته الآنسة ريدر: أيجب إتلافها؟

نظر إليها بهلع: آنستي الشّابة العزيزة، قلت يمنع اطّلاع القرّاء عليها. سؤال غريب من أمينة مكتبة ذات خبرة! الأشخاص الذين مثلنا لا يتلفون الكتب.

عادت مارغريت بكوب شاي (إيرل غري). رائحة الأترج الحمضي نشرت الأمل في الغرفة. الأشخاص الذين مثلنا. إنّه أمين مكتبة، قريب لنا. أجل، فرقتنا هذه الحرب، لكنّ عشق الأدب يوحدنا. يمكننا أنْ نجتمع لشرب الشّاي وتبادل الأحاديث بتحضّر. تنفّست الآنسة ريدر الصّعداء، ربّما انتهى الأسوأ. تذكرا المؤتمرات التي حضراها والأشخاص الذين تعرفا إليهم – يا إلهي فعالية رابطة المكتبة الأمريكيّة في شيكاغو كانت مثيرة للاهتمام... آه أجل، لقد تقاعدت... انتقل إلى فرع آخر وتغيّرت شخصيّته.

نظر د. فوكس إلى ساعته بنشاط، ثمّ قال إنّه تأخّر على موعده الثّاني. قال للمديرة: أسعدتني رؤيتك، ثمّ وقف. عند الباب، ابتَسَمَت لأنّ اللقاء سار على خير ما يرام. التفت إلينا. توقّعت ملاحظة عن كتاب أو مجرّد وداع، لكنّه قال: بالطّبع، لن يُسمح لبعض الفئات بدخول المكتبة.

23
أوديل

وضعت الآنسة ريدر أصابعها على جبينها، وقالت: يجب أنْ أفكّر. لا بدّ من وجود حل... لعلّ بإمكاننا إرسال الكتب بطريقة ما...»

دخل طاقم العمل واحدًا تلو الآخر. عضّت بِتْسي شفتها، وعبس بورِس. في شعر الآنسة وِد دزينة أقلام. سحبْتُ كتاب الحالمون من رف الآنسة ريدر. احتجت إلى شيء يشحذ عزيمتي. لم أحتج إلى تقليب صفحاته لأقرأ المكتوب: هذا الكتاب خريطة. كل فصل فيه رحلة بحد ذاتها. رحلات غامضة في بعض الأحيان، ورحلات تهدينا إلى النّور أحيانًا أُخَر. أخشى مصيرنا.

سألت بِتْسي: ماذا قال حامي المكتبة؟

أجابتها مارغريت: يجب سحب أربعين كتابًا من الرّفوف. في القائمة: إرنست همنغوي الذي ساهم في مقالات في نشرتنا الإخباريّة، ووليام شير الذي بحث عن مقالات في قاعة القراءة.

سأل بورِس: إذا فكرنا في قائمتهم المخصّصة للكتب الممنوعة التي تضم مئات الكتب، ستدركون أنّنا ندفع ثمنًا بسيطًا.

لا أثق بكلامه. دون هذه الكتب، سيخسر پول جزءًا من روحه.

قال بيتر مؤرشف الكتب: يمكننا إعارتها لقرّاء نعرفهم تمام المعرفة.

قرّاء نعرفهم جيّدًا... فكّرت في البروفسورة كوهِن، في طلّاب السّوربون، في الصّغار الذين جاؤوا لساعة القراءة. قرّبت الكتاب

من صدري، وتساءلت كيف سنخبر البروفسورة بأنّ وجودها لم يعد مرغوبًا فيه؟ تساءلت كيف سنواجه القرّاء اليهود؟ تساءلت كيف سنحرم الأطفال من الكتب. بالطّبع، القرار نافذ في أمور أعمق من الكتب. طلب حامي الكتب عزل قرّاء عن مجتمعنا.

***

وصلت الكونتيسة كلارا دي شامبرن وجلست على ذات الكرسي الذي كان د. فوكس جالسًا عليه. إنّها المموّلة الوحيدة الباقية في فرنسا حتّى الآن - عاد الآخرون إلى بلادهم الآمنة. عاشت الكونتيسة في أمريكا، وإفريقيا، وأوروبا. إنّها باحثة في أعمال شكسبير، وكانت قد تحصّلت على الدكتوراه من السّوربون. أستطيع رؤية الحصافة في عينيّها، وتمنيت لو أنّ بإمكانها مساعدتنا.

قالت ونظّارة القراءة على طرف أنفها: الآن، ماذا أردتِ أنْ تخبريني؟

التفتنا إلى المديرة. عادة، تتحدّث بنشاط، لعلمها أنّ الوقت الذي نقضيه في الاجتماعات ثمين ويمكننا إنجاز الكثير فيه. «أنا... أقصد...»

حثّتها الكونتيسة: تكلّمي.

قالت الآنسة ريدر بصوت خفيض: «لا يسمح لليهود بدخول المكتبة حسب قوانين الشّرطة النّازيّة». هزّت رأسها كأنّها لم تصدق الكلمات التي خرجت من فمها.

«تمزحين!» قالت بِتْسي التي تشبه رِمي بذقنها البارز واستعدادها لنصرة المظلوم.

بورِس: صادروا كتب [منظّمة] التّحالف الإسرائيلي العالمي

كلّها. كما صادروا كتب المكتبة الأوكرانيّة، واعتقلوا أمين مكتبتها. لا يعلم مكانه إلّا الرّب. إذا لم نلتزم الأوامر، سيغلقون المكتبة ويعتقلوننا.

نظرنا إلى الآنسة ريدر.

كرّرت قولها: لا يسمح بدخول فئات معيّنة. منهم أصدقاء أوفياء للمكتبة. لا بدّ من وجود طريقة للتّواصل معهم.

قالت الكونتيسة: تفكّروا بقصّة محمّد والغار! لدي قدمان، كذلك بورِس، وبيتر، وأوديل. أنا على أتم الاستعداد لتسليم الكتب إلى القرّاء، ومتأكّدة من أنّ كل شخص هنا سيسعده فعل ذات الأمر.

مارغريت: سنحرص على حصول جميع القرّاء على كتب.

«هناك خطورة» قالت الآنسة ريدر، ثمّ نظرت إلى عينيْ كلّ منّا لتتأكّد من فهمنا. «القوانين التي التزمناها تغيّرت بين ليلة وضحاها. قد يعدّ توصيل الكتب معاداة للسّلطات، وقد نعتقل».

قالت هيلين: وصلت إلى باريس ليلة الحرب لوضع الكتب في أيدي قرّائها، ولن أتوقّف الآن.

قال بيتر: سأنقل المكتبة كاملةً إلى القرّاء.

أكّدت الآنسة وِد: لن نسمح بعزل القرّاء. سأنقل الكتب لهم، والكعك أيضًا، إذا أمكنني الحصول على المقدار الكافي من الطّحين.

بِتْسي: سيكون توصيل الكتب طريقتنا في المقاومة.

قلت: نحتاج إلى فعل هذا.

بورِس: هذا هو الصّواب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الآنسة ريدر: إذن لنعد إلى العمل.

كتبت الرّسائل إلى القرّاء اليهود بمساعدة الكونتيسة. هاتفت بِتْسي من يملكون الهواتف. جلست إلى مكتب الآنسة ريدر، الهاتف بحجم رأسها تقريبًا، سمعتها تقول: حتّى تعود الأمور إلى ما كانت عليه... أنا آسفة... ما الكتب التي تريدينها؟

أعدّ بورِس الطّلبات، وربط الكتب معًا بحبل. أعطاني الحزمة للبروفسورة كوهِن، فانطلقت إلى عالم آخر.

حاولتُ تجنّب نقاط تفتيش النّازيّة، لكن هناك واحدة جديدة على بعد مربعيّن سكنيّين. على شارع ضيّق، خمسة جنود مسلّحين دائمًا، أخضعوا الباريسيين لتفتيش أوراقهم وأشيائهم عند عوائق حديديّة. في أثناء وقوفي في الطّابور، انتبهت إلى أنّي كتبت عنوان البروفسورة على قصاصة ورق، ووضعتها في حقيبتي. لماذا لم أحفظ مكان سكنها؟ ماذا لو قدت النّازيين إلى شقتها؟

طلب جندي أنْ أفتح حقيبتي. وقفت في مكاني. واجهت صعوبة في التّنفس حتّى اعتقدت أنّه سيغمى علي. سحب حقيبتي، وفتش الكتب والأوراق التي داخلها.

قال الجندي: لا شيء مهم هنا. مجرّد منديل، ومفاتيح منزل، وكتب.

أعتقد أنّ هذا ما قاله لأنّي لم أسمع إلّا الكلمات الآتية: nichts, interessant, buch. تفحّص أوراقي، نظر إلى صورتي في الهُويّة، ثمّ رمى الأوراق في حجري وأمرني بالذّهاب.

عرجت عند زاوية مبنى، بحثت عن الورقة في حقيبتي. أقسمت أنْ أكون أكثر حذرًا ومزّقتها. لا أريد تعريض القراء إلى الخطر. بعد أنْ عاد تنفسي إلى طبيعته، غادرت.

تساءلت دائمًا عن مكان إقامة البروفسورة. تخيلتها في مكتب بهيج محاط ببستان. لم تدعني إلى الدّاخل؛ هذه ليست زيارة اجتماعيّة، ونظرًا للظّروف الرّاهنة، لم أعرف ما أقوله له. هذا ظلم؟ المكتبة تبلغك اعتذارها؟ هذا عمل غريب.

لا شيء؟

مشيت عشرين دقيقة حتّى منزل البروفسورة كوهِن. داخل المبنى ملويّة مثل قوقعة حلزون. ارتقيت الطّابق الثّاني حيث سمعت نقرات على الآلة الكاتبة. لم أرغب في إزعاجها، وفكّرت في وضع الكتب عند الباب، لكنّي أعرف أنّ التّخلي عن الكتب بهذه الطّريقة لا تعجب بورِس. طرقت الباب في نهاية المطاف. أدخلتني البروفسورة، وتبعتها إلى غرفة الجلوس. انتقل نظري من ريشة الطّاووس التي في شعرها إلى رفوف خاوية على الحائط كانت تحمل ألف كتاب فيما مضى. حمل النّازيّون أسلحتهم في قلب مكتب البروفسورة.

قالت: حتّى أنّهم سرقوا يوميّاتي؛ لحظات أفراحي وأتراحي.

صادروا أفكارها الخاصّة. أعاصير: 551.552، الكتب الممنوعة: 363.31، حيوانات ضارية: 591.65.

أشارت إلى مجموعة كتب على الكرسي. «أرسلها أصدقاء. يعرفون ذوقي، سأعيد بناء مكتبتي تدريجيًا، ربّما ستضم رواية من تأليفي. تواصلت مع ناشر وبدا متحمّسًا».

الأمل: 152.4. نظرت إلى الآلة الكاتبة. «ما اسم كتابك؟»

«إنّه عنّا. عن الباريسيين. كأغلبهم، أحب مشاهدة النّاس، لكن أعتقد أنّنا ننتبه إلى بعضنا كثيرًا. هذا يخلق غيرة مُفسدة»

غـادَرَت الغرفـة قبـل أنْ أجيبهـا، وعـادت بصينيّـة فيهـا بسـكويت وشـاي. لمحـت سـاعتي؛ إنهـا الرّابعـة. ينتظـر قـرّاء آخـرون اسـتلام كتبهـم. لا أريـد إغضـاب بورِس. ومـع هـذا لا أريـد المغـادرة بعـد كل الـذي مَـرّت الكونتيسـة بـه.

حتّـى يبـرد الشّـاي، أكلـت حلـوى السّـيجارة الروسـيّة. تـورّم لسـاني فـي أثنـاء تـذوّق مـادّة نـادرة فـي الطّعـام؛ زبـدة. مـن أيـن حصَلَـت عليهـا؟

قالت: صديق ابن أختي المقرّب يملك معمل ألبان.

عبسـت. «مـن كان ليتصـوّر أنّنـا سـنصل إلـى يـوم نبـرّر فيـه توافـر مكوّنـات طبخـة؟»

قالت: وسيزداد الأمر سوءًا.

واجهـت صعوبـة فـي تخيّـل الأسـوأ. «قالـت الآنسـة ريـدر إنّهـا سـتزورك غـدًا». تمنيـت أنْ يفرحهـا هـذا الخبـر.

– ما الأحوال في المكتبة؟

سمعت سؤالًا لم تسأله. هل سيلاحظ أصدقائي غيابي؟

آيـات الشّـجن ظاهـرة علـى وجـه البروفسـورة. رؤيـة هـذا المـكان الدّاخلـي غريبـة؛ داخـل شـقّة، داخـل حيـاة. دخـول منـزل أحـد القـرّاء فـي المكتبـة ومشـاهدة أشـياء كان يفتـرض أنْ تظـل خاصّـة. لا إجابـة عنـدي عـن سـؤالها، ولا هـي. فـي النّهايـة، الكاتبـة هـي التـي وجـدت الكلمـات. «شـكرًا لـك علـى إحضـار الكتـب. يجب أنْ أعـود إلى روايتي».

***

أخبـار العالـم تصـل بصعوبـة إلـى المنطقـة المحتلّـة. تكتـب أم الآنسـة ريـدر الرّسـائل لابنتهـا منـذ 1929، إلّا أنّ المديـرة لـم تسـتلم

أي رسالة منذ ستة أشهر، ولم تصلنا أي مجلّة أو جريدة. تخيّلت تراكمها في مستودعات نيويورك.

حتّى مع التّموين، أصبح الحصول على الطّعام صعبًا. في السّوق، وقفت ماما ساعة كاملة في الطّابور لشراء ثلاث حبّات كرّاث. فستان الآنسة ريدر المنقّط الذي كان على قياسها، الآن يغطّي جسدها النّاحل. لا يزال شعر هيلين مسؤولة المراجع مجعّدًا وعيناها حالمتين، لكنّها فقدت 5.5 كجم. مثلهما أصبحت هزيلة. أخبرت د. توماس أنّ دورتي الشّهريّة قد انقطعت منذ شهور، فقال إنّي لست الوحيدة.

مضيت بنصف سرعتي المعتادة لأنّي جائعة، وأوصلت الكتب إلى أرجاء باريس؛ بدءًا من الشّقق الأنيقة المحيطة بحديقة مونسيو وصولًا إلى غرف متواضعة في حي مونتمارتر. اليوم في نقطة التّفتيش، أحد الجنود -الضّابط المسؤول- دقّق في محتويات حقيبتي. «نداء البريّة؟ آخر رجال الموهيكان؟ ماذا تفعل شابّة فرنسيّة بروايات إنجليزيّة؟ أريني أوراقك!»

مرّر إصبعه على صورتي في الهويّة. لعلّه حسبها مزوّرة. طلب من الجنود أمرًا ما بالألمانيّة. اقتربوا حتّى أحاطوا به. لم أشعر بالمهانة بهذا القدر من قبل. عاين الكتب، وتكلّم بسرعة. لم أفعل إلّا بضع كلمات: رواية. شجاعة. فادح. ماذا يقولون؟ أيعتقدون أنّي أنقل الرّسائل؟ هل سيعتقلونني؟ ماذا سأقول لهم؟ أنا أمينة مكتبة في المكتبة الأمريكيّة؟ لا، قد يتوجّهون إليها. إنّ صديقتي إنجليزيّة؟ لا، قد يعتقلون مارغريت.

قلت: شابّة فرنسيّة مهتمّة بباقي الثّقافات كما تعلم. أنا وأخي نقدّر غوته.

أومأ الضّابط بالتّأييد: لدينا نحن الألمان كتّابًا رائعين.

أرجع أشيائي. غادرت قبل أنْ يُغيّر رأيه. تفادي نقاط التّفتيش صعبٌ لأنّها تقام عشوائيًا. حين انتهت مهمّتي، عدّت إلى المكتبة وحذّرت مارغريت من خطورة اعتقالها لكونها عدوّة.

«أعرف. في طريقي إلى المنزل أمس، شاهدت نقطة تفتيش، فدخلت محل قبعات. بعد ثلاث ساعات، خرجت بأربع قبعات، وكان النّازيّون قد غادروا». لفّت لآلئها حول إصبعها. «شعَرْت أنّ هناك حبلًا يشنقني».

خشينا حدوث الأسوأ حين تغيّبت المحاسبة عن العمل. فتّشنا شقّة الآنسة وِد، المستشفيات، ومراكز الشّرطة، ثمّ علم بورِس ما حدث. اعتقلها النّازيّون ورحّلوها إلى مخيّم اعتقال في شرق فرنسا. اعتقلت لأنّها يهوديّة.

أمرت الآنسة ريدر العاملين الأجانب بالمغادرة. «أحد أصعب الأمور التي أقدمت عليها هو أنْ أطلب من هيلين وبيتر المغادرة» قالت للقرّاء وطاقم العمل في حفل وداع: أعلم أنّه القرار السّليم. رأسي وقلبي سيعملان على نحو أفضل إذا علمت أنّهما بأمان.

شحب وجه هيلين. معرفتنا بأنّ قصّة حبّهما ستصمت جعلتنا أقلّ حزنًا، فرفعنا الكؤوس لنشرب نخب الوداع.

قلت لبِتْسي: حمدًا للرّب أنّ الآنسة ريدر ستبقى.

فأجابتني: مؤقتًا.

* * *

فبراير، مارس، أبريل. يأبى الشّتاء الرّحيل. سحبٌ رماديّة في السّماء، ومطرٌ غزيرٌ ليل نهار. في جولته اليوميّة، أحضر پول باقة زهور لي، وقال: أنت في غاية الاكتئاب. هل وصلت رسالة من رِمي؟

سحبت ظرفًا من جيبي وفتحت رسالته الأخيرة بحرص كأنّها كتّان لا يقدّر بثمن.

أوديل العزيزة،

عيد فصح سعيد! أنا أفكّر فيك. شكرًا على كتاب ڤيليت. بدأت أعتبر الأخوات برونتي صديقاتي العزيزات.

إنّهم يجبروننا على العمل في المزارع. رجالهم يقاتلون في الجبهة الشّرقيّة، ولذلك فإنّ نساءهم وعجائزهم هنا. نحن سجناء في قرية، وأصحاب الأراضي يعاملوننا باحتقار. يريدون عمالة قويّة.

الزّملاء يخرّبون الأراضي قدر الإمكان، فالمزارعون أعداؤنا في نهاية المطاف. أتمنى لو أنّ بإمكانك التّعرف إلى مارسيل. قادته سيّدة عجوز إلى حظيرتها، ووضع جردلًا في صدره ليحلب البقرة، سحب ذيلها كما يفعل المرء إذا أراد سحب ماء من البئر. ذعرت البقرة فركلته. الآن هو في الثّكنة ويصر على أنّ نظرة الاشمئزاز على وجه العجوز يستحق الكسور التي أصابته.

محبّة،

رِمي

وضع حاجزًا جيّدًا لي، كما أفعل معه.

پول: ماذا اعتراكِ؟

قلت له: من أين أبدأ؟ هناك جندي ألماني يُقيم في شقّة بِتْسي. ينام في غرفة أخيها. أجهل كيف تمكّنت من هذا. أمس بعد العمل، كانت تنتحب في قاعة الأطفال، ولم أعرف إذا كان عليّ أنْ أواسيها أو أدّعي أنّي لم أره. إنّها حرّة في نهاية المطاف. السّيد دو نيرسيات والسّيد برِس-جونز لا يزالان متخاصميْن - أكره أنّ الحرب أفسدت صداقتهما. نحن قلقون على الآنسة ريدر التي تجهد أكثر فأكثر مع مرور الأيام...

فقال: على الأقل لديك رئيسة عمل تحبينها.

بدا مضطربًا. أردت احتضانه. أردت نسيان الحرب لخمس دقائق، لكنّ مراقبة مدام سيمون لنا أغضبتني. فهل سنكون أنا وپول وحيديْن في يوم ما؟

* * *

سمعت صوت مفاتيح البروفسورة كوهِن وأنا على السّلالم. هذه المرّة، ككل مرّة، صالة الاستقبال مشبّعة برائحة حبر الآلة الكاتبة. ابتسمت حين فتَحت الباب رغم حزني الشّديد - ارتدت بدلة رسميّة رجاليّة.

سألتها: ماذا يحدث؟

أجابتني: أحاول الدّخول في عقل شخصيّتي، فارتديت ملابس زوجي.

وهل نجحت الخطّة؟

- لست أكيدة، لكنّي أستمتع بوقتي.

الرّفوف خلفها شبه ممتلئة بالكتب. بِتْسي، مارغريت، والآنسة ريدر، وبورِس أحضرنا كتبًا لها من مكتباتنا الخاصّة، كما فعل

أصدقـاء البروفسـورة. أكـوام الـورق إلـى جانـب الآلـة الكاتبـة ازداد عددهـا أيضًـا.

سـألتني: هل من جديد؟

تنهّدت: تحصّلت على ترقية لأعمل في قسم المراجع.

- أليس هذا جيّدًا؟

- عـادت أمينـة المكتبـة السّـابقة إلـى الولايـات المتّحـدة. لـم أرد الحصـول علـى ترقيـة بهـذه الطّريقـة. أفضّـل البقـاء فـي قاعـة الدّوريـات إلـى الأبـد مـع الحفـاظ علـى زمـلاء العمـل.

- أنتِ تريدين، والرّب يفعل ما يريد. شاي؟ وملابس لائقة أكثر؟

تبادلنـا أطـراف الحديث علـى الأريكـة. كوبا شـاي يتوازنـان علـى أردافنـا. هـي بالجاكيت الرّسـمي، وأنـا بربطـة العنق السّـوداء. لمسـت الحريـر، فشـعرت بتحسّـن.

زيـارة البروفسـورة كوهـِن أسـبوعيًا كانـت إحـدى أفضـل المسـرّات فـي عملـي، بـل فـي حياتـي. حتّـى أنّهـا سـمحت لـي بقـراءة مسـودة الرّوايـة. وقعـت بعـض أحداثهـا فـي المكتبـة. السّـرد فـي غايـة الـذّكاء، فـي غايـة الحكمـة، مثلهـا. أصبحـت البروفسـورة كاتبتـي المفضّلـة. اكتملـت كل الأفانيـن.

باريس

12 مايو 1941

سيدي المفتّش:

لمـاذا لا تبحـث عـن اليهـود المختبئيـن؟ هـذا عنـوان البروفسـورة كوهِن في 35 حي بلانش. كانت أسـتاذة الأدب في جامعة السّـوربون،

أمّـا الآن فتدعـو الزّمـلاء والطّلبـة، أغلبهـم ذكور وفـي مثل عمرهـا!

إذا خرجـت مـن شـقتها، سـتعرفها مـن مسـافة كيلومتـر بسـبب قبعتهـا البنفسـجيّة، وريشـة طـاووس فـي شـعرها. اسـأل اليهـود عـن شـهادة التّعميـد وسـتعرف دينهـم الحقيقـي. فـي الوقـت الـذي يعمـل فيـه الفرنسـيّون والفرنسـيّات الصّالحيـن، تجلـس مـدام بروفسـورة فـي شـقتها لتقـرأ.

العنوان صحيح. الآن دورك.

الإمضاء،

العارف

24
أوديل

في فناء البناء السكني الذي نقيم فيه، جفلت ماما وهي تقطع سراخسها المفضّلة من أصيص عند النّافذة. إلى جانبها زرعت مع يوجين الجزر في التّربة. مساعدة ماما وأشعّة الشّمس حسنا مزاجي.

«كان بإمكاننا زراعة الخضراوات في العام الماضي». مرّرت أصابعها على السّراخس الصّغيرة التي بين الحصى. «لكنّي أحببت الحصول على شيء جميل».

يوجين: لم يعرف أي شخص أنّ الحرب ستستمر.

ماما: ماذا لو لم تنتهِ؟

يوجين: قلنا هذا عن الحرب العظمى. لكل شيء نهاية، حتّى الأشياء السّيئة.

قرأت ماما بصوت عال رسالة من أقربائها الذين في الرّيف الذي وعدوها بإرسال مؤونة غذائيّة. قالت حين انتهت من القراءة: طوال حياتي، كنت محاطة بجذوري الرّيفيّة. إذا كان لدى أبيكِ عمل، كانوا يتناولون العشاء معي. شعرت دائمًا... لم أشعر بأنّي سيّدة باريسيّة بمعنى الكلمة. ضأن سمين إلى جانب سلمون مدخّن.

«أوه» أمسكت يوجين بيدي أمّي القذرتيّن.

ماما: لكن الآن ستنقذنا جذور أسلافي جميعًا.

ضحكت وقلت: على هيئة جزر.

يوجين: لماذا قلت ضأن؟ أتضوّر جوعًا الآن.

بضحك، حملت معها أحواض الزّراعة أعلى السّلالم ووضعناها عند حافة النّافذة. تبعتنا ماما، تقبض في يدها على سراخس صغيرة ملتفّة كعلامة استفهام.

يوجين: أعتقد أنّ علينا إعداد العشاء. لم لا تدعين پول؟

«عليه أنْ يأتي لمؤانستنا لا للأكل» قالت أمّي ثمّ وضعت سراخسها في كأس فيها ماء قليل. «كرنب مرّة أخرى».

يوجين بصراحة: مطبوخًا هذه المرّة.

بعد أنْ فرغنا من تناول الطّعام، ادّعت أمّي ترتيب المكتب، پول وأنا جلسنا على الأريكة. بما أنّنا لم نتكلّم بحريّة، أريته صفحة من رواية عصر البراءة، جذوعنا تكاد تتلامس في أثناء القراءة:

«في أثناء افتراقنا، تطلّعت لرؤيتك، كلّ فكرة احترقت في نار مستعرة. لكن ما لبثت أنْ عدت، وأنت أكثر بكثير ممّا أتذكر، وما أريد منك أكثر من ساعة أو ساعتين بين الفينة والأخرى، بمخلّفات عطش تفصل بيننا.»

دخلت يوجين، فسحبت أمّي يدها. «أوه، دعيهما يستمتعان بعض الشيء».

أجابتها: سيحظيان بكل المتعة إذا تزوّجا.

أعاد پول حوارنا إلى الشّأن العام: أين أبوكِ؟

أنا: لا يزال في العمل. إنّه يعود إلى المنزل في المساء، دون أنْ ينطق بكلمة. إذا رأيت السّواد تحت عينيْه...»

پول: تكترثين بشأن الجميع، لكنّي أكترث بشأنك.

قال إنّه ادّخر مال رواتب عام كامل من أجل مفاجأة.

- ما هي؟

- سنذهب غدًا إلى الكباريه.

أنا: كباريه!

پول: سنكون محاطين بعشرات الأشخاص.

أحطت عنقه بذراعي. موسيقى! نبيذ! لا مرافق! سنتراقص كلّ الليل، بما أنّ روّاد الحفل يتحايلون على الحظر المفروض بالبقاء في الكباريه طوال الليل، ثمّ يغادرون فجرًا.

پول: لن يحل مشكلاتنا، لكنّنا سنتخلّص من الوصاية بضع ساعات.

في مساء اليوم التّالي، وضعت ماما ورقة سرخس في شعري فيما تململ پول مرتديًا بدلة. في الكباريه، شربنا النّبيذ الأبيض وشاهدنا الفتيات النّواهد يرقصن مرتديات حمّالات صدر وبناطيل على المسرح، مظهرات بين الحين والآخر شيئًا من الخط الفاصل بين نهودهن. كنت أكثر اهتمامًا بصدر الدّجاج الذي في طبقي. السّكين والشّوكة اهتزّا بين يدي. لم آكل لحمًا منذ مدة طويلة. تناولت قطعة دجاج مرقها لذيذ. لم أرغم في تبديد قطعة مرق، لعقت أصابعي. بعد العشاء، عانقت پول على المساحة المخصّصة للرّقص وحول كثير من الأشخاص.

مع انبلاج الفجر، خرج السّهارى -راغبيْن في الحب أو ناعسين- من الكباريه. تجوّلت مع پول في الشّوارع الخالية، مررنا بمقر البلديّة حيث عُلّقت الملاحظات. الآنسة آن جوسلين من باريس ستتزوّج السّيد فنسنت دو سان-فيرو شولي.

«زواج النّاس غريب» قلت وأنا أفكّر في رِمي البعيد عن بِتْسي التي تقضي لياليها وحيدة.

نظر پول إليّ: الحياة تستمر.

لو كان الأمر عائدًا لپول، لكنّا متزوّجين الآن. تنزّهت معه في شوارع مونتمارتر المنحنية. مع شروق الشّمس، جلسنا على مدرّجات كنيسة القلب المقدّس. طوّقني بذراعيْه وأنا أشاهد غيومًاورديّة وبرتقاليّة تشبه الورود.

قلت له بقناعة: عرفت أنّك مختلف عن الجميع منذ البداية.

پول: كيف؟

أنا: دافعت عنّي وعن رِمي حين أردت العمل.

اقترب پول أكثر. يسعدني أنّك مستقلّة. هذا مريح.

أنا: مريح؟

پول: توليت رعاية أمّي منذ رحيل أبي.

أنا: كنت صغيرًا في العمر!

پول: لصغر سنّي، لم أفهم الحالة التي ستكون عليها إذا عدت إلى المنزل؛ ثملة، باكية، نصف عارية مع رجل. لاحقًا، تركت المدرسة لأعمل. أرسلت لها أغلب ما جنيته. صدقًا، أفهم الآن لماذا رحل والدي.

- أوه پول.

ابتعد. «يجب أن نعود».

- لنتكلّم.

- لا أريد إقلاق والديْك.

ظلّ متحفظًا في طريق عودتنا. أردت التّخلص من الفجوة التي ازدادت بيننا. في زاوية مظلمة عانقته. شعرت بنبضات قلبه، وأبهجني شعور شفتيه اللتين أطبقتا على شفتيّ، طعم نبيذه في فمي. يدي لسمتا جسده وهو يقبّل وجنتيّ، عنقي، صدري. استجابة لرقته، سحره المفاجئ تناغمنا، أردته حولي، داخلي. حان وقت كتابة فصل جديد في علاقتنا.

أرخيت ربطة عنقه. «هيا».

سألني: هل أنت واثقة؟ فتح حزامه.

أحببت شعور إثارته تحت أصابعي. أحببت سماع صوت أنينه المكتوم، ومعرفة أنّي أشعر بذات الشّعور. لمست بقدمي قدمه، قبض على خصري وجذب جسدي إلى جسده. التقت شفتانا، ملامسة في إثر ملامسة. طوّق جذعه بقدمي. ثار دمي.

«أوديل. هل هذه أنتِ؟» صوت أمّي خلف الباب.

أنزلني پول على الأرض ببطء. تتآكلني الرّغبة. تأرجحت بحذاءَيَّ. أمسكني لأتوازن بيد، وسحب حافة فستاني إلى الأسفل. جسدي يؤلمني. لا أريد التّوقف. العشق جعلني أتصرّف بطيش، والشّعور يعجبني.

فُتح الباب. «هل نسيتِ مفتاحك؟» سألتني أمّي.

«جد طريقة نكون فيها وحدنا» همست في أذن پول. لمستها بشفتي المتورّمة. المخاطرة التي قمنا بها...

* * *

فـي المكتبـة، علّقـت سـترتي، أترنّـم موسـيقى عزفتهـا الفرقـة. بطنـي ممتلـئ بالطّعـام، جسـدي مـا زال يغنّـي. حيـن دخلـت بِتْسـي بحزنهـا، بكيـت فـورًا.

رأت بِتْسي اضطرابي فسألتني عن السّبب.

«لا شيء» لم أتمكّن من النّظر إلى عينيْها.

- بل يوجد شيء.

- ليس من العدل استمراري في الحياة مع رحيل رِمي.

قالت بلطف: ومن قال إنّ الحياة عادلة؟

قلت: كيف أسعد وهو تعيس.. وأنت تعيسة؟

قالت: أتمنى ألّا تؤجّلا موضوع الزّواج.

نظرت إليها. «لمّح إليه...»

قالـت: سـعادتك ليسـت علـى حسـاب رِمـي. أنـت وپـول تنتميـان إلـى بعضكمـا.

- أتعتقدين هذا؟

- أجل.

حيـن عـادت بِتْسـي إلـى قاعـة الأطفـال، بـدا لـي أنّ شـعرها المجدول على شكل تاج قد أصبح إكليلًا، قبل أنْ ألحق بها، دخل بورِس وبيده مجموعة كتب عليّ إيصالها. في طريقي إلى منزل البروفسورة، مررت بفتاة تبيع الورد في زاوية الشّارع. تذكرت مرّة تبادلت فيها الأحاديث مع البروفسورة فنظرت إلى المزهريّة نظرة حزينة. اشتريت باقة على أمل أنْ تسعدها.

حيـن قدّمـت زهـرة الأفـراح لهـا، ابتسـمت. اختـارت إبريقًـا مـن خزانـة الأوانـي ووضعـت الزّهـور.

أشرت إلى المزهريّة وسألتها: لماذا لم تستخدمي تلك؟

- لم أضع فيها شيئًا بتاتًا.
- لماذا؟
- في المرّة الأولى التي دعاني فيها زوجي الثّالث إلى منزل والديْه، لغداء يوم الأحد الطّويل. احتجت إلى الخروج من الغرفة.
- أفهم موقفك.
- حين عدت، انتقدتني أمّه، فقالت: «إنّها جافّة، ثقافتها عالية. كبيرة جدًّا إنّها عاقر». قبل أنْ يُجيب، أخبرتهما أنّي سأغادر. في اليوم التّالي، جاء إلى مكتبي حاملًا تلك المزهريّة. حين قال إنّها تذكره بي، أجبته: جافّة، وقاسية، وخالية؟
- وماذا قال؟
- جميلة الصّنع، ومفعمة بالحياة، وقادرة على احتواء الكثير. جميلة بحد ذاتها.
- أفهم الآن سبب زواجك به.
- كيف الحال في المكتبة؟

سمعت الأسئلة التي لم تسألها. أتعلمين لم يعد بوسع اليهود التّعليم، وأنّي خسرت وظيفتي؟ هل يهتمون؟

قلت لها: السّيد نيرسيات، والسّيد بيرس-جونز سيزورانك بعد الظّهيرة.

مدّت عنقها: معًا؟ هل تصالحا؟

في الواقع. الأسبوع الماضي، بعد سأمهما من عدم التّقدّم في علاقتهما، طلب الفرنسي من الآنسة ريدر التّدخل للتّوسط.

قـال السّـيد بريس-جونـز إنّ المديـرة عظيمـة، لـن نصـل إلـى مسـتواها.

أضاف دو نيرسيات: كلّ المكتبة ترتج إذا مشت.

مرّة أخرى، صدح صوتهما في قاعة القراءة:

- أمريكا ستربح الحرب.

- الأمريكيّون معتزلة. لن يتدخّلوا.

أتساءل كيف فاتتني مماحكاتهما!

قلـت للسـيد دو نيرسـيات الـذي توقّـف عنـد مكتبـي لإلقـاء تحيّـة الصّبـاح: يسـعدني أنّكمـا تصالحتمـا.

فقال: في الواقع، كان عليّ تخيّل نفسي في حذائه [مكانه].

ابتسـمت لأنّـه اسـتخدم التّعبيـر [الإنجليـزي]، فالفرنسـيّون يقولـون «في جلـده».

سألته: هل كانت الخطوة الأولى صعبة؟

فأجابني: إنّ خسارة صديق أصعب.

***

فـي قاعـة المراجـع، طابـور أشـخاص أرادوا اسـتعارة كتـب، وأجبـت عـن استفسـارات تبـدأ مـن: «كيـف أصنـع دقيـق الـذّرة؟» إلـى «هـلّا قلـت للمـرأة هنـاك أنْ تتكلّـم بصـوت خفيـض؟ حيـن اقتـرب پول، التّالـي فـي الطّابور، كان لديـه سؤال أيضًـا. «هـل يمكنـك تنـاول الغـداء معـي؟»

نظرتـي انتقلـت إلـى قاعـة الأطفـال. پـول وأنـا يمكننـا أنْ نكـون معًـا. بِتْسـي قالـت هـذا، وتبريكاتهـا أهـم مـن تبريـكات أي راهـب.

قـرب حديقـة مونسيو، حـي رائـع معـروف بوجـود السّـفارات فيـه،

قادني پول إلى مبنى بهي حجره بهي.

«إلى أين ستأخذني؟» سألته ونحن نصعد السّلالم الرّخاميّة.

ابتسم. ابتسامة عريضة «سترين».

في الطّابق الثّاني، فتح باب شقّة أكبر من شقّة مارغريت. ستائرها المخمليّة منسدلة على كل النّوافذ. في نور الشّمس البسيط، التمعت الثريا.

همست بتعجّب: من يعيش هنا؟

- ربّما رجل أعمال غني فرّ إلى المنطقة الحرّة.

- كيف حصلت على المفتاح؟

- من صديق يمر بذات الموقف الذي نمر فيه. يلتقي فتاة هنا.

شقّة للمهام العاطفيّة!

حكّ پول أنفه بعنقي وقال: «أحبك. سأفعل أي شيء لأجلك. أي شيء».

أردت فعل هذا كثيرًا، لكنّي كنت خائفة. خائفة من أنّ هذا سيغيّر كل شيء. خائفة من وجود ألم. خائفة من أنّ المعاشرة ستربطنا ببعض إلى الأبد. وخفت من أنّها قد لا تربطنا ببعض.

قال: إنّها تجربتي الأولى أيضًا.

نظر إلى عيني منتظرًا إجابة.

داعبت وجنتيّه وقلت: «أريدك أيضًا».

ارتجفت أصابعه وهو يفتح أزرار فستاني. في تعرية جسدي قداسة. مشاهدة جسده العاري دون خوف من أحد لحظة مقدّسة أيضًا. لمس جواربي الحريريّة الطّويلة. «Que tu es belle» [أنت جميلة جدًا]، ثمّ رماني على الأريكة، واستسلمت له. أسعدني أنّ

الفاعل پول. فجأة، توقّف عقلي عن تحليل كل حركة.

استرحت بعدها على جسده وتساءلت لماذا تتجنّب الكتب ذكر هذه الجزئيّة. كان الشعور ليكون مثاليًا وصائبًا. وجودي مع پول ساحر ومهم وصائب.

حين ثار، رفعت رأسي ونظرت حولي. تساءلت إلى أين ستقودنا الرّدهة. عارية، مشيت على الأرضية التي تدفئها أشعّة الشّمس. تبعني پول. قادني الطّابق الأوّل إلى حجرة فيها مكتب مذهّب. كان رِمي ليحب مجموعة الأقلام المزخرفة التي وجدناها داخل الدّرج.

سألته: لماذا لم يأخذوا هذه الكنوز؟

فأجاب: هرب النّاس بذعر بعد اندلاع الحرب.

لم أرغب في تذكّر الأيّام المريعة. أخرجت پول من الغرفة، وتركت كلّ الأسئلة خلفي. الباب الذي عن يساري قادني إلى غرفة صغيرة ورديّة اللون، حيث نمنا على سرير زوجي. وثبنا بتردد أوّلًا، ثمّ بحماسة. قهقهنا كالأطفال. توقّف پول أوّلًا، أصبح جادًا فجأة. أحببت الطّريقة التي عاملني بها، بإعجاب في عينيْه.

بنفس منقطع، ارتميت على السّرير، وتدثّرت باللحاف، وأنا أعرف أنّه سيلحق بي في هذه الجنّة الأرضيّة. تداخلت أرجلنا، وهمس في شعري المتشابك: نحن في المنزل.

حين تركنا دفء السّرير، تزحلقنا على الأرضيّة الزّلقة إلى غرفة الجلوس، حيث ارتدينا الملابس الباقية بعجل. أراني پول ساعة جيبه، وقال: «يجب أن نعود قبل أنْ توبخك صاحبة طقم الأسنان الكبير على تأخيرك.

«عدني أنّنا سنعود» قلت له ونحن نغلق الباب.

مسّد خصلة شعر خلف أذني: كلّ يوم إذا أردت.

تباطأنا أمام المكتبة. قلت له بتوعّكك: من الأفضل أنْ أدخل. شعرت أنّ جسدي كان نائمًا واستيقظ للتّو. لاحظت كلّ إغماضة، كل تنفّس، كل نبضة قلب. تساءلت إذا كان الآخرون سيلحظون تغيّرًا فيّ.

25

أوديل

طاولة الإعارة مهملة. بورِس لا يهجر مكانه. سرت إلى قاعة القراءة حيث جلس القرّاء بلا حركة. لم يتكلّم أي شخص، ولم يقرأ أي شخص. سألت مدام سيمون إذا رأت بورِس. هزّت رأسها نفيًا، ولم تعاقبني على تأخّري خمس دقائق.

شيء ما خاطئ. هرعت إلى داخل المكتبة. قاعة المراجع خالية، وكذلك قاعة الأطفال. مكتب الآنسة ريدر مقفل. رف كتب (البعث بعد الموت) خالٍ. أخيرًا، وجدت بِتْسي في غرفة التّبديل، متكوّرة في الزّاوية.

ملت أمامها. «رِمي؟»

«لا». حدّقت إلى الأرضيّة.

- أخوك؟

نظرت إلى عيني، عيناها متوشّحتان بالحزن. «أعلنت الآنسة ريدر عن مغادرتها».

لا يعقل.

أضافت: ذهبت مع بورِس لاستصدار تأشيرتيّ سفر.

سألتها: ما سبب سفرها الآن، بعد كل هذا الوقت؟

قالت: أرسل المسؤولون عن المكتبة في نيويورك برقيّة تطلب منها مغادرة فرنسا فورًا. يعتقدون أنّ انخراط فرنسا في الحرب مسألة وقت، ويخشون إلقاء القبض عليها لأنّها أجنبيّة عدوّة.

جلستُ على الأرض إلى جانب بِتْسي. لا أستطيع تخيّل الحياة دون وجود المديرة في الغرفة المجاورة، حيث طلبت النّصيحة منها. لولاها ما تعرّفت إلى بِتْسي. قدّمت الآنسة ريدر فرصة لي لأتطوّر. لم توبخني توبيخًا قاسيًا. كانت على ثقة بأني أتعلّم دون تدخل. ماذا سأفعل دونها؟

***

بعد يوميْن، ساعدت الآنسة ريدر في حزم حقائبها. رغم يقيني أنّ سلامتها أهم من أي شيء آخر، وأنّ السّفر من صالحها، تحرّكتُ ببطء، أردت البقاء معها أطول وقت ممكن. في الدّرج، دفتر عناوين أحمر فيه بطاقات زيارة من اختيار السّفير السّويدي ودوقة ويندسور. وضعته في حقيبة أوراقها.

سألتها: ماذا ستفعلين في الولايات المتّحدة؟

أجابتني: سأعانق أهلي، وأستمع إلى ما فاتني من تفاصيل حياتهم. لم أفكّر في غير هذا. لعلّي سأعمل من جديد في مكتبة الكونغرس، أو أتقدّم بالعمل في الصّليب الأحمر.

- أتمنّى.مكتبة .. سُر مَن قرأ

- أتمنى أيضًا. الرّحيل مؤلم. أنا فخورة جدًّا بالمكتبة وبإبقائها مفتوحة. لكن حين تنقطع أخبار العالم الخارجي - من بينها أخبار أسرتك... ذرفت الآنسة ريدر الدّموع، وعادت إلى حزم مجموعة كتبها الخاص؛ كتب خاصّة أحضرتها من وطنها، وطبعات أولى وقّعها معجبون بها، وبعض الكتب الفرنسيّة.

سيذهب ريلكه هنا، ستذهب كوليت هنا، وبعد الانتهاء من الكتب هنا ستذهب الآنسة ريدر. مشاهدة رفوف كتبها خالية كان

مؤلمًا، ولهذا استدرت إلى المكتب. في الدّرج السّفلي مراسلات مخبّأة. لم يكن علي التّطفّل، خاصّة بوجود الآنسة ريدر، لكن لم أتمكّن من المقاومة حين شاهدت خطّها العريض ذا المنحنيات. كانت رسالة إلى أمّها وأبيها:

لا يستطيع المرء التّخطيط لمدة تتجاوز يومًا واحدًا، ولهذا أجهل ما يضمره المستقبل لي. أعرف رغم هذا أنّ المكتبة ستبقى مفتوحة. نقوم بعمل جبّار إذا أخذنا كلّ المعوّقات بعين الاعتبار. المهمّة عسيرة بوجود طوابير للحصول على طعام قبل الذّهاب إلى العمل، إذا وجدنا صعوبة في الحصول على شيء، بما في هذا: الملابس، والأحذية، والمواد الطّبيّة، إلخ، لا تدفئة ولا ماء ساخن، وكلّ شيء باهظ الثّمن. طوابير البشر عند المتاجر تتعس القلب. لا صابون - لا شاي - لا شيء. مثقاب الحديد يعمل -أكيد، بطريقة مؤدّبة- لكنّه قاس- قاس جدًّا...

الصّعوبات الفيزيائيّة تبدو هيّنة مقارنة بالصّعوبات التي يكابدها القلب. كالآخرين نال العاملون في المكتبة نصيبهم منها، لكن الموضوع يلامسني شخصيًا لأنّه يتعلّق بمبنى له وللعاملين فيه أهميّة عندي. في يوم ما أتمنى أنْ أخبرك القصّة.

محبّة،

دوروثي

ذكّرني الخطاب بالخطابات التي كتبتها لرِمي. مثقلة بالحقيقة البشعة للاحتلال، أخفيت تلك الرّسائل داخل الكلاسيكيّات

المهترئـة فـي رف كتبـي السّـفلي. أردت حمايتـه، بالطّريقـة التـي فعلتهـا الآنسـة ريـدر معهـا ووالديْهـا. لـم نقـل الكثيـر فـي خطاباتنـا.

قالت لي: العمل معك كان رائعًا.

- حقًّا؟

- عديني فقط بالتّفكير في كلامك قبل التّفوّه به. تحفظين نظام ديوي العشري في ذهنك، لكن إذا لم تنتقي كلماتك، ستهدرين كل ذلك العلم. لكلماتك قوّة. خاصّة في الوقت الرّاهن، في هذه الأوقات العسيرة.

- أعرف.

حين فرَغَت من حزم حقائبها، لم يبق إلّا قصاصة الورق التي كتب د. فوكس رقمه عليها. قالت: قال يمكنني مهاتفته في أي وقت، وأتمنّى ألّا أحتاج إلى ذلك.

في حفل الوداع، قدّم خدم الكونتيسة كؤوس نبيذ، لكنّنا لم نتمكن من شربها.

السّيد بريس-جونز: من سيحل محل المديرة؟

السّيد دو نيرسيات: أوديل العزيزة.

مدام سيمون وطقم أسنانها يهتز: عمرها صغير جدًّا. لن يوافق مجلس الإدارة.

السّيد بريس-جونز: لعلّهم سيعرضون الوظيفة على بورِس.

مدام سيمون: روسي في إدارة المكتبة الأمريكيّة. واجهوا الحقيقة. ستُغلق المكتبة.

الكونتيسة لتغيّر دفّة الحديث: لنشرب النّخب.

رفعنا كؤوسنا.

ابتسامة الآنسة ريدر مشرقة رغم إجهادها. «كان عملي معكم تشريفًا. أي كلمة وداع لن تعبّر عن امتناني، وحبّي العميق، واحترامي الشّديد».

«أتمنّى أنْ تتذكري الأيّام البهيجة فقط» قال بورِس وهو يُقدّم هديتنا لها؛ كرة زجاجيّة بداخلها مجسّم لبرج إيفل. هزّتها، فتطايرت قصاصات قصدير صغيرة داخله.

بعيدًا عن تجمّع المحتفلين، وقفت مع مارغريت وبِتْسي لنشاهدهم. سحبت مارغريت عقدها اللؤلؤي. لم تتمكّن من التّواصل مع عائلتها في لندن ولم تعرف ماذا فعلوا في الهجمة العسكريّة. احتضنت بِتْسي رواية إيميلي ديكنسون. بوجود الألماني الذي في شقّتها، لم تتمكّن من الهروب من الحرب في بيتها.

غدًا، ستخرج الآنسة ريدر من المنطقة المحتلّة إلى المنطقة الحرّة ثمّ إلى إسبانيا، فالبرتغال حيث ستبحر في باخرة إلى أمريكا. فكّرت في رِمي، في جوليان أخ بِتْسي، وباقي سجناء الحرب، في الآنسة وِد المرحة التي تهمتها الوحيدة أنّها ولدت في بريطانيا. السّيد ترنبل المصنّف الكندي، وهيلين وبيتر، والآن الآنسة ريدر، وعالم رحل. 823. ثمّ لم يبقَ أحد.[1]

---

(1) رواية لأجاثا كرستي. (المترجمة)

26

لِيلي

فرويد. مونتانا. أغسطس 1986

في كلّ مرّة أتأمّل فيها رفوف مكتبة أوديل، يتحدّث إلي كتاب مختلف. يبرز كتاب خفيف في بعض الأحيان، ويصرخ كتاب سميك لأقرأه في أحيان أخرى. هذا المساء، نادت إيميلي ديكنسون اسمي. أحبّت أمّي إحدى قصائدها. السّطر الذي أتذكره هو: «الأمل شيء له ريش يربض في الرّوح». داخل الكتاب الخفيف بطاقة كتب عليها «المكتبة الأمريكيّة في باريس المحدودة. 1920» وشعار يظهر شمسًا تُشرق على كتاب مفتوح. أفق واسع كالعالم. الكتاب يعلو بندقيّة، يدفنها تقريبًا؛ المعرفة أقوى من العنف. مع تقليبي الصّفحات، سقطت صورة بالأبيض والأسود.

عادت أوديل من إحضار البريد. التقطت الصّورة، وقالت: «هذه ماما، وهذا بابا، وهذا رِمي، وهذه أنا».

شارب أبيها الكثيف أوحى بصرامته. أمّها خلفه. تساءلتُ إذا كانت تشعر بالخجل. أوديل وأمّها ارتدتا فستانيْن، وارتدى أبوها ملابس رسميّة.

- هل كان أبوك رجل أعمال؟

- لا، مفتّش شرطة.

ابتسمت، وقلت: أيعرف أنّك سرقت كتابًا من مكتبة؟

لم تبتسم لي: يعرف أنّني سارقة.

رغبت حقيقة في معرفة قصدها، لكن في اللحظة التي أوشكت فيها أن أطرح السّؤال، رنّ الهاتف. عرفت أنّها إليونور قبل أنْ أسمع صوتًا عاليًا. «هل لِيلي هناك؟ أحتاج إلى مساعدتها...»

«عندي دروس كثيرة في اللغة الفرنسيّة» قلت لها في أثناء إعادتي الصّورة إلى الكتاب. لاحظت وجود صور أخرى، وتمنيت لو أقول:

- ألا يزال الطّفل ممغوصًا؟

- Mais oui [أجل]

لم ننم بهدوء منذ شهريْن. الطّفل يرفض الرّضاعة. قالت الممرضة: كلّما زاد توتّر إليونور، طال رفض بنجي للرضاعة مع وجود أبي في العمل دائمًا، اعتنيت بإليونور، ربّت على كتفها كما كنت أفعل إذا أردت مساعدة جو على التّجشّؤ.

يفصل بين الطّفليْن عام واحدٌ، ارتدى كلاهما حفاظًا قماشيًا تحت سروال بلاستيكي. أرتني إليونور طريقة تغيير الحفاظ، ثمّ رمي الغائط في المرحاض وغسل السّروال. لا أعرف سبب إصرارها على استخدام حفاظ قماشي في الوقت الذي يستخدم فيه الجميع الحفاظ ذا الاستخدام الواحد. لعلّها اعتقدت أنّ العمل المضني يعني حبًا أكثر. وجدتُ إليونور في المطبخ، الذي كان مرتفع الحرارة. وجهها تصبّب عرقًا، وبنجي كان يبكي بين ذراعيْها.

«لماذا لا يتوقّف عن الصّياح؟ هل هو خطئي؟» إليونور تذمّرت وبكت وكادت تبكي كطفل.

«هل أكلتَ اليوم؟» شممتُ لأعرف إذا كان عليّ تغيير حفاظه. رائحته عاديّة. «أو استحممت؟»

حدّقت إليّ كأنّي أتكلّم بالفارسيّة. خفقتُ ثلاث بيضات بيد واحدة وحملت بنجي باليد الأخرى. في أثناء أكلها العجّة بسرعة، مسحت أنفه بصدريته.

وصل أبي إلى المنزل، وفعل الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله. فتح المروحة ووجّهها نحو إليونور. بعد الاستماع إلى سخطها، هاتف الجدّة پيرل التي زارتنا في اليوم التّالي. «الرّائحة كريهة هنا» قالت، ثمّ وضعت صندوق ورق مقوى فيه رضاعات وحلمات مطّاطيّة على الطّاولة.

إليونور باعتراض: رضاعة صناعيّة؟ ماذا سيقول النّاس؟

أمرَتْ إليونور بأخذ قسط من الرّاحة. أخفيت ابتسامتي خلف كتابي. أمرتها الجدّة بالرّاحة، وكانت تعني أنّها تحتاج إلى الرّاحة بعيدًا عنها. ضيّقت حزام برنص استحمامها الوردي، توجّهت إلى غرفة المعيشة. أعدّت الجدّة الرضاعة. اقتربتُ من إليونور وناولتُها الحليب. «أرضعي الطّفل الآن».

- لكنّ بريندا أرضعت ابنتها رضاعة طبيعيّة.
- توقّفي عن مقارنة نفسك بشبح!
- أمّي!

Disparaître تعني احتجب، زال. تدثّرت باللغة الفرنسيّة كوشاح وذهبت لرؤية أوديل التي كانت تبحث عن شيء ما في حديقتها. وقفَت ومسحَت يديْها بمئزرها. «Bonjour, ma belle. Comment ça va?» [صباح الخير يا جميلة. كيف حالك؟]

أوديل الوحيدة التي تسأل عن حالي، أمّا الآخرون فسألوا عن حال أخويّ.

- كيف تقولين «شبح»؟
- Le fantôme
- ماذا عن «حزينة»؟ تعلّمت الكلمة قبل مدة، لكنّي أحتاج إليها الآن.
- Triste، ثمّ عانقتني وسألَت: أتبدأ المدرسة غدًا؟
- أجل. سجّلنا أنا وماري لويز في ذات المقرّرات الدّراسيّة.
- من النّعم قضاء وقتك مع صديقتك المفضّلة. لا أستطيع وصف مقدار اشتياقي إلى صديقتي.

وضَعَت الكرّاث الذي قطفته في سلّتها، بدت ملامحها triste.

- هل لديك وقت لدرس في الفرنسيّة؟

مطار: un aéroport، طائرة: un avion، نافذة طائرة: un hublot، مرافق سفر: une hôtesse de l'air. مرافق الهواء. متجاورتيّن إلى الطّاولة؛ طاولة المطبخ، كتبت الكلمات. ندرس عادة كلمات استخدامها يومي.

- لماذا تعلمينني كلمات تتعلّق بالسّفر؟
- لأنّي أريد السّفر يا عزيزتي.

حان وقت طعام العشاء، ووضعت إليونور رغيف لحم على الطّاولة، تبعتها الجدّة بيرل وهي تنتقدها: «لن يتوقّف العالم إذا غفوت. ألديك قميص آخر؟ متى غسلتِ شعرك آخر مرّة؟ أين كرامتك؟»

أكلَت الذّرة على عجل. «لذيذة!»

في لحظات كهذه، أتذكّر أنّ إليونور تكبرني بعشرة أعوام.

- وأين صديقاتك؟ لم لا يُسعفنكِ بخدمة؟

- قالت لِيلي أنّ بريندا أدّت كلّ شيء بمفردها.

- كيف تتذكّر ابنتها؟

التفتت إليونور إلى أمّها وقالت: لِيلي لا تكذب!

احمرَّ وجهي. «في الوا...»

عاجلتها الجدّة بقولها: لا أقول إنّها كاذبة، لكنّي أقول لك إنّ المرأة التي لديها ثلاثة أطفال تحتاج إلى مساعدة.

- أستطيع القيام بواجباتي دون مساعدة.

إليونور عنيدة مثل أنجل؛ أخت ماري لويز. كالعادة، جاء أبي قبل وقت طعام العشاء بدقيقتَين. أكلنا بصمت، باستثناء بنجي الذي بكى. لم تتلُ إليونور صلاة المائدة.

حمَّمَت هي والجدّة بيرل الطّفليَن، وغسلتُ الأطباق، ثمّ التقطت الألعاب من الأرض، وطويت ملابس الغسيل، وأحصيت السّاعات المتبقيّة على بدء اليوم الدّراسي. لأسبوع كامل، طبخت الجدّة وذكرت ابنتها أنّ طعام الأطفال المعلّب لم يقتل أحدًا. قبل أنّ تركب السيارة، قالت لإليونور: تعتمدين على لِيلي كثيرًا. أليس لديك أحد يساعدك غيرها؟ ماذا عن أوديل؟

كتّفت إليونور ذراعيْها، وقالت: يمكنني فعل كل شيء بمفردي، ثمّ إنّ لِيلي تُعدّ من الأسرة.

تُعدّ من الأسرة! ما عادت مساعدتي لها في تدبير المنزل تضحية فجأة. سمعت صوت ماري لويز في ذهني: إليونور تستعبدك. أهكذا تعامَل الابنة الحقيقيّة؟

***

في درس الجغرافية، تعرفنا على الصّين حيث تأمر الحكومة الأزواج بإنجاب طفل واحد. بعد رؤية إجهاد إليونور، وجدت أنّ الفكرة مقبولة. «ليس للفتيات أهميّة في الصّين. الآباء يريدون أبناء لمساعدتهم في الحقول». ثرثرت الآنسة وايت دون أنْ تنتبه إلى أنّ مجتمعاتنا الرّيفيّة تفكّر بذات الطّريقة.

همست ماري لويز: هل لاحظت أنّنا كلّما درسنا عن الدّول الشيوعيّة علّمونا أنّها دول شنيعة؟

- أجل، كأنّ فرويد عظيم جدًّا.

في الصّين، كانت أسرتي لتكتفي بي. كان أبي ليسمح لي بتعلّم القيادة لو كنت صبيًّا. كنت لأرحل. مع استمرار ثرثرة المعلّمة حنيت رأسي للحظة، لامس خدّاي المكتب البارد. منزلي هو الصّين. تخيّلت الاستحمام فيها، تخيّلت أبي وإليونور ممسكَيْن بكتفيّ ويغطسان جسدي تحت الماء، تخيّلت الحياة تخرج ببطء منّي.

لِيلي؟ ربّتت ماري لويز على ظهري.

استيقظت. توجّه الطّلبة نحو الباب.

هل سمعتِ الجرس؟

تثاءبت وغطيت فمي وشعرت بلعاب على ذقني.

قالت تيفاني إڤرس وهي خارجة من الفصل: تتخيّل روبي.

تمنيت أنّ روبي لم يرني على هذه الحال.

قالت ماري لويز: تجاهليها. أتريدين المجيء؟

إليونور تحتاج إليّ لأجلس مع الأطفال.

ماذا عن يوم الجمعة؟ اقضيه معنا كما اعتدتِ أنْ تفعلي.

أود، لكنّي لا أستطيع فعلًا.

سرت إلى المنزل متمهّلة متأنيّة. تحتاج الحفاظات إلى تغيير، والألعاب متناثرة كألغام. بنجي يبكي، bien sûr [لا شك]. على طاولة المطبخ، في قميصها القذر الذي ارتدته طوال الأسبوع. جو يتذمّر عند قدميْها. هدأته قبل أنْ يهاجم الأطباق القذرة.

«لستُ مجبرة على المساعدة» اعترضت بوهن. لِيلي من العائلة. عقّمت الأشياء التي تحتاج إلى تعقيم. وهزهزت بنجي حتّى نام. شَهَق حتّى في نومه. أعطيته لإليونور، ثمّ هرعت إلى منزل أوديل لدرس سريع في الفرنسيّة.

كم أحبّ الهدوء هناك؛ لا أطفال يصيحون. كلّ شيء في مكانه. الجرائد مطويّة في سلّة إلى جانب الكرسي. كتبنا مصفوفة حسب نظام (أوديل ولِيلي) العشري. صور زوجها وابنها الصّغيرة في براويز.

- حدّثيني عن السّيد غوستافسون.

«بَكْ؟» حدّقت إليّ كأنّها لم تفكّر فيه منذ زمن طويل ولم تعرف من أقصد. «رجل خلوق، ووسيم جريء، وله لحية خفيفة على وجنتيه المحمرّتيْن. أحبَّ الصّيد ومنه تحصّل على لقبه. قتل غزاله الأوّل؛ الذي له قرنان بست قرون صغيرة متشعّبة، حين كان في العاشرة من عمره. على جيفته تشاجرنا أوّل مرّة. أراد بَك الاحتفاظ برأس ذلك الحيوان المسكين على إطار المدفأة، ولم أرده في محيطي».

- ومن غلب الآخر؟

- في الواقع، كان هذا الدّرس الأوّل الذي تعلّمته في بداية زواجي.

قامت من المائدة إلى حوض غسيل الأطباق. «أحيانًا إذا انتصرتِ، تخسرين. تخلّصت من الرّأس، وأخذه عامل النّظافة حين كان بَك في عمله. استمر غضبه زمنًا طويلًا.

- أوه!

- أوه! بالفعل.

وضعَتْ الأطباق في الخزانة.

- ما الأمر الذي أحببتما فعله معًا؟

- تربية ابننا.

- وبعد رحيله؟

التفتت إلي: لا توجد صفات مشتركة كثيرة بيننا. كان يعشق حضور مباريات كرة القدم، وكنت أحب القراءة، لكنّنا أحببنا المشي الخفيف. كان شاعريًا. فتح الأبواب لي، وأمسك بيدي دائمًا. في بعض الليالي، كنّا نذهب للعب على الأرجوحة كطفليْن.

هذا أكثر ما قالته عن حياتها، فالتزمتُ الصّمت على أمل استرسالها في الكلام. قالت:

- بعد وفاته، تبرّعتُ بأغلب أشيائه إلى اللجان الخيريّة؛ أدواته، شاحنته. لكنني احتفظت ببندقيّته. احتجت إلى الاحتفاظ بشيء مهم بالنّسبة إليه.

رنّ الهاتف. إليونور مرّة أخرى. توجّهت إلى المنزل. بعد طبخ العشاء والتّنظيف، نمت في سريري دون خلع بنطال الجينز من فرط التّعب. على أي حال، لا مقارنة بين الحساب والدّرس

الذي تعلمته من أوديل: الحبُّ هو تقبّل الطّرف الآخر، بمحاسنه ونقائصه، حتّى وإن لم تفهمها.

***

عادت إليونور من لقاء الآباء بالمعلمين الخريفي، فصفَقَت الباب الخلفي. «لِيلي؟» صرخَت. «أين أنتِ؟»

في غرفة المعيشة، أراقب الصّبيّين. أين سأكون يعني. جو جالس في حضني يلعب بخصلات شعري، أمّا بنجي فمستلقٍ على البطّانيّة التي أحيكها ولاحظ قدميْه أوّل مرّة. دخلت إليونور، وقالت: قالت الآنسة أنّك نمت في الفصل. صوّرَتْ الأمر كأنّي المخطئة. لست أمًّا سيّئة! لماذا لا تعدّين العشاء حين أرضع بنجي؟

خلعَت قميصها فظهر بطنها المتدلّي الذي عليه علامات التمدد البيضاء كخيوط عنكبوت. دلفت إلى المطبخ قبل أنْ تخلع صدريتها. رؤية جزء واحد من جسدها كاف. تمنيت لو أنّها تثق بي بدرجة أقل. كما تمنيت لو أنّها تعود إلى ممارسة التّمارين الرّياضيّة والحديث مع أوديل، لكنّها أمضت معظم وقتها في صنع طعام الطّفليْن في المنزل والبكاء عند حوض غسيل الأطباق. قالت لها أوديل في أحد الأيّام: أنت أم ولكنّك امرأة أيضًا. بدا لي أنّ إليونور قد تخلّت عن شخصيتها السّابقة نهائيًّا.

تدريجيًا، توقّفتُ عن حل الواجبات والخروج مع ماري لويز، حتّى دروس اللغة الفرنسيّة fini [انتهت]. إليونور تحتاج إليّ. كانت تجلس وتتأمّل الحائط أحيانًا، فأقول لها: «ألا تريدين حمل بنجي؟» أو «انظري، إليونور، أسنان جو بدأت تبرز» لكنّها بالكاد تومئ رأسها.

حين استلمتُ شهادتي الدّراسيّة، أدركت مقدار تردي الوضع. الحساب: جيّد، الإنجليزي: جيّد جدًّا منخفض، العلوم: جيّد منخفض، التّاريخ: جيّد منخفض. «ماذا حدث؟» كتب السّيد موريارتي بالحبر الأحمر. عدت إلى المنزل. مثل إليونور، خشيت التّخلي عن شخصيتي السّابقة.

«لِيلي؟» قالت أوديل من صالتها.

واصلت المشي.

«لِيلي، ماذا حدث؟» قادتني إلى منزلها ونظرت إلى الشّهادة.

- يا إلهي!

- يجب أنْ أذهب. إليونور تحتاج إلى مساعدتي.

- رائحة الشّوكولاتة تملأ المكان. أخرجت أوديل صينيّة فيها بسكويت. جلست على الأريكة، فتاته على ملابسي، التهمتها دون التّلذّذ بها.

- شاهدتني بحزن. «ما الذي يحدث في المنزل؟»

- Rien [لا شيء]. لم أرغب في التّذمّر.

- عليك الدّفاع عن نفسك.

- ألا يمكنك الحديث معهم؟

- لن يساعدك هذا على المدى الطّويل. يجب أنْ تتعلّمي فن التّفاوض.

- كأنّهم سيستمعون إلي.

- كلّميهم.

طبق كامل لإليونور.

- أخبري أباكِ بشعورك.

- لن يهتم.

- دعيه يهتم.

- كيف؟

- ماذا يريد؟

فكّرت في السّؤال. «أنْ يُترك بسلام».

- ماذا يُريد لكِ؟

أرادت أمّي أنْ أدرس في الجامعة. حين أوشكَت أن تبدأ الدّراسة الجامعيّة، تزوَّجَت. لا أعرف مخطّطات أبي لي. مستحيل أنْ أسأله، على الأقل ليس في المنزل، حيث تتفرّد إليونور والصّبيّيْن بكل الاهتمام. «ربّما... ربّما يمكنني الذّهاب إلى مكتبه، لكنّه قد يكون غاضبًا».

- وقد لا يكون. حاولي.

***

في صباح اليوم التّالي، ارتديت ملابسي بعناية كما أفعل إذا قصدت إلى الكنيسة. ماذا سأقول لأبي؟ ثمانية مربعات سكنيّة إلى المصرف، ركضت على أمل ألّا يُبلغ أي شخص عن غيابي عن المدرسة. شاهدني السّيد إڤرس أركض خارج مكتب أبي، فقهقه وقال إنّ الأمر طارئ حتمًا.

خرج أبي متوترًا. سألني عند عدم وجودي في المدرسة. سأل مرتعبًا: «هل حدث شيء للصّبيّيْن؟»

طبعًا. سيسأل عن الصّبيّيْن.

«لِيلي هنا من أجل حديث خاص مع أبيها» ضحك السّيد، لكنّ أبي لم يضحك. منحرجًا، أجلسني على كرسي في مكتبه.

- قـال: يجـب أنْ يكـون هـذا مهمًّـا، ثـمّ كتّـف ذراعيْـه علـى مكتبـه الضّخـم.

- أنا... أنا

- ما الأمر؟

غضبـه سـهّل المهمّـة، فقلـت لـه: أشـتاق إلـى تعلّـم الفرنسـيّة، ومقابلـة مـاري لويـز، وحـل واجباتـي، والقـراءة. سـئمت مـن الحفاظات القـذرة.

- إلينور تحتاج إلى مساعدتك.

- ألا يـرى أحـد غيـري أنّ كل مـا تفعلـه هـو البـكاء؟ تحتـاج إلـى مسـاعدة تفـوق مسـاعدتي لهـا.

- ستكون بخير.

- ربّما تحتاج إلى طبيب نفسي.

- الأطبّاء النفسيّون للأشخاص المجانين.

- للأشخاص المكتئبين.

- يجب أنْ تبذلي جهدًا أكبر في المساعدة.

- ماذا عنك؟ إنّهما ابناك.

- أنا أعمل هنا.

- وتحتاج إلى العمل في المنزل.

وضعت شهادتي على مكتبه، ثم أضفت:

- حتّـى بعـد وفـاة أمّـي تفوّقـت مـع مرتبـة الشّـرف. لعلّـك لا تواجـه مشـكلة فـي عملـي مربّيـة أطفـال، لكـن أمّـي كانـت لترفـض هـذا.

أرجع رأسه إلى الوراء كأنّي صفعته بالحقيقة.

- تسرّني المساعدة. فعلًا، لكنّي أريد دروس الفرنسيّة. أريد الدّراسة في الجامعة.

أشار إلى الباب كأنّي مقترضة رُفض طلب اقتراضها.

- سأوصلك إلى المدرسة.

لم نتكلّم. حدّقت خارج النّافذة، وتمنيت لو أنّها نافذة طائرة، أنّ أوديل على حق وسأسافر. من عادة أبي العودة إلى المنزل عند السّادسة إلّا عشر دقائق، قبل العشاء بقليل. تأخّر اليوم لأوّل مرّة. سألتني إليونور إذا أردت الأكل، فوافقت. وضعنا الدّجاجة في الفرن. على المائدة، جلس جو في حضني، وبنجي الذي توقّف عن البكاء بأعجوبة في حضن إليونور. استحم الطّفلان عند السّابعة دائمًا، لكنّنا اليوم ننتظر أبي. في لحظة السّلام البسيطة تلك، سألتني إليونور سؤالًا من عادتها أنْ تسأله لأبي: كيف كان يومك يا عزيزتي؟

- ذهبت إلى المصرف.

- المصرف؟ قالت باستغراب كأنّها نسيت أنّ في منطقتنا مصرفًا.

- «كنت بحاجة إلـ...» إلى ماذا احتجت؟ نظرت إليونور إليّ باهتمام شديد، مصغية كما لم تفعل من قبل. «احتجت إلى الحديث مع أبي عن الجامعة».

ضحكت بطريقة غريبة، ثمّ قالت: على الأقل إحدانا تمتلك شجاعة قول ما تريد.

شممت رائحة. سألتها: هل تشمّين رائحة؟

وضعت بنجي بين ذراعي، فهرعت إلى المطبخ. تبعتها. دخان ينبعث من الفرن.

- أَسْتسلم. قالت إليونور بنحيب في أثناء إخراج الصّينيّة المحروقة. دخل أبي حاملًا حقيبة أوراقه. إنّها الثّامنة مساء؛ وقت يعادل منتصف الليل في بلاد أخرى.

- ولا مكالمة تخبرنا فيها عن تأخيرك؟ صرخت إليونور، ورمت الدّجاجة المحروقة عليه. رفع حقيبته أمام وجهه ليتفاداها. قُذفت الدّجاجة على الجدار، ثمّ سقطت عند قدميْه.

كنت فخورة بإليونور التي قالت لأبي:

- تجعلني أقوم بكلّ شيء.

حملت الطّفليْن إلى غرفتهما.

- لا تجلس في المنزل نهائيًّا. هل أنت هناك مع بريندا أم هنا معي؟

بريندا. لم أسمع اسمها منذ مدة طويلة. بهمس ناجيتها: أمي، كم أشتاق إليكِ.

- لماذا أنتِ حزينة؟ سألني جو. لمست شعره؛ ناعم كريش صوص.

تمتم أبي بكلمات لطيفة، لكنّ إليونور لم تكترث وصرخت: ماذا تقصد؟ أُكلّف نفسي فوق طاقتها؟ حين اشتريت الحفاظات العاديّة، أخبرتني أنّها كانت تستخدم القماش. لن أصل إلى مستوى القدّيسة بريندا!

صرخ عليها: لم توجد خيارات أخرى في ذلك الزّمن. لم أقل إنّ عليك استخدام القماش. كنت أتذكّر اختلاف الأمور آنذاك. لا داعي للقيام بكل شيء بمفردك. النّاس يحاولون مدّ يد العون، فلا توسّخي أيديهم.

صمت.

قالت له: الشّخص الذي أريد المساعدة منه هو أنت.

حين أخبرتُ أوديل أنّ أبي قد قرّر أخذ إجازة في أيّام السّبت للمساهمة في العناية بالطّفليّن، وأنّ إليونور اشترت كميات كبيرة من الحفاظات الجديدة، قالت: أترين فائدة الدّفاع عن نفسك؟ لا يوجد حل دائمًا، لكن بالمحاولة ستتأكدين من وجود حل أم لا.

- لا أعتقد أنّ السبب هو ذهابي إلى مكتبه. أخبرت أوديل عن الدّجاجة الطّائرة.

صفّقت أوديل. يبدو أنّك شجّعت أوديل على الحديث أيضًا. أحسنتِ صنعًا!

بما أنّي الآن أحظى بوقت لا يقاطعني فيه أحد مع أوديل، أخرجت الكتاب مع الصّور أيضًا. على أريكتها، نظرنا إلى صورة أسرتها. «كم أفتقدهم» قالت وهي تنتقل إلى الصّورة الأخرى التي فيها امرأة شعرها أسود جميل وترتدي فستانًا منقّطًا. ابتسمت أوديل كما لو أنّها التقت صديقة. «إنّها الآنسة ريدر. كانت مديرة المكتبة، وأكثر امرأة أعجبت بها».

في الصّورة التّالية، سيّدة ترتدي توربان، وتتحدّث مع ضابط يرتدي نظارة طبيّة ويرتدي ربطة عليها شعار النّازيّة.

«لا فائدة من الحديث عن الماضي» قالت أوديل بنبرة قاسية كوجهها. أعادت الصّور إلى الكتاب.

لماذا تحتفظ بصورة شخص انتماؤه نازي؟ سألتها:

- أكنت تعرفين نازيًّا؟

- د. فوكس جاء إلى المكتبة.

لا أتخيّل النّازيين إلّا وهم يقتلون النّاس في مخيّمات الاعتقال، لا وهم يستعيرون الكتب. بدا أنّها تعرف اسمه.

أوضحت أوديل: احتُلّت باريس. عجزنا عن تجنّبهم، ولم يرغب كلّ النّاس في تحاشيهم. أطلق عليه النّازيّون اسم «حامي المكتبة».

- هل أنقذ الكتب؟

- المسألة معقّدة.

تذكّرت ما تعلّمته في المدرسة. «معلمة التّاريخ قالت إنّ الأوروبيّين كانوا على علم بوجود المعتقلات. قالت إنّ وجودها كان واضحًا».

- علمت بوجودها بعد الحرب. كانت أسرتي تصارع للبقاء على قيد الحياة آنذاك. قلقت على أصدقائي وزملائي الإنجليزيين الذين اعتقلوا لأنّهم «أعداء». رغم أنّ اليهود قد حرموا من المكتبات، لم يخطر على بالي أنّهم سيُعتقلون أيضًا، وسيقتل كثيرٌ منهم..

سكتت أوديل زمنًا طويلًا.

- هل أزعجك سؤالي؟

- Mais non. اعذريني، غرقت في ذكرياتي. خلال الحرب، أوصلنا نحن أمناء المكتبة الكتب إلى الأصدقاء الفرنسيين. أطلقت الشّرطة السّريّة النّازيّة النّار على أحد زملائي.

قتلوا أمين مكتبة؟ أليس هذا كقتل طبيب؟ سألتها:

- هل قتلوا الآنسة ريدر؟

- كانت قد سافرت في ذلك الوقت. اعتقل النّازيّون مجموعة أمناء مكتبة، من بينهم مدير المكتبة الوطنيّة. خشينا أنْ تكون

الآنسة ريدر التّالية. فُطر قلبي حين غادرت، لكنّ الوداع حياة في بعض الأحيان. فقدان الآخر لا مفرّ منه.

ندمت على تطفّلي؛ زادتني صور أوديل حزنًا. قرَصت وجنتيّ بلطف، ثمّ قالت: قد تأتي الخيرات من التّغييرات أحيانًا.

باريس
1 ديسمبر 1941

حضرة المُفتّش،

أكتب إليك لأُعلمَك أنّ الأعداء في المكتبة الأمريكيّة أكثر من الأعداء الموجودين في معسكر الاعتقال.

ابدأ بالأمريكيّة كلارا دي شامبرون. وقتها الذي تقضيه في المكتبة أكثر من وقتها الذي تقضيه في بيتها كما تفعل الزّوجات الصّالحات. إنّها تكرّس نهاراتها لتوفير التّمويل المادي من أعيان المجتمع لضمان استمرار عمل المكتبة. لا أخالها تعلن عمّا جمعت من مال.

لا تحب الألمان (أو الهمج كما تسميهم) ولا تلتزم قوانينهم. كونها كونتيسة لا يعني تجاوزها القانون. أظنها تُهرّب الكتب لأصدقائها اليهود. لا نعلّم ما خططها في المستقبل. إنّها في غاية الغموض.

زُرها وستكتشف الحقيقة بنفسك. ستعرف أنّها تحسب نفسها فوق القانون.

التّوقيع،

العارف

27

أوديل

باريس. ديسمبر 1941

كلارا دي شامبرون هي مديرتنا الجديدة. ساهمت في تأسيس المكتبة الأمريكيّة في باريس عام 1920، وأصبحت مموّلة أساسيّة للمكتبة بمساهمة من إيديث وارتون وآن مورغان أيضًا. ألّفت كتبًا عن شكسبير، وترجمت مسرحيّاته إلى الفرنسيّة. تعاملت مع ذات النّاشر الذي نشر أعمال همنغوي. حديثًا -خلال الأشهر الماضية- بحثت عن متبرعين لتوفير التّكاليف بدءًا من الفحم إلى الأجور، كما كتبت رسائل خاطبت فيها السّلطات الفرنسيّة لمنعهم من إجبار بورِس والحارس من العمل في ألمانيا لتنفيذ خطّة نقل الحكم. خشيت اعتقالها.

إلى طاولة الاستعارة، كلّمت مارغريت وبورِس في أثناء ختم المجلّة التي استعارتها مدام سيمون. قال إنّ كلارا قد تزوّجت الكونت ألدبرت دو شامبرن -لواء فرنسي- عام 1901. تحمل جنسيّة بلديْن، ولن تُعتبر عدوّة.

دخل السّيد دو نورسيات فجأة، فوقف السّيد بريس-جونز.

- فجّر الكاميكازي بيرل هاربر.

اجتمعنا حوله.

مارغريت: من هو الكاماكازي؟ وأين تقع بيرل هاربر؟

السّيد بريس-جونز: قصفت اليابان قاعدة بيرل هاربر الأمريكيّة العسكريّة.

سألت: أيعني هذا أنّ الولايات المتّحدة ستدخل الحرب؟ شعرتُ بأنّ هناك بصيص أمل لهزيمة ألمانيا.

السّيد دو نيرسيات: نعتقد هذا.

قلت: سيبطش الأمريكيّون بالألمانيين.

مارغريت: لن يفعلوا أكثر ممّا فعله الجيش الفرنسي.

أرخيت رأسي إلى الخلف. كيف تجرأت مارغريت على انتقاد جنود مثل رِمي في الوقت الذي هربت فيه من باريس؟ قلت: هروب البريطانيين أسرع حتمًا.

تبادلنا النّظرات، وانتظرت اعتذارها.

قالت: يجب ألّا نتكلّم في السّياسة، أليس كذلك؟

حيّتني، ولم تعتذر. حاولت كظم غيظي. لم تقصد أنْ تكون غير لبقة. درءًا لنفسي من التّفوّه بما لا تحمد عقباه، هرعت إلى الآلة الكاتبة في الغرفة الخلفيّة، على أمل أنّ كتابة نشرة الأخبار ستشغل ذهني. قبل الاحتلال كنت أطبع خمسمئة نسخة باستخدام آلة النّسخ، لكن مع شح الورق، صرت أثبّت ورقة واحدة على لوح الإعلانات في المكتبة.

جلس السّيد بريس-جونز على كرسي إلى جانبي، ثمّ قال: لاحظنا خروجك من قاعة القراءة.

أشرت إلى حبر آلة الكتابة، وقلت: إنّه قديم جدًا. الطّباعة تزداد بهتًا.

- علمت أنّك تحاولين التّحكم في غضبك. كلام مارغريت عن الجيش الفرنسي لم يكن لطيفًا.

- أعرف أنّها لا تقصده، لكنّه مؤلم.

وضعت أصابعي على حروف: ر، ي، م، ي.

- أشتاق إلى أخي كثيرًا، ومتيقنة من أنّه قاتل بكل ما أوتي من قوّة.

- مارغريت تعرف هذا أيضًا. تتكلّم دون انتقاء لكلماتها أحيانًا.

- كلّنا نفعل هذا.

أحتاج إلى شخص أقابله لنشرة هذا الشّهر. سألته: أي نوع من القرّاء أنت؟ ما هي أقرب الكتب إلى قلبك؟

- فعلًا؟

ملت إليه. هل سيعترف بقراءة روايات شائنة؟

- قبل أسبوع واحد تخلّيت عن كل كتبي.

- ماذا؟

التّخلّي عن الكتب كالتّوقف عن التّنفس.

- نلت كفايتي من سوفوكليس، وأرسطو، وملفل، وهوثورن، والكتب الجامعيّة المقرّر دراستها، أو تلك التي أهداني إيّاها زملاء. قضيت وقتًا كافيًا في الماضي. أريد قضاء الوقت في الزّمن المعاصر؛ فرنسيس سكوت فيتزجيرالد، نانسي ميتفورد، لانغستون هيوز.

- ماذا فعلتِ بكتبك؟

- أهديتها للبروفسورة كوهِن بعد نهب كتبها. سرقة الكتب تشبه استباحة القبور.

شعرت بالحقيقة رغم أنّ السّيد بويس-جونز صوّر أنّه قد تخلّى عن كتبه التي جمعها طوال عمره برضى. فارق كتبه لأنّ البروفسورة قد أُجبرت على التّخلي عن كتبها. ذكّرت نفسي أنّ في

العالم مشكلات وأوجاع أكبر، لكنّ ما زلت غاضبة من مارغريت.

بريد السّجناء

12 ديسمبر 1941

أوديل العزيزة،

أتعلمين أنّي ألاحظ ما تتجنبين الكتابة عنه في رسائلك؟ لم تتذمّري من بابا منذ زمن طويل، وبالكاد تذكرين پول. لعلّك تعتقدين أنّ عليك عدم الكتابة عنه لأنّ بِتْسي بعيدة عنّي. أنت مخطئة. أريد أنْ أعرف عن نوبات غضب أبي، وأحاديث أمّي. أريد أنْ أعرف أنّك تعشقين. أخبريني عن شعورك، لا ما تشعرين أنّ عليّ معرفته. أحتاج إلى صدقك معي كما أحتاج إلى حبّك. معرفة القليل عنك، وشعوري بأنّك تحجبين شيئًا عنّي يقتلانني. لسنا معًا في ذات المكان، لكن لا داعي للفجوة المعنويّة. تتردّد بِتْسي في الكتابة لي، وأنا كذلك. أريد أنْ أحميكِ. لا أريدك أنْ تعرفي بعض الأمور. لكن أريدك أن تكوني على علم في ذات الوقت.

الحال صعبٌ هنا. نحن جوعى، وثكلى. رؤوسنا مُنكّسة، وثيابنا مُهلهلة. طال بعدنا عن الوطن. نخشى نسيان خطيباتنا لنا. ننتحب حين نتذكّر أنّ لا أحد يسمعنا. كلمة «سجين» الرّديفة لمجرم تزعجنا. جريمتنا هي الذّودُ عن مبادئنا ووطننا. الأسلاك الشّائكة في مرمى بصرنا دائمًا.

محبّة،

رِمي

20 ديسمبر 1941

رِمي العزيز،

سأحاول الكتابة عن كل شيء. هربنا أنا وبول من مراقبة أمّي. وجدنا لتلاقينا شقّة مهجورة. زيّنا المكان بكتبي ورسوماته لبريتاني. لا توجد تدفئة، ومرض كلانا، لكنّ الأمر يستحق! لم أعتقد أنّي سأجد إثارة تتفوّق على قراءة الكتب.

الآن، بما أنّ ألمانيا أعلنت الحرب على الولايات المتّحدة، والأمريكيّون في فرنسا يُعدّون أعداء، أخشى إغلاق المكتبة. يحاول طاقم العمل التّظاهر بأنّ الأمور على خير ما يرام، لكنّنا منهكون وخائفون. نتحرّك مثل ألعاب لها مقبض يُحركها. أغضب أحيانًا بلا سبب. أجد صعوبة في التّفكير في بعض الأحيان.

على أي حال، عليّ الاستعداد لاحتفال عيد الميلاد. قالت الكونتيسة إنّ بإمكاننا إحضار أقاربنا من الدّرجة الأولى، ولهذا دعوت أمّي، و«الخالة» يوجين. لا يستطيع أبي الحضور لأنّ لديه اجتماعات. لا أتذمّر منه لأنّ وجوده نادر في المنزل.

محبّة،

أوديل

رائحة النّبيذ الذي أحضره بورِس انتشرت في المكتبة. الكستناء يُشوى في المدفأة. ساعدت بِتْسي الأطفال على قص الفهارس القديمة لصنع زينة لشجرة التّنوب. أنا ومارغريت أحضرنا الشّرائط الحمراء من الخزانة وزيّنا قاعة القراءة.

قالت: شقّتي باردة. يمكنني استخدام بعض هذه الكتب المهترئة للموقد.

دون تفكير، سحب رواية وقرّبتها إلى صدري. الموت بردًا أحبُّ إلى قلبي من حرق الكتب. عدد كبير من هذه الكتب أُرسل إلى جنود الحرب العظمى من أمريكا. قُرئت في الخنادق والمستشفيات. قصصها بعثت السّلوان في قلوبهم.

مارغريت: أمزح. تعرفين هذا صحيح؟

أنا: أعلم.

ومع هذا، جملتها عوراء. قصدت إلى زاوية بعيدة، حاملة صورة دوريان غري. 823. شممت رائحة الكتاب العتيق، وتخيّلت أنّها رائحة بارود وطين من الخنادق. كلّما فتحت كتابًا، آمنت بأنّي أعتقت روح جندي. ناجيت نفسي: اذهب يا صديقي القديم. أنت بأمان. أنت في منزلك.

«أتكلّمين نفسك؟» شاكستني بِتْسي، أمّي ويوجين ترافقها.

ماما: إذن هذا مكان عملك؟ ليس كئيبًا كما تصوّرت.

قهقهت يوجين، وربّتت أمّي على ذراعها بلطف.

جلب كل من حضر طعامًا شهيًا معه، إمّا من السّوق السّوداء وإما من أقارب في الرّيف. جبن كامامبير الفرنسي. سلّة برتقال. قدّمت يوجين طبق كبدة دسمة (فوا غرا) أعدّته مع أمّي من كبدة الإوزّة التي أحضرها پول من بريتاني.

عمّ المكان الصّمت عندما دخلت الكونتيسة برفقة زوجها الذي غزا الشّيب مفرقه ويرتدي بدلة رسميّة. حتّى دون الأوسمة على صدره كان واضحًا من مشيته - مستقيم الظّهر، يتفحّص

الحاضرين كأنّهم جنوده - إنّه لواء.

قرب طاولة المرطّبات، تكلّمت مدام سيمون مع كلارا دي شامبرون بإسهاب عن طريقتها في ارتداء التّربان. نظرت الكونتيسة نظرة «أنقذني حالًا» لزوجها، وبخضوع جاءها.

السّيد بريس-جونز: إنّه يتحكّم في جنود من قارتيْن.

دو نورسيات: لا شكّ لديّ فيمن يملك زمام السّيطرة الآن.

- التقى اللواء لمعركته.

- معركته؟ لقد تزوجها.

قادني پول إلى رف الكتب المفضّل عندي. 832. حيث انضممنا إلى كاثي وهيثكلاف، جين آير والسّيد روشستر. نظرت إلى شفتيْه الحمراويْن من أثر الخمر. ركع على ركبته أمامي، وقال: أنتِ المرأة المنشودة. أوّل وجه أريد رؤيته إذا استيقظت من نومي. المرأة التي أريد تقبيلها ليلًا. كل كلامك يثير اهتمامي. أحبّ سماع صوت تكسّر أوراق الأشجار في الخريف تحت قدميْك، تصحيح معلومات مستعير للكتب، الرّواية التي تقرئينها ليلًا. يمكنني أن أخبرك عن أفكاري الخاصّة، وكتبي المفضّلة. أقصى رغبتي استمرار حواراتنا. هلّا تزوجتني؟

طلب الزّواج هذا يشبه رواية مثاليّة؛ نهايتها حتميّة ومفاجئة بعض الشّيء. من قاعة القراءة، سمعت أمّي تسأل: أين ذهبا؟ أجابتها يوجين: أوه، لمرّة واحدة، امنحيهما الحريّة.

همسْت: أتمنّى لو كنّا في الشّقة. في حجرتنا الورديّة.

- أحب أنْ أكون معك وحيديْن، لكن...

- لكن ماذا؟

تحرّكت تفاحة آدم في رقبته بتوتّر. «علينا ألّا نتواعد سرًّا. تصرف غير سليم. لا أعرف كم يمكنني...

- لن يكتشف أبي.
- لماذا تربطين كل الأحداث بأبيكِ.
- لم أفعل!
- لنتجنّب الشّجار.

لمست وجهه، ولاحظت تأثيرات الحرب على ملامحه؛ السواد تحت عينيّه. الخطوط حول فمه. تغيّر كثيرًا. أردت الرّوتين؛ عملي في المكتبة، مواعيد بعد الظّهيرة.

قال: أنت من تعينينني على الصّمود في الحرب، وعلى أداء مهام عملي. أريد أنْ نكون معًا.

- سنكون معًا يا حبيبي. بعد إطلاق سراح رِمي.
- جلست على ركبتي. بدأ پول يقول أمرًا ما، ربّما أحبّك، ربّما لا أريد الانتظار، لكنّي قبّلته فضاعت كلماته. قرّبني من صدره. يداي تحت جاكيته، تحت سترته، تحت قميصه، إلى حرارة جلده. سمعنا أصوات الأصدقاء يغنون: ليلة صامتة». تماهينا أنا وپول في بعضنا. أغمضنا أعيننا عن كلّ شيء باستثناء حبّنا.

* * *

واصلت أسرتي إحصاء الأيّام منذ أسر رِمي. 1941 أصبحت 1942.

12 يناير: رِمي العزيز، لم أخبر أحدًا غيرك. طلب پول الزّواج بي! سنقيم حفل الزّفاف إذا عدت إلى المنزل.

20 فبراير: أوديل العزيزة، لا تنتظريني. افرحي الآن.

19 مارس: رِمي العزيز، لا نملك أنا ومارغريت جوارب، فوضعنا مسحوق تجميل بلون بيج على أقدامنا. تقول بِتّسي إنّنا فقدنا صوابنا.

5 أبريل: أوديل العزيزة، بِتّسي على حق! أشكرك على الكتاب. كيف عرفتِ أنّي أريد قراءة رواية لغي دي موباسان؟

اسم كل شخص موثّق؛ ربّات البيوت للتّموين، الأجانب واليهود عند الشّرطة. رغم أنّ السّيد بريس-جونز يوقّع اسمه أسبوعيًا في مركز الشّرطة، لم تفعل مارغريت هذا ولا مرّة. كتابات على جدران المباني، شاهدت حرف النّون؛ نصرٌ على النّازيّة، لكنّي شاهدت أيضًا «سحقًا لليهود». المارشال بيتان بطل الحرب العالميّة الأولى الذي عيّن رئيسًا للبلد قد غيّر شعار فرنسا الوطني من: «حريّة، مساواة، أخوّة» إلى: «عمل، أسرة، وطن».

مشيت مع پول تحت ظلال أشجار الشانزليزيه. مررنا بمقاهٍ مزدحمة بالنّازيين وصديقاتهن. الجنود يشترون البيرة، والأساور ذات السّعر الزّهيد، ومُورّد الوجنتين. أرادوا نسيان الحرب عبر مصاحبة الباريسيّات الجميلات الوحيدات.

لم ألم الفتيات. هل هناك فتاة في الثّامنة عشرة من عمرها ولا تتوق إلى الرّقص؟ أمّا الأمّهات الثّلاثينيّات فكن يحتجن إلى من يشتري حاجاتهن. قُتل أو اعتقل أزواجهن. تمتّعت النّساء بحيواتهن قدر المستطاع. شعرت أنّي رثّة الملابس مقارنة بهن. كنت أقرص وجنتيّ لتلوينهما، وأُذكّر نفسي: في البساطة رفعة.

پول: أحلم بتقديم قطعة جواهر لكِ. عجزي عن هذا يُشعرني بالإهانة!

- لا يرتبط شعوري نحوك بالحُلي.
- إنّهن مومسات...
- لا تكن فظًّا!
- يجب أنْ يخجلن من أنفسهن. يرتمين في أحضان الألمان، يحاولن الانتفاع من العدو. أودُّ تلقينهن درسًا لن ينسينه.

اقتربَ پول من الجنود والفتيات. صكّ على أسنانه وأحكم قبض يده. خفت منه لأوّل مرّة. سحبته من ذراعه وقلت له: لا تتشاجر. المسألة لا تستحق.

***

أصبح من الصّعب تفادي الجنود. يقفون عند مقاهينا المفضّلة، وضعوا المزيد من نقاط التّفتيش في شوارعنا. التّنبّؤ بأماكنهم صعب. في طريقي إلى مونتارتر لتوصيل كتب علميّة للدكتور سانجر، مررت بحاجز معدني لم يكن موجودًا أمس. سحب أحد الجنود حقيبتي، فرمى محتوياتها على الأرض. نكصت فزعًا مع ارتطام الكتب الثّقيلة بالأرض. رفع أحدها وقلّب صفحاته. لعلّه كان يبحث عن رسائل مشفّرة أو خنجر مخبأ في جلدة الكتاب، أو لعلّ السّبب شعوره بالملل. قرأ العنوان، ثمّ قال باستهزاء: أتقرأ الآنسة أطروحات فيزياء؟

مضى وقت طويل على آخر درس فيزياء في الثّانويّة. إن سألني فسأكون في مأزق. يمكنني أنْ أقول إنّ الكتب لجار، أو يمكنني الرّد على سؤال بسؤال.

- أتقصد أنّ النّساء يجب أنْ يقرأن كتبًا عن التّطريز فقط؟

ناولني حقيبتي وأمرني بحمل كتبي. عدت إلى المكتبة، ثمّ حاولت تحذير مارغريت، لكنّها رفضت الاعتراف بالخطر المحيق بها، حتّى في أثناء ملء الصّناديق المخصّصة لمعسكرات الاعتقال التي سُجنت الآنسة وِد وبائعة الكتب الآنسة بيج في أحدها.

- هل سجّلت بياناتك في مركز الشّرطة؟ سألتها للمرّة العاشرة.

قالت بلطف وهي تضع بودينغ عيد الميلاد فوق علبة الفطيرة: أشعر بأنّي فرنسيّة، وهذا يكفي.

- ربّما من الأفضل أن تذهبي إلى لورنس في المنطقة الحرّة.

- لن يعجب هذا التّصرّف عشيقته.

عشيقة؟ لا يعقل. حاولت تذكر حواراتنا بحثًا عن برهان قاطع لم أنتبه له. قالت إنّه «مع صديق»، فلم أستفهم عن هذا الصّديق. لم تذكر مارغريت استلامها رسائل من زوجها، ولم تقبل أنّها مشتاقة إليه بتاتًا. شعرت بالحماقة لأنّي أثرثر عن پول خلال معاناتها بصمت. أعرف كيفيّة قراءة الكتب، وأجهل كيفيّة قراءة البشر.

كنت أعرف أنّ العشيقة قد تجلب معها الطّلاق، فخشيت على مارغريت العودةَ إلى لندن، أو أسوأ من هذا؛ الاختفاء مثل الخالة كارو. لا بدّ أنّ الاضطراب ظهر عليّ، لأنّ مارغريت وضعت يدها على يدي. قالت: «قُطعت العلاقات الدّبلوماسيّة بين فرنسا وإنجلترا. ظلّ من أجلها. نعيش أنا ولورنس منفصلين. هذه ليست رغبتي -خاصّة لكرستينا التي لم تر والدها- لكنّي تقبلت الأمر».

قلت لها: إنّه أبله. لا بدّ أنّه لم ينتبه للطفك وشجاعتك.

ابتسمت مارغريت بارتعاش، ثمّ قالت: لم يرَ أي شخص حقيقتي كما فعلتِ.

وضعت يدي على يدها بإحكام، وسألتها: أتعتقدين أنّه سيطلب الطّلاق؟

- الأزواج الذين مثلنا لا يتطلّقون؛ بل «نتعامل مع الأمر بأقل الخسائر».

- إذن ستبقين؟

- لن أغادر المكتبة بتاتًا.

- وعد؟

- أسهل وعد قطعته.

- يُفرحني بقاؤك، لكن لا أريد أنْ تصابي بأذى. ماذا لو اعتُقلتِ مثل الآنسة وِد؟ أرجوكِ فكّري في تسجيل اسمك في مركز الشّرطة. هذا قانون.

- لا يجب تنفيذ كل القوانين.

أبعدت يدها لتغلق صندوق الكتب، لتُغلق الموضوع.

28
مارغريت

في ساعة الغسق، ارتقت مارغريت سلالم محطّة قطار الأنفاق، وهي تتساءل عن الكتاب الذي ستقرؤه لابنتها قُبيل نومها. بيلا الماعز أم هومر القط؟ فات الأوان؛ لمحت نقطة تفتيش. تراجعت بهدوء.

طلب عسكري أوراقها. كان يتكلّم بفرنسيّة فيها لكنة ألمانيّة ثقيلة. أخرجت أوراقها. تفحّصها ثمّ تساءل: إنجليزيّة؟ جهّز سلاحه. أصابعه لامست صدرها، فتراجعت.

مارغريت هي الأجنبيّة الوحيدة التي عثروا عليها في جولتهم تلك. اقتادوها إلى السّرداب. لم تشعر برعب كهذا الرّعب من قبل. كانت تعرف أنّ بإمكانهم أخذها إلى فناء مهجور ليفعلوا فعلتهم، فتنقلب حياتها رأسًا على عقب.

بعد مشي مسافة ستة مربّعات سكنيّة، دخلوا محطّة شرطة. دخلوا غرفة عن يمينها مكاتب، وعن يسارها زنزانة فيها ثلاث سيّدات انتشر الشّيب في شعورهن، جالسات على مقعد. من آثار الماسكارا، وفساتينهن المجعّدة عرفت مارغريت أنّهن سجينات منذ أيّام.

قالت للجندي حين أدخلها الزّنزانة: ابنتي... هل يمكنني استخدام الهاتف؟

أجابها: لسنا في نادٍ ريفي. لستِ ضيفتنا.

أفسـحت السّـيدات مكانًـا لهـا، فجلسـت علـى طـرف المقعـد، كانـت لتقـدّم نفسـها فـي الظّـروف العاديـة بذكـر اسـمها: السّـيدة سـينت جيمـس، لكـنّ التّعـارف الرّسـمي سـخيف فـي زنزانـة.

- أنا مارغريت. تهمتي أنّي إنجليزيّة.

- تهمتنا نحن أيضًا.

- قبضـوا علينـا فـي أثنـاء توجهنـا إلـى المنـزل بعـد اجتماعنـا فـي نـادي القـراءة.

- نحن صيدٌ ثمين!

- لا بـدّ أنّ أولئـك الجنـود ذوي القامـات يشـعرون بالزّهـو لمنعهـم سـيّدات مـن قـراءة كتـاب لبروسـت.

أخيـرًا، غـادر الضّبـاط وتركـوا جنديًـا شـابًا جلـس يقـرأ إلـى مكتبـه.

- أعتقد أنّه مأخوذ بصديقتنا الجديدة.

لاحظت مارغريـت انتقـال نظـره مـن كتابـه إليهـا. لكـن أيـن عسـاه أن ينظـر فـي هـذا المـكان؟

مارغريت: منذ متى وأنتن هنا؟

- أسـبوع. إذا أصبـح عددنـا كافيًـا سـيُرحّلوننا إلـى معسـكر الاعتقال. لا مـاء، لا طعـام، قمـل فقـط، وجنـود يشـعرون بالضّجـر.

مـع مـرور سـويعات الليـل، ازداد حزنهـن. «مـاذا لـو لـم يطلقـوا سـراحنا؟»

أخرجـت مارغريـت روايـة الدّيـر مـن حقيبتهـا. «سـأقرأ قصّـة: ظـلام موشـك. سـيّارات مسـرعة علـى الطّريـق السّـريع بيـن بلدتيْـن يفصـل بينهمـا خمسـون ميـلًا. بيـن الفينـة والأخـرى، تُضـاء أبـواب

الدّيـر. إنّـه بيـت ضخـم قديـم. أعدكـن، ستشـعرن بالرّاحـة هنـاك».

تثاءبـت إحـدى السّـيدات بعـد نهايـة الفصـل. نمـن علـى الأرض وحقائبهـن تحـت رؤوسـهن. انضمّـت مارغريـت إليهـن.

- نامي على المقعد يا عزيزتي.

- ليس في فستانك بطانة مثلنا. نامي عليه.

تأثّرت مارغريت من لطفهن، وقالت لهن أفضّل أنْ أكون معكن.

اسـتلقت مارغريـت والدّيـر تحـت رأسـها، وهـي تعبـث بلآلئهـا. أهدتها والدتها هـذا العقـد، ولـم تكن لـه قيمـة تذكـر. لا يُشـبه اللآلئ التـي أهداهـا إيّاهـا لورنـس وتوقّـع أنْ تتكلّـم الفرنسـيّة بطلاقـة فـي الحفـلات. لكـن إذا ارتدتـه، كانـت شـعرت بأنّهـا محاطـة بحـب أمّهـا، كمـا كانـت تسـمع همـس شـفتي أمّهـا وهـي تقبّـل حاجبيهـا.

ادرسـي بجـد لكيـلا تعملـي فـي مصنـع مثلـي قالـت لهـا أمّهـا، لكـنّ جدّتهـا قالـت لهـا إنّ بإمكانهـا الحصـول علـى أي رجـل تريـده، وأنّ مظهرهـا الأنيـق الفخـم يخفـي أنّهـا مـن طبقـة أقـل. شـبّهت جدتهـا اصطيـاد الرّجـل بالسّـمك؛ اذهبـي إلـى مـكان تجمعهـم، اسـتخدمي جاذبيتـك، وكونـي رزينـة. تسـكّعت مارغريـت مـع صديقاتهـا خـارج مطعـم راق. أسـقطت محفظتهـا حيـن شـاهدت لورنـس. التقطهـا فوقـع فـي الشّـرك.

فـي حفـل زفافهمـا، ارتـدت فسـتانًا حريريًـا صممتـه جيـن لانفـن. آلمهـا فمهـا مـن الابتسـام. لـم تفكـر فـي حياتهـا بعـد انتهـاء الحفـل، وكانـت تجهـل أي شـيء يحـدث فـي ليلـة الزّفـاف. صدمتهـا كانـت غريبـة، ولهـذا لـم تمانـع إلغـاء شـهر العسـل. كان لورنـس دبلوماسـيًا شـابًا، وقـد دُعـي هـو ومارغريـت إلـى عشـاء مهـم سـيؤدي فـي نهايـة المطـاف إلـى مباحثـات سـلام.

حفلات فخمة فيها مشروبات روحيّة. تباهى لورنس بمارغريت ويده على ظهرها الصّغير – «Voici ma femme،» [هذه زوجتي] – وهو ينتقل من السّفير الإيطالي إلى الوفد الألماني. فاجأها أنّ الجميع يتكلّمون الفرنسيّة؛ هم في إنجلترا في نهاية المطاف. أوضح لها: إنّها لغة الدبلوماسيّة. أخبرتني أنّكِ درستِ الفرنسيّة.

انتَقت مارغريت كلماتها بعناية حين طلب يدها، فلم تكذب. الحقيقة أنّها رسبت أربع سنوات في مادة اللغة الفرنسيّة. بذل جهدًا جهيدًا لملء الفراغات بين كلماتها في أثناء مدة ملاطفتهما لبعض. لم تُعر الموضوع أهميّة.

شربَت النّبيذ على عجل، ولاحظت استخدام الزّوجات الأخريات عبارات ذكيّة وابتسامات للتّزلّف، بل وحتّى الضّحك مع الدبلوماسيين الحازمين بلا تحفّظ.

إلى مائدة العشاء، واجهت صعوبة في التّواصل في ظل الأصوات المحيطة بها. روسي عن يمينها، وتشيكي خجول عن يسارها. تمنّت أنْ يمد لها زوجها يد العون، لكنّه عاملها بالطّريقة التي عاملتها بها أمّه، باستنكاف. لحسن الحظ، انفصلت النّساء عن الرّجال، فجلس في صالة أخرى بعيدًا عن تدخين الرّجال. توقّعت مارغريت أنّهن سيتكلّمن عن الأزياء، لكنّهن تكلّمن عن الوضع السّياسي الرّاهن. لم تفهم ما قلنه – دوتشي في إيطاليا، رئيس وزراء في ألمانيا، رئيس دولة ورئيس وزراء في فرنسا. ارتبكت.

انتهت عقبة، وابتدأت أخرى. أمام الفندق، في أثناء انتظار إحضار سيارة الجاكوار مع زوجها، قبّلته امرأة فرنسيّة ترتدي

فستانًا مزينًا بالتّرتر على وجنته (قرب فمه)، وقالت بإنجليزيّة ممتازة: عليك أنْ تشترك في جريدة لتقرأها مارغريت الصّغيرة، ليصبح لديها شيئًا تقوله.

قالت مارغريت في السّيارة: لم تكن الأمور في غاية السّوء. سأحضر مدرسًا لتحسين لغتي الفرنسيّة. لم يجبها. نور المصباح لاحظت أنّ على وجهه تعبير كان قد ارتسم على وجه أمّه حين اكتشفت أنّ كنّتها قد اشترت عليقًا عفنًا من السّوق. نظرة اشمئزاز من نفسه، لأنّه سمح لها بخداعه.

مارغريت بتضرّع: أخبرني بما عليّ فعله وسأنفذه.

لم ينظر إليها. لم يلمسها بعد تلك الليلة.

دعت صديقاتها لشرب الشّاي بعد أسبوع. فرحن لأجلها؛ منزل فخم، وزوج ثري، وخاتم ألماس. «تملكين كل ما تشتهي نفسك».

في الزّنزانة، اقتربت إحدى النّساء منها. دفء جسدها ساعد مارغريت على الاسترخاء. قُبيل النّوم أدركت أنّ كلام صديقاتها صحيح. لديها كل ما تريد. تمنّت لو تعرف ماذا تريد بعد.

***

عند منتصف الليل، استيقظت مارغريت من نومها. لمسها شخص ما بإصبعه على كتفها. الحارس فوقها. ابتعدت عنه، لكنّ مساحة الزّنزانة صغيرة.

قال بهمس: سأطلق سراحك.

باب الزّنزانة مفتوح. تحرَّكت لإيقاظ السّيدات.

- أنتِ فقط.

- لماذا أنا فقط؟

- أنت جميلة. لا يجب أنْ تكوني هنا.

الحارس يشبه زوجها. لم ير إلّا ما أراد. ظلّت في مكانها.

- أود إطلاق سراحكن جميعًا، لكن لا يمكنني تفسير سبب خلو الزّنزانة من السّجينات.

حدّقت إليه، عرض عليها الحريّة ليلاطفها. قالت له: ألم تعلّمك الحرب الكذب؟

- سأقع في مأزق.
- سيصرخ مسؤولك، وستشعر بالانزعاج. ماذا سيحدث أكثر؟ هل سترسل مثلنا إلى سجن بعيد، بلا أحبّة، بلا طعام، بلا تدفئة، بلا كتب؟
- سأطلق سراحكن جميعًا.
- Merci [شكرًا بالفرنسيّة]. Danke [شكرًا بالألمانيّة].
- سأطلق سراحكن جميعًا، إذا قرأت لي رواية.
- ماذا؟
- سنلتقي مرّة يوميًا. على عتبات البانثيون، أو أي مكان تختارينه.
- طلب غريب.
- فصل واحد يوميًا.
- تمنّت لو رأت ملامح وجهه، لكنّه كان يدير وجهه ناحية الضّوء الخافت، سألته: لماذا؟
- أريد أنْ أعرف ماذا سيحدث في القصّة.

باريس

9 مايو 1942

حضرة المفتّش،

أكتب إليك لأطلعك على أخبار المكتبة الأمريكيّة، المديرة كلارا دي شامبرون ني لونغوورث تكتب أكاذيب لا يخالطها صدق لتُبقي رئيس أمناء المكتبة والحارس في باريس، عوضًا عن السّماح لهما بالعمل في أرض الآباء والأجداد [ألمانيا].

بورِس نتشف يزور منازل القرّاء اليهود. يسلمهم كلّ مساء مجموعات كتب. لن أتفاجأ إذا عرفت أنّه ينقل كتبًا فاحشة إلى النّاس. تعوزه الأخلاق، ويرفض المحافظة على كتب المكتبة من الدّنس. يقول إنّه قد تحصّل على الجنسيّة الفرنسيّة، لكنّي أشك في هذا.

أدِّ واجبك؛ خلّص باريس من الأجانب المنحطّين.

29

أوديل

الإفطار عبارة عن بضع ملاعق من الشّوفان المجروش، وبيضة قسمتها أمّي إلى ثلاثة أقسام، بحذر أعادت المح المنفصل إلى الزّلال. وجنتاها اللتان كانتا ممتلئتين بالحيويّة يومًا ما فقدتا رونقهما، أمّا أبي فقد خسر الكثير من وزنه لدرجة أنّ أمّي ارتدت بناطيله. شاربه المبروم ما عاد يخفي طرف فمه الحزين.

قال لي: تزوّجي بدل أنْ تكوني أمينة مكتبة عانسًا. ما خطبك؟

حدّقت إلى كرسي رِمي. افتقدت دعمه.

واصل أبي كلامه: پول رجل رائع. لماذا لا تتزوجينه؟

أمي: هذا يكفي!

سكت أبي فجأة. تخيّلت رِمي وهو يقول: أهذا كل ما يستلزمه إسكات أبي. كلمة واحدة؟ لو أنّنا كنّا نعرف!

في العمل، بمجرّد عبور مصطبة المكتبة، ناولني بورِس كتبًا. لم أمانع. واجهنا جميعًا نقاط التّفتيش، وكنت أعرف أنّه والكونتيسة أوصلوا كتبًا كثيرة. في طريقي إلى منزل البروفسورة كوهِن، حاولت الاستمتاع بصباح شهر يونيو، تردّد صوت انتقاد أبي في أذني: ما خطبك؟ ما خطبك؟

ارتميت على أريكة البروفسورة. انتقل نظري من ساعة الجد إلى المزهريّة الخالية دائمًا، إلى قلق في عيني البروفسورة.

- أكل شيء على ما يرام؟

التذمّر ليس مهنيًا، لكن هي التي سألت: يعتقد أبي أنّ عليّ الزّواج.

مالت إلى الأمام، وسألت: هل أنتما مخطوبان؟

- أجل.

شعرت بشعور جيّد لمشاطرتها هذا السّر. «رِمي الوحيد الذي يعرف، والآن أنتِ».

ارتحت نفسيًا. «هذا يتطلّب شامبانيا. لا بأس، النّبيذ سيفي بالغرض». من الخزانة الجانبيّة أخرجت قارورة وصبّت الشّراب حتّى آخر قطرة في الكأسين.

- نخبك ونخب خطيبك.

شربنا النّبيذ اللذيذ.

- لماذا لم تخبري والديك؟

- إذا أخبرتهما، سيختار أبي تاريخ الزّفاف وأسماء الأحفاد. خاطت أمّي ملابس كثيرة ليوم زفافي تشغل غرفة كاملة – قد تغرقين في المفارش. ومع هذا، أريد انتظار رِمي. هذا قراري، لا قرار أبي.

- أشاطرك الحزن يا عزيزتي. حقيقة. لكنّ أمّي كانت تقول لي: تقبّلي بني آدم كما هم، لا كما تريدينهم أنْ يكونوا.

- ماذا تقصدين؟

- والدك كبير في العمر، لن تتغيّر شخصيته. أنت عنيدة مثله. الشّيء الوحيد الذي يمكنك تغييره هو رأيك فيه.

- لا أعتقد أنّ هذا ممكن.

- كلّميه. أخبريه عن شعورك نحو پول، وأنّك تريدين پول إلى جانبكِ.

- لا يريد أبي إلا تزويجي.

- إنّه يفتقد أخاكِ أيضًا، حتمًا. سيتفهّم حتمًا.

عبَسْت، وقلت: أنت لا تعرفين أبي.

- حين تكبرين...

ودّعتها، ونزلت السّلالم بصعوبة. حين تكبرين! ما خطبك؟ خلال مشيي في حي بلان، لاحظت قبّعة أنيقة وسترة زرقاء عليها نجمة صفراء. وقفت بلا حراك، وتلاشت كبريائي المجروحة بغتة.

لم يعد بإمكان اليهود التّدريس، أو دخول الحدائق، أو حتّى عبور الشّانزليزيه. لا يمكنهم استعمال الهواتف العموميّة. مجبرون على الجلوس في آخر القطار. أكملت المسير. كنت قد سمعت عن النّجوم الصّفراء، لكنّ هذه أوّل نجمة أراها عن قرب. ماذا أفعل؟ أأبتسم بلطف لتعرف المرأة أنّ لا أحد يؤيد هذا التّمييز الغريب؟ أم أتجنّب النّظر إليها لتعرف أنّ لا شيء قد تغيّر؟ إذا أشحت بنظري عنها، سأبرهن أنّي أراها كما يراها الآخرون. اقتربنا من بعض، وتفاديت النّظر إلى عينيْها.

عُزِل اليهود، وأصبحوا الآن أهدافًا دائمة. في ذات الوقت كنت أشكي للبروفسورة كوهِن مشكلاتي التّافهة.

* * *

طوال الصّباح، رقّعنا أنا ومارغريت الكتب المهترئة. ما عاد بإمكاننا طلب كتب جديدة، ولهذا فإنّ كلّ كتاب نملكه ثمين. بنَصَبٍ وجوع، وضعت الغراء على الغلاف، من الخلف إلى الأمام، ببطء، ثمّ ببطء أكثر كجهاز تسجيل على وشك التّوقف. توقّفت مارغريت عن العمل منذ مدة. ابتسمت ابتسامة مواربة. ناديْت اسمها فلم تنتبه. دفعت ركبتها، وناديتها: مارغريت؟

- أعتذر. سرحت بفكري.

- خطر مهني.

ضحِكَت. النّور في عينيّها يشي بحب. هل التقت زوجها؟

- أرجع لورنس؟

حدّقت إليّ بذعر. «لا! كيف خلصت إلى هذه الفكرة؟

- تبدين سعيدة.

مارغريت جميلة بحق، لكنّ ملامحها تغيّرت في الأسابيع الماضية، أصبحت أكثر ابتهاجًا، كأنّ الضّباب قد انقشع. تغيير تدريجي لم ألاحظه إلّا الآن. بتردّد، كأنّها متفاجئة، قالت: أعتقد أنّي سعيدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هل من سبب مميّز؟

- أقرأ رواية الدّير بصوت عالٍ هذه الأيّام.

- صوت عالٍ؟

- لشخص لا يمكنه قراءتها بطريقة أخرى.

قبل أنْ أعرف المزيد، لفتت انتباهنا أصوات أحذية جنود. جاء حماة الكتب مع خادميْن. تجمّدت الدّماء في عروق القرّاء. الباريسيّون معتادون على وجود الجنود في الشّوارع، لا في المكتبة. مضت أشهر على زيارة د. فوكس، وتغيّر الكثير منذ ذلك الحين؛ سافرت الآنسة ريدر، وألمانيا تحارب أمريكا. أجاؤوا لهذا السّبب؟

عدّل د. فوكس انحناء نظّارته، وطلب مقابلة المديرة، فأخذتهم إلى مكتبها. انسحبت بِتْسي بحذر.

المديـرة معتـادة علـى الضّبـاط النّازييـن، فلـم تتأثّـر حيـن عرفـت بمقدمهـم. عاينـوا مكتبهـا. نظـرَ إلـى الكتـب، ثـمّ عبـس فـي وجهـي كأنّـي وفـرت الأمـان للمديـرة. سـألني:

- ما معنى كل هذا؟
- مـن فضلـك تعـرف إلـى الكونتيسـة كلارا دي شـامبرون التـي تديـر المكتبـة.
- أين الآنسة ريدر؟
- عادت إلى وطنها.
- أكّدت لها أنّها تحت حمايتي، فلماذا سافرت؟
- اعتبرت الأمر الصّادر بعودتها أكثر وجوبًا لتنفيذه.

ذهبـت إلـى بِتْسـي فـي الـرّواق، ثـمّ سـألتها: مـا سـبب انفعالـه؟ فأجابـت:

- غادرت المديرة دون توديعه. ليس غاضبًا، بل مهانًا.

أحببته لأنّه أحب الآنسة ريدر.

اسـتفهم مـن الكونتيسـة عـن مؤهلاتهـا، قيمـة الكتـب، وتأميـن المكتبـة. برضـا، وضـع قوانينـه، مـن عـدم رفـع أجـور الموظّفيـن إلـى عـدم بيـع الكتـب. قـال: وعـدت بالمحافظـة علـى هـذه المكتبـة. إذا تدخّلـت السّـلطات العسـكريّة فـي أي وقـت، سـتجدون رقمـي هنـا وفي برليـن فـي درج الآنسـة ريـدر. هاتفونـي إذا حدثـت مشـكلة.

30 نوفمبر 1942

أوديل العزيزة،

أعتذر عن عدم مراسلتك - هناك شح في الورق. أغلبنا مرضى. جروحي ترهقني. لا يحاول الجنود قتلنا، ولا يحاولون الحفاظ على حيواتنا أيضًا. أخبرني أحدهم أنّهم لا يملكون الأدوية لتطبيب أنفسهم.

شريكي في السّرير عاد إلى تصرفاته المضحكة مرّة أخرى. بعد فوضى حلب البقر، أوقع جرّار صاحبة العمل في خندق. تضرّر كما تضرّر الجرّار؛ كُسرت ذراعه. عرض قائد القوّة العسكريّة استبداله، لكنّها رفضت أي مساعدة إضافيّة من الفرنسيين.

عمل زميل آخر عند أرملة شابة جسدها كجسد [الممثلة الأمريكيّة] ماي وست، ووجهها كوجه ملاك من العرق الآري. توطّدت علاقتهما. كلّما تكلّم عن بقائه في ألمانيا بعد الحرب، شعرنا بالأسف عليه. أهدته خلسة مذياعًا عربون شكر لانتهائه من الحصاد. بعض الألمان خبيث مثل هتلر، وبعضهم يناهض النّازيّة ويستمع إلى (بي بي سي). واجهت صعوبة في القطاعة عن أخبارك، عن العالم كلّه. تسعدنا معرفة أخبار العالم، على الرّغم من عدم توافر الخبز يوميًا.

أعيش لرسائلك، وأتمنى رؤيتك من جديد. أنا محظوظ لأنّ أسرتي تهتم بي. فقد مساجين كُثر التّواصل مع أسرهم. سأكون

لكِ من الشّاكرين، إذا أرسلتِ علبة حلوى لمارسيل دانيز.

محبّة،

رِمي.

***

في قاعة الأطفال، عضّت بِتّسي شفتها بعد قراءة الرّسالة. قصد رِمي نبيل، لكن كيف يمكننا إرسال الطّعام إلى غريب ونحن لا نملك ما يكفي من الطّعام؟

مارغريت: صباح الخير يا فتيات. أوديل ما سبب عدم وجودك عند مكتب المراجع. القرّاء مصطفون.

- وصلتنا أخبار، ترجمت الرّسالة لها.

قطّبت جبينها، وقالت: ستتمكنين من إرسال طرد يليق به شهريًا. أعدك.

في اليوم التّالي، أحضرت صندوقًا صغيرًا في لحم مقدّد جاف، وسجائر، وشوكولاتة. سألتها بتعجّب: كيف؟

- لا تشغلي بالك.

تذكّرت اللوحات ذات الإطارات المذهّبة في منزلها، فتخيّلت أنّها تبيع صور أجدادها واحدة تلو الأخرى، من أجل إطعام رِمي. إنّها أعز صديقة.

29 ديسمبر 1942

رِمي العزيز،

نتمنّى أن يكفيك الطّرد الذي أرسلناه إليك. أتلائم السّترة مقاسك؟ هل ألوانها مألوفة؟ خيوط الصّوف من سترات ارتديناها

في طفولتنا واحتفظت بها أمّي. أعتذر لأنّ الكمّين ليسا متطابقي الطّول. على أي حال، عشق الحياكة لا يعني الإتقان.

في الليلة الماضية، حضرت مع پول عرضًا لمسرحيّة هاملت من إنتاج الكونتيسة في مسرح أوديون. أبهجني فعل شيء اعتدنا فعله قبل نشوب الحرب. سأذهب مع بِتْسي إلى قطف نبات البهشيّة لتزيين الكتب التي نوصلها. قلّ عدد الطّالبين للكتب مؤخّرًا، وهذا غريب.

تشتاق بِتْسي إليك كثيرًا. كلّنا مشتاقون إليك. نتمنّى عودتك.

محبّة،

أوديل

***

أوديل العزيزة،

أشكرك على الطّعام الطّيب! الأجمل من هذا هو رؤية السّرور على مُحيا مارسيل حين استلم طرده. أرجوكم لا تحرموا أنفسكم من أجلنا. ما كان يجب أنْ أطلب.

الأمور بخير هنا باستثناء أنّ مارسيل كاد يُقتل. في الغرفة المشتركة، اجتمع عدد قليل من السّجناء للاستماع إلى الإذاعة البريطانيّة. كان الصّوت خفيضًا حين دخل الحرّاس. كلّنا انسحبنا إلّا مارسيل المسكين الذي لم ينتبه. هشّم الحرّاس المذياع وجمعونا كلّنا –مئة سجين بلا معاطف طبعًا– ووعدونا بمسامحتنا إذا اعترفنا. لم نعترف بأي شيء. أمر قائد القوّة العسكريّة مارسيل بالجلوس على ركبتيْه، ثمّ صوّب المسدّس إلى رأسه. «أخبرني من معك، وإلّا سأقتلك». أتعرفين بماذا أجاب الأبله؟ «إذن سأموت وحيدًا».

باريس
1 يونيو 1943

حضرة قائد القوّة العسكريّة،

راسلت مركز الشّرطة ولم يحدث شيء. حان دورك الآن.

هناك رسومات مصوّرة تسخر من هتلر في كتب المكتبة الأمريكيّة، ويمكن أي شخص الاطّلاع عليها. هناك أمور أدهى. كما ذكرت للشّرطة، أمناء المكتبة يُهربون الكتب للقرّاء اليهود، من بينها كتب قراءتها محظورة.

أمينة المكتبة بِتْسي جوبرت تقول أمورًا دنيئة عن الجنود الألمان. لديها جندي في شقّتها، والرّب يعلم كيف تعامله. المتطوّعة مارغريت سينت جيمس تشتري الطعام من السّوق السّوداء. خدّاها ممتلئان والنّاس جياع. القارئ جوفري دو نيرسيات يتبرّع بالمال للمقاومة ويؤويهم في شقّته الكبيرة.

في الغرفة الخلفيّة للمكتبة، يستمع القارئ بورِس-جونز إلى الإذاعة البريطانيّة، على الرّغم من منعها. هذا ليس الإزعاج الوحيد في المكتبة. هناك وقع أقدام مصدره العليّة المقفلة دائمًا، وأجهل ما الذي يخفيه أمناء المكتبة فيها.

اذهب إلى المكتبة وشاهد ما يحدث بأمّ عينيْك.

التّوقيع،

العارف.

30
أوديل

حين وصل البريد، وضعت مجلّات الأزياء على الرّفوف. مجلّة صرعة اليوم ذكّرت القرّاء بأنّ «الذكاء والذّائقة لا منطق لهما»، وأنّ الأحذية تبلى على عكس القبّعات. اشتقت إلى مجلتي الوقت والحياة. حوّلت وجهي إلى جانبي، فرأيت رجلًا لم أره من قبل. كنت لأحسبه أستاذًا قبل الحرب، لكنّي أعتقد أنّه جاسوس الآن. بلعت ريقي. فزع. تأثّرت بالإعلام النّازي. لا بدّ أنّه مسالم، رغم أنّه يضع جريدة قديمة تحت جاكيته. بعبوس قلت: الدّوريات لا تُستعار. أعادها إلى الرّف ثمّ خرج.

صفّق بورِس: رائع! أنتِ مرعبة مثل مدام سيمون في المكتبة الوطنيّة. وحش حقيقي.

انحنيْت احترامًا وقلت: أحاول.

وصلت بِتْسي إلى العمل، وحيّتنا بإيماءة رأس. هدوؤها هذه الأيّام يخيفني. أردت مراقبتها، فطلب مساعدتها لإيصال الكتب لمدام كوهِن. صعدنا السّلالم الملويّة إلى الطّابق الثّاني، ثمّ حملت البروفسورة كُتب السّير الذاتيّة الثّقيلة من أذرعنا.

«انتهيت من كتابة الرّواية»، ثمّ أشارت إلى مجموعة كتب على الطّولة. قلت لها: مبارك!

فاجأني أنّ بريق عينيْها الجذل قد اختفى، وحلّ مكانه الإحباط.

تنهَّدَت وقالت: رفض النّاشر نشرها.

أعرف السّبب بلا شك، وأعرف أنّها تعرفه أيضًا. لا يستطيع أي ناشر فرنسي نشر أعمال شخص يهودي.

قلت لها: أحزنني الخبر.

- أحزنني أنا أيضًا. على أي حال، لم آكل لأنهيها لولا مساعدتك؛ بالكتب الآتية أحضرتها، ورفقتك ولطفك. كنتِ نافذتي المطلّة على باريس. الكتب والأفكار كالدّماء في عروقنا، تحتاج إلى الجهاز الدّوري ليبقينا على قيد الحياة. ذكّرتني بوجود الصّالحين في العالم.

من المفترض أنْ يفرحني هذا الإطراء، لكنّي شعرت ببرودة في أوصالي. قلت لها: كأنّكِ تودّعينني.

- أعني أنّنا لا نعرف ما قد يحدث.

ناولتني المخطوط وطلبت أنْ أحتفظ به في مكان آمن.

ثقتها تشريف. قبّلت وجنتيْها، وسألتها: ألا تريدين إرسالها إلى زميل؟

- هذه النّسخة الوحيدة. الرّواية بأمان أكبر معك.

بِتْسي: ما عنوانها؟

- المكتبة الأمريكيّة.

بِتْسي: مأساة بكل تأكيد.

غمزت البروفسورة، ثمّ قالت: انتظري حتّى تتعرّفي إلى الشّخصيّات. تعرفين عددًا منها.

خفيف: 535، المخطوطات: 091، المكتبات: 027.

كانت معنوياتها مرتفعة حين خرجنا من شقّتها. في أثناء نزولنا، سمعنا صوت نقرات على الآلة الكاتبة. تمنيت شروع

البروفسورة في كتابة جزء ثان للرّواية. في طريق عودتنا إلى العمل، قالت بِتْسي: هذه مسؤوليّة عظيمة.

وضعت الأوراق في حقيبتي، وقلت: سنحفظها في مكان آمن.

في شارعنا، مرّت ثلاث بائعات هوى يرتدين جوارب شبكيّة. شعورهن صفراء، أجسادهن ممتلئة، وعطرهن قوي. «عاهرات!» انزعجت بِتْسي من العطر. «لا يعلم بعض النّاس شيئًا عن وجود الحرب» قالت بصوت عالٍ ونحن ندخل المكتبة. «صباح البارحة، شاهدت مجموعة فاجرات يترنحن من أثر الكحول. هنالك شيء اسمه ذوق رفيع!»

في الغرفة الخلفيّة، وضعت المخطوط على الطّاولة، وأجلست بِتْسي. «يستحوذ الأشخاص الخطأ على الأشياء الصّحيحة» قالت بصوت متألّم. «أنا جائعة. لا أستطيع التّفكير. تمر الفصول، ولا أشتاق إلى أيّامها. عيد الميلاد، رأس السّنة. يسعدني أنّها ولّت. حانت الآن مناسبة عيد الفصح، والشّيء الوحيد الذي سيرتفع من جديد هو الأسعار. أشتاق إلى رِمي. لولاه، لكنت...»

«لنكتب رسالة له». أفزعني اكتئابها. سيساعدني رِمي؛ التّفكير فيه يشعرني بتحسّن دائمًا. أخرجت قلمًا من محفظتي. «استخدمي الخطّ الصّغير، وسأستخدم الخط الكبير».

عزيزي رِمي، تحيّات من المكتبة حيث نحن نشتاق إليك. أوديل اقترحت هذه الفكرة المجنونة الرّائعة.

قالت: تُشبه رسائل الفدية. لسنا متأكّدين من استلامه إياها.

- على الأقل سنربك الرّقيب.

ابتسمت بِتْسي نصف ابتسامة. هذا كاف. سألتني: هل تعتقدين أنّ البروفسورة كوهِن سترفض قراءتنا روايتها؟

ممزّقة بين احترام خصوصية البروفسورة وطمأنة بِتْسي، قلبت المخطوط على صفحة العنوان، وقرأت بصوت عالٍ: تملأ رف (البعث بعد الموت) رائحة الكتب القديمة. على رفوف جدرانه كتب منسيّة. في هذا العالم الفاصل بين الدّنيا والآخرة، لا توجد نوافذ أو ساعات، رغم سماع صدى أطفال بين الحين والآخر أو هبوب رياح محمّلة بفطيرة شوكولاتة من عالمهم.

- قالت: هذا قسمي المفضّل من المكتبة.
- قسمي المفضّل أنا أيضًا.

كنت على وشك قراءة السّطر الثّاني حين طرق أسماعنا صراخ امرأة: سئمت الانتظار! أعطوني كتبي وإلّا!

- يا إلهي، شجار آخر.
- هرعنا إلى مكتب الاستعارة، حيث انتظر ستّة أشخاص لتسجيل استعارتهم. حتّى كلارا دي شامبرون قد خرجت من مكتبها. سألت: ماذا يحدث هنا؟

أجابها بورِس: تعبت السّيدة سميث من الانتظار، ثمّ وجّه حديثه للمرأة: من فضلك عودي إلى مكانك في الطّابور.

صرخَت: سأبلغ الشّرطة.

رفع بورِس حاجبه: وستقولين لهم إنّنا لا نتمتّع بالكفاءة؟ أخبري كلّ البلد.

ضحك الواقفون في الطّابور على تعليقه.

- سأبلغهم أنّكم تعيرون الكتب إلى اليهود.
- لا تعودي إلى هنا بتاتًا.

قالت المرأة وهي تنتحب: لا يمكنني العيش دون الكتب التي أجدها هنا.

***

فكّرت في پول في مكتب الاستعارة، قبل فتح المكتبة للعامّة في أثناء إعادتنا بطاقات الاستعارة في الكتب المُعادة. التقينا في الشّقّة مساء، المكان الوحيد الذي لا مجال فيه للحزن. تكاسلنا في الغرفة الورديّة التي علّق رسوماته على جدرانها. أحببت كلّ رسمة؛ حقل قمح تحيط به شقائق النُّعمان، وأكواب عشب مجفّف، وسرجٌ خيل قديم.

انتبهت إلى صوت نقرات. شاهدت د. فوكس يحدّق من النّافذة. ما سبب مجيئه باكرًا؟ دعوناه ليدخل، لكنّه رفض. قال بهمس: المباحث السّريّة ستنصب لكم كمينًا. لا تسمحوا لهم بالعثور على كتب ممنوعة. سيستخدمون أي عذر للقبض عليكم. التفت ناحية كتبه، ثمّ أضاف: لا يمكنني البقاء هنا.

سألته: ما نوع الكمين، لكنّه كان قد ابتعد مسرعًا.

قال بورِس وهو يُشعل سيجارته: سمعت أنّ الشّرطة السّريّة قد أحكمت قبضتها على باريس، وهم خطرون جدًّا.

أكثر خطورة من الجيش النّازي الذي هزم الجيش الفرنسي؟ أكثر خطورة من الجنود الذي يمشّطون الشّوارع ليل نهار؟ عملنا بقيّة النّهار بصمت يشوبه القلق. حين خرجت من المكتبة وقت الغداء، فاجأني وجود پول في الفناء. سألته: ألم يكن من المفترض أنْ نلتقي في الشّقّة؟

قال: ذهب صاحبي وصديقته إليها أمس. كان هناك أثاث جديد، لكنّه لم يُعر المسألة بالًا. كان يُقبّلان بعضهما حين سمعا شخصًا يدخل. اختبآ مدة من الزّمن، ثمّ هربا من سلالم الخدم. عاد لاحقًا، لكنّ القفل كان قد تغيّر.

ما عاد عشّنا موجودًا؛ المكان الذي احتضنا بعضنا فيه، الذي قلنا فيه كل ما في خاطرنا، والذي سكتنا فيه بلا كلام، والذي نسينا فيه أهوال الحرب.

سألته باكتئاب: ماذا عن رسوماتك؟

وضع يده حول ذراعي، ثمّ قال: سأرسم غيرها. ابتهجي. وجدت مكانًا جديدًا لنا.

في الشّارع، قابلنا مدام سيمون التي سألتني بصرامة: إلى أين ستذهبين؟

پول: للآنسة حق تناول الغداء.

مدام سيمون: ثمّ تعودين عند الواحدة؟

قال وهو يطوّق خصري بقوّة ويقودني إلى الرّصيف الجانبي: الآنسة لن تبرّر تأخيرها.

قلت له: لم يكن هناك داعٍ لردّك الفظ. إنّه كالخالة مارش الغريبة في رواية نساء صغيرات. فجّة في الظّاهر، ولطيفة في الباطن.

- لا يملك الجميع باطنًا طيّب المعشر.
- وليس الجميع مجرمين.
- يظهر بعض الأشخاص ما يخفون للعالم.

توقّفنا أمام مبنى (هاوسمانيان)، ثمّ قال: ها قد وصلنا.

منع السّجاد القرمزي في البهو وقع خطوات أقدامنا. حدّقت إلى الثّريا، فخيّل لي أنّي كنت في هذا المكان من قبل. لعلّي أوصلت كتبًا إلى هنا. في الشّقة التي في الطّابق العلوي، كانت السّتائر مسحوبة إلى الجانبيّن. لم أهتم للمنظر؛ پول هو اهتمامي. أردت ساعة واحدة أنسى فيها كلّ شيء. ارتعش جسدي عندما قبّله. ونحن عاريان، تمشينا في الشّقة كأنّها متحف. أعجبتنا التّحف الصّينيّة على رف المدفأة، ولوحات رسّامين قدماء على الجدار. لكنّ أفضل مكان في الشّقة هو المطبخ؛ شوكولاتة في الخزانة. المكان الجديد ليس سيئًا. الاستكشاف مثير للاهتمام.

لكن تأخّر الوقت، فارتديت فستاني، وأعطيت پول بنطاله الذي ارتداه دون أنْ يغلق الحزام، لأنّه ساعدني في ثيابي من الخلف. قبّل ظهري بتبجيل. عشقته أكثر في تلك اللحظات. منعني استغراقي في مشاعري من سماع صوت فتح الباب.

سأل رجل: من أنتما؟

دون أحذيتنا، شعرنا غير مرتّب، ابتعدنا أنا وپول عن بعضنا.

- هذا بيتي الآن.

اقتربت من الباب، لكنّ پول أمسك يدي وقرّبني منه، قال: اعتقدنا...

صرخ الرّجل: اخرجا من هنا ولا تقتربا من هذا المكان.

عدنا إلى المكتبة ورأسانا منكّسان خجلًا من افتضاح أمرنا. أين سنلتقي الآن؟ استجدَّ سؤالٌ آخر: شقّة من كانت؟ قال پول: لم نرتكب خطأ، ثمّ قرص وجنتي، فتوجّه إلى مركز الشّرطة. شقّة من؟ بارتباك دخلت قسم الدّوريّات، ثمّ تذكرت أنّي أعمل في قاعة المراجع. بسبب عدم وجود جرائد، أمضى عدد قليل

مـن الأشـخاص وقتهـم هنـا، لهـذا فاجـأنـي وجـود شـخص يبحـث فـي المجـلّات القديمـة.

- هل تحتاج إلى مساعدة؟

- لاحظت أنّ بعض روّاد المكتبة أجانب.

بـدا مـألوفـا. آه، إنّـه الرّجـل الـذي حـاول سـرقة الجريـدة. قلـت لـه: مـن مزايـا المكتبـة أنّ الجميـع يشـعرون بالرّاحـة هنـا.

- أريد التّواصل معهم.

قلـت لـه بعـدم لباقـة: أتلفنـا سـجلّاتنا منعًـا لوقوعهـا فـي أيـدي من سيسـتغلونها بسـوء، ثـمّ توجّهـت إلـى مكتـب الاسـتعارة، حيـث تبـادل بـورِس وبِتْسـي الأحاديـث. همـس بـورِس: سـألني عـن أصلـي، فقلـت لـه أنّـي باريسـي.

بِتْسـي: ازداد حضـوره فـي الآونـة الأخيـرة. إذا وقـف خلفـي، أشـعر بأنفاسـه علـى عنقي.

رفستها بخفّة. بورِس: ماذا أراد؟

أنا: سأل عن مستعيري الكتب الأجانب.

بِتْسي: بمناسبة الحديث عن الأجانب. أين مارغريت؟

يفترض أنّها وصَلت. طلب بورِس منّي أنْ أهاتفها.

حاولـت مهاتفتهـا طـوال مـدة بعـد الظّهيـرة، لكـن لـم يجبنـي أحـد. مـاذا لـو أُلقـي القبـض عليهـا مثـل الآنسـة وِد؟ لا، هنـاك سـبب منعهـا مـن الحضـور. سـبب منطقـي. نظـرت إلـى سـاعتي. عقاربهـا لا تتحـرّك. قرّبتهـا مـن أذنـي، فسـمعت دقّتهـا الواهنـة. دبّ الذّعـر فـي قلبـي، فتقطّعـت أنفاسـي.

حثّني بورِس على الذّهاب. «سنهتم بالمكتبة».

اتصلت مرّة أخيرة، ثمّ هرعت إلى منزلها.

31
أوديل

فتح العامل باب منزل مارغريت. «هل مارغريت هنا؟» سألته بتوتّر وأنا أنظر داخل الشّقة. هادئة كالعادة. أفضى بي إلى غرفتها، حيث كانت مستلقية على سريرها، ومحاطة بمناديل مستخدمة. عانقتها.

- حمدًا للرّب أنّك هنا. خشينا إلقاء القبض عليكِ!
- أنا مريضة. حاولت مهاتفتكم، لكن الخطوط مقطوعة طول الأسبوع.

جلست إلى جانبها. «حتّى أنّي طلبت من پول المجيء في حال حاجتنا إلى تقديم بلاغ عن فقدانك.

- لا داعي للقلق.
- سأقلق حتمًا! اجتاح النّازيّون المدينة.
- قلت لكِ لا تقلقي.

حدّقت في الرّدهة لتتأكّد من عدم تجسّس الخدم، ثمّ همست: ألتقي شخصًا ما.

- نلتقي الآخرين كلّ يوم.
- لا، أواعد شخصًا ما.

أتقصد حبيبًا؟ سألتها: في المكتبة؟

- لا. لم أرغب في إخافتك... لكن قُبض علي.
- صرخت: قُبض عليك!
- اششش! لهذا لم أخبرك.

تمسّكت بشرشف السّرير الحريري، وتساءلت كيف تخبّئ شيئًا كهذا عنّي. بالطّبع، لم يخطر على بالي أنْ أخبرها أنّي وپول مخطوبان.

- بعد إطلاق سراحي، أعطاني فيليكس مستندًا يُتيح لي التّنقّل بحريّة.

تناديه باسمه الأوّل! أيعني هذا أنّه حبيبها؟ صدمة. احتفظت بالسّر لنفسها. إنّها تواعد عدوًّا. استشطت غضبًا.

- هل قلتِ إنّ پول قادم؟

تحرَّكَت نحو المرآة، ووضعت مسحوق زينة وردي اللون على أنفها. راقبتُ الرّدهة. قلت لها بحزم:

- صحتك لا تسمح بزيارتك. سأغادر.
- لا تتصرفي كباقي الباريسيين؛ يخفون مشاعرهم الحقيقيّة خلف ستار التّهذيب.
- لا أفهم قصدك.
- إذا أردتِ المغادرة، فغادري. لكن لا تدّعي أنّ السّبب هو إصابتي بالزّكام.

التقت نظراتنا في المرآة. في عينيّ إضراب، وفي عينيْها عزم. «لو أنّ فيليكس لم يطلق سراحي أنا والنّساء الثّلاث، لضاع عمرنا في مخيّم اعتقال. ماذا سيحل بابنتي حينها؟ فكّري في هذا. سكتَت.

كان من الممكن أنْ تختفي مثل الآنسة وِدْ. يجب ألّا أحسم الأمور باستنتاجاتي؛ أنْ أتوقّف عن انتقاد الآخرين. أنا سيئة مثل مدام سيمون. قلت لمارغريت: أهم شيء أنّك بخير. أأنت متأكدة من قدرتك على استقبال زوّار؟

- أشعر بالدّوار إذا وقفت فقط. اطلبي من عيسى إعداد صينيّة شاي. سآتي قريبًا.

في غرفة الجلوس، شاهدت اللوحات ذات الإطارات المُذهّبة. كلّما أرسلت مارغريت طردًا لرِمي شعرت بالذّنب، لأنّي تخيّلت تخلّيها عن لوحة من اللوحات لشراء حاجاتها. اللوحات هنا، فكيف دبّرت الطّعام؟ لا بدّ أنّها تطلب من النّازيين. مارغريت والنّازيون؛ مزيج غريب. ينتميان إلى كتابين مختلفين، على رفّين مختلفين. لكنّ الحرب ربطت المصائر ببعضها. كاللونين الأبيض والأسود في لوحة مطبوعة، اللذين اتّحدا وأنتجا اللون الرّمادي. وصل پول، فقرّبته منّي. قبّل جبيني ثمّ سألني: ما المشكلة؟

- لا مشكلة. أفرحتني رؤيتك.
- لا أصدّق وجود هذه اللوحات. كأنّي في متحف اللوفر.
- ليس كل ما يلمع ذهبًا.
- ماذا؟

دخلت مارغريت. كانت تحب الدّخول بهيبة. ابتعدنا أنا وپول عن بعضنا.

- أعتذر لأنّنا استدعيناك في وقت عملك. لطف منك أنْ تأتي. أوديل محظوظة بمعرفتك.

احمرَّ خجلًا، وقال: تسرني رؤيتك دائمًا.

وكزته لأذكّره أنّنا لسنا هنا لتبادل الأحاديث. كان يريد تحذيرها من خطر وشيك. لم أقتنع بأنّ ورقة سخيفة من حبيبها ستحميها. قال بصرامة: يقولون إنّ الألمان قد احتجزوا ألفي سيّدة أجنبيّة.

- أعرف.

پول: أنتِ في خطر يجب أنْ تغادري.

مارغريت: كان بإمكانِكما الهرب إلى المنطقة الحرّة جنوبًا، لكنّكما آثرتما البقاء.

- يجب أنْ أبقى في مكان سيجدني فيه رِمي.

- يجب أنْ أبقى مع أوديل. فكّري في ابنتك.

سعلت مارغريت في منديلها: لندن ليست آمنة أيضًا.

پول: توخّي الحذر. لا تمشي في شارع فيه ألمان.

لا يستطيع أي شخص تجنّب النّازيين؛ ولا حتّى في المكتبة، وأعرف أنّها لا تريد الابتعاد عن المكتبة.

***

بعد أسبوع، أقلقتني مارغريت في غرفة التّبديل وأعطتني صندوقًا فضي اللون. فتحته وشممت رائحة شوكولاتة؛ ذهب أسود. قرقر بطني. لم أرد بضاعة مكتسبة بطريقة غير شرعيّة لكنّي لم أتمكّن من منع نفسي من أخذ قطعة. ذابت في فمي وكنت أفكّر في الذي فعلته مارغريت لتحصل على رفاهيّات كهذه، تساءلت ما الذي تحصّلت عليه أيضًا. حرير؟ لحم؟ ما رقمها في تصنيف ديوي العشري؟ أقرب ما وصلت إليه هو 629 لدود القز، 636.2 لقطيع ماشية. عجزت عن تذكر الرّقم الصحيح. لم أصدّق حجم ممتلكاتها مقارنة بما لا نملك.

«خلال إغلاق المكتبة السّنوي، سنذهب أنا وفيليكس في إجازة. دوڤيل يفترض أنْ تكون ممتعة. ستهتم المربية بكرستينا، وإذا سأل عنّي أي شخص سأقول إنّي أقمت معكِ...» بسعادة

جمّة شعرت بها، ذهبت مارغريت إلى قاعة القراءة. الشّوكولاتة لذيذة. سأرسل ما تبقّى منها إلى رِمي. سأفعل بعد لقمة إضافيّة.

***

ذلك المساء، في أثناء مراجعة بورِس والكونتيسة الحسابات، راقبتُ مكتب الاستعارة. رنّ الهاتف، وتوقّعت أنْ يطلب أحدهم كتبًا للاستعارة. «أطلب مقابلة كلارا دي شامبرون» قال شخص بفرنسيّة فيها لكنة ألمانيّة. «عند التّاسعة والنّصف غدًا. أخبريها أنْ تدخل مباشرة، وقدّمي اعتذاري لها لأنّي لم أتمكّن من المجيء إلى المكتبة». لم يمنحني فرصة للرّد عليه وأغلق الهاتف. ماذا يريد د. فوكس من الكونتيسة؟ هل سنخسر صديقة أخرى؟

في الطّابق العلوي، اختلست النّظر إلى مكتب الكونتيسة. لاحظني بورِس، ورفع حاجبه بتعجّب. لا بدّ أنّه عرف بوجود شيء خاطئ، إنّه أمين مكتبة، وشبه متخصّص في علم النّفس، ونادل، وحارس، ومُتحرٍّ. قلت: لدي رسالة.

نظرت الكونتيسة إليّ من فوق نظارتها المثبتة على أنفها، وسألت: ما هي؟

- د. فوكس أكّد أنْ تقابليه غدًا في مكتبه.
- حقًّا؟

بورِس: يجب أنْ تغادري البلدة مع زوجك اللواء.

- لتُعتَقَل بدلًا منّي؟ ماذا قال بالضّبط؟

ذكرت لها ما قاله حرفيًا.

بورِس: سأذهب معك.

لا أريده أنْ يذهب. لديه زوجة وفتاة صغيرة يعيلهما. حاولت إيجاد عذر مقنع. لديه المفاتيح، ولهذا يجب أنْ يبقى ليفتح المكتبة صباحًا؟ لا، سيعطيني المفاتيح ببساطة.

قلت ببطء: لاحظت أنّ د. فوكس يحب النّساء. من الأفضل أنْ أرافق الكونتيسة.

قالت: لن آخذك لزيارة النّازيين! ماذا سيقول أهلك؟

أجبتها: سأصدقك القول، رفض أبي عملي مع الأجانب الأثرياء أيضًا. بابا شرطي، ولهذا فإنّ أسرتي تتعامل مع النّازيين أصلًا.

قلت لها تلك الكلمات لأربح الجدال، رغم أنّي لا أهتم بما يفعله أبي في نهاراته، ولا مع من يقضيها. كنت أخاف الذّهاب إلى معاقل النّازيّة، لكنّي فكّرت في الكتب ذات التّغليف الجلدي على رفوف الكونتيسة، والكتب التي أوصلتها للمستعيرين، ومخطوط البروفسورة كوهِن المخبّأ في الخزنة. الكلمات تستحق الدّفاع عنها، تستحق المخاطرة.

- أنت على حق.

لا وقت لهدره للتّفكير في ما سيحدث وما لن يحدث. انهمكنا في ضمان استمرار عمل المكتبة. عدت إلى مكتب الاستعارة حيث سألتني مدام سيمون: أين كنتِ؟ كان بإمكاني سرقة هذه الكتب!

بارحتُ المكتبة ما إن غادر آخر مستعير للكتب. وضعت كتبًا للبروفسورة كوهِن في حقيبتي وهرعت إليها. إنّها السّابعة فقط، لكنّ ظلال المباني ممتدّة. ترعرعت في المدينة وأشعر بالأمان بين أحيائها كأني بين ذراعي أمّي. لكن الليلة، في كلّ مرّة أنظر

فيها خلفي، شاهدت ذلك الرّجل الذي أراد سرقة الجريدة. عبرت الشّارع، فعبره هو أيضًا. نظرت خلفي، فتظاهر أنّه يقلّب صفحات مجلّة عند الكشك. مشيت بنشاط. استمر في ملاحقتي. في الظّلال، انتبهت إلى أنّه يحمل حقيبة جلديّة في يد، وفي يده الأخرى... التماعة مسدّس موجّه علي.

انعطفت إلى اليمين، واستندت إلى المبنى الوسخ. رجلاي تختلجان، تحثّاني على الجري. اختلست النّظر، وتبيّن أنّ الذي خلته مسدسًا كان مجرّد مجلّة مطويّة، ربّما اشتراها من الكشك. بذلت جهدي ليضيعني، بحي فاوبورغ سان أونوريه الأنيق، مررت بإيرميه، ثمّ القصر الرّئاسي، بحثًا عن مكان أختبئ فيه. كنت قريبة من لوبريستول حيث أقامت الآنسة ريدر في بداية الاحتلال. أوصل كتبًا للمرهقين نفسيًا هناك. جريت، وقبل أنْ يصل الحارس إلى صندوق البريد، فتحت الباب، واتّجهت نحو المكتب الأمامي، حيث رجوت البوّاب أنْ يقودني إلى الباب الخلفي. أفضى بي إلى غرفة الاستقبال البيضاوية، ثمّ إلى الباب؛ باب خشبي يؤدي إلى مطبخ فيه أصوات مزعجة، ومنه إلى شارع جانبي.

وقفت لأتنفّس، وتساءلت إذا كان عليّ تسليم الكتب أو العودة إلى المنزل. قرّرت أنّ لي حقَّ مقابلة من أشاء.

البروفسورة: لم أكن متأكّدة من مجيئك.

- سلكت طريقًا طويلًا.

لمست الكتب بمحبّة كما تفعل أمّي إذا لمست وجهي. تأكّدت من وجود صباح الخير، منتصف الليل عشر مرّات على الأقل. سألتها عن سبب حبّها لهذين الكتابين، فقالت: جين ريس

شـجاعة. تقـول الحقيقـة وتكتـب لليائسـين ومرهفـي الحـس.

فتحـت صفحـة عشـوائيّة مـن الكتـاب، كمـا أفعـل دائمًـا لأعـرف ماهيّـة أي كتّـاب. «تبـدو باريـس فـي غايـة البهـاء هـذه الليلـة... تبديـن جميلـة هـذه الليلـة، يـا جميلتـي، يـا عزيزتـي، يـا للعجـب كيـف أنّ بإمكانـك أنْ تكونـي منحطّـة!» خفـت. هـذا ليـس شـعوري نحـو مدينتـي إطلاقًـا. لاحظـت البروفسـورة ردّ فعلـي، فقالـت: تذكّـري أنّ ريس تصـف باريـس بوجهـة نظـر أجنبيّـة تملـك مـالًا قليـلًا، ولا أحـد يسـاعدهـا».

أحـبُّ البروفسـورة كوهِـن، وأردت أنْ أحـبّ مـا تحـب، فقلـت: عدينـي بأنّـك ستسـمحين لـي بقراءتهـا إذا انتهيـتِ منهـا. أتعتقديـن أنّـي سـأحبّها؟

أحكمت لفّ شالها، وقالت: لست متأكّدة. النّهاية حزينة.

* * *

عنـد التّاسـعة مـن صبـاح اليـوم التّالـي، انتظـرت الكونتيسـة مـع زوجهـا فـي سـيّارتهما أمـام المبنـى الـذي أقطـن فيـه. قبّعـة زوجهـا اللـواء غطّـت معظـم شيب شـعره. لديـه انتفاخـان تحـت عينيْـه كأغلب الباريسـيين. ضغـط علـى الفرامـل، فسـارت السّـيارة علـى الحصـى مثـل خيـل مسـن لا يريـد التّقـدم. مـن المقعـد الخلفـي، لاحظـت أنّـه أمضـى وقتًـا أطـول فـي تأمّـل زوجتـه مـن الانتبـاه إلـى الطّريـق. مررنـا بقـوس النّصـر، ووصلنـا إلـى الفنـدق الضّخـم حيـث مقـر مكتـب د. فوكس.

اللواء: هل أرافقكما؟

الكونتيسة: يمكننا الإجابة عن أسئلته.

اللواء: إذًا سأنتظر.

الرّواق خالٍ. شقراء -يُطلق الباريسيّون على الألمانيّات «فأرات رماديّات» لأنّ ثيابهنّ الرّسميّة شاحبة اللون- قادتنا إلى مكتب د. فوكس الفسيح. جلسنا بتحفّظ إلى مكتبه. حامي المكتبة قلق مثلنا. حين رفض الوقوف للتّرحيب بنا، أدركنا مدى. فداحة الأمر. حذّرنا بلغة فرنسيّة: قولا الحقيقة.

انتصبت قامة الكونتيسة وقالت: سنجيب عن أي سؤال يتعلّق بالمكتبة إجابة كاملة.

- استلمنا رسالة كاتبها مجهول تتهم المكتبة بنشر منشورات تعادي هتلر.

- أهذا اتّهام؟

- وجدنا الرّسومات في كتبكم.

دفع بملف إلى الكونتيسة التي قلّبت صفحاته، ثمّ قالت: تاريخ هذه الرّسومات يعود إلى مدة تسبق الحرب، والدّوريّات التي تشبه هذه لا تخرج من قاعدة القراءة. وضعت الكونتيسة الملف، ثمّ أضافت: أؤكّد لك أنّي لن أخون المكتبة التي قطعت عهدًا بحمايتها.

قلت بعدم لباقة: انتشارها يعني أنّ أحد موظّفيكم قد أخرجها. شاهدت شخصًا حاول سرقة جريدة.

الكونتيسة: ششش. فكّري قبل أنْ تتكلّمي.

د. فوكس: أعرف أيضًا أنكِ توزّعين الكتب الممنوعة.

جادلته: قلت للآنسة ريدر أنّ بإمكاننا الاحتفاظ بها عوضًا عن إتلافها.

في تلك اللحظة، رقّت ملامح وجهه، فقال: صحيح، لكن من الآن فصاعدًا، امنعوا الوصول إليها تمامًا. تنفّس بعمق، وأضاف: يبدو أنّنا قد توصّلنا إلى حل يا سيّدتي. قال بعدها باللغة الإنجليزيّة، ربّما لكيلا تفهم الفأرة الرّماديّة التي في الممر: أنا سعيد من أجلكِ، ولا أخفيكما أنّي سعيدٌ لنفسي.

وقف، فعرفنا أنّ اللقاء قد انتهى. لاحظنا حذر د. فوكس من الفأرة الرّماديّة، فالتزمنا أنا والكونتيسة الصّمت حتّى عدنا إلى السّيارة. في طريق العودة إلى المكتبة، تساءلت عن إعلان د. فوكس الغريب. لربّما إذا اكتُشف فعلنا، سيتضرّر هو أيضًا بحكم مسؤوليته عن المكتبات في المنطقة المحتلّة.

بمجرّد عبورنا عتبة المكتبة، أخرج بورِس قارورة من الدّرج، وصبّ بعض ويسكي في ثلاثة أكواب شاي. استرخت الكونتيسة على كرسي وشريت. أوضحت لبورِس الاتّهامات على عجل. فسألني: أيعرف شيئًا عن توصيلنا الكتب؟ أجابته الكونتيسة: لا أعتقد هذا. لكن بعد هذا اللقاء، قرّرت إغلاق المكتبة بمناسبة الإغلاق السّنوي قبل حلول شهر أغسطس؛ من الأفضل عدم استقبال المكتبة غدًا.

يوم الباستيل؛ إجازة أخرى لا سبب يدعو إلى إحيائها.

32

بورِس

يلعب بورِس وزوجته آنّا الورق دائمًا في منزل جارهما مساء كلّ ثلاثاء؛ حرب أم سلم، احتلال أم استقلال. ذهبا إلى آل إيڤانوف لشرب كأس نبيذ وعشاء خفيف. أصبح العشاء أبسط فأبسط مع انصرام الأيام. لعبت هيليان مع نادية في غرفة النّوم. خلف الأبواب المغلقة، مقطوعة لباخ على الفونوغراف، السّتائر مُسدلة، والزّوجان يأكلان حلوى سالو. إلى المائدة، تكلّم فلاديمير عن طالب أخفاه بمساعدة مارينا في عُليّة مدرستهما. اختفى والداه، وكان قد اختبأ في منزله ثلاثة أيّام قبل أنْ يخبر أي شخص. كان يأكل بشراهة رغم كونه في الثّالثة عشرة من عمره فقط، والحصول على طعام إضافي ببطاقة التّموين صعب.

تكلموا بعدها عن أطفالهم. أحبّ بورِس الإصغاء إلى زوجته في أثناء حديثها عن ابنتهما؛ تصبح نبرة صوتها أكثر حنانًا. عيناها تلمعان أيضًا. على الرّغم من إرهاق آنّا بسبب وقوفها في طوابير للحصول على الخبز والزّبدة وكلّ شيء، لم تسمح للحرب بأنْ ترسم خطوط قلق أو تأثّر على وجهها. أرخى بورِس كتفيْه بانهزام ولسأمه من العيش، وكيف لا يسأم وهما قد هربا من الثّورة ووقعا في شراك حرب. انتصاب ظهر آنّا الدّائم منحه القوّة. بعد إزالة أطباق الطّعام، قلّب بورِس الأوراق ووزّعها. نظرت آنّا إلى أوراقها وابتسمت، فابتسم هو أيضًا.

طُرق الباب. تفاجؤوا وتبادلوا النّظرات. لعلّه أحد، أو لا أحد. سيذهب الطّارق. عليهم الانتظار.

طُرق الباب بعنف وتكرار! التقت نظراتهم ولم ينطقوا بكلمة. فلاديمير، مارينا، وآنّا وضعوا أوراقهم جانبًا باستثناء بورِس. ذهب فلاديمير إلى الباب وحدّق في عين الباب. تصلّب في مكانه، فعرف بورِس الطّارق. المباحث النّازيّة.

سيقتحمون الشّقة ليشاهدوهم وهم يلعبون الورق ويستمعون إلى باخ، بينما تلعب الفتيات في غرفة النّوم. فتح فلاديمير الباب ببطء. دفع أربعة نازيين الباب ودخلوا. صوّب أحدهم بندقيته باتّجاه فلاديمير. مزّق رجلان الكتب التي على الرّف، أمّا الرّابع فمزّق وسائد الأريكة. متلصّصون إرضاؤهم صعب. لعلّهم عثروا على الصّبي. فلاديمير ومارينا معلّمان، لا ثوريّان، لكنّهما هنا في مأزق لمساعدة طفل. هل هناك سبب آخر لوجودهم؟ لا يحتاج النّازيون إلى سبب.

لم يعد وجودهم يفاجئ بورِس. شاهدهم الباريسيّون وهم متأنقون، بأحذيتهم اللامعة، يشترون الحلي الرّخيصة لأمّهاتهن. كما شاهدوهم في أسوأ أحوالهم؛ سكارى في الشّوارع، وغاضبين بعد رفض باريسيّة أحدهم. بلا شك، شاهد النّازيّون الباريسيين في أسوأ أحوالهم؛ جوعى وغاضبين، يتشاجرون في طابور اللحام. لا، كانوا أعداء لنا، رحماء بينهم. يحكمون السّيطرة علينا، ويؤازرون بعضهم، معتدّون بأنفسهم.

قال النّازي ذو البندقيّة أمرًا ما بالألمانيّة. آنّا ومارينا وبورِس جالسون إلى المائدة. أغضبهم هذا التّصرّف؛ لماذا يجلسون بهدوء؟

صرخ بالفرنسيّة: قوموا!

وقفت آنّا بكبرياء كأنّها على عرش. لن تظهر فزعها أبدًا، لأنّهم سيشعرون حينئذ بالانتصار. قال النّازي لفلاديمير: الواقف عند الباب.. قف مع الآخرين. أيديكم مرفوعة!

رفعوا أيديهم. انتبه بورِس إلى بطاقات اللعب التي في يده. المسدّس موجّه إلى بورِس. هل سيعتقلونه؟ روسيا وأمريكا تحاربان ألمانيا، وهو فرنسي-روسي يعمل في مؤسّسة أمريكيّة. تعرّف الآن إلى حامل البندقيّة؛ إنّه الرّجل الذي حاول سرقة الجريدة، وطلبت أوديل منّا تعليمه آداب التّصرّف في المكتبة من خلال دفع قيمة الاشتراك لاستعارة الكتب.

أوديل! ضحك وضحك.

أُطلقت رصاصة. ألم في جسد بورِس. دمٌ لطّخ قميصه الأبيض. سقطت البطاقات، وسقط معها على الأرض. ألم قاتل. في تلك الرّقصة الأخيرة، فكّر: أخبري الأطفال أنّي أحبّهم. آنّا تعرفين شعوري.

لم يتذكّر سقوطه، لم يتذكّر ارتطام رأسه بالأرض. شعر أنّ آنّا إلى جانبه، شاهد دمه على يديها. سمع النّازيين يصرخون. مصاب جلل. تمنّى صعود السّلم اللولبي، المشي بين الكتب، أنْ يكون عند رف (البعث بعد الموت) الهادئ.

33

لِيلي

فرويد. مونتانا. أغسطس 1987

أنجل -أخت ماري لويز- على غلاف جريدة البلدة. كملكة عادت إلى وطنها. جميلة تجمع التّبرعات للأيتام أو معسكر التّشجيع. نظرتها تُغوي الرّجال. أمضيت السّاعات مع ماري لويز ونحن نبحث عن طريقة تجعلنا مثلها. للحصول على إجابات قاطعة، تسللنا إلى غرفة أنجل، استرقنا السّمع، كأنّ سو بوب ستأتي من القاعة. خطر تشوبه رائحة عطر جورجيو الجميل.

بحثت ماري لويز في الأدراج. علقت بإصبعها صدريّة قياسها كبير. لمسنا بلوزاتها الوبريّة، أنعم من الجلد، وتخيلنا ارتداءها. ما شعوري إذا امتدت يد روبي تحت السّترة؟ لذيذ. تحت السّرير وجدت علبة حذاء فيها أساور مصنوعة من ورود وعلبة بلاستيكيّة زهريّة اللون داخلها حبوب كصدف حلزون. حبّة ضبط النّسل بين يدي كسلاح؛ كلاهما يتحكّم في الأجساد. غلّفتها بورقة قصدير، لكنّ ماري لويز طلبت منّي إرجاعها.

على طاولة التّزيّن مساحيق تجميل كأنّها مباضع جرّاح. قلم الكحل الأزرق جعل عين أنجل تبدو كمحيطات لا نهاية لها. جرّبناها وبدونا كمجنونتيّن. أخيرًا، نسينا أنفسنا في خزانة ملأى بفساتين طويلة من الدّانتيل. لمسناها فشعرنا بأنّنا نلمس قطعًا من الجنّة.

عدت إلى المنزل، فوجدت إليونور جالسة على الأريكة تنتظرني. وقفَت ثمّ قالت لي بتجهّم: هاتفتني سو بوب. لم أصدّق أنّ اتّصالها أسرع من وصولي إلى المنزل. أضافت دون انفعال وباهتمام: تعلمين أنّ التّلصّص على شؤون الآخرين خطأ. ماذا لو أنّي فتّشت أشياءك؟

قلت بفظاظة: فتّشي! لا أسرار عندي.

وقفت أوديل وقالت لي: يا عزيزتي، لكل شخص منّا مشاعر خاصّة. أبوك، إليونور، أنا. كوني ممتنة لما يشاطرك به النّاس من الأسرار إذا استعدّوا للحديث عنها. حاولي تقبّل الحدود التي يرسمونها بينك وبينهم، واعلمي أنّك لم تتسببي في إقامة هذه الحواجز.

لم أفهم نصيحة أوديل، فتدخلت إليونور لتبسيطها: لا تتجسّسي على الآخرين. ستجلبين المتاعب لنفسك.

- لماذا تعظانني وتتجاهلان أنجل التي تحتفظ بحبوب تحديد النّسل؟

شهقت إليونور، فامتلأتُ رضى. أمسكَت أوديل ذراعي بقوّة، وقالت: أصغي إليّ، لا أسوأ من إفشاء أسرار الآخرين. لماذا أخبرتنا عن أمورٍ تخصّها؟ أتحاولين التّسبب بمشكلات لها؟ تدمير سمعتها؟ إيذاءها؟

- لم أفكر في هذا.

بعبوس أضافت: إذن فكّري في المرّة القادمة لكيلا تفضحي الآخرين.

إليونور: لا أحد يحب النّمامين.

أدارت ظهرها لي وجلست لاستكمال حديثها مع أوديل.

أوديل لأمّي: إذن برأيك أنّ عليّ الذّهاب؟

هذه أوّل مرّة أرى أوديل الواثقة بنفسها متردّدة في شيء ما. فسألتها: تذهبين إلى أين؟

إليونور بصوتها الحاد: شيكاغو!

شيكاغو. تنهّدتُ وتمنيت الهروب من النّاس الذين يراقبون كلّ أفعالي. تمنيت لو أنّ بإمكاني الذّهاب إلى مدينة تعج بناطحات السّحاب والمطاعم الرّاقية. قلتُ بإصرار: يجب أنْ تذهبي!

- لم أركب أي قطار منذ مجيئي إلى هنا قبل أربعين عامًا. منذ ذلك الحي لم أر صديقتي لوسين.

أنا: لماذا لم تريها من قبل؟

- دعتنا، لكنّ أباك رفض الذّهاب. بعد وفاته، اعتدت الرّفض.

إليونور: فكّري في المتاجر والمسارح! لم لا أذهب إذا أتيحت لي الفرصة؟ أليست مقابلة صديقة أمرًا جميلًا؟

- تريدني البقاء معها شهرًا كاملًا.

إليونور: يمكنني أنا ولِيلي إيصالك إلى محطّة القطار.

قالت أوديل: سأفكّر في الموضوع.

جوابها من خبرتي يعني «لا».

في السّرير في تلك الليلة، نمت في أثناء قراءة **العودة إلى الوطن**، وصلني صوت جدال من تحت باب غرفتي. «سو بوب لا يمكنها التّحكم في بناتها وتعتقد أنّ بإمكانها أنْ تعلّمني كيفيّة تربية ابنتي؟» قال أبي: أنجل قضية خاسرة، وماري لويز تسير على نهج أختها.

إليونور: هراء. ماري لويز طموحة.

اكتنف الامتنان قلبي. فُتح باب غرفتي، سمعت صوت خُفّي إليونور على السّجادة. أطفأت المصباح.

بهمس قلت لها: شكرًا.

إليونور: على ماذا؟

لأنّك لم تغتاظي من تلصّصي. لأنّك شجّعتِ أوديل. لأنّك رأيت الخير الذي في ماري لويز. لأنّك متفهّمة. لم أقل أيًّا ممّا سبق. كل ما فعلته هو التّدثّر بالبطانية، وأنا أشعر بسعادة لم أشعر بها منذ مدة طويلة.

* * *

بعد عشرة أيّام، أوصلنا أوديل إلى المحطّة في (وولفبوينت). من المقعد الخلفي، شاهدت الأرض البور وتمنيت لو أنّي المسافرة. في أثناء انتظارنا على الرّصيف، سألتني أوديل: ماذا لو أنّها تغيّرت؟ ماذا لو لم نتّفق؟ سأكون في مأزق».

إليونور: يمكنك العودة أبكر. فرويد موجودة دائمًا.

أوديل: شوقي ليس لبلدتنا فرويد.

وضعت رجلي فوق رجلها، وقلت لها: سأشتاق إليك أنا أيضًا.

ارتقت إليونور القطار. على الرّصيف الخالي، لوّحنا لإليونور.

* * *

بعد أسبوعين، إلى مائدة العشاء، في أثناء تقطيع الدّجاج لجو، طلبتُ من أبي الحصول على رخصة قيادة السّيارة مرّة أخرى. «ماري لويز تحصّلت على الرّخصة».

سألني: لماذا تقارنين نفسك بالآخرين؟ أنت جميلة ومميّزة.

نظَّفْت صلصة الطّماطم التي غطّت وجه جو. «مميّزة صحيح، لأنّي آخر من ستحصل على الرّخصة». أردت أنْ أقول له إنّه لن يحبسني في هذا المنزل إلى الأبد. علّمتني ماري لويز القيادة على الطّريق القذرة المؤدية إلى مكب النّفايات. القيادة ليست صعبة.

قال: بعد الذي حدث لابنة آل فلين، سأقلق عليك كثيرًا. لا أريدك أنْ تخاطري بروحك.

كانت جِس فلين في رحلة مع شباب يقودون السّيارة وهم سكارى. ماتت فورًا. بكاها أهل بلدتنا خمسة أعوام.

جادلت إليونور: المراهقون لا يشربون وهم في طريق الذّهاب أو الإياب من المدرسة.

إليونور: لا ضير في منح شابة شيئًا من الاستقلالية، ثم أليس من الأفضل لها أنْ تتدرب قبل دراستها في الجامعة؟

اتّهمها أبي بالانحياز لي لتكسب إعجابي. شرعَت في تنظيف المائدة؛ رمت الفضيّات في الأطباق. أنا الآن عالقة في مشاجرتهما؛ مشاجرة تسبّبت بها دون قصد.

بعد العشاء، زارتني ماري لويز. تربَّعنا على البساط، واستندنا إلى الجدار، واستمعنا إلى فرقة (ذا كيور) الموسيقيّة. قلت لها: عاد أبي وإليونور إلى شجاراتهما. أتمنّى لو أنّ باستطاعتي الهروب إلى شيكاغو.

- ستحتاجين إلى ادخار المال زمنًا طويلًا. ستنجحين وأنتِ في الثّلاثين من عمرك.

- حينها لن أستمتع بالحياة. فكّرت في پول بلا روح.

يمكننا فعل ما يحلو لنا في المنزل، وقد لا تحصل لنا هذه الفرصة مرّة أخرى. فتحت الدّرج، لكن لم أجد إلّا قصاصات جرائد قديمة. سألتني ماري لويز وهي تسقي السّراخس اليابسة: عمَّ تبحثين؟

«دلائل». أردت اكتشاف ما لم تحكِه أوديل. سحبت الكتب من الرّفوف، على أمل العثور على صورة أخرى؛ رسالة حب، دفتر يوميّات. الممنوع مرغوب، وهل من طريقة أخرى لاستكشاف الأشياء؟ لا تتلصّصي. ستقعين في المتاعب. شعرت بتأنيب ضمير، لكنّي واصلت تقليب الكتب.

- لعلّك لا تعرفين كلّ شيء عن أوديل. ماذا لو أنّها أحبّت نازيًّا؟

تذكّرت صورة حامي المكتبة. شكله عادي بالنّسبة إلى نازي. هززت رأسي. «لا مستحيل! كانت من أعضاء المقاومة، تفك الشّفرات المخفيّة في الكتب. أراهن على أنّها عشقت أحد أفراد المقاومة. لعلّه مات في أثناء تنفيذ مهمّة سريّة.

أضافت ماري لويز: لم تضحك مدّة سنة كاملة. لكنّها ابتسمت حين رأت السّيد غوستافسون، وقد ساعدها على الابتسام مرّة أخرى. كيف التقيا، على أي حال؟

حاولت التّخمين. «سقط بالباراشوت في فرنسا بعد أن أطلق العدو النّار عليه. نقلوه إلى المستشفى حيث تطوّعت مدة أسبوع».

- لكن حين قابلته، تطوّعت يوميًا.

تأمّلنا صورة زفاف أوديل. كان فمها مزمومًا ونظرت مباشرة إلى الكاميرا. حدّق زوجها إليها بمحبة.

أنـا: ألا ترينـه مسـتلقيًا على سـرير المستشـفى وهـو ينظـر إليها بـكلّ حـب؟

مـاري لويـز: بادلَتـه الحـب، لكنّهـا لـم تعتـرف لـه، لأنّ على النّسـاء التّظاهـر بالحيـاء آنـذاك.

بالتّأكيـد. تخيّلـت أوديـل مرتديـة قبّعتهـا، تتحـدّى المباحـث النّازيّـة بـذات الطّريقـة التـي تحديـت فيهـا والـدي. أراهـن علـى أنّهـا أخفـت يهـودًا فـي شـقّتها.

مـاري لويـز: لـو أنّ أوديـل أخفـت آن فرانـك فـي شـقّتها، لكانـت علـى قيـد الحيـاة اليـوم.

أنا: بالضّبط. لنرَ ماذا لديها بعد!

تركنـا الكتـب مكدّسـةً واتّجهنـا إلـى غرفـة النّـوم. تـوارت مـاري لويـز فـي الخزانـة. «صنـدوق جواهـر! لكنّـه مملـوء بأحجـار الياقـوت مـن عاشـق قديـم!»

تبعتهـا إلـى داخـل الخزانـة. ضيّقـة علينـا. لامـس خـدّاي أكمـام ثيـاب أوديـل. علـى علّاقـة منامـة سـوداء مـن الدّانتيـل شـيء حسّـي -يشـعر المـرء بالخجـل إذا رآه- تـلألأ. بندقيّـة بَـك فـي الزّاويـة. يُفتـرض ألّا نكون فـي غرفـة أوديـل، ولا فـي خزانتها، ولا بين أشـيائها. أدركـت هـذا. لكنّـي لـم أتوقّـف عـن لمـس سـتراتها المصنوعـة مـن الكشـمير، والمطويّـة كأنّهـا لا تـزال فـي متجـر. أشـارت مـاري لويـز إلـى صنـدوق أبيـض علـى الـرّف الثّانـي. سـحبته، وفتحـت مـاري قفلـه الذّهبـي. قلـت بتعجّـب: ليـس مقفـلًا!

ماري لويز وهي تحمل أوراقًا: معضلة!

أنا: لعلّها رسـائل غرام!

هذه أمنيتي، أن أجد شيئًا من ماضي أوديل، كرسائل كتبها حبيب. بَكْ أو أي شخص آخر، شخص مفعم بالحيوية وأجنبي. الأوراق قديمة صفراء. سحبت الصّفحة الأولى. خطّها الأنثوي هو خط أوديل. من الصّعب فهم الفرنسيّة. الرّسالة ملأى بكلمات مثل: «مخبأ» التي رأيتها مرّة واحدة منذ زمن طويل.

باريس

12 مايو 1941

سيّدي المفتّش:

لماذا لا تبحث عن اليهود المختبئين؟ هذا عنوان البروفسورة كوهِن في 35 حي بلانش. كانت أستاذة الأدب في جامعة السّوربون، أمّا الآن فتدعو الزّملاء والطّلبة إلى منزلها، وأغلبهم ذكور وفي مثل عمرها!

إذا خرجَت من شقتها، ستعرفها من مسافة كيلومتر بسبب قبعتها البنفسجيّة، وريشة طاووس في شعرها. اسأل اليهود عن شهادة تعميدهم وستتيقن من دينهم الحقيقي. في الوقت الذي يعمل فيه الفرنسيّون والفرنسيّات أعمال الخير، تجلس السّيدة البروفسورة في شقتها لتقرأ.

العنوان صحيح. حان دورك.

الإمضاء،

العارف

حقد دفين عمره أربعة وخمسون عامًا انبعث من الورقة. ألهذا السّبب تتجنّب أوديل الحديث عن ماضيها؟ لأنّ الكلمات قبيحة؟ شعرت بأنّي داخل كرة زجاجيّة اهتزّت فدار الثّلج حولي. غير أنّه ليس بثلج؛ بل قصاصات رسائل قديمة. ضربتني ماري لويز براحة يدها، وعاتبتني: لماذا مزّقتها؟

- مزّقت ماذا؟

أشارت إلى القصاصات على الأرض. «ستكتشف الأمر. نحن في مشكلة عويصة».

لا معنى لأي شيء. «لا أهتم».

تذكرت صورة حامي المكتبة. احتفظت أوديل بصور من تحب. لعلّها واعدت نازيًا، وساعدته في عمله. في نهاية المطاف، لم تعد إلى فرنسا ولم تزرها أسرتها قط؛ لعلّهم تبرّؤوا منها.

ماري لويز: ماذا قرأت في الرّسالة؟

لم أردها أنّ تعرف مدى بشاعة النّاس. لم أرد مشاركتها شكوكي تجاه ما فعلته أوديل. لماذا احتفظت بالرّسالة إذا لم تكن هي من كتبتها؟

أعادت السّؤال: ماذا قرأتِ في الرّسالة؟

- لم أفهمها.

ربّتت على كتفي وقالت: لا بأس. لربما لا تتقنين الفرنسيّة كما اعتقدتِ.

وجدنا الدّليل الذي كنت أبحث عنه، والآن... شعرت بالعجز، وألم في بطني.

أشـارت مـاري لويـز إلـى رسـالة أخـرى، وقالـت: إذا لـم تفهمـي هـذه الرّسـالة، اقرئـي رسـالة أخـرى.

- لا شيء لأفهمه. هراء. هراء قديم.

حاولت تمزيقها، لكنّ ماري لويز سحبت الرّسائل منّي وأعادتها كما كانت في الصّندوق.

أنا: أريد العودة إلى المنزل.

ماري لويز: لعلّك على حق. ربّما علينا أنْ نعود.

أوديل: أجل، ربّما عليكما أنْ تعودا إلى منزلكما.

أوديل.

استدرنا لنراها. حاجباها مرتفعان، منحنيان كعلامتي تعجّب. ماذا نفعل في غرفتها؟ ما هذي الأوراق الممزّقة عند قدميْنا؟

أنا وماري لويز معتادتان على المتاعب، لكن لم يحدث أنْ اكتشفنا متلبستيْن. أراد جزء منّي الاعتذار إلى أوديل لاقتحام خصوصيّتها، لكن أراد جزء أكبر منّي أن تعتذر هي عن الرّسالة القذرة، وعن تعليمي أسوأ الكلمات الفرنسيّة، لأنّها جعلتني أعتقد أنّها من المقاومة وهي مجرّد كاذبة.

بهدوء سألت: هل أنت من أنزلتِ كتبي من الرّف؟

سقطت الرّسائل من يدي. خرجت ماري لويز ركضًا. لو أنّي تعلّمت شيئًا واحدًا من أوديل، فسيكون عدم التّردّد. نظرت إلى عينيْها مباشرة؛ إلى عينيْها البنيتين الرّقيقتين دون تردد. «من أنتِ؟»

34
أوديل
باريس. 19 يوليو 1943

لم تلق بِتْسي تحيّة الصّباح. اقتحمت غرفة نومي، حيث كنت أكتب رسالة إلى رِمي على مكتبي. قالت بنفس متقطّع: كان بورِس يلعب الورق!

- الورق؟

- ثمّ أطلقوا رصاصة عليه!

رصاصة؟ يدي على قلبي. «حي؟»

- نقلوه إلى مستشفى (بتي) للتّحقيق معه.

تحت مراقبة الشرطة النّازيّة. مستشفى (بتي) رديف لعقوبة الإعدام. لا، ليس بورِس. لا أتحمّل فقد صديق آخر. واصلت بِتْسي حديثها: جلست بقلق في البيت، فذهبت إلى المكتبة لأنجز شيئًا. كانت الكونتيسة قد عادت للتّو من مقابلة د. فوكس. قالت لي إنّ زوجة بورِس قد هاتفتها عند منتصف الليل. في الصّباح، توجّهت إلى حماة المكتبة مباشرة. قال له: «بورِس يعمل في المكتبة منذ عشرين عامًا تقريبًا. لن يرتكب أي خطأ. وعدتنا بمساعدتنا إذا كانت هناك مشكلة». طلب منها كتابة تقرير. الكونتيسة على علم بالنّازيين والتّقارير! فقدّمت تقريرًا مطبوعًا يذكر بتفصيل الواقعة، وبتوقيع الشّهود. هاتف شخصًا ما، فعرف أنّ بورِس سيُرحّل إلى معسكر النازية.

- يُرحّل؟

- لكنّ د. فوكس وعدنا بمساعدتنا.

فعل. كنت أعرف أنّ حماة المكتبة أفضل من الباقين. سألت بِتْسي: كيف نساعده؟

- بمساعدة آنّا.

قدنا درّاجتيْنا إلى (نتشف) في الضّاحية القريبة. هل آنّا هنا؟ دخلنا شقّة فيها أصدقاء وأقارب يتهامسون. أجل كانت هيلين في الغرفة الأخرى وسمعت كلّ شيء. طفلة مسكينة في السّادسة من عمرها فقط. عمَّ بحث النّازيّون؟ أتمنّى أنْ يسمحوا لآنّا برؤية زوجها. هل تصدّقون أنّ الجنود قد عادوا عند الثّالثة فجرًا؟ أرادوا علبة سجائر كانت على المائدة.

عادت آنّا شاحبة متأخّرة في ذلك المساء. أدخلها النّازيون في غرفة في سرداب وعرضوا عليها صورًا كثيرة لأشخاص لا تعرفهم -عرضوا ذات الصّور على بورِس- ثمّ سمحوا لهما بلقاء بعضهما. كان لا يزال مرتديًا قميصه الملطّخ بالدّم، ولم يفحصه أي طبيب.

***

في أغسطس، نُقل بورِس إلى المستشفى الأمريكي بوساطة من د. فوكس. كانوا قد أطلقوا النّار على رئته، ولأنّ الجرح لم يعالج لأيّام، تلوّث. سمح له الأطباء باستقبال زوار غير زوجته بعد شهر كامل. في مدخل المستشفى الفسيح، قالت آنّا لي ولبِتْسي: إنّه يشعر بتحسّن الآن. شاكسني البارحة لأجلب سجائر له.

ابتسمت. لم أعرف إذا كان يمزح.

مارغريت وهي مقبلة باتّجاهنا: مرحبًا! أعتذر عن تأخّري.

لم أقابلها منذ أسابيع. تبدو سعيدة، وبشرتها مُسمرّة من أثر الشّمس. قالت: بورِس المسكين! لماذا لم تخبروني من قبل؟

قلت لها باقتضاب: هاتفتكِ ولم تجيبي على اتصالاتي.

مارغريت: «كنت على الشّاطئ مع...»، ثمّ نظرت إلى بِتْسي وآنّا. «كنت على الشّاطئ. كان من المفترض أنْ أتواصل معكم».

في طريقي لمقابلة بورِس، حيّتني ممرّضة بمودّة. من الجميل أنْ يتذكّرك أحدهم. تكلّمت معها في الرّواق في أثناء تأكّد آنّا من استيقاظ زوجها. فور دخولنا إلى الغرفة، توجهنا إليه مباشرة. بجلبة كما تفعل ماما، عدّلت البطانية التي على صدره. عيناه الخضراوان غائرتان من أثر الأدوية المُسكنة للألم، لكن طرف فمه ارتفع كما كان يفعل إذا أوشك التّندّر.

- دولتنا أصبحت فرنسا الكافكويّة فعلًا.

بصوت خفيض قلت: إنّها **التّحوّلات**.

قال: أعتذر لأنّي جعلتك تعملين وحدك في مكتب الاستعارة.

لا مشكلة. تسرني مساعدة القرّاء. بلا شك، لم يمنع إغلاق المكتبة السّنوي القُرّاء من الحضور كلّ يوم! عِدني الآن بأنّك ستتعافى.

- أتعافى؟

قالها بمزاح. تألّم بشدّة فواجه صعوبة في الكلام. قبّلت بِتْسي وجنته، ثمّ انتقلت إلى جانب الغرفة.

مارغريت: بورِس، لا أخفيك إعجابي بتوقيت إصابتك؛ أصبت وتعافيت خلال فترة إغلاق المكتبة السّنوي.

قال: أصبت قبل هذه المرّة، لكنّي أتمنّى أنّها الإصابة الأخيرة.

بصوت جهوري صحت: ماذا؟

أغمض عينيْه، فقالت آنّا: إنّه يشعر بالإجهاد بسهولة. رافقتنا إلى الباب، ثمّ أضافت: لكنّه مصر على العودة إلى العمل في أقرب وقت.

بِتْسي: أصدّقه. متى يمكننا زيارته مرّة أخرى؟ هل تحتاجين إلينا للاعتناء بهيلين؟

في أثناء حديث آنّا وبِتْسي جذبتني مارغريت بعيدًا عنهما لتقول: لا يمكنني تعريف فيليكس لابنتي لأنّ عمرها صغير جدًّا، ولن تحتفظ بالسّر. لكنّي أحتاج إلى شخص ليتعرّف إليه، ليرى مقدار لطفه. أريدك أنْ تقابليه.

هل تتوقّع حقيقة أنّي سأقابل عشيقها؟ قلت لها: يفترض ألّا تواعديه.

- لقد أنقذ حياتي. إنّه ينقذ حياة رِمي.

مارغريت على حق، لكنّها تجانب الصّواب في آن واحد.

قالت: أطلب ساعة واحدة من وقتك.

تتكلّم عادة دون أنْ تفكّر في كلماتها، لكنْ أنْ تطلب أمرًا وضيعًا، فهذا يعني أنّها بلهاء فقدت صوابها.

قلت لها: حتى خمس دقائق ستكون كثيرة.

مارغريت بتأفّف: لم أرفض طلبًا لكِ من قبل.

بتسي: هل تتشاجران؟

أنا: لا. تعرفين كم أكون سليطة اللسان أحيانًا.

رفعت بِتْسي حاجبًا: أحيانًا فقط؟

بريد السَّجناء

3 سبتمبر 1943

أوديل العزيزة،

قد تكون هذه آخر رسالة لك. ما زلت مريضًا ويخبرني الأصدقاء أنّي كنت أهذي. لم يبرأ جرحي، وهو يزداد سوءًا لعدم وجود دواء.

لا تسمحي لهذه الحرب، أو أي شيء أنْ يبعدك عن پول. تزوّجيه، ونامي بين ذراعيّه كلّ ليلة. لا سبب يدعوكما للتّعاسة. كنت لأكون مع بِتّسي لو كنت خارج السجن. كنت لأمضي كلّ دقيقة معها.

لا تحزني مهما حدث. أومن بالرّب. تحلّي بالإيمان.

محبّة،

رِيمي أخوك.

تخيّلته على سرير خشبي بارد، بعيدًا عن أحبّته. رِيمي الحبيب عد إلينا. عد إلينا. أوجعني بطني، فهرعت إلى دورة المياه حيث استفرغت. أرجوك لا تمت. أرجوك لا تمت. توجّهت بعدها إلى الرّواق واستندت إلى الجدار. كل جسدي يؤلمني؛ بطني، رأسي، قلبي. مررت يدي على وجهي، على شعري، على عنقي لأخفّف الألم. لا بدّ من وجود شيء نفعله. فتحت درج الدّواء وأخذت المراهم، ولاصقات الجروح، علبة أسبرين (فيها ثلاث حبات)، وأي شيء قد يفي بالغرض. أشياء كثيرة بين يدي، ذهبت لأبحث عن علبة في المطبخ.

«ماذا يحدث؟» نظرت أمّي إلى الأشياء التي على الطّاولة. «ماذا حدث لشعرك؟ تبدين كمعتوهة!

قرأت الرّسالة لها.

« يا رب...» ساعدَتني في تجهيز الطّرد، رغم أنّنا نعلم علم اليقين أنّنا تجاوزنا عدد المرات المسموح لنا بإرسال شيء له في الشّهر. قالت: قد ترفض السّلطات الطّرد، لكنّنا نحاول...

أذهلني هدوءها. حتى وصول هذه الرّسالة، كانت قد آمنت بعودته. لعلّ أمّي عرفت معنى الحرب أفضل منّي لأنّها عانت أهوال الحرب العظمى، ولهذا السّبب انهارت فور وصول نبأ سجن رِمي.

* * *

بعد أسبوع، عدتُ إلى المنزل وفاجأني إطفاء الأنوار كأنّ لا أحد فيه. فتحتُ نور المدخل واختلست النّظر إلى غرفة الجلوس. شاهدت أمّي وحيدة ترتدي السّواد. قالت: وصلت رسالة. وجنتاها وشفتاها شاحبتان كما لم أرهما من قبل. وجهها خال من أي مشاعر.

ورقة عند قدمها، فعرفت أنّ رِمي قد مات.

في أحد الأيّام حين كنّا في العاشرة من عمرنا، تشاجرنا فارتطمت بقوّة على الأرض لدرجة اهتزازها. على ظهري، غير قادرة على الحركة، لم أتمكن من رفع رأسي، وددت لو أقول له: ليس خطأك اعتقدت أنّي قد شُللت، أنّ أمرًا خطِرًا قد حدث. هذا هو شعوري الآن؛ لا أستطيع نزع سترتي، ولا إغماض عيني، ولا الذّهاب إلى أمّي. وقفت في مكاني.

قال: تمنيت إطلاق سراحه مدة طويلة من الزّمن.

بوَهن قلت لها: وأنا أيضًا... أنا أيضًا.

الأمل مؤلم، لكنّي كنت أعرف أنّ التّوقّف عن الأمل أشدّ إيلامًا. جلست إلى جانبها. أمسكت يدي، وقبضت على مسبحتها.

قالت: عرفت قبل قراءة رسالته الأخيرة. عرفت بشكل ما.

سألتها: هل كنت بمفردك حين وصلت الرّسالة؟

ماما: كانت يوجين هنا لحسن الحظ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شغّلت المصباح. «أين هي الآن؟»

ماما: أرادت ارتداء السّواد.

أنا: يجب أن نطلب حضور أبي.

أطفأت المصباح. قالت: لا يستحق أنْ يعرف.

- أوه ماما...

- برهَن رِمي رجولته لأبيكِ.

حتّى لو كان كلامها صحيحًا. لن يعيده العتب إلى الحياة. إذا انصب غضبها على أبي، فهذا يعني أنّه ميت بالنّسبة إليها، ميت مثل رِمي. يجب أنْ أنسيها انفعالها.

قلت: يجب أنْ نخبر بِتْسي.

قالت: غدًا. دعيها تحظى بليلة هانئة قبل أنْ نفطر قلبها غدًا.

في صمت، عشنا أنا وأمّي الصّدمة. أجهل كم مضى من الوقت. «لم يمت حتمًا. لن يموت إلا إذا توقّف تفكيرها وشعورها نحوه». 813: **أعينهم كانت تراقب الرّب.** عليّ التّفكير فيه دائمًا. رِمي يكتب مقالًا على مكتبه. رِمي يحتسي قهوته في مقهاه المفضّل، يداعب قطًا في حضنه. يضحك مع بِتْسي. رِمي، آه يا رِمي. قال رفاقي إنّي أهذي. فارق رِمي الحياة، وفي قلبي الكثير لأحكيه له.

35
پول

توجّه پول إلى مكتبه لا يشغل خلده إلّا موضوع واحد؛ أوديل. كأنّ تركيزه عليها سينسيه أمورًا أخرى. حين التقاها أوّل مرّة، كانت غاضبة ولم يعرف السّبب، وحين أهداها باقة زهور رقّت ملامحها. فمها عذب حلو كالكرز. حركة ردفيْها. أوديل ترتدي اللون الأسود. أوديل دون ثياب. صدرها. أحب مداعبتهما.

طرق ربّ عمله المكتب. «أليس لديك عمل؟»

حرّك پول كرسيّه. «بلى. لكن لماذا ...»

- لا يحق لك طرح الأسئلة. أنت تخرس وتنفّذ الأوامر. هذه قائمة.

لم يفهمها. حين اندلعت الحرب، اعتقلت الشّرطة الشّيوعيين، والألمان المسالمين المقيمين في فرنسا، وعددًا من الإنجليز - حتى السّيدات، ثمّ اليهود. على الملصق الذي بجانب المكتب قانون ينص على: اليهود من كلا الجنسيْن، الفرنسيّون والأجانب يخضعون لتفتيشات عشوائيّة. يمكن احتجازهم. رجال الشّرطة مسؤولون عن تطبيق النظّام».

طرد بعض زملائه السّكان من شققهم، ومنهم من ادّعى المرض للتّهرب من العمل الكريه، لكنّ پول لم يفعل هذا. فكّر في الهروب إلى المنطقة الحرّة، لكنّه رفض التّخلي عن مسؤوليّاته كما فعل أبوه. أراد القتال في شمال إفريقيا مع الجزء المُستقل من فرنسا، لكنّه لم يستطع التّخلي عن أوديل. رفض عرض أبيها

بالتّرقية ليبيّن لها أنّها أهم بالنّسبة إليه. أخبرها بأمور لم يحكها لأحد من قبل. خياره: إما أوديل وإما كل شيء آخر. اتّخاذ القرار سهل.

دَلَف إلى أبعد عنوان في القائمة. لم يرغب في التّفكير في وظيفته. أوديل تستطيع أنْ تنسيه الوظيفة. أوديل على السّرير. أوديل عارية في المطبخ، تعد شوكولاتة ساخنة في قدر نحاسي امتلكه غريب. تلك المواعيد الغراميّة كانت ممتعة في البداية، لكنّه سئم منها. أريد الزّواج من أوديل. ماذا لو لم يعد رِمي؟ لا أحد يجرؤ على ذكر هذا لها. ماذا لو تمكّن پول من مناقشتها؟ أخذ إذنًا خاصًّا من الرّاهب، وما إن تجيب: «نعم»، يدخل. لم يرد التفكير فيم كان سيفعل. أوديل تقول أحبّك بالفرنسيّة. أوديل تجامله على رسوماته. أوديل تقرأ شيئًا لپول إلوار له بصوت جهوري. أوديل. أوديل. أوديل.

صعد پول طابقين ثمّ رنّ الجرس. فتحت الباب امرأة شعرها أبيض، فقال لها: هل أنت مدام أيرين كوهِن؟ يفترض أنْ آخذك إلى مركز الشّرطة.

- ماذا فعلت؟

- «ربّما لم تفعلي شيئًا. أعني أنتِ...» كان سيقول كبيرة في السّن، لكن تذكيرها بعمرها أمر غير لائق.

- حان وقت إمضائك في المركز.

استدارت لتأخذ كتابًا، فلاحظ ريشة طاووس في شعرها. «يحق لك إحضار كتاب. يزداد وقت الإجراءات الإداريّة مع الأيّام».

- أنا أعرفك. أنت خطيب أوديل.

قرّبت الكتاب من صدره، وقالت: من فضلك، أعطها الكتاب. ستعرف ما عليها فعله. استغرب وارتبك فوقع الكتاب. شاهد شعار المكتبة الأمريكيّة المكتوب باللاتينيّة:

.Atrum post bellum, ex libris lux

أخبرته أوديل أنّ معناه هو: بعد ظلمة الحرب، نور الكتب. التقط الكتاب. «سيّدتي، أنا شرطي، ولست ساعي بريد. ستعودين إلى المنزل مساء، وستتمكنين من إعادته بنفسك.

- أنت ساذج أيّها الشّاب.

قرّب پول نفسه منها، على استعداد لتأنيبها. ساذج! كان خبيرًا! عدم كونه جنديًا لا يعني أنّه سطحي التّفكير. سافر في نواحي فرنسا ليعيل نفسه وأمّه. من هي لتحكم عليه؛ سيّدة معتوهة تضع ريشة طاووس على رأسها. تذكرها الآن تقريبًا. يرتاد المكتبة مجموعة أشخاص لا يعرف أسماءهم. تذكّر أنّ أوديل تكلّمت باحترام عن القارئة المفضّلة لديها؛ السّيدة التي تضع ريشة في شعرها.

ارتدت البروفسورة معطفها. تعرَّق حين رأى النّجمة الصفراء على طيّة سترتها، وتساقطت قطرات العار على جسده. أراد إخبار أوديل عمّا حدث، ذلك الصّباح المريع من شهر يوليو حين أجبر مع والدها على إلقاء القبض على آلاف اليهود، أسر كاملة، وحتّى أطفال. لكنّ هذه ليست وظيفته هو فقط، بل وظيفة أبيها أيضًا.

تأمّل پول كتاب المكتبة الذي يمسكه. أيجب أنْ يحمي أوديل أم يخبرها بالحقيقة؟ أيؤدّي واجبه ويعتقل البروفسورة كوهِن أم يترك هذه الشّقة ولا يعود إليها؟

36
أوديل

لم تسمح لي أمّي بمغادرة المنزل منذ وصول خبر وفاة رِمي. لعشرة أيّام، تعقّبتني في الشّقة. اشتقت إلى أخي وأردت أنْ أبكيه بعزلة، لكنّ أمّي راقبتني. على الأريكة فتحت كتاب **صمت البحر، 843**، ورفعته إلى الأعلى كأنّه درع. احتجت إلى لحظة هدوء فقط، أو بالأحرى العودة إلى عملي والانهماك فيه. المكتبة تحتاج إليّ، وأنا عالقة في المنزل.

أمّي: من الأفضل ألّا يحزنك ذلك الكتاب.

وضعته جانبًا. «اشتقت إلى بورِس. أنا أكيدة من أنّه غير قادر على العمل».

أمّي: ولا أنتِ قادرة على العمل! عشنا صدمة فظيعة.

الزّائرة الوحيدة التي سمحت لها أمّي بزيارتنا هي يوجين. شاهدتهما، متوشّحتيْن بالسّواد، وهما تهتمّان بالجزر الذي ينمو في أصص عند النّافذة.

ماما: يوم إضافي أو يومان.

يوجين: سيكبر أكثر حينها.

ثمّ توجّهتا إلى دورة المياه حيث جهّزتا الثّياب المغسولة للكي. هربت العاملة النّهارية من باريس، ولها الحق في ذلك. ارتدتا تنّورتين قصيرتين قديمتين للقيام بالمهمّة الشّاقّة. صبّتا الماء المغلي على بياضات الكتّان في حوض الاستحمام. دعكَ، ثمّ غسلَ، فعصرَ. ملأهما هذا المجهود حبورًا. انشغلت أمّي بالعمل؛

بأمـر غيـر البـكاء. حاولـت مسـاعدتهما، لكـنّ يوجيـن نهرتنـي: سيفسـد يديّـك. لديـك العمـر بكاملـه للقيـام بمهـام كهـذه، فشـعرت بعـدم الأهميّـة.

ماما: هذه الحرب.

أيدتها يوجين: هذه الحرب.

هذه الحرب وحّدت الأغراب.

أنا: دعاني أساعدكما.

عصرتُ المنشفة المبتلّة، وخرج منها ماء قليل.

قهقهت يوجين: لن تنجح في أعمال المزرعة.

أمّـي بفخـر: ابنتـي ابنـة المدينـة. مجهـود ذهنـي أكثـر مـن المجهود البدنـي. كان بإمكانـي قصـم عنـق دجاجـة دون تـردّد فـي عمرهـا.

حيـن اعتقـدت أنّـي جننـت مـن مكابـدة اشـتياقي إلى پول والمكتبة، دخلـت بِتّسـي علـى عجـل. توشّـحت بالسّـواد هـي أيضًـا: نحتـاج إليـك. وخـزت صـدري كأنّ فكـرة ملازمـة المنـزل فكرتـي. «الكونتيسـة مرهقـة. مـا كان علـى بـورِس مغـادرة السّـرير. نحـن نعانـي!»

انتقل نظر يوجين إلى أمي: أوديل تحتاج إلى الرّاحة.

بِتّسي: حتّى أنا. حتّى أنتِ.

ماما بارتباك: أحتاج إلى أوديل هنا. لو حدث شيء لها...

عانقتها؛ أدركت فجأة سبب حبسي في المنزل.

***

اسـتندت إلـى عضـادة البـاب، ولاحظـت انشـغال بـورِس عنـد مكتـب الاسـتعارة. كان نحيفًـا يرتـدي بذلتـه الرّسـميّة. شـيب علـى صدغيـه. لـولا الكونتيسـة ود. فوكس... وقـف ببطء وتـوازن مختـل

حين شاهدني. قلقلت على جروحه، فقبّلت وجنتيّه بحذر. احتضنني بقوّة. غرقت في رائحة سجائره، فقلت له: آنّا ستقتلك إذا اكتشفت أنّك تدخّن.

باعتراض قال: لا تزال لدي رئة سليمة.

ضحكت. لست مستعدّة للتّوقف عن لمسه، أزحت قطعة وبر عن ربطة عنقه.

قال: أعرف. آسف بخصوص أخيك.

أعرف. أنا أيضًا.

جاءنا آخرون. عزّاني كلٌّ من: الكونتيسة، السّيد بريس-جونز، والسّيد دو نيرسيات، ومدام سيمون. حزن عظيم. تعاطف. هذه الحرب... حين أوشكت أن أبكي، قال السّيد بريس-جونز: اشتقنا إلى المُحكّمة في جدالاتنا.

ابتسمت. أضاف السّيد دو نيرسيات: الشّجار ليس ممتعًا معك.

نبرة صوته خفيضة، لكنّ القلق الذي في عينيّه حكى قصّة تخصّه.

شعرت بأنّي محظوظة لأنّ لدي هكذا أصدقاء، لعودتي إلى المكان الذي أنتمي إليه. في طريقي إلى قاعة المراجع، تنشّقت أجمل رائحة في العالم؛ الكتب، الكتب، والمزيد من الكتب.

خرجت مارغريت من بين الرّفوف، متردّدة كما كانت في يومها الأوّل. انكمشتُ خوفًا حين تذكرت أنّها أرادت تعريفي إلى حبيبها.

قالت: سمعت عمّا حدث لرِمي. بكيت حين سمعت اسمه الذي يذكر نادرًا. واصلت كلامها: بخصوص ما طلبته منك من قبل، أفهمك الآن.

أجبتها: أنا أكيدة من أنا فيليكس رائع، وأسرتي تقدّر الطّعام الذي جلبته لـ...

لم أرغب في ذكر اسم حبيبها مع اسم أخي في ذات الجملة. قالت لي: صليت كثيرًا لكِ ولأسرتكِ. أنا آسفة أنّي لم أزرك في منزلك. حسبت أنّ وجودي غير مرحّب به.

سرقت الحرب الكثير منّا. عليّ الآن تقرير إذا كان عليّ استعادة صداقتنا. قلت لها: حتّى لو تسنّى لي الوقت، فإنّ ماما لن تسمح لأي شخص بدخول المنزل.

- ولا حتّى پول؟
- ولا حتّى بِتسي.
- لم تمزحي حين أخبرتني عن صرامتها.

أشرت إلى ملفّاتي. أنا متأكّدة من وجود عمل كثير.

- هلّا ساعدتني في الإجابة عن الأسئلة؟
- من دواعي سروري.

عادت انسيابيّة العمل إلى المكتبة، وقد أمضينا النّهار في حل الألغاز. (أين يمكنني الحصول على معلومات عن كاميل كلاوديل؟ ما تاريخ كليڤلاند؟) أبقيت يدي في جيبي، على رسالة رِمي الأخيرة. كلماته في ذاكرتي، لكن مع مغادرة آخر قارئ، برزت جملة واحدة: لا تسمحي لهذه الحرب بإبعادك عن پول.

هاتفت مركز الشّرطة: أنا حرّة. تعال إلى المكتبة.

توجّهت إلى الفناء، واقتربت الكونتيسة. «حاولت إيصال الكتب إلى البروفسورة كوهِن مرّتيّن، لكنّها ليست في المنزل. هل يمكنك الآن؟»

يجب أنْ أقابل شخصًا الليلة. هل يمكنني الذّهاب غدًا؟

قالت بتساهل: *هل هذا الشّخص ضامر الخدّين، أزرق العينَين؟*

تذكرت الجملة، فأكملتها: *لكن روحه ليست غامضة.*

أكملت طريقها، تحت أشجار السّنط، أنار أوراقها نور الشّارع البسيط. تذكرت سطرًا آخر من كما تشاء [لشكسبير]: *ستكون هذه الأشجار كتبي/ وفي جذوعها ستُسطّر أُفكاري.*

وصل پول وارتميت بين ذراعيّه.

- آسف لما حدث لأخيك.

اقتربت من جسده أكثر.

- حاولتُ زيارتك. أمّك تتّين.

- غيّرتها الحرب.

- الحرب غيّرت الجميع.

لم أرغب في التّفكير في الحرب، في من فقدناهم، في رِمي أخي الحبيب. سألته ونحن في طريقنا إلى المنزل: كيف عملك؟

- غريب.

- كان السّؤال مبتذلًا في السّابق، لكنّه الآن كمسدّس محشو. بعد خطوات سألته عن عمّته (تعلّمت ألّا أسأله عن أمّه)، لكنّه لم يجبني. لم يجب.

- هل كل شيء بخير؟

توقّفنا. عرفت أنّه أراد قول شيء.

- أخبرني.

- قبل أيّام... حسنًا... والدك يحدد ما علينا فعله...

- أبي؟ ما علاقته بأي شيء؟

- هزّ كتفيْه ومشى متوتّرًا.
- أوقفته. ما الأمر؟
- حدّق إليّ. ما سبب شعوري بالانزعاج؟

***

في اليوم التّالي، للمرة الأولى، لم يتوقّف پول عند المكتبة خلال جولات تفتيشه. تمنيت عدم حدوث شيء له. واجه مصاعب جمّه في عمله؛ تشاجر مع أكثر من مخمور واحد، والمتعاملين في السّوق السّوداء الذين ضربهم رجال الشّرطة بالهراوات لسرقة أرباعهم غير المشروعة. منعني قلقي على پول من تذكّر توصيل الكتب إلى البروفسورة كوهِن، فعدت إلى المنزل مباشرة.

لليلة الثّانية على التّوالي، لم يزرني پول. عند موعد الإغلاق، وضعت كتب البروفسورة في حقيبتي. ارتقت السّلالم الملويّة، وتوقّعت الاستماع إلى نقراتها على الآلة الكاتبة، لكنّي لم أسمع أي صوت. طرقت الباب، وناديتها.

سكون.

قرّبت أذني من الباب. صمت مطبق.

طرقت الباب بقوّة أكبر. «بروفسورة؟ أنا أوديل»

أين ستذهب في هذا الوقت المتأخّر؟ أتزور أحدًا؟ لعلّها ذهبت إلى الرّيف لمقابلة قريبتها، لكنّها لم تذكر لي شيئًا عن عزمها على السّفر. طرقت الباب، ثمّ انتظرت عشرين دقيقة إضافيّة قبل الرّحيل.

في صباح اليوم التّالي في عملي، قلت لبورِس: لأوّل مرّة لم تفتح البروفسورة الباب. لم أعرف ماذا أفعل. هل كان عليّ

الاتصال بأحد؟ هل أعود إلى منزلها اليوم؟

توقّعت أنْ ينفي دواعي قلقي، لكنّه قال: «لنذهب الآن». في الطّريق، أخبرني أنّ ثلاثة مشتركين في المكتبة قد اختفوا. لا نعرف ماذا حدث لهم. هل غادروا باريس؟ وهربوا من أعين النّازيين؟ أم حدث شيء لهم.

وصلنا، وطرق بورِس الباب، ناديت: بروفسورة! أنا أوديل. ما من مجيب.

حين ابتعد پول أسبوعًا آخر للعمل، تحطّمت. فقدت الخالة كارولين ليونيل، وفقدت مارغريت لورنس. لعلّه پول فقد اهتمامه بي. بما أنّ أسرتي قد وصلها نبأ وفاته، كنت سيئة المزاج؛ سريعة البكاء، وواجهت مشكلة في التّركيز على ما يقوله النّاس. لعلّ پول يواعد امرأة أخرى. باريس مكتظّة بنساء شبقات. تذكّرت الوقت الذي مشينا فيه بالقرب من مقاه فيها جنود وحبيباتهم. تذكرت نظراته إليهن.

عند مغيب الشّمس، غادرت المكتبة، ووجدته ينتظرني. ارتحت، وتوجّهت لمعانقته، لكنّه صدّني.

- ما خطبك؟

تجنّب النّظر إلى عيني، وقال: لا تغضبي.

حدسي صحيح. سيفطر قلبي.

- أعتذر عن عدم رؤيتك كثيرًا، خاصّة بعد علمك عن وفاة رِمي. كل ما هنالك أنّ العمل لا يطاق.

ماذا؟ كل هذا بسبب عملك، لا بسبب عاهرة؟ شعرت بتأنيب الضّمير لشكّي فيه.

قلت له: وجودك هنا يسعدني، ثمّ رفعت قدمي لألمس شعره، لكنّه أبعد رأسه.

- اعتقلت امرأة نعرفها. البروفسورة كوهِن.

هذا غريب. «لا بدّ من وجود خطأ» كوهِن اسم مألوفٌ بالنّسبة إليه.

أخرج كتابًا من حقيبته. صباح الخير، منتصف الليل. آخر رواية أوصلتها. تخطّفتها منه.

- متى؟

- قبل أسابيع. أردت إخبارك...

- لماذا لم تقل شيئًا؟

لهذا السّبب لم تكن البروفسورة في منزلها. لا يُعقل. قصدتُ شقّتها. لحقني.

- دعيني أرافقك.

- لا.

- آسف لأنّي لم أخبرك.

سحب يدي، فأفلتها. ركضت. قاعدة حذائي الخشبيّة أصدرت صوتًا عاليًا على الأرض. مررت بمتجر اللحام المغلق بابه بألواح خشب، متجر الشّوكولاتة الذي لا شوكولاتة فيه، بمخبز تتمنى ربّات البيوت وجود خبز فيه، ومطعم كَرَع الألمان النّبيذ فيه.

قفزت السّلالم درجتين درجتيّن، ثمّ طرقت الباب بقوّة. سمعت حركة خفيفة عند الجانب، لعلّ البروفسورة تعدّ إبريق شاي. خرجت من منزلها وعادت. هذا كلّ ما في الأمر. سمعت صرير الأرضيّة، ودخول مفتاح في القفل. البروفسورة بخير. كان سوء تفاهم. ملت إلى الجدار وحاولت التّنفّس.

فُتح الباب، وخرجت امرأة شقراء.

- نعم؟

- أريد البروفسورة كوهِن.

- من؟

- إيرين كوهِن. اختلست النّظر خلف المرأة. شاهدت السّاعة الخشبية، عقربها يُشير إلى السّاعة 3:17. المزهريّة ممتلئة بالزّهور. على الرّفوف أباريق بيرة.

- العنوان خطأ.

- العنوان صحيح.

- لم تعد تقيم هنا. هذه شقّتي الآن.

- أتعرفين إلى أين ذهبت؟

أغلقت المرأة الباب بقوّة. من هذه المرأة؟ لماذا تقيمين هنا؟ أجيبيني. توجّهت إلى باب پول في نُزل الشّباب. أشار لي لأدخل، لكنّي بقيت في الممر.

- لماذا اعتقلت البروفسورة كوهِن؟

- كان اسمها على لائحة اليهود.

- لائحة؟ أي لائحة؟

نكس رأسه.

- هل اعتقلتَ آخرين؟

- نعم.

تذكرت الشّقة المهجورة التي كنّا نلتقي فيها أنا وپول. سألت عن صاحبها، لكنّي لم أهتم حقيقة. عرفت الآن من أصحاب

الشّـقق، ولمـاذا تركـوا حاجاتهـم. أطبقـت يـدي علـى فمـي حيـت تذكّـرت عبثنـا بأشـيائهم، ووثبنـا علـى سـرائرهم.

نظرت إليه، غير مصدّقة ما رأيت.

- كيف أعثر عليها؟

- أنا كادح في منظومة هرميّة. تعرفين من يجب أن تسأليه.

غـادرت دون توديعـه. أمينـة مكتبـة حمقـاء. وظيفتـي تـدور حـول البحث عـن الحقائق، لكنـي غضضـت الطّـرف عنهـا. كان علـيّ طرح الأسئلة، بـدل دفـن رأسـي فـي وسـادات فيهـا ريش الإوز. فـي المنزل، أدركـت أنّ پـول علـى حـق؛ علـيّ التّحـدّث مـع أبـي. سـيضمن إطـلاق سـراح البروفسـورة، فـي غضـون سـاعة ربّمـا.

المائـدة مرتّبـة. غرفـت أمّـي الحسـاء فـي أطباقنـا. معكرونـة رماديّـة فـي المـاء. قالـت: مـا لـن أسـتغني عنـه مـن أجـل الكـرّاث. ذاقهـا أبـي، ثـمّ قـال لهـا: تصنعيـن الكثيـر مـن القليـل المتوافـر. شـكرته. المـرّة الأولـى التـي تتقبّـل فيهـا المديـح.

- بابا، اعتُقلت إحدى صديقاتي.

توقّفـت ملعقتـه عـن الحركـة. نقـل نظـره بتوتّـر إلـى أمّـي التـي سـألتني:

- من هـي يا عزيزتي؟

- البروفسـورة. أخبرتـكِ عنهـا؛ سـاعدتني فـي الحصـول علـى الوظيفـة فـي المكتبـة. قـال پـول إنّـه اعتقلهـا.

ارتجـف الجميـع. نظـرت أمّـي إلـى أبـي، وسـألته: لمـاذا اعتقلـت امـرأة مسـكينة؟ يـا لهـذه الحـرب.

- أزعجتِ أمّك الآن.

لم ينطق بكلمة بعدها.

* * *

بعد الإفطار، ذهبت إلى مقر عمل أبي، وفي رأسي جهّزت ما سأقول. لم أطلب شيئًا منك في حياتي. هلّا حاولت مساعدتي على الأقل؟ مررت بجانب الحارس النّعسان وهرعت نحو مكتبه. الوقت باكر، وسكرتيره ليس هنا لحمايته. دفعت الباب، فوقف وسألني:

- هل أمّك بخير؟
- إنّها بخير.
- ماذا تفعلين هنا؟

غير متأكدة ممّا سأقول، نظرت حولي. عشرات الأظرف في كلّ مكان. على الأرض قرب المكتب، رسائل مكدّسة في مجموعة واحدة، كأنّ قبضة غاضبة أزاحتها في ذلك الاتّجاه. التقطت عددًا منها.

روجر-تشارلز ميير يهودي تمامًا، نقي العِرْق، ولا أخفيك أنّي سأسعد إذا ألقي القبض عليه... هذا ما يستحقّه بكل بساطة. امتناني الأبدي إذا يسّرت إلقاء القبض عليه.

انتقلت إلى الرّسالة الثّانية:

لن تقول لي إنّك تؤيد أولئك اليهود القذرين. نلنا كفايتنا منهم. أحبّاؤنا يُقتلون، في حين أنّ اليهود يجنون المال. نحن الفرنسيّون نموت جوعًا. والموت جوعًا لا يكفي. إذا توافر الطّعام، فإنّه يذهب لليهود.

الرّسالة الآتية:

سيّدي،

أكتب لأبلغك عن حالة يجب أنْ تعرف عنها في 49 حي كويديك، حيث يعيش ماوريس ريخمان مع امرأة فرنسيّة. عادة، نشهد على مشاهد مريعة عند بابهما. أعتقد أنّك ستتصرّف. ومسبقًا، يشكرك رجال الأعمال في حيّينا.

ذُكر في الرّسالة الأخيرة أسماء أشخاص وعناوينهم، ولاحظ في النّهاية عبارة: أربع وسبعون يهوديًا مهمًّا. «لا أَفهم» قلت لأبي، ثمّ رميت الرّسائل في المهملات. فقال أبي بتردّد:

- نطلق عليها اسم «رسائل غربان».
- «رسائل غربان؟»
- من أشخاص حاقدين يتجسّسون على جيرانهم، وزملائهم، ورفاقهم. حتّى على أسرهم.
- جميعها من هذا النّوع؟
- بعضها ممهور بأسماء حقيقيّة، وبعضها من أشخاص مجهولين. تخبرنا عن المتعاملين في السّوق السّوداء، والمقاومة، واليهود، ومن يستمعون إلى الإذاعة الإنجليزيّة، أو يتكلّمون عن الألمان بسوء.
- منذ متى تصلكم؟
- منذ 1941، حين توجّه المارشال بيتان إلى الإذاعة ليعلن أنّ التّكتّم على المعلومات جناية. أوهم هؤلاء الغربان أنفسهم أنّهم يؤدون واجبهم الوطني. مهمّتي هي التّحقّق من صدق كلّ رسالة.
- لكن، بابا...

- أعلموني بكل صراحة أنّي إذا كرهت عملي، فهناك عشرات الأشخاص الذين ينتظرون أنْ يصبح مكاني شاغرًا.

- هذا ليس عدلًا.

- ولا تجويعك عدل.

كنت قد افترضت أنّه أمضى الليالي في مساعدة النّاس...

- أتفعل... هذا من أجلي؟

- كل ما فعلته أنا وأمّك للعقدين الماضيين كان لكِ ولأخيكِ! أستاذ اللغة اللاتينية. دروسك في اللغة الإنجليزيّة، والتّجهيز لزفافك. تكاد والدتك تفقد بصرها من التّطريز. عند حلول يوم زواجك، ستحصلين على أشياء كثيرة تملأ شقّتك.

- لكنّي لم أطلب شيئًا قط.

- ليس عليكِ أنْ تطلبي.

الحقيقة صادمة ومؤلمة كهراوات رجال الشّرطة. أمضيت جلّ حياتي متكبّرة. لم أتردد بتاتًا في التّمرّد على أبي، والتّفكير في نفسي فقط. شاهدت ما حدث للخالة كارو، فسعيت لضمان استقلالي عن أهلي. الآن، في هذه الحال المضطربة أدركت أنّي لم أطلب شيئًا نهائيًا. لم أحتج إلى طلب شيء؛ وفّر أهلي لي الثّياب، والفرص، والخاطبين الكُثر. ذهلت. پول ليس من اعتقدت. بابا ليس من اعتقدت. أنا لست من اعتقدت. أخرج أبي الرّسائل من سلّة المهملات.

- سأؤدي واجبي وأتحقّق من كلّ رسالة.

- واجب؟

- واجبي هو تطبيق القانون.

- ماذا لو أنّ القانون خطأ؟ ماذا عن الأبرياء الذين تضرّروا من هذه الاتّهامات؟

سمعت تحشرج صوتي كما يحدث دائمًا عندما أتشاجر مع أبي. ذكّرت نفسي أنّي هنا لسبب.

- بابا، من فضلك، هل يمكننا التّحدث عن البروفسورة كوهِن؟
- يطلب منّي عشرات الأشخاص مساعدتهم يوميًّا؛ البحث عن أقربائهم. لا يمكنني مساعدتهم أو مساعدتك!

جذبني من ذراعي وأجبرني على الخروج من الباب.

- أخبرتك من قبل أنّي لا أريد مجيئك إلى هنا. هذا المكان لا يليق بشابّة مُوَقّرة.

خارج مركز الشّرطة، في البرد، تدثّرت بشالي. كيف أساعد البروفسورة؟ سألت رِمي. أخبري الكونتيسة، سمعته يقول. رِمي على حق. لديها معارف كثر في المناصب العليا. يمكنهم المساعدة قطعًا. هرعت إلى مكتب الكونتيسة.

إلى مكتبها، حدّقَت إلى كوبها، فمها حزين. قال بارتعاش: أخبرت الآخرين، والآن يجب أنْ أخبركِ. صديقتنا أيرين كوهِن قد رُحّلت إلى المعتقل. ناجيت نفسي: لم يفت الأوان. بإمكان الكونتيسة ود. فوكس مساعدتها كما ساعدا بورِس.

- كانت في درانسي.

سجن مقرّه شمال باريس. مهلًا. كانت؟

- الظّروف هناك بائسة. لم أصدّق ما يحدث حين وصفه زوجي لي. حاولنا التّدخل، لكن مع الأسف...

لا لا، لن أفقد البروفسورة أيضًا. فقدت التّوازن، وضعت يدي على الحائط، شعرت بأنّي لو لم أتماسك، سينهار كلّ شيء. قلت لها:

- حاوَلت إيصال رسالة لكِ. أبي... الرّسائل... هذا خطئي.

- لا تلومي نفسك. عرفنا أنّ ابن مدام سيمون وزوجته قد انتقلا للعيش في شقّة البروفسورة. لا يحتاج المرء إلى أن يكون شارلوك هولمز ليفهم ما يحدث. من الواضح أنّ مدام سيمون وابنها كانا يتواصلان مع مفوضي الشّرطة، بل وحتّى مع الشّرطة السّريّة النّازيّة.

تلك المرأة التي تؤنبني دائمًا هي من كتبت رسائل الغربان؟ شاهدناها كلّ يوم تقريبًا، ولم نعرف حقيقتها إلّا اليوم؟ قلت:

- من الأفضل ألّا تعود إلى المكتبة.

- لن تعود صدّقيني. لكنّي لم أنهِ كلامي. اختفت إيرين. يعتقد زوجي أنّها هربت من السّجن.

تحمّلت البروفسورة كلّ الإجهاد لتكون راقصة باليه رئيسة، وتصل إلى جامعة السوربون. دَرّسَت هناك على الرّغم من الغرائب وعاشت بعد أزواجها الثّلاثة. لو أنّ بإمكان شخص الهرب من السّجن، فسيكون هي بلا شك. لا يمكنها العودة إلى شقّتها، لكن يمكنها البقاء مع أصدقائها في الرّيف... أحتاج إلى الاطمئنان على سلامتها، لمعرفة أنّ نهايتها سعيدة. تذكّرت جملة من صباح الخير، منتصف الليل: أريد كتابًا طويلًا هادئ الوتيرة عن أشخاص رواتبهم عالية. كتاب يتحدث عن مرج أخضر ترعى فيه الخراف... أقرأ الكتب معظم الوقت، وأنا سعيدة.

37
أوديل

بقيت في مكتبي، والقلم في يدي، عاجزة عن التّوقّف عن التّفكير في رسائل الغربان. صحيح أنّ الباريسيين اهتموا بالمظهر الخارجي. أعجبنا وشاح ارتداه صاحبه بطريقه جيّدة. أعجبنا ميلان قبّعته لكنّ ذلك التّقدير تحوّل إلى انتقاد، وغيرة نشبت أنيابها في قلبي. من تحسب نفسها لتتباهى بمعطف الفرو ذاك؟ لماذا تملك حذاءين جديدين؟ ماذا فعلت مارغريت لتحصل على سوار الذّهب؟

تساءلت من عساه أنّ يكتب تلك الرّسائل. تأمّلت الرّجل الذي ارتدى بدلة رسميّة ممزّقة. هل كتب رسالة؟ انتقل نظري إلى امرأة ترتدي قبّعة زرقاء، هل كتبت رسالة؟ كلّ من حولي يبدون طبيعيين، لعلّ الجوع والنّحول طبيعيّان.

جاء بورِس لتذكيري بأنّ عليه المغادرة باكرًا لموعد طبي. قال: تبدين شاردة الذّهن.

- محبطة.

تلك الرّسائل. لا بدّ من وجود طريقة لإنقاذ الآخرين من مصير البروفسورة. إلى مكتب الإعارة، في أثناء ختم الكتب المُعارة بمساعدة مارغريت، توصّلت إلى أنّ الاعتقالات ستتوقف بتوقّف رسائل الغربان. لمست ياقة سترتي. كيف لها أنْ تكون دافئة في نوفمبر؟ شاكستني مارغريت:

- تبدين محمرّة الوجنتيْن. هل تفكرين في پول؟

لم أنتبه إلى نبرة صوتها اللطيفة، فهززت رأسي نفيًا.

- أين هو؟ لم نره منذ مدة طويلة.
- يجب أنْ أغادر لساعة. هلّا توليت المسؤوليّة؟
- لكنّي مجرّد متطوّعة.
- تصرّفي بحزم مثل بورِس. ستكونين بخير.
- لكن لماذا ستغادرين؟ أتشعرين بالتّوعك؟
- أجل. مريضة.

عجّلت خطواتي وأنا أفكّر في تبريرات سأقولها لسكرتير أبي إذا قابلته: «كنت قريبة منكم». في حال عمله: «ماما تساءلت إذا كنتَ ستتناول العشاء معنا. تمنيت ألا يكون هناك أحد، أن أدخل وأخرج دون أن يلاحظني أحد.

ترددت في الدّخول أمام مركز الشّرطة. خشيت إلقاء القبض علي. غضب أبي مخيف، لكنّ خوفي من نفسي أكبر إذا لم أتصرّف. فكّرت في تلك الرّسائل، يزداد عددها مع مرور الأيّام، فدخلت. تجاهلت الرّجال الذين يحدّقون إليّ. سرت بمحاذاة الجدار.

سكرتير أبي ليس موجودًا، وباب المكتب ليس مقفلًا. تأمّلت كم الرّسائل على المكتب، وفي الخزانة، وإطار النّافذة، ثمّ جمعتها في حقيبتي ثمّ خرجت. رجال في كل مكان.

صرخ حارس: أنتِ توقّفي!

أبقيت رأسي مرتفعًا، ولم أتوقّف.

توقّفي!

كنت على وشك فتح الباب حين لمست يد زفرة ظهري. سألني الشّرطي: لم العجلة؟، وصوّب جندي آخر بندقيته علي. انصبّ تفكيري على أبي، ولم أفكّر في أي شخص آخر. أعاقني خوفي عن الكلام. خرج رجال من مكاتبهم؛ منهم من بدا متجهّمًا، ومنهم من بدا مهمومًا. سأل قائد في شعره شيب: لم الجلبة؟

- شاهدتها تتسلل سيّدي.

عبس القائد، وقال: ماذا تحسبين أنّك فاعلة يا آنسة؟

لم أجبه. لم أتمكّن من الإجابة.

أمرني الحارس بإبراز بطاقة هويّتي، لكنّها في حقيبتي التي إذا فتحتها سيرى الرّسائل.

سحب الحارس حقيبتي، وغريزيًا، كما لو أنّه مشاغب في القطار، انتزعتها منه. وجدت صوتي أخيرًا:

- كنت أتمنّى مقابلة أبي، لكنّه لم يكن موجودًا. أشرت إلى مكتبه.

ملامحه تغيّرت. «لا بدّ أنّك أوديل. والدك محق. أنت أروع فتاة في باريس. أعتذر عن الفظاظة. شدّدنا الإجراءات الأمنيّة بسبب المخرّبين.

- المخرّبين؟

سألته بوهن. هل أنا مُخرّبة؟ سينال المخرّبون حكم الإعدام. علِمنا مؤخّرًا أنّ أحد المشتركين في المكتبة قد حكم عليه بالأعمال الشّاقّة لأنّه طبع منشورات للمقاومة.

- لا تخافي. سنحافظ على سلامة أبيكِ.

- أنتِ خجولة، أليس كذلك؟ لا تخافي يا جميلة يا عنيدة. اذهبي إلى منزلك.

احتضنت حقيبتي وأسرعت إلى المكتبة. سألتني مارغريت:

- ماذا حدث؟ ما الأمر المهم؟

قذفت الرّسائل في النّار وشاهدتها تحترق. قلت لها: حدث أمرٌ طارئ.

- هل تدركين خطورة ما تفعلين؟

هل اكتشفت ما أفعل؟ سألتها: ماذا تقصدين؟

- مغادرة المكتبة دون إذن تصرّف غير مسؤول! الكونتيسة مرهقة. تعلمين أنّها عازمة على حماية هذا المكان لدرجة أنّها تقضي الليل في المكتب؟ بِتّسي لا تتكلّم حتّى مجيئك. بورِس يجب ألا يعمل. نحن نعتمد عليكِ.

***

من الفناء، حدّق پول إليّ عبر النّافذة، طغى الحزن على وجهه. هززت رأسي بنفي، فغادر. حاول بين الفينة والأخرى. لحقني بين رفوف الكتب، عبر الشّوارع، تحت مطر الشّتاء الكئيب. كان معي وإن لم يكن معي فعليًا. غضبت لأنّه لم يخبرني عن البروفسورة فورًا. غضبت من نفسي لأنّي لم أر الحقيقة. غضبت لأنّي على الرّغم من كلّ شيء، اشتقت إليه.

مشيت على الدّرب الحجري في الصّباح النّدي، واقتربت من الوصول إلى المكتبة حين صادفته. سألني: هل يمكنك مسامحتي؟

- أرسلوا البروفسورة إلى درانسي كما تعرف.

- لم أعرف.

- لا أحد يعرف مصيرها.

نكس رأسه وابتعد. شعرت أنّ كتفيّ مرتخيتان. رؤية وجهه تذكرني برقصي فرحًا في منازل المعتقلين.

***

عند وقت الغداء كلّ يوم، أسرعت باتّجاه مركز الشّرطة، مرورًا بالحارس العدواني. إلى مكتب أبي، حيث جمعت الرّسائل في حقيبتي لأعود بعدها إلى المكتبة وأحرقها. بدلًا من الرّسائل الخمس الأولى جلبت اثنتي عشرة. وظلّت مئات الرّسائل، والمزيد تصل يوميًا. رغم أنّي تقت إلى حرقها جميعًا، عرفت أنّ هذا لن يجلب إلّا المراقبة.

ومع هذا، خشيت إلقاء القبض علي. في طريق عودتي إلى العمل، نظرت خلفي. في المنزل، لاحظت ارتعاشي. قبل قداس يوم الأحد، ربطت حجابي في الباحة. توقّف أبي لإحكام عقدة الحجاب. تلاقت أعيننا في المرآة. سألني: أأنت بخير؟

أومأت بالإيجاب.

- أعتذر. لم أستطع...

- لم تستطع ماذا؟

أشاح بنظره بعيدًا. حين ذهب لإحضار سترته، قالت أمّي: تغيّرتِ كثيرًا خلال الأسابيع الماضية. ماذا جرى؟

- لا شيء.

- تغيّرتِ... إيجابيًا. لم لا يزورنا پول في الآونة الأخيرة؟

- سنتأخّر.

لمست جبيني، فقالت: «لا بدّ أنّك تفعلين شيئًا، أو...»، ثمّ نظرت إلى بطني. قلت لها بارتباك: ظنّك خاطئ.

- ابقي في المنزل لترتاحي.

بعد مغادرتهما، كتبت في مذكّراتي:

رِمي العزيز، كنت أنانية، عمياء القلب. خذلت البروفسورة، لكنّي أحاول تصويب الأمور.

رنّ جرس الباب، حسبت أنّ أمّي قد نسيت محفظتها. پول: ما كان عليّ المجيء، لكنّهم قد يلقون القبض علي في شقّتي. احْمَرّ أنفه. أشرت له ليدخل، وسألته: ماذا يحدث؟

لم يتحرّك.

- لا أريد أنْ يراني أهلك هكذا.
- إنّهما في الكنيسة. الآن، ماذا حدث؟

أجلسته.

- ألفيت أحد أولئك النّازيين الأوغاد على الأرض مخمورًا. سحبته من ظهره ولكمته. أردته أنْ يتحسّر على مجيئه. قاومني. كسرت أنفه قطعًا، ولعلّي كسرت بعض أضلاعه. ثمّ هربت. لست نادمًا على ما فعلت، لكن هذه الأيّام، لا تعرفين من يراقبك.
- أنت بأمان الآن.

مسحت وجهه بمنديلي. اشتقت إلى لمسي له، ولمساته لي. سرّتني عودته. تمنيت لو أنّ بيدنا العودة إلى الأيّام الخوالي. لا أشعر باتّجاهه إلّا بأمر واحد؛ الحب.

- قبل الاعتقال الكبير، كنت في جولة معتادة. لم أعتقد أنّهم سيعتقلون سيّدة كبيرة في العمر.
- لم تكن تعرف.

تذكرت الكتاب الذي كان من المفترض أنْ أوصله.

- لكل منّا أمور يندم عليها.
- أنا أحبّكِ. قولي إنّكِ سامحتني.

38
أوديل

في مكتب الكونتيسة، شاهدت مرتبة سرير مطويّة حيث نامت كلّ ليلة لحراسة المكتبة. امرأة في السّبعين من عمرها ولا تهاب مواجهة الجنود النّازيين. مجموعة كتب قرب وسادتها. ملت إلى الأمام لأرى العناوين، لكنّ بِتْسي سحبت كمّ سترتي لتحثّني على الاقتراب ممّن اجتمعوا عند مكتبها. الاجتماعات التي كنت أحضرها سابقًا مع: السّكرتيرة، والحارس، وبِتْسي، وبورِس، ومارغريت، وكلارا دي شامبرون.

الكونتيسة: اعتُقل السّيد بريس-جونز، وأرسلوه إلى مخيّم اعتقال.

فقدت صديقًا آخر لأنّه «عدو».

الكونتيسة: حاول السيّد دو نيرسيات جاهدًا إطلاق سراحه.

بورِس: السّيد دو نيرسيات يجاهد لإطلاق سراحه. إنّهم لا يرسلون البشر إلى معسكرات اعتقال، بل إلى معسكرات موت.

الكونتيسة بازدراء: أكاذيب إعلاميّة. لا تنسَ الإشاعات التي سمعناها.

بِتْسي: هل أُدين؟

بورِس: نعم على الأغلب.

سلبت هذه الحرب منّي كلّ عزيز... كلّ شيء؛ وطني، ومدينتي، وأصدقائي الذين نهبوا وخانهم من حولهم. أحاول ردعهم بالطّريقة الوحيدة التي أعرفها. احتجت إلى إتلاف تلك الرّسائل.

لم أعد أكترث إذا كنت سأقع في مأزق. شيء واحد مؤكّد. شيء سيحترق. ركضت خارج المكتبة. ناداني بورِس وبِتْسي.

- عودي.
- أنتِ في حالة صدمة.

في مركز الشّرطة، عدوت إلى مكتب أبي، وأغلقت الباب خلفي. سحبت رسالة ومزّقتها إلى نصفين، ثمّ رسالة ثانية، وثالثة، ورابعة. صوت تمزيق الأوراق مريح للنّفس هذه المرّة. حين تذكّرت أنّ أبي قد يدخل في أي وقت، وضعت مجموعة رسائل في حقيبتي. جعّدتها بكل ما أوتيت من قوّة.

سمعت صوت مقبض الباب الذي فتح، فابتعدت عن المكتب، تلعثمت وأنا أغلق الحقيبة.

- ابنتي البارّة هنا لزيارتي؟

لم أعرف كيف أتصرّف؛ كأنّي مجروحة الخاطر؟ أم هل تشك في ابنتك؟

بفتور؟ أنا هنا. وهذا يكفي.

بصدق؟ أجل أنا سارقة.

- استلمت رسائل تسألني عن عدم متابعة معلومات ذكرت في رسالة سابقة. الأمر غريب بما أنّنا حقّقنا في كلّ اتّهام. لا أفهم.

حَملَق بتركيز في الرّسائل الممزّقة.

- أفهم الآن.
- قبضتُ على حقيبتي.
- هل لديك ما تقولينه؟

هززت رأسي نفيًا.

- قد أُعتَقل. الموت هو عقوبة الخائنين.

- لكنّك لن تُلام حتمًا.

- يا ربّاه. ما سبب سذاجتك حتّى الآن؟

وضع راحتيّ يده على مكتبه، ونكس رأسه بانهزام.

- لكن، بابا...

- أي شخص آخر سأعتقله حتمًا. اذهبي إلى المنزل، ولا تعودي نهائيًّا.

غادرت ومعي رسائل قليلة. أهم ما يمكنني فعله، عجزت الآن عن تنفيذه.

39

لِيلي

فرويد. مونتانا. أغسطس 1987

في الخزانة بين السّترات والأسرار، حدّقت إلى أوديل، ما زلت أحمل صندوقها، أنيقة كعادتها. الرّسائل على الأرض بيننا. لماذا لا تبحث عن اليهود المختبئين؟ العناوين صحيحة، قم بدورك. سألتها: من أنتِ؟

فتحت أوديل فمها، ثمّ اقتربت كثيرًا. ارتفع ذقنها. مثلما اعتبرتها مختلفة، اعتبرتني مختلفة. لم تقل شيئًا، فسحبت الرّسائل ورميتها في وجهها. لم تتحرّك.

- لماذا تحتفظين بهذه الرّسائل؟
- لم أحرقها كما حرقت باقي الرّسائل. أعني...
- اعتقدت أنّك بطلة. أنّك خبأتِ اليهود.

تنهّدت، وقالت: يا ربّ، لا. مجرّد رسائل.

- ممن؟
- من أبي.
- ضرب جنون. ألم يكن شرطيًا؟
- شخص بصرها كأنّها شاهدت شبحًا. ملأ الصّمت الخزانة، وغرفة النّوم، وصداقتنا. لم يكن هناك إلّا صوت النّورس، قمامة في الحي، ونبض قلبي المسكين.

قالت: اعتقل رجال الشّرطة الشّيوعيين في بداية الحرب، ثمّ اعتقلوا اليهود. كتب النّاس الرّسائل ليشوا بجيرانهم. وصل بعضها إلى أبي. سرقتها حتّى لا يلاحق الأبرياء.

- لم تكتبِي هذه الرّسائل؟

سألتها وأنا أعلم أنّها لم تفعل. أبصرت أوديل الرّسائل في يدي المرتعشة. قالت: لا ألومك على تفتيش أغراضي لأنك شعرتِ بملل أو فضول.

تغيّرت نظرتها إلى عدم اكتراث؛ كأنّي لا شيء.

- لكن أنْ تفكّري في أنّي من كتبتها! ماذا فعلت لك لتعتقدي أنّي قادرة على الإقدام على شر كهذا؟

نظرت خارج النّافذة، وعرفت أنّها لا تطيق رؤيتي. ليس لي حق في تفتيش أشيائها، وسؤالها عن ماضيها، وتذكيرها بأشياء منسية؛ الحرب، وأفعال أبيها، وسبب هجرتها فرنسا. قالت: عدت باكرًا لأنّي اشتقت إليك، ثمّ انطرحَت على السّرير برهة، فجلست بانحناء وكدر.

قالت: غادري ولا تعودي.

- لا أرجوك.

هززت رأسي نفيًا. كيف قذفتها بهذه التّهمة؟ سأعوضها. سأقلّب تربة حديقتها. سأجز العشب. سأجرف الثّلج طوال الشّتاء. سأنسيها حماقتي، وسؤالي المتهوّر. اعتذرت.

قامت أوديل، وغادرت الغرفة، أغلقت الباب، ثمّ أعدت الكتب إلى الرّفوف على أمل أنْ يكون مكانها صحيحًا. راقبتها. جلست بظهر مستقيم كما أفعل أيّام الأحد. لم أقو على الحركة. انتظرت ساعة وساعتيْن. لم تعد.

* * *

نبرة صوتها كانت قاطعة. هذا ما قلته لإليونور. تمنيت لو أنّها صرخت، لكنّها قالت: إنّها غاضبة بلا شك. هل فهمت الآن لماذا نهيناكِ أنا ووالدكِ عن تفتيش ممتلكات الآخرين؟

ما فعلته أسوأ من التّطفل، لكنّي خشيت حقيقة الاعتراف بجُرمي الحقيقي. في اليوم التّالي، طرقت باب منزل أوديل، لكنّها لم تفتحه. كتبت رسالة اعتذار ووضعتها في صندوق بريدها في ذلك المساء. حين توجّهت إلى المدرسة صباحًا، اكتشفت أنّها لم تفتح عند الباب. في القداس، في الوقت الذي صلّى فيه النّاس لهزم السّوفيتيين قبل أن يهزمونا، ركعت على ركبتي وتمنيت أنْ تغفر لي أوديل ذنبي. بعد القداس، تكلّمت مع الأب مالوني في الرّواق. تألّقت وهي تتكلّم عن شيكاغو. اقتربت منها، فاستأذنت وغادرت إلى منزلها بدل أنْ تذهب إلى القاعة. في الأسبوع التّالي، جلست على مقعدها، وقلت بعفويّة حين هزّ الأبرشيون أياديهم: ليرعاكَ الرّب. نظرت إلي، ثمّ توقّفت عن حضور القداس.

في الرّدهة، اجتمعت النّساء عند بوفيه الطّعام ليأكل الدونت ويشربن العصير. لم تحضر أوديل مدّة شهر. تمتمت السّيدة إڤرس: هل شاهد أحدكم السّيدة غوستافسون؟

أجابت السّيدة موردوك: ذهبت للاطمئنان عليها. سمعتها تتحرّك، لكنها رفضت فتح الباب.

- كما حدث من قبل.

- ليتنا عاملناها بلطف.

- ذات الأمنية.

- لا بدّ أنّ مصيبة قد وقعت. لم تفوّت القداس حتّى عند وفاة ابنها.

***

عزمت إليونور على قطع صمت أوديل الطّويل، فتوجّهت إلى منزلها. رجتها: لِيلي تعرف أنّ مما فعلته خطأ. شابة في مقتبل العمر وارتكبت خطأ. الفتاة تحبّك وتشتاق إليك. استمعت أوديل إلى ما قالته إليونور، ثمّ أغلقت الباب. حملت جو إلى الكنيسة، وأشعلت كلّ الشّموع. قال بلغة الأطفال: نحن نُلّي [نصلّي].

انتظرتُ التّدخل الرّباني يومين، وحين لم يُستجب دعائي، لجأت إلى طريقة مباشرة. دعاني الرّاهب إلى مطبخ بيته. لم يكن مرتديًا ثياب الكهنوتيّة، فلاحظت التّشابه بينه وبين جدّي. دفع بطبق بسكويت (أوريو) باتّجاهي، لكنّي لم أكن جائعة للمرّة الأولى. لأنّ نصف الحقيقة أفضل من الزّيف، اختلقت قصّة، مع حذري من عدم قول أي شيء عن اتّهاماتي. «أهذا كلّ شيء؟» سألني بتردّد.

ولزمن طويل، أردت أن يكون لي سر أحتفظ به. أمتلك هذا السّر الآن، لكنّه محزن.

- عثرت عليّ في أثناء التّطفل على خصوصياتها. وهذه كارثة.
- لدرجة تمنعها من الذّهاب إلى الكنيسة؟
- لماذا لا تقبل اعتذاري؟
- يقطع النّاس علاقتهم بمن آذاهم إذا مرّوا بمشاق كثيرة في الحياة، أو خانهم أحد، أو للحفاظ على سلامتهم النّفسيّة.

لم ترجع إلى فرنسا بتاتًا. لم تتكلّم عن والديْها أو أقاربها.

تخلّت عن كلّ أهلها، ولهذا لا صعوبة في التّخلي عنّي.

بعد ظهيرة يوم السّبت، توقّفت سيارة الرّاهب عند منزلها. فتحت نافذتي، وأنزلت رأسي حتّى لا يراني أحد. تكلّم مع أوديل بمودّة تحت السّقيفة عن جمع التّبرعات لمخزن الطّعام. ما إنْ ذكر لها اسمي، دخلت منزلها.

***

استمرّت الحياة دون أوديل. بدأت دراسة المرحلة الثّانويّة دون دروس في اللغة الفرنسيّة. لم أكابد الفقد مذ فقدت أمّي، لكنّ ماما لم تملك خيارًا في ابتعادها عنّي، على عكس أوديل. أمر بمنزلها كلّما عدت من المدرسة. السّتائر منسدلة. عرفت لو أنّي حاولت طرق الباب فسأجده مقفلًا.

***

ذهبت ماري لويز مع كيث إلى دورة المياه بعد الغداء، فبقيت وحيدة. أقبلت تيفاني إڤرس باختيال.

- أراهن على أنّ زوجة أبيك تتمنّى تخرجك وابتعادك عنها.

أزعجت تيفاني جون باردي لأنّ والده هو المدير، وجعلت الآخرين ينادون ماري ماثيوس بـ«بيتزا بالسّجق» بسبب حب الشّباب في بشرتها. كنت الطالبة الوحيدة في المدرسة التي لديها زوجة أب. الطّلاق مشكلة شائعة في المدن الكبيرة لا في بلدتنا، ووفاة الأم بعمر صغير نادر حمدًا للرّب. لا أريد لأي شخص أنْ يمر بما مررت به. سألتها: أتعرفين مرادف زوجة أب في اللغة الفرنسيّة؟ حدّقت إليّ عينان متراخيتان تغطيهما غرّة ناعمة. لماذا أمضيت

سنوات عمري في مقارنة حظي بحظها، شكلي بشكلها؟ تذكرت السّترة التي حاكتها أمّي لي، كم اكترثت برأيها أكثر من اهتمامي بمشاعر أمّي. قلت لها: «Belle mère».

- بالفرنسيّة؟ كأنّ لديك إعاقة في النّطق.

رأيها هذا كان ليبكيني قبل سنوات. أدرك الآن أنّ من يلوكون ألسنتهم بالسوء لإيذاء الآخرين يجب استئصالهم من الحياة. خرجت تجنبًا لملاحظاتها المنحطّة، وتفكيرها السّطحي. شعرت بقوّة أكبر.

أتَعَلّم من أوديل حتّى في سكوتها.

***

استيقظت على صوت مسلسل الأطفال الكرتوني (سكوبي دو). عند السّابعة والنّصف من يوم الأحد صرخت: دعوني أنام.

صرخ جو: حاضر، ثمّ أخفض الصّوت.

جو وبنجي، بنجي وجو. أحببتهما، لكنّهما يفقداني عقلي. كلّما جلست، يسحبني بنجي إلى الأسفل ليجلس في حضني. لو أنّ لمنزلنا ترنيمة تخصّه، فستكون: جو، حبيبي، هلّا أخرجت إصبعك من أنفك؟ جو أخرجها من أنفك لدقائق. أخرج إصبعك! الآن! كم أفتقد أوديل. أعي في كل لحظة حجم خسارتي بسبب تصرفي الأرعن والأناني.

فتحت إليونور الباب، وسألتني: لماذا لا تتنزّهين معي في السّيارة؟ سنستغل إذن الغياب عن المدرسة اليوم.

- ماذا عن الصّبيين؟

- رعايتهما لن تقتل والدك. أنا وأنتِ فقط. سنذهب إلى (غود هوب).

أحببت شعور تحريك المِقوَد، وجعجعة السّيارة كلّما ضغطتُ على دوّاسة البنزين، وامتداد المراعي، والأبقار التي تشاهد تحرّكنا بسرعة. أحببت ذهابنا إلى المدينة، ووجود أكثر من محطّة إذاعيّة، والابتعاد عن المدرسة، والفتيان، وأوديل التي آذيتها.

تعداد سكّان (غود هوب) ثلاثون ألف نسمة. قبيل الاقتراب من حدودها عرضت على إليونور القيادة. مررنا بكل من: (ديري كوين)، و(بيست ويسترن)، ومتاجر موجودة في باقي أنحاء العالم. في بلدتنا فرويد علامات توقّف لا يتوقّف أحد عندها، أمّا في (غود هوب) إشارات مروريّة حقيقيّة. أرصفة المشاة ضعف عرض أرصفتنا، وعلى السّائقين الدّفع لركن سيّاراتهم. توقّفنا عند أكبر مركز تسوّق في مونتانا. (ذا بون)؛ كلمة فرنسيّة تعني جيّد. خمسة طوابق من طوب له بريق تحت الشّمس. حتّى الأبواب كانت عظيمة، نحاس وزجاج لا توجد عليه أي بقعة. في الدّاخل، شممت عطر (وند ويست) الذي شاهدته في إعلان تلفزيوني. عدد كبير من مساحيق التّجميل. وجّهتني إليونور إلى قسم شركة (كلينيك) التي ارتدت بائعاتها سترات بيضاء طويلة كالطّبيبات، كمن نستطيع الوثوق بهن. رسمت خطوطًا بأحمر الشّفاه على يدها. تأمّلنا الألوان كأنّنا نختار ستائر لقصر الحاكم. اخترنا اللون المشمشي، ثمّ أخرجت إليونور دفتر شيكاتها. سألتها: أن تشتري شيئًا لكِ؟

- لا أعتقد.
- تستحقين قطعة جميلة.
- سأفكّر.

كانت مُحرجة، لكنّي لم أفهم السّبب. إليونور سيّدة متزوّجة، والمال مالها، فلم الحرج؟ طرقت الأرض بكعبي، واعترضت: قطعنا كلّ هذه المسافة. اقتنعت إليونور. اشترت علبة فضيّة من (بيل أند بوبيز) وبدت سعيدة.

في طابق الميزانين، اخترنا طاولة عند حافة زجاجيّة لنتمكّن من مشاهدة النّاس كأنّنا في فندق باريسي. بعد طلب الطّعام، شاهدت بائعة أنيقة ترفع جواربها حين اعتقدت أنّها متوارية عن الأنظار. وضعت النّادلة الطّعام ثمّ سألت: هل تستمتعان بيومكما؟ فأجبتها بالفرنسيّة: نعم، ثمّ غمست شطيرتي في الصّلصة. بعد الغداء، غسلنا أيادينا في دورة مياه النّساء. أمام المرآة، رتّبنا ملابسنا وأعدنا وضع أحمر الشّفاه. كانت أكثر مرّة أشعر فيها بقربي منها. لو كنّا في فرنسا، فستكون تلك لحظة انتقال من استخدام صيغة الاحترام vous إلى tu غير الرّسميّة.

ركبنا السّيارة وخرجنا من المدينة. موسيقى الرّوك في القناة الإذاعيّة قليلة الأدب، فغيّرتها إليونور إلى القناة المحليّة. اقتربنا من شارعنا، وشاهدنا سيّارة إطفاء. بدا أنّها أمام منزلنا. «الأطفال!» شهقت إليونور. قادت بسرعة. اليوم الوحيد الذي خرجنا فيه... هل عثر جو على أعواد الثّقاب في الدّرج؟ يا رب احفظهما.

سيّارات الإطفاء عند منزل أوديل. دخان بسيط خرج من النّافذة. رجل إطفاء يسحب خرطومًا فارغًا بعيدًا عن منزلها.

داست إليونور على المكابح، فترجلنا من السّيارة. كان الجيران مجتمعين على الرّصيف. لحاف حول أوديل، لكن بدا أنّها شاردة الذّهن. سألت إليونور رئيس فريق الإطفاء عمّا حدث، فأجابها: حريق في المطبخ. نُسي شيء في الفرن.

أوديل: بسكويت البروفسورة كوهِن. تشغل تفكيري. كان خطئي.

إليونور: أمر قد يحدث للجميع.

أوديل: خطئي.

أنا: لم تقصدي.

نظرت أوديل إلي. أنا في غاية السّعادة؛ لا يهمني أنّها نظرت إلي بعينينْ مستغربتيْن كأنّي غريبة. قلت لها: «أنا آسفة. ابتلعت ريقها، فقالت: لا، أنا التي...» أشياء كثيرة أردت قولها. أحبّك. عفوك يعني الكثير لي. ما زلت نادمة.

إليونور: هلّا زرتنا؟

ساعدتُها على المشي إلى المنزل، وإلى غرفتي حيث استلقت. سألتها: أتريدينني أنْ أخرج؟

قالت وهي تربّت على السّرير: اجلسي. أريدك أنْ تعرفي أنّ هنالك أمورًا كثيرة حدثت في الحرب ولم يتحدّث عنها أحد، حتّى في يومنا هذا. أمور أشعرتنا بالخزي فآثرنا دفنها في مقبرة سريّة، ثمّ هجرناها في القبور.

أمسكَت يدي، ثمّ عرّفتني إلى شخصيّات قصّتها: ماما العزيزة، ويوجين المتواضعة، وبابا العصبي، ورِمي؛ أخوها التّوأم وحبيبته بِتْسي التي كانت أمينة مكتبة شجاعة، وبول الوسيم الذي أحببته أنا أيضًا، ومارغريت المرحة مثل ماري لويز، والآنسة ريدر،

والكونتيسة، وبورِس الذي كان قلب المكتبة وروحها وحياتها. أشخاص لم أقابلهم قط، ولن أنساهم ما حييت. يعيشون في ذاكرة أوديل، والآن في ذاكرتي.

انتهت من سرد أسمائهم، وشعرت بأنّ القصّة كتابًا سأقرؤه، بضعة منّي. دخل النّازيّون المكتبة، فارتعدت أوصالي بين رفوف الكتب. في أثناء توصيل الكتب إلى البروفسورة كوهن، عثرتُ على الدّرب الحجري، وخشيت أنْ يعرف النّازيّون شيئًا عن رحلتي. أصبح الطّعام نادرًا، فتضوّرت جوعًا، وقرقر بطني، وتعكّر مزاجي. قرأت تلك الرّسائل المفزعة ولم أعرف ما عليّ فعله.

قلت لأوديل: أنتِ شجاعة. حافظتِ على بقاء المكتبة مفتوحة خلال الحرب، وحرصتِ على استعارة جميع النّاس للكتب.

بتنهد قالت: أقل ما أمكنني فعله.

أنا: أقل! كان تصرّفك رائعًا. منحتِ القرّاء أملًا. برهنتِ أنّ بعض البشر أخيارٌ حتّى وهم في جحيم الحرب. أنقذتِ الكتب والنّاس. خاطرتِ بحياتك لمقاومة النّازيين. هذا عظيم.

أوديل: سأفعل المزيد لو عدت إلى ذلك الزّمان.

أنا: إخفاؤكِ تلك الرّسائل قد أنقذ النّاس.

أوديل: لو أنّي أخفيت كل رسائل الغربان عند رؤيتها في المرّة الأولى، لأنقذت عددًا أكبر من النّاس. احتجت إلى وقت طويل لأفهم ما كان عليّ فعله. خشيت إلقاء القبض علي.

أردت مجادلتها، لكنّها نامت.

***

على طعام العشاء، في أثناء نوم أوديل، قرّرنا أنا وأبي وإليونور أنْ تبقى معنا حتّى تجديد مطبخها، ثمّ تحدثنا عن أمور أخرى. لم تغب رسائل الغربان عن ذهني. شاهدت أبي وهو يأكل الفاصولياء، ولاحظت الشّيب في شعره. تساءلت عن الأمور التي تؤرق مرقده ليلًا، وما سيفعله لحماية أسرته. أعدت تذكّر قصّة أوديل مساء، وأنا أشعر بأنّ هنالك مسألة لم تأخذ حقّها من التّدبّر.

كلّ صيف، قضيت فترات العصر مع الجدّة جو في شرب الليموناضة في شرفتها المظلّلة. غرامها لعبة إكمال القطع النّاقصة في لوحة. نثرت القطع على طاولتها، لنحاكي مشهد القلاع الباڤاريّة التي تعلوها السّماء الزّرقاء. بما أنّنا منعزلون وسط حقول القمح، فإنّ تلك الصّور المُجزّأة كانت تصوُّري الأوّل للعالم الخارجي. شراء جدّتي لعبتين أسبوعيًا بات مكلفًا، ما دفع أمّي إلى شرائها من سوق الكتب المستعملة. إيجابيّة: ثمنها زهيد، سلبيّة: بعد قضاء ساعات في تركيبها اكتشفنا نقصان قطع.

مضى وقت طويل على شعوري بالإحباط من لوحة غير مكتملة، لكنّي الآن أعي ذلك الشّعور. عنصر من عناصر قصّة أوديل مفقود. جانب من الإطار أو أحد الزّوايا. ما سبب زواج أوديل من شخص إذا كانت تحب پول، فلماذا تزوّجت غيره؟

40

أوديل

باريس. أغسطس 1944

قـوّات التّحالـف تقتـرب. انتشـر الخبـر فـي شـارع (دو ريـن)، بقـي مدّة طويلة فـي شـوارع الفرعيّـة. هُمس بـه علـى طرقـات (بيـر لاشـيز)، ووصـل إلـى (مـولان روج). إنّهـم يقتربـون. الخبـر صعـد سـلالم قطار الأنفاق، وتقافـز علـى حصـى الفنـاء ودخـل إلـى طاولـة الإعـارة. سـمعنا أنّ جنـود دول التّحالـف قـد هبطـوا علـى شـواطئ نورمانـدي قبـل شـهريْن، فأيـن هـم الآن؟ لـم نفهـم مـن وسـائل الإعـلام شـيئًا. اتّكلنـا علـى الشّـائعات.

قـال لـي بـورِس فـي أثنـاء تسـجيل اسـتعارات الكتـب: لا بـدّ أنّ قـوّات التّحالـف تقتـرب.

- رأيـت النّازيـن يضعـون أغراضهـم فـي عربـات أمـام الفنـادق المحتلـة.

بورِس: ستوضع لوحات (يوجد شاغر) قريبًا!

جسـد السّـيد بريس-جونـز يرتعـش منـذ اعتقالـه، اسـتند علـى عصـاه وهـو يمـر مـن البـاب. ألقـوا سـراحه قبـل ثلاثـة أشـهر. السّـيد دو نيرسـيات يتبعـه ويمـد يـده ليحمـل صديقـه إذا وقـع.

السّـيد بريس-جونـز: مـا كان علـيّ العـودة إلـى باريـس. خاصّـة أنّ الآخريـن مـا زالـوا مسـجونين. هـل كان عليكـم اسـتخدام عمـري حجّـةً لإخراجـي؟

السّيد دو نيرسيات: لا يا صديقي العزيز. كان بإمكاني أنْ أقول لهم إنّك معتوه.

أخفيت ابتسامتي خلف **اقصوصة دورة البرغي**، 813. هناك أمور لم تتغيّر.

السّيد دو نيرسيات: أين التّحالف؟

بورِس: في الطّريق بلا شك.

تقت لإخبار مارغريت التي ستعود بعد إجازة أسبوع لتطبيب ابنتها المصابة بالنّكاف. وصلت مارغريت، وتغيّر شكلها كثيرًا. قبعتها البيضاء الجديدة أخفت عينيْها، وفستانها الأبيض كذلك كفستان تعميد. ذكّرت نفسي بعبارة من الأناقة أنْ أكون غير مهندمة.

مارغريت: في ثيابكِ ثقوب كثيرة. اسمحي لي بإهدائك ثيابًا.

قلت لها «لا» بطريقة بدت تعسفيّة كما لم أرغب. الجميع يعرف أي نوع من الثّياب تقصد مارغريت. أطلق پول على النّساء اللاتي عاشرن الألمان لقب «مفارش نوم مزحومة». لكنْ، لعلّي ظلمتها. ملابسها جميلة قبل الحرب أيضًا، وارتديت كثيرًا منها. لربما ثيابها الجديدة ليست من عشيقها.مكتبة .. سُر مَن قرأ

مارغريت: ما الذي فاتني؟

أنا: يقولون إنّ قوات التّحالف ستصل في أي يوم!

توقّعت أنْ تفرح كالآخرين، لكنّها لم تقل شيئًا غير «أوه».

جاءت بِتّسي لتلقي التّحيّة، وما زالت ترتدي خاتم جدّتي المرصّع بحجر الأوبال. حين تناقش والداي في مسألة منحها الإرث، أيّدت الفكرة تأييدًا تامًا. أردتها أنْ تأخذه، وأنْ تعرف

أنّها جزء من أسرتنا. حتّى أنّي أريتها مكان اختبائنا السّري أنا ورِمي. بين المناديل المتجعّدة والأرانب المتجعّدة استلقينا؛ تمسّكت بدميته التي على شكل جندي، وأمسكت هي رواية الرّجال والفئران. نشأت وأنا أومن بأنّ الحبّ باقٍ ببقاء العلاقة الحميميّة، لكنّ بِتْسي أثبتت أنّ الموت لا يقضي على الحب الحقيقي. في تلك العتمة بكينا، ووثّقت دموعنا أواصر أخوتنا أكثر ممّا كان زفافها سيفعل.

استلمت رسالة من أصدقاء رِمي، وسلّمتها إيّاها.

أوديل العزيزة،

أطلقنا على أخيك لقب «القاضي» ذلك لأنّنا لجأنا إليه كلّما تنازعنا. حتّى أنّي صنعت له مطرقة عليها من أغصان وحبال. وجودنا هنا بعيدًا عن الوطن يملؤنا تعاسة وغضبًا. نشعر بالملل والجوع. لا استعدادات طويلة لإعداد الجلسات. لا ينفك لويس عن القسم باسم الرّب عبثًا. جدالاتنا تبدو سخيفة، لكنّ القاضي عامل كلًّا منّا بجديّة، وتمكّن من تهدئة الرّجال. مشتاقون إليه.

المخلص لكِ،

مارسيل داني

انفرجت أسارير بِتْسي وهي تقرأ الرّسالة، فأصررت أنْ تحتفظ بالرّسالة. رثاء مارسيل له قيمة كبرى بالنّسبة إليّ، لكنّ بِتْسي أكثر قيمة. قرّبت قصاصة الورق من قلبها، وتوجّهت إلى قاعة الأطفال. همست مارغريت: تسريحتها تشبه تاج الملوك

علـى عروشـهم! ستسـأم مـن دور الأرملـة المنتحبـة، وسـيكون لهـا حبيـب آخـر.

تلميحها بـأنّ حـزن بِتْسـي مجـرّد تمثيـل كان كلكمـة أصابتنـي. لـم أطـق فكـرة نسـيان بِتْسـي أخـي. آلمنـي صـدري كثيـرًا لدرجـة عـدم قدرتـي علـى التّنفس، فخرجـت مسـرعة مـن الغرفـة. إذا خففـت مـن خطواتـي، إذا توقّفـت عـن التّفكيـر، سـأتذكر وقتًـا أشـعرتني فيـه عفّـة بِتْسـي بانحـلالٍ أخلاقـي، أنـا أيضًـا. مـارغريـت كانـت تقصـد نفسـها أكثـر مـن بِتْسـي.

مارغريت: صدقيني، تعتقد أنّها تملك كل الإجابات!

أنا: كانت صديقة جيّدة لكِ وللمكتبة.

مارغريت: ما سبب انحيازك لها؟

احتجـت إلـى الحديـث مـع شـخص يفهمنـي. دعانـي پـول للقعـود فـي مكانـه. قلـت لـه: لـن تصـدّق مـا قالتـه مـارغريـت! فقـال: إنّهـا الحـرب؛ كلّنـا نتكلّـم، ونفعـل، ونـنـدم». حديثـه عـن الماضـي نـادر؛ رفضـي توصيـل الكتـب فـي تلـك المـرة تحديـدًا. قبضـه علـى البروفسـورة كوهِـن. طريقـة قفزنـا علـى أسـرّة المعتقليـن. إنّهـا الطّريقـة الوحيـدة لتسـتمر علاقتنـا. قلـت لـه: أعـرف.

- ستعود الحياة إلى طبيعتها.
- قلنـا هـذا الـكلام سـنوات. مـاذا لـو أنّ هـذه هـي طبيعتهـا. قـال بلطـف وهـو يمسّـد ظهـري: لا شـيء يسـتمر إلـى الأبـد.
- فـي الأسـبوع الماضـي، قلـتُ لمارغريـت إنّ أمّـي قـد ذهبـت إلـى الجـزّار فشـاهدت طابـورًا فيـه عشـر سـيّدات، سـألتني: لمـاذا لا تشـتري مـن السّـوق السّـوداء؟ فأجبتهـا: بـأي مـال؟ علـى أي حـال

كلّ طعامنا من مارغريت...

كبحت رغبتي في الكلام، وناجيت نفسي: لا، لا، لا، ترتكبين ذات الحماقة دائمًا. أغلقي فمك!

- ماذا كنتِ ستقولين؟

- لا شيء.

- مارغريت امرأة لطيفة مقارنة بالإنجليزيّات، أقصد.

- لطيفة؟ زعمت أنّ بِتْسي تدّعي الحزن على أخي.

- النّاس يتكلّمون دون انتقاء لكلماتهم. متأكّد من أنّها لم تقصد.

ما كان ليدافع عنها لو عرف أنّها تواعد نازيًا. حياتها سهلة؛ كل ما تقوم به هو إقامة الحفلات، وارتداء الجواهر، والثّياب الغالية، والتّنزّه على الشّاطئ.

- قالت إنّ بِتْسي ستحب شخصًا آخر.

- ستحب أخاك دومًا، لكن لعلّها في يوم ما...

- لعلّها يومًا! لن تنسى أخي بتاتًا. بتاتًا! ليست كلّ النّساء عاهرات مثل مارغريت.

وضع يده على كتفي، وقال: لا تقصدين ما قلته.

ما له يصدّق شرّ الأقاويل عن بِتْسي، وأفضلها عن مارغريت؟

كرّر قوله: لا تقصدين ما قلته.

التفتّ لأواجهه، وأستمتع بقول: لديها حبيب ألماني.

طافت كلماتي في المسافة الفاصلة بيننا، في المسافة التي نتنفّس منها.

تمعّج ثغره وشتمها: عاهرة!

مع تكرار صدى كلماتي، أدركت أنّي لم أكظم غيظي. يجب أنْ

أكون أكثر حذرًا، وأقل انتقادًا للآخرين.

- ما كان عليّ أنْ أقول هذا عنها. أنتَ على حق. دائمًا على حق. إنّها لطيفة، وتساعد أسرتي. بفضلها تحصّل رِمي على الطّعام. لا أعرف ما كنّا سنفعله دون وجودها في المكتبة. إنّها داخل المكتبة الآن، تؤدي عملي.

- بائعات الهوى مثلها سينلن العقاب.

- من فضلك لا تتكلّم بهذه الطّريقة. زوجها نذل. تستحق الأفضل. أنت على حق؛ النّاس يتكلّمون بلا انتقاء لكلماتهم. كما فعلت قبل قليل. أرجوك عدني بألّا تخبر أحدًا.

سكت.

- لن تقول شيئًا. اتفقنا؟

- هل هناك أحد لأخبره؟

أدار جسدي، ومسّد كتفي بقوّة أكبر هذه المرّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

41
أوديل

انقطعت إمدادات الغاز في باريس، ولا كهرباء إلّا ما ندر. أُلصِقت منشورات على جوانب المباني تحثُّ الباريسيين على «مهاجمة العدو حيثما كان». ثار رجال الشّرطة، والعاملون في محطّة القطار، والممرّضات، وعمّال البريد، وعمّال المصانع. ساهم پول في إزالة حصى الشّوارع ووضع الحواجز، وكل ما يمكنه الإطاحة بالعدو.

الحرب موضوع قرأت عنه في الكتب، أمرٌ يحدث في بلاد بعيدة، لكنّي أسمع الآن صوت إطلاق رصاص في الشّوارع القديمة، والنّاس يحرقون السّيارات والشّاحنات. تنتشر الشّائعات بسرعة الرّصاص. سيأتي الأمريكيّون لتحريرنا! لا، سيحرّرنا شارل ديغول! لا، الباريسيّون اكتفوا ويقاومون العدو بأنفسهم! الألمان يتراجعون! لا، لن يستسلموا دون مقاومة!

ذهبت وعدت من عملي بمحاذاة جدران المباني خوفًا من القنّاصة، والقنابل، وخوفًا من عدم تغيّر الحال، وعيشنا هكذا ما حيينا.

في مساء الرّابع والعشرين، مع محاولة إنهاء رحلة في الظّلام قبل انطفاء الشّمعة، قُرعت الأجراس في باريس. قمت والتقيت والديّ في الصّالة، مرتديين ثياب النّوم. رفعت ماما نظرها إلى السّماء، كأنّها تتدبّر عجائب صنع الرّب. مدّ بابا ذراعيْه، كما كان يفعل ليحضننا أنا ورِمي في طفولتنا. أيقنت أنّنا جميعًا نفكّر في الأمر ذاته. ليت رِمي معنا. تعانقنا بصمت؛ انتهى الاحتلال.

تحـرّرت باريـس. عـرج السّـيد بريس-جونـز فـي أرجـاء المكتبـة وهـو يصـرخ: هـرب الألمـان. صـاح السّـيد دو نيرسـيات: نحـن أحـرار! قبّلانـي، ثـمّ تعانقـا، فابتعـدا عـن بعضهمـا. كانـا المتحفّظيْـن الوحيديْـن علـى مشـاعرهما. عانقـت بِتْسـي، وبـورِس، والكونتيسـة. أحضـر خدمهـا الشّـامبانيا المتبقيـة فـي قبـو منزلهـا. شـربتُ فـي يـوم واحـد أكثـر ممّـا شـربته فـي حياتـي كلّهـا.

حذّرنا السّيد بريس-جونز: لم تنته الحرب.

الكونتيسة: لكنّها بداية نهايتها.

السّيد دو نيرسيات: سأشرب نخب عبارتك هذه.

الكونتيسة: ستشرب أي شيء أيّها الكهل!

علـى العشـب القليـل، ضحـك طاقـم العمـل ومرتـادو المكتبـة، وقبّلـوا بعضهـم، وتعانقـوا. تنقّـل عـزف سـتّة أشـخاص مـن المشـتركين فـي المكتبـة بيْـن شـرائط وأعـلام [نشـيد وطنـي أمريكـي] والنّشـيد الوطنـي الفرنسـي. رقصـت مـع پـول طـوال الليـل كمـن حبَسَـت أنفاسـها شـهورًا طويـلًا وتمكّنـت مـن الزّفيـر الآن. عشـتُ الحاضـر بتوجّـسٍ مـن المسـتقبل، لكـنّ الصّـراع للبقـاء قـد انتهـى، ويمكننـي المضـي قدمًـا فـي حيـاة مشـتركة مـع پـول. سـمحت لنفسـي بتخيّـل منـزلٍ وأطفـالٍ.

* * *

اكتأبـت مارغريـت علـى الرّغـم مـن الاحتفـالات التـي عمّـت البلـد. اعتقلـوا حبيبهـا، ولا تعـرف مكانـه. حـدث مـا هـو أسـوأ؛ بعـد أربـع سـنوات مـن الغيـاب، عـاد زوجهـا. حياتهـا مـع لورنـس ممتـدة كطريـق ريفـي تالـف. لأشـغل ذهنهـا بأمـور أخـرى، دعوتهـا للتّنـزه فـي حديقـة تويلـري بيـن الأشـجار والنّـور، شـاهدتها تلمـس لآلئهـا. أردت مواسـاتها، لكنّـي لـم أعـرف كيـف.

هنالـك صخـب فـي الجانـب الآخـر مـن السّـياج، قـرع طبـول، وباريسـيّون يصرخـون. لعلّـه موكـب للاحتفـال بالتّحريـر، أو ربّمـا النّصـر التّام! بغيـة إبهاجها، رافقتها باتّجاه البوّابـة. في كلا جانبي حـي دو ريڤولـي مئات الرّجال، والنّسـاء والأطفال يصفّقون في أثناء قـرع طبل عال. شـاهدنا رجـلًا أسـماله باليـة يلوّح بدجاجـة مذبوحة منزوعـة الرّيـش. خُيّـل لـي سـماع عويـل امـرأة. «مسـتحيل» أشـارت مارغريت إلـى رجل مسـن. مـع اقترابـه، رأيـت أنّ مـا رفعـه طفلٌ عـارٍ لا دجاجـة. صدمنـي هـذا المشـهد.

صـرخ الرّجـل فـي أثنـاء تلويحـه ومسـكه الطّفـل مقلوبًـا: تـرك الألمـان ذكـرى منهـم.

صرخ النّاس: لقيط، لقيط. ابن عاهرة!

خلفـه، رجـلان يسـحلان امـرأة فـي الشّـارع. كانـت عاريـة وحليقـة الـرّأس. قدماهـا داميتـان، جسـدها ينتفـض رعبًـا. فـي عانتهـا شـعر واضـح. حاولـت الهـروب والوصـول إلـى الطّفـل، لكـنّ السّـجان جذبهـا بقـوّة.

صـرخ رجل من الحشـد: مشـرّدة. أين عشـيقك الآن؟

لـم أشـاهد مـن قبـل امـرأة عاريـة، فشـعرت الآن أنّـي عاريـة. خطـوت خطـوة إلـى الأمـام لأسـاعدها، لكـنّ مارغريـت سـحبت ذراعـي. قالـت: لا شـيء لنشـاهده.

كانـت علـى حـق. هـذا ليـس موكبًـا، إنّـه تجمّـع رعـاع. لا يمكـن إيقافهـم. النّـاس همـج؛ رأيـت هـذا بـأم عينـي طوال سـنوات. صرخـوا: لقيـط، لقيـط. ابـن عاهـرة! ذرفـت الدّمـوع. حاولنـا الخـروج، لكنّنـا

كنّا محاطين بالنّاس من كل صوب. قالت امرأة بتعاطف: ما كان الألمان ليسمحوا بهذا.

قالت امرأة أخرى: هل تعرفون من يمسك المرأة، هناك على اليسار؟ في الأسبوع الماضي، كان يقدّم البيرة والسّجق للألمان.

رجل: من يهتم بشأنهم! انتهكت تلك المومس الأعراف.

همست مارغريت: لا أحد يختار من يحب.

أجابها: هذا ليس حبًا. الدّاعرات فقط يفعلن ما فعلته.

ارتجفت مارغريت. هل صدمها مشهد إدانة النّاس للمرأة، أمّ أنّها تخيّلت نفسها في هذا الموقف؟ دفعتها من خصرها وذهبت معها إلى منزلها.

لم ينته ذلك اليوم بتلك الواقعة؛ على بعد أربعة مربّعات سكنيّة، منصّة مؤقتة إلى جانبها ضابط يرتدي بدلة زرقاء وبيضاء ووشاحًا أحمر يقف خلف امرأة ويجذب شعرها. بدا أنّها تأنّقت ليوم الأحد، حدّقت إلى النّاس في أثناء حلاقة شعرها. ازز. ازز، كما لو أنّ العمليّة أسهل عملية في العالم، كما لو أنّه حلق شعر عشرات النّساء. تساقطت خصلات شعرها على كتفها، لكنّ الحلاق داسها. عن يسار المنصّة، رجال يرتدون ثيابًا رسميّة، وخمس فرنسيات شاهدن ما سيحدث لهن. عقوبة ظالمة بلا محاكمات. أبكاني فقدانهن كرامتهن.

42
مجموعة حلاّقين

في جولة تفتيشيّة، پول وزملاؤه رونان وفيليب صادفوا مارغريت في أثناء عودتها من التّبضع وبيدها سلّة فيها جزر باهت اللون، قالت لپول: تسرّني رؤيتك. تبادل الرّجال النّظرات؛ هذه هي، المومس التي صاحبت ألمانيًا. أين هو الآن؟ عقد اللؤلؤ المحيط بعنقها ذكّر پول بما لا يستطيع تقديمه لأوديل. فستانها الأبيض وقبّعتها ذكّرا رونان وفيليب بأنّهما لم يشتريا لزوجتيهما شيئًا منذ زمن طويل. دون تفكير، أمسك پول بمرفق مارغريت، وأمسك فيليب بمرفقها الآخر.

مارغريت وهي تضحك: پول! أين سنذهب؟ توقّف. سيسقط الجزر!

حسبتهم يحتفلون بالتّحرير، كباقي الغرباء الذين قبّلوا وعانقوا بعضهم في المدينة. أغضبت ضحكتها پول. لم تشعر بخطر، فغضب الرّجال أكثر. كيف تجرّأت على الضّحك علينا؟ عدم مقاومتهم العدو في الجيش، لا يعني أنّهم جبناء. قضوا الحرب في جولات تفتيش في المدينة، وهم يعرفون كلّ مكان خطر ومهجور.

جرّوها إلى ناحية مهجورة. سحب رونان السّلة منها، فابتسمت بسعادة له، لأنّها اعتقدت أنّه سوف يعاينها. حين قالت له merci [شكرًا] قذف السّلّة في نافذة مبنى مهجور. دفعها پول على الأرض. حاولت النّهوض مرّات عدّة، لكنّهم منعوها. نظرت حولها

على أمل أن ترى أحدًا ينقذها. «ساعدوني!» نادت سيّدة باريسيّة، لكنّها تجاهلت ونظرت إلى الجانب الآخر.

پول: عاهرة بريطانيّة. انسحبت من القتال. أغرقت سفننا، ثمّ عادت قبيل انتهاء الحرب!

مارغريت وهي تصرخ: أنا هنا منذ بداية الحرب! معك ومع أوديل.

پول: صاحبتِ نازيًا. هذا ما قالته.

فيليب: إنّهم يعاقبون العاهرات اللواتي عاشرن النّازيين. تعاون أفقي [علاقة جنسيّة أقامتها الفرنسيّات مع المحتلّين الألمان]. شاهدتهن حليقات الرّؤوس في الميدان.

پول: يستحق هذه العقوبة.

وضعت مارغريت يدها على الأرض لتقوم. أعجبهم شكلها وهي راكعة.

مارغريت: أرجوكم لا تفعلوا هذا.

لم يخطّط الرّجال لهذا الفعل الشّنيع. لم يؤذوا امرأة من قبل. لم يرغبوا في إيذاء امرأة أصلًا. لكن ها هي أمامهم، معفّرة بالتّراب. أجنبيّة. قذرة. تأكل أطايب الطّعام وهم جياع. ترتدي فساتين جديدة وثياب نسائهم ممزّقة. لم تكن امرأة بالنّسبة إليهم. لم تعد كذلك. عانوا الأمَرّين من المحتل. حان الآن دورهم ليضربوا، ويصفعوا، ويجلدوا. أشار پول بسبّابته إلى عقدها. سألها: من أين لكِ هذا؟

مارغريت: من أمّي.

پول: كاذبة! سحب العقد فجرح عنقها.

مارغريت: كان ملك أمّي.

پول: أراهن على أنّه من عشيقك.

سحبه بقوّة أكبر، فانفرطت لآلئه.

صاحت: من أمّي.

لكنّ فيليب جمعها ووضعها في جيبه.

رونان: ستندمين إن لم تخرسي.

سلّم الموس لپول، وقال له: أترغب في نيل هذا الشّرف؟

أرادت أنْ تقول له: أكلنا العشاء معًا. زرتني في منزلي. حين شكّت أوديل فيك، دافعت عنك، لكنّ صوتها اختفى مع اختفاء شجاعتها. أخذ پول الموس.

43
أوديل

تمـلأ رائحـة النّفتاليـن الغرفـة الممنوعـة. لعلّهـا المـكان الوحيـد فـي باريـس الـذي لـم يتغيّـر خـلال الحـرب. آخـر مـرّة سـمحت لـي أمّـي بدخولهـا، حيـن كنـت فـي الخامسـة عشـرة مـن عمـري. كنـت أتخيّـل المسـتقبل مشـرقًا آنـذاك، وكنـت أفـرح بتجهيـزات عرسـي الـذي سـاهمت فيـه نسـاء العائلـة: صنـدوق زجاجـي فيـه لحـاف حاكتـه جدّتـي. عمّـا قريـب سـنرزق أنـا وپـول بطفـلٍ. بسـطت ثـوب الليـل الأبيـض الـذي خاطتـه أمّـي. «لشـهر العسـل» قالـت لـي بخجـل. لـم نتقابـل وحيديْـن أنـا وپـول مـذ كلّمنـي عـن البروفسـورة كوهِـن. لـم نبحـث مـذّاك عـن مـكان جديـد للتّلاقـي. جلسـت معظـم الوقـت معـه علـى الأريكـة فـي أثنـاء حديـث أمّـي عـن البطاطـس فـي الصّيـن. الـزّواج قـد يكـون بدايـة جديـدة. تخيّلـت مشـيي فـي الكنيسـة نحـوه. كنـت مسـتغرقة فـي أحـلام اليقظـة حيـن سـمعت قرعًـا علـى البـاب. شـاهدت پـول عنـد البـاب وعلـى وجهـه قطـرات العـرق.

ضكـت بابتهـاج: مـا بالـك؟ كأنّـك صبـي صغيـر فـي العمـر. ألا تسـتطيع الانتظـار؟

سحبني من يدي، وقال: لنتزوّج.

كأنّه قرأ أفكاري.

قال: سنهرب. زواج مدني.

أنـا: ألا يفتـرض إبـلاغ الآخريـن؟ سـتبتئس أمّـي إذا لـم نتـزوّج فـي الكنيسـة. أريـد أنْ تكـون مارغريـت وصيفتـي.

قال: الزّواج يخصنا نحن الاثنين، لا الآخرين. سيتفهّم والداك. انسي الإشهار، لدي إذن خاص. أحمله منذ ردح طويل من الزّمن.

إذن خاص؟

أرجوكِ وافقي.

پول يعرف دائمًا ما أريد. قلت له: عانقني.

ارتجف بيت ذراعي، وقال: أحبّكِ. أحبّكِ كثيرًا. سنهرب بعيدًا. لن نعود إطلاقًا.

هل سأخذل والديّ إذا هربنا أو تواعدنا سرًّا؟ لا نملك المال لفستان الزّفاف ولا وليمة الزّفاف. شيء وحيد مؤكّد: بعد مدة الاحتلال الطّويلة، أتوق إلى أن أكون مع پول.

- أجل.
- اكتبي ملحوظة لهما. سنتوجّه إلى منزل عمّتي لقضاء شهر العسل. أحتاج إلى الابتعاد! نحتاج إلى الابتعاد.
- أأنتَ بخير؟ تبدو مضطربًا. لربما علينا الانتظار.
- ألم يكن انتظارنا كافيًا؟ أريد أنْ أرتبط بكِ. أريد شهر عسل.

شهر عسل، فكرت فيه بطريقة حالمة في أثناء أخذ بضعة فساتين ومنامة من جهاز عرسي (شبه متأكّدة من أنّ أمّي لن تمانع)، ورواية لإيميلي ديكنسون لرحلة القطار. هاتف پول مدير المحطّة وأخبره بأنْ يبلغ عمّته بمجيئهما. خرجنا بجهد من الباب، ممسكًا حقيبتي، قلت له: انتظر! لا يمكنني ترك عملي.

- أخبريهم أنّك بحاجة إلى إجازة لمدة أسبوع لشهر عسلنا. هل سيعيقون حبًّا حقيقيًّا؟

سلّمت ملحوظة لابنة الجيران لتوصلها إلى والديّ. تساءلت إذا كان الهرب تهوّرًا أم رومانسيّة.

على منضدة في البلديّة، لم ترفع السّكرتيرة رأسها عن أوراقها. قالت لنا: عودا في الأسبوع القادم. جدول أعمال المحافظ مزدحم.

ترددت من (زواج الخطيفة)، لكن الآن بما أنّه يواجه معارضة، قلت لها: أرجوكِ، نحن نعشق بعضنا.

أضاف پول بنبرة فيها هلع: صحيح أنّ باريس قد تحرّرت، لكنّ الحرب مستمرّة. لا أحد يعرف المستقبل. سنتزوّج، وستساعديننا على إتمامه.

تأمّلت ملامحنا المتوتّرة، ثمّ ذهبت لرؤية المحافظ. مشى پول جيئة وإيابًا في المكان، أمّا أنا فجلست على كرسي خشبي. كان علينا الإقدام على هذه الخطوة قبل سنوات، لكنّي أردت مؤازرة رِمي. لمست الكرسي الفارغ الذي إلى جانبي. قال پول: أتمنّى لو أنّه هنا.

قادتنا السكرتيرة إلى قاعة الزّواج، حيث رُسم على السّقف غيوم وسماء زرقاء. ارتدى المحافظ وشاحًا بألوان العلم الفرنسي وبدأ مراسم التّزويج. مسح پول عرق حاجبه بظهر يده. كان شديد التّوتر لدرجة أنّه حين حانت لحظة قوله «أوافق» كان على المحافظ وكزه.

في مقصورة القطار، أمسك پول بجريدة وقرأ سطرًا، ثمّ طواها بسرعة ووضعها في حجره. فتح رجليه، ثمّ ضمّهما. كلّما تململ، وكز ركبتي بركبته.

سألته وأنا أفرك ركبتي: ما بالك؟

- لا شيء.

- هل أنتَ نادم؟

- نادم! حدّق إليّ بحذر.

- بخصوص الزّواج.

وضع يده الرّطبة على يدي، ثمّ قال: أحببتك منذ أوّل نظرة.

- أحببتَ الشّواء الذي أعدته أمّي.

- أشتهي طعمه الآن.

***

سلّمنا بوجود أمور كثيرة قبل الحرب. قابلتنا بييريت -عمّة پول- عند المحطّة في عربة يجرها حصان. قالت: أنتِ من سمعنا عنها كثيرًا! تسرني مقابلتك. بشرتها محمرّة، لكنّها تبدو أكثر صحّة من معظم الباريسيين.

ديكٌ يُشوى في الموقد. دهنه يتقطّر في اللهب، والدّخان يتصاعد. لم أشم هذه الرّائحة منذ سنوات. على الطّاولة، تصاعد البخار من البطاطس المهروسة في إناء خزفيّ. تمنيت لو أغطس فيه. قالت الخالة: ليست وليمة زفاف كبيرة، لكنّي لم أعرف قبل وقت كافٍ. قرصت پول، فعبس على استحياء.

قلت لها: وليمة بالنّسبة إلينا.

حاولتُ الأكل بهدوء، لكنّ الطّعام كان لذيذًا. التهمناه حتّى آخر لقمة. تركتنا عمّته لنستمتع بأكل الحلوى على نور المدفأة. أطعمني پول ملعقة كعك الجبن. ابتلعت القشطة؛ قطرات من السّعادة.

في غرفتنا، مرّر يده تحت تنورتي في أثناء إغلاقي سواتر النّوافذ. قلت له: انتظر! يجب أنْ أرتدي لباس النّوم.

- لا يمكنني الانتظار.
- ببطء.
- أحبكِ. عديني بألّا تتركيني مهما حدث.
- أكيد. أعدك.

في صباح اليوم التّالي، وضع اللجام على الحصان، وركبنا العربة لنتوجّه إلى القرية لشراء خاتم. في نافذة عرض محل الجواهر عشرات القطع اللامعة التي باعها أصحابها لعوزهم حتمًا.

سألت پول وهو يُلبسني خاتمًا: أليس حظّنا عاثرًا؟

أجاب الجَوْهَري: الزّواج السّعيد لا يعتمد على الحظ، بل على خُلوص نيّة الطّرفين.

ناسبتني الإسوارة تمامًا. لم أتوقّف عن التّبسّم سبعة أيّام متتاليات.

* * *

تأخّر القطار المتّجه إلى باريس. وحين تذمّرت من تأخّري عن عملي، أصرّ پول على الذّهاب مباشرة من المحطّة إلى المكتبة. قلت له: ليس عليك مرافقتي.

- لكنّي أريد مرافقتك يا سيّدة مارتن، وأنتِ تحتاجين إلى من يحمل حقيبتكِ.
- ألن تتأخّر عن عملك؟
- أعمل مساء هذا الأسبوع.

في قاعة القراءة، على الطّاولة أمام النّوافذ، أذهلتني رؤية الكعك، والشوكولاتة، والشّامبانيا، وأواني الشّاي.

سألته: هل هذا من تخطيطك؟

- من تخطيطهم. أشار إلى الموجودين؛ الكونتيسة التي تشعر بالفخر، بورِس وبِتْسي يبتسمان، السّيدان دو نيرسيات وبريس-جونز يغيظ أحدهما الآخر: «قلت لك إنّهما سيتزوّجان». «لا أنا من قلت لك».

يوجين مع أمّي وأبي!

أبي: أفهم الآن سبب استمتاعك بالعمل هنا. تمنيت لو أنّي زرتك من قبل.

أنا: بابا! تسرني رؤيتك.

قالت أمّي وهي تعانقني مع يوجين: مبارك يا ابنتي.

عبّرتُ عن إعجابي بكعكة الزّفاف (تبرّع الجميع بحصصهم من التّموين! هذا يعني الكثير لي!). حكيت لهم عن فكرة پول المغمورة بالعاطفة، ثمّ حكى لهم عن الاحتفال. سألت بِتْسي: أين مارغريت؟

- لم تحضر منذ أسبوع. أرسلنا بطاقة دعوة إليها، لكنّها لم تجب.

عبَست. هل هي المريضة أم كرستينا؟ توجّهت إلى الهاتف، لكنّي سمعت صوت فتح قنينة؛ إيذان ببدء الاحتفال. أجمل صوت في هذا العالم. قدّمت الكونتيسة لي كأس شامپانيا. استمعت مع پول إلى أمنياتهم لنا بالسّعادة. قبّلني ثمّ توجّه إلى عمله. بثمالة، توجّهت إلى منزل مارغريت، مرورًا بجسر ألكسندر الثّالث

المذهّب، حيث شاهدت برج إيڤل. ناديتها: مرحبًا أيتها المرأة الحديديّة!

عند الباب، فتح عيسى الباب. خادم يفتح الباب؟ هذا غريب. لعلّ رئيس الخدم مريض أيضًا. قال عيسى: السّيدة ليست في المنزل. سألته متى ستعود؟ لكنّه حاول إغلاق الباب وهو يقول: لن تذهب إلى أي مكان وهي في هذه الحال.

دفعت الباب: بهذه الحال؟ هل هي مع الطّفلة؟

قال وهو يبكي: أتمنّى.

- هل هي مريضة؟ هل زوجها هنا؟

- أخذ الآنسة الصّغيرة وذهب إلى إنجلترا.

- مستحيل.

ذهب الشّراب بسلامة تفكيري، فواجهت صعوبة في فهم كلامه. قلت له: تمهّل. قلت إنّها لم تذهب إلى أي مكان. هل هي في المنزل؟

- لا تريد سيّدتي مقابلة أي شخص.

- لكنّي صديقتها المُقرّبة.

قال بتردّد: لعلّها نائمة.

- سأرجع إذا كانت نائمة.

دون توازن توجّهت إلى الصّالة، وأنا أهتدي بالجدار من حين إلى آخر لأتوازن. تريد رؤيتي قطعًا. أحزنني عدم حضورها الاحتفال في المكتبة. توقيت سيئ لمرضها. حظّها عاثر. عند باب الغرفة المعتمة، شاهدت مارغريت نائمة، وعرفت أنّ عليّ تركها لتنعم بالرّاحة، لكنّي لم أتمكن من احتواء فرحة رؤيتها

فدنوت منها على أطراف أصابعي. خصل من شعرها قرب أذنها. على رقبتها رضوض. رمَشْت. لا بدّ أنّي ثملة. مستحيل. حتّى بعد أنْ فركت عينيّ، ما زال شعرها قصيرًا، والرّضوض موجودة. رسغها ملفوف بشاش أبيض. كأنّها تعرّضت لحادث. لا، إنّها حليقة الرّأس. ضُربت وحُلق رأسها كتلك الشّابات. أيقظتني الفكرة من سكرتي. دون أنْ تفتح عينيْها سألت: من كان عند الباب يا عيسى؟

- أنا.

نهضت، وقالت بصوت أجش: تدّعين أنّك لا تعرفين. حدّقتُ إلى الرّضوض التي تطوّق عنقها. سألتها: متى؟

- قبل أسبوع.

تذكّرت اضطراب پول، وإصراره على السّفر. حدث أمرٌ ما. كيف لم ألحظ هذا؟

سألتني: لماذا أخبرته عن فيليكس وعنّي؟

- لم أعمد...

- أنت السّبب! وضعَت يدها على رأسها الحليق.

بارتجاف قلت لها: لست السّبب.

- إذن لماذا فعل هذا؟

- لا أعرف.

- كاذبة. كنت أحسب الوسط الدبلوماسي خبيث. أخبريني يا صديقة ما الذي قلته تحديدًا؟

- لا شيء صدّقيني...

- صحيح. أهداني فيليكس أشياء، لكنّي تشاركتها معكم. اعتقدت أنّكم ستعاملونني بالمثل. تعرفين ممن الهدايا.

- أعرف، لكنّي لن أنزل من قدري...
- تنزلين من قدركِ؟ أنا من أنزلت قدري من أجلكِ أنتِ ورِمي.
- لم أطلب شيئًا منكِ!
- فعلتها دون طلب منكِ.
- هذا ليس خطئي.
- خطأ من إذن؟

نظرتها واهنة. نظرتُ إلى النّافذة، إلى الخواء، إلى صورة كرستينا.

سألتني: ما المانع في رغبتي في التّقرب من شخص؟ أنْ أكون مرغوبة؟ أنتِ من أخبرتني أنّني في بلد غريب ويمكنني فعل ما يحلو لي.

- كنت أقصد تعلّم ركوب درّاجة، لا مصاحبة نازي!

رفعت مارغريت يدها نحو عنقها في حركة لا إراديّة كما كانت تفعل لتلمس عقد اللؤلؤ، لكنّه ما عاد موجودًا. كانت بحاجة ماسّة لتتأكّد من أنّي لم أقصد إيذاءها. قلت لها: لم أتسبّب في هذا.

- پول هو المسدّس، وأنتِ من سحبت الزّناد.
- ماذا عنكِ؟ ما الذي قلته عن بِتّسي التي تدّعي الحزن...
- كلامي لا يغتفر، لكنّي أملك جرأة الاعتراف بالخطأ.
- أخبرت شخصًا واحدًا فقط.
- كيف تمكّنتِ من خيانتي؟
- حسدتك على ما تملكين.
- تحسدينني وأنت تملكين وظيفة رائعة، وأسرة محبّة لكِ، وحبيبًا مخلصًا؟

لـم أفكّـر مـن قبـل فـي مـا أملـك. شـغل تفكيـري مـا ينقصنـي. قلت لهـا: الأمـر ليـس بهـذا السّـوء. سـيطول شـعرك. رفعـت رسـغها المكسـور وقالـت: شـاهدي مـا فعلـوه بـي؟ لا يمكننـي ارتـداء ثيابي دون مسـاعدة أحـد، ولا يمكننـي كتابـة رسـالة لابنتـي. إذا كنتِ تكرهيننـي بهـذا القـدر، لمـاذا لـم تسـتعيني بقاتـل، لأنّ أهلـي يعتبرونـي ميتـة أيضًـا. للخـدم حريـة اختيـار البقـاء معـي أو الذّهـاب إلـى إنجلتـرا مـع لورنـس وكرسـتينا. لا أحـد يريـد البقـاء مـع امـرأة سـوء مثلـي.

- لم أعمد...

تدثّـرت مارغريـت باللحـاف فارتفـع جلبابهـا، وظهـر مـا خفـي مـن كدمـات قدميْهـا. أغمضـت عينـيّ بشـدّة، وتمنيـت لـو أنّ بوسـعي التّراجـع عـن كلماتـي، وتقويـم الضّـرر.

- جبانة. إذا كنت سأحتمل الآلام، فتحملي النّظر.

تدثّرت بغضب. في روحها كدمات، لا كسور.

- صوّرنـي لورنـس. إذا أثـرت موضـوع خيانتـه، فسيسـتخدم الصّـور فـي المحكمـة ليطعـن فـي أمومتـي. لا تُحلق إلّا شـعور العاهـرات، صحيـح؟ كيـف سـترجع إلـيّ ابنتـي؟

- يمكنني مهاتفة لورنس، وتوضيح...

قالت بسخرية: مهاتفة لورنس، وتوضيح. غادري المنزل.

- يمكنني البقاء والمساعدة. إعداد طعامك. الكتابة لأسرتك.

- لا أريد «مساعدتك». غادري من فضلك.

تحرّكت باتّجاه الباب. قالت: انتظري.

اسـتدرت. سـأفعل أي شـيء لأحصـل علـى فرصـة ثانيـة. ستسـامحني بالتّأكيـد. مررنـا بتجـارب كثيـرة معًـا.

- هناك صندوق أزرق على الرّف في غرفة التّبديل. أحضريه لي.

حاولت إعطاءها الصّندوق لكنّها قالت: من أجلكِ، طلبت من فيليكس جلبه. تذكّري فعلتك إذا لبستِه، لتتعلّمي كيف تصبحين صديقة حقيقيّة.

داخل الصّندوق حزام أحمر؛ طويل وجلده ناعم ورفيع كسوط.

- كيف أعوضك عمّا فعلت؟

التفتت إلى الحائط. «غادري. لا أريد رؤيتك نهائيًّا».

44

لِيلي

فرويد. مونتانا. ديسمبر 1987

«تغيّرت زوجة أبي تغيّرًا جذريًا!»، قلت لأوديل في أثناء دخولي إلى مطبخها. قالت «كتابات جودي بلوم «شائنة» وبرأي الرّقابة خطأ».

«حتى تغليب الغضب على المناقشة بهدوء خطأ». أنهت أوديل تجفيف آخر صحن. «اسألي إليونور عن مخاوفها؟»

- ها؟

- القراءة خطيرة.

- خطيرة؟

تعتقد إليونور أنّ الكتب ستعلمك أمورًا غير مرغوب فيها؛ تخشى أنّها ستُرَغبك في الجنس.

- قرأت **مذكرات خارج إفريقيا** ولم أنشئ مزرعة بُن في كينيا!

ابتسمت أوديل ابتسامة مواربة، فاعتقدت أنّي تفوّهت بأمر سخيف. لا يتأثّر معظم النّاس بقراءاتهم. الجنس جزء لا يتجزأ من الحياة، لكنّ إليونور قلقة.

- لم أخرج في موعد غرامي. لن أفعل وهي تتصرف بهذه الطّريقة. إليونور تحاول تدمير حياتي.

- تعرفين أنّ هذا غير صحيح.

- كل همها أبي والطّفلان.

- ألـم تسـأمي مـن هـذه الجملـة؟ إليونـور تبـذل قصـارى جهدهـا. ضعـي نفسـك فـي بشـرتها [أي مكانهـا].

- «يع!»

- هـل فكرتِ فـي مشـاعرها؟ خـلال كل تلـك السّـنوات لـم تشـتر مـع والـدك أريكـة جديـدة أو مصباحًـا. إنّهـا تطبـخ باسـتخدام أوانـي أمّـك، وتـأكل مـن أطباقهـا. ألا يبـدو هـذا غريبًـا؟ أأنـتِ متأكّـدة مـن أنّـكِ أنـتِ الغريبـة؟

وجهة نظر أوديل صائبة.

- ليـس للحـب مقـدار، وبإمـكان إليونـور الاهتمـام بكـم جميعًـا. تكلّمي معها.

- مـاذا لو...

- بادري.

فـي طريقـي إلـى المنـزل، شـاهدت الصّبييـن يركضـان فـي الفنـاء. جـو لـوّح بخرطـوم مـاء علـى بنجـي الـذي تدثّـر ببطانيـة أطفـال. أسـرعا نحـوي، وجـذب كلٌّ منهمـا رجـلًا.

بنجي: لي.

جو: لا إنّها لي.

عانقتهما، وقلت: أنتما لي.

دخلـت المنـزل، وهرعـت نحـو طاولـة العشـاء التـي تخـصُّ أمّـي، وسـتائرها التـي خاطتهـا، ولوحـات الطّيـور التـي اختارتهـا. إليونـور لا تمتلـك شـيئًا هنـا. فـي غرفـة النّـوم الرّئيسـة، علـى الكرسـي الهـزّاز، ترتّـق إليونـور جـوارب أبـي.

سـألتني: هل خمدت ثورة غضبك؟

- أعتذر. لم يكن تصرّفي ناضجًا.
- عزيزتي، لا أريد إلّا الأفضل لكِ.
- أعرف.

اقتربت منها، وعانقتها.

***

للاحتفال بحصولي على رخصة القيادة، دعتني أوديل مع إليونور إلى مطعم (هسكي هاوس) لتناول المثلّجات. في المكان البرتقالي، وضعت أوديل هديّة على الطّاولة. «طلبتها من شيكاغو». سحبت الشّريط البنفسجي المخملي بلطف وفتحت العلبة. داخلها قبّعة من الطراز الفرنسي [بيريه] لونها رمادي. قلت بالفرنسيّة: أحبّها! لن أخلعها ما حييت، ثمّ توجّهت إليها وقبّلت كلتا وجنتيْها. عدّلت القبّعة، وقالت: تبدين فرنسيّة، وهذا أفضل إطراء تقوله لي.

في غرفتي، والقبّعة على رأسي، أخرجت أسطوانة جوزفين بيكر التي أعارتني إيّاها أوديل. مرّرت أصابعي على وجه المغنية لغيرتي من ابتسامتها العريضة، وبشرتها المشرقة، وثقتها بنفسها. خلعت حذائي وقميصي وبنطالي. في ثيابي الدّاخليّة البيضاء، تأمّلت شكلي النّحيل في المرآة، وتساءلت كيف سيكون شعوري لو كنت رمزًا للإثارة. أحضرت قلمًا أسود ورسمت دائرتين على فخذيّ توضّحان نهاية جوربيّن تخيّلتهما. ليس كافيًا. أريد أنْ أرسم حياة كاملة لي.

***

في ذلك الصّيف، قبل السّنة النّهائيّة، عملت مع ماري لويز في نُزل (أوير). كنسنا، ورتّبنا الأسرّة، ونظّفنا دورات المياه وأحواض الاستحمام. العائد المادي أفضل من مجالسة الأطفال، كما أنّ السّيدة ڤاندرسلوت أعطتنا كوكاكولا لنشربها خلال مدد الاستراحة.

في الأسبوع الأوّل من شهر أغسطس، كان النُّزل ممتلئًا بمزارعين يعملون بالأجرة عند آخرين. عملوا من طلوع الشّمس وحتّى مغربها. كانوا كبارًا في السّن يغلب الشّيب على شعورهم. من تكساس إلى الطّرف الشّمالي من أوكلاهوما، عبر جنوب داكوتا ثمّ إلينا في مونتانا، ليساهموا في حصاد أمريكا. لا يرتبطون ببلدة مثلنا. حسدناهم على حريّتهم.

تثاؤهم علينا أخجلنا. اعتبرونا نساء لا مراهقات. في الليلة الماضية، تحت الهلال، تسكّعت ماري-لويز مع أحدهم. شربا حدّ الثّمالة، ثمّ توجّها إلى سرير في شاحنته. قالت لي إنّ جوني يتقن كل خطوة أكثر من حبيبها كيث.

سيغادر المزارعون اليوم، آخذين أجهزتهم معهم ووعدونا بمغامرة معهم. سحبت المكنسة إلى القاعة، ركضت نحو أحدهم. سحب المكنسة منّي بيد، وحاول تثبيتي بيده الأخرى. شممت رائحة القمح من قميصه القطني المهترئ. عدّلت قبّعتي الفرنسيّة ونظرت إلى وجهه. يا إلهي، كم كان وسيمًا. بشرته سمراء بفعل الشّمس. في الحادية أو الثّانية والعشرين من عمره. عيناه أبصرتا كل الولايات، والشّوارع الممتدة، وإشارات المرور الخضراء، الكثير من إشارات المرور الخضراء. رجل بمعنى الكلمة. سألني:

- لماذا تجر فتاة جميلة مثلك المكنسة معها أينما ذهبت؟ هل تعملين هنا؟

- نعم.

- أين أضعها؟

- غرفة رقم أربعة.

- لا داعي للهمس عزيزتي. لسنا في الكنيسة.

فتحت قفل الغرفة. وضعت المكنسة أمام التّلفاز. الملاءات مكوّمة على الأرض. كانت ماري لويز لتهمس ثمّ تقول: هنالك من استمتع بوقته البارحة! لكنّي لست ماري لويز.

قال: أحبُّ قبّعتك الصّغيرة. اقترب كثيرًا منّي. عرفت أنّ بإمكانه الشّعور بنبض قلبي، قال: أنتِ جميلة مثل ظبية. أغمضت عيني حين فاجأني بقبلة على شفتي. شعور ليس له مثيل.

«تعال يا مايك» ناداه مزارع في الرّواق.

ابتعدنا. حبست أنفاسي. لمس وجنتي بيده الخشنة. سألني: هل أنتِ بخير؟ أومأت بالإيجاب. نسيني فور انطلاق سيارتهم، لكنّني لن أنسى قبلته ما حييت. قضيت بقيّة الصّباح في لمس شفتي.

بعد العمل، توجّهت مع ماري لويز إلى منزلي لنملأ الطّعام لطائر أمّي الطّنان. أكملنا طريقنا، مرورًا بكشّافة الفتيات في الحديقة. في ضاحية البلدة، استلقينا على العشب اليابس. على مسافة قريبة، أخرج حيوان الغوفر رأسه من حفرة. الحر لافح. سمعنا تذمرًا بعيدًا. وضعت يدي خلف رأسي واستلقيت على العشب كما فعلت ماري لويز. غيوم مرّت سراعًا. بقيّة العالم

يشاهدون قناة (أم تي في) الغنائيّة، ونحن نعيش إعادة لمسلسل منزل صغير في المرج. ستبدأ المدارس بعد أسبوع. خلتنا سنموت من فرط الهدوء والسّلام.

قالت: عديني أنّنا سنخرج من هذه البلدة.

***

في اليوم الأوّل من السّنة الدّراسيّة الأخيرة، ارتديتُ تنوّرة تلائم قبعتي، حدّق الجميع إليّ؛ من لا يرتدي الجينز في فرويد حدثت له طفرة جينيّة. لا توجد مادّة دراسيّة مشتركة بيني وبين ماري لويز. لمحتها مع كيث. هممت بالتّوجّه إليها، لكن أعاقني مجموعة من الطّلبة المستجدّين الحائرين. جدولي الدّراسي يشبه جدول روبي. بين مكتبي ومكتبه مسافة، كالمسافة التي فصلتنا في الكنيسة. أعرف في قرارة قلبي أنّي أروق له، لكنّي لا أثق بقرارة القلب.

بعد المدرسة، في منزل أوديل، شربت قهوة بالحليب وتأمّلت صور زفافها. هل سينظر أي رجل إليّ بالطريقة التي نظر إليها بَك؟ بالطّريقة التي نظر فيها كيث إلى ماري لويز؟

قلت بألم: انتهت ماري لويز منّي كما انتهت من امتحان رياضيات سهل؛ لقاءاتي بها نادرة.

فأجابت أوديل: أجمل ما في الصّداقة هو أنّه ليس عليكما البقاء معًا في ذات المكان والوقت. أتتذكرين انشغالك في المنزل مع إليونور والصّغيريْن؟ الآن حان دور انشغال ماري لويز. الحب الأوّل في حياة المرء يشغل كل وقته.

- تصوّرين الحب على أنّه دودة علَق.

ضحكت، وقالت: هو هكذا.

قلت متوتّرة: ليس هكذا!

- ستعود إليك. امنحيها الوقت.

تذكّرت خجل ماري لويز عندما عانقها، وعندما اقتربت منهما، قرّب خصرها منه، وقال: لنغادر. تبعته لأنّهما أرادا قضاء الوقت بمفردهما. ماري لويز تحصل على كلّ شيء أوّلًا؛ أوّل قبلة، أوّل كعب، أوّل حب.

أوديل: غيرتك منها طبيعيّة.

- لا أغار منها.

- طبيعيّة. لكن...

- لكن ماذا؟

- لا تنسي أنّك ستنعمين يومًا بما تنعم به.

أوديل على حق.

في المنزل، أعدّت إليونور العشاء. شريحة لحم وبطاطس مقليّة مع سلطة خضراء. كنت آخر من تناول السّلطة، ثمّ أكلت الجبن كباريسيّة.

أبي: لماذا ترتدين القبّعة دائمًا؟

- إنّها من نوع (بيريه). C'est chic [إنّها أنيقة].

- لم تخلعيها منذ شهور. هل النّتانة أناقة؟

تجاهلته، ثمّ قلت: Le steak est délicieux![شريحة اللحم لذيذة].

وجّه حديثه إلى أوديل: هلّا جعلتها تتكلّم الإنجليزيّة؟

ابتسمَت. أعتقد أنّها تحب كلامي بالفرنسيّة.

- هل فكّرتِ في ما قلته لك عن التّسجيل في الجامعة؟
- قلت لك أنّي سأصبح كاتبة.
- الكتابة ليست وظيفة حقيقيّة.

إليونور: قل هذا لدانييل ستيل. إنّها أغنى من جوناس إڤرس.

- ستدرسين المحاسبة. تحتاجين إلى خطّة بديلة.
- خطّة بديلة؟ تعتقد أنّي سأرسب؟ على أي حال، التّخصص الذي سأدرسه ليس من شأنك.

وجّه شوكته باتّجاهي قائلًا: من شأني إذا كنت سأدفع الرّسوم.

- كل شيء في حياتك يتعلّق بالمال.
- التّأكد من سير الأمور حسب الخطّة هو أحد مهام المصرفي.

أجهل كيف انتقلنا من عشاء لذيذ إلى الجدال بخصوص الجامعة.

إليونور: أعتقد أنّ والدك يقصد أنّه شاهد كثيرًا من النّاس يفقدون منازلهم، ورجال أعمال يخسرون تجارتهم، ولا يريدك أنْ تعاني مثلهم.

بعد العشاء، توجّهت إلى منزل أوديل. سألتها: أكنتِ تعرفين ما تريدين دراسته حين كنتِ في عمري؟

- أنا أحبُّ الكتب. أريد أنْ أصبح أمينة مكتبة. اعثري على مجال تشغفين به حبًا.
- قال أبي إنّ عليّ تعلّم التّجارة.
- كلامه صحيح. تحتاجين إلى الشّعور بأنّك على قيد الحياة، لكن عليك أنْ تدفعي الإيجار أيضًا. من المهم للمرأة أنْ تمتلك مالًا يخصّها. عملت سكرتيرة في كنيسة، وعرفت أهميّة

الرّاتب. يجب أنْ تملكي خيارات للعمل.

- أتمنّى فقط ألّا يعظني بمحاضراته.

- لطالما قالت البروفسورة العزيزة كوهِن: حاولي تقبّل النّاس كما هم، لا كما تريدينهم أنْ يكونوا.

- ما الذي تعنيه؟

- كانت تتكلّم عن أبي. قالت إنّه اهتمّ بي كثيرًا، لكنّي لم أصدقها. أنتِ وأبوكِ مختلفان، لكن هذا لا يعني أنّه لا يحبّك ولا تهمينه.

***

في حفل الشّتاء الرّاقص الذي نظمه طلاب المدرسة، قلت لنفسي إنّ عدم دعوة أي شخص لي لأرقص معه لا تهم، فشباب فرويد أغبياء، وسأعثر على رفيق روحي في نيويورك. قدّمت على جامعة كولومبيا. خمسة ملايين رجل هناك؛ سيعجب أحدهم بي حتمًا. سيمون دو بوفوار لم تتعرف إلى سارتر إلّا عندما كانت في الحادية والعشرين من عمرها.

في الكافتيريا، دعتني ماري لويز لتناول العشاء في منزلها لرؤية فستانها. نسيت وجودي شهورًا طويلة، والآن تريد الاستعراض. كذبت عليها: لا أستطيع. عندي واجبات كثيرة.

- من فضلك!

أراد جزء منّي أنْ أكون صديقة جيّدة لماري لويز، لكنّ الجزء الأكبر منّي أراد تخلّي كيث عنها؛ ستكون حينها تعيسة مثلي.

جلستُ بتراخٍ على كرسي أوديل بعد تناول العشاء. قلت لها: تخلّت ماري لويز عنّي. مرّة أخرى.

- ألم تدعوكِ لرؤية فستانها؟

حدّقت إلى الكتب التي على رفّنا المشترك (1955.34): **جسر إلى تيرابيثيا**، **أنطوانيا عزيزتي**، ثمّ قلت: لا أريد الذّهاب.

- ماذا لو ذهبتُ معكِ؟
- قد يساعدني مجيئك.

راقبتني ماري لويز كأنّها باز حسب وصف كانت ستقوله أمّي. منذ لحظة دخولنا من الباب، دارت ماري لويز بفستانها أمامنا. كتفاها ورقبتها ظاهران. كانت أكثر رقّة من أي وقت مضى. كأنّ جسدها قد تغيّر بين ليلة وضحاها. نهداها شامخان كجبال روكيز، ونهداي مسطّحان كالسّهول. ردفاها مستديران كناقوسين، وردفاي مستقيمين كقلم الرّصاص، لا يهتزّان. سألتني عن رأيي وهي تعدّل فستانها.

أوديل: مذهل.

كتّفتُ ذراعيّ، وفكّرتُ حتّى وجدت أشدّ الرّدود إيلامًا: أجمل من أنجل.

- لا! حقًّا؟ ثمّ نظرت إلى نفسها في مرآة عند حامل المعاطف.

أومأت بالإيجاب، غير قادرة على نطق أي كلمة إضافيّة. تدفّقت غيرتي منها على هيئة دموع، وفي تلك اللحظة، أجمل مرّة رأيتها فيها، لم أطق رؤيتها.

وصل كيث. انتظر عند الباب، فقادته سو بوب نحو ماري لويز. الطّريقة التي نظر فيها إليها أصابتني بالاكتئاب. في حلقي غصّة، حاولت بلعها مرارًا وتكرارًا. لم أتحمّل المزيد فتوجّهت نحو الباب. اقتربت ماري لويز، فالتقطت سو بوب صورة لنا. سألتني بيل: ما سبب وحدتك وحزنك؟ الصّديقة الحقيقيّة لن

تصر على مجيئك إلى الحفل. إنّها تشمت فيكِ، ألا ترين هذا؟ أخبريه بما قالته؛ أنّ تقبيل المزارع أفضل من تقبيله، وأنّه أدّى كل شيء بشكل أفضل من كيث.

طوّقت ماري لويز خصري بذراعها. قلت: كيث...

عبسَت أوديل.

واصلت: يجب أنْ تعرف...

همست أوديل: لا تفعلي. كلمة واحدة ستنهي صداقتكما. أرى الغربان تحوم فوق رأسك.

45

أوديل

باريس. سبتمبر 1944

كيف تمكَّنْتِ من خيانتي؟ تردّد صدى سؤال مارغريت في رأسي في أثناء توجّهي إلى المنزل، مرورًا بالنّهر. جسر ألكسندر الثالث الرّائع أمامي، إلّا أنّي لم أشاهد إلّا رأس مارغريت الحليق. أردت الاختباء في غرفتي أو الاعتراف إلى أمّي ويوجين، لكن تعريض صديقتي للخطر سيفزعهما. لا أستطيع. شعوري بالخزي يمنعني من مواجهة ماما. لا أستطيع الذّهاب إلى المنزل، ولا المكتبة، حيث يحب الجميع مارغريت. كانت واضحة في مسألة أنّها لا تريد رؤيتي مجدّدًا. هذا يعني أنّها لن تعود إلى المكتبة إذا استمرّ عملي هناك، وأنّها ستخسر أصدقاءها ووظيفتها.

راقبتُ روّاد المكتب قبل مدة وأنا أتساءل عمّن أرسل رسائل الغربان. استوعبت اليوم أنّ من كتبها شخص يشبهني. حضرة المفتّش، مارغريت سينت جيمس (بريطانيّة الجنسيّة) قد أُغرمت بجندي ألماني. سأرسل ذات الشكوى إلى شرطي أيضًا.

حدّقت إلى نهر السّين، حزامي في يدي، الجلد يتأرجح مثل سوط، ملت فوق الحاجز، وشاهدت الماء. حيوانة كل ذرّة فيّ تشبه پول. خلعت خاتم زفافنا ورميته في النّهر. في عمقه. لم يعد زوجي. انفصلنا، ولن نكلّم بعضنا مجدّدًا. طلاق. المُطلّقة أقل من العاهرة. ستسألني أمّي: ماذا سيظن الجيران؟ لن تهتم بي بسبب طلاقي. ستطردني كما طردت الخالة كارو.

قبل ساعة، كنت أحتفل بمستقبلي، والآن يلفّني الظلام. لم أعرف ماذا أفعل بنفسي. مشيت في الشانزليزيه، مررت بأحباب يتناولون عشاءهم خارج مقهى، حول طابور انتظار أمام السّينما، وواصلت المشي، دون أنْ أعرف مكانًا أذهب إليه، حتّى وصلت إلى المستشفى الأمريكي. صادفت سيّارة إسعاف. قالت ممرضة: تسعدنا عودتك. يمكنك مساعدتنا.

لا تريد مارغريت شيئًا يربطها بي، لهذا يمكنني تطبيب الجرحى هنا. سأبقى في المستشفى - طاقم العمل والمتطوّعون ينامون على أسرّة تشبه التي نمت عليها في بداية الحرب. لن أضطر إلى مواجهة أهلي وصحبي، ولن يعثر عليّ پول. باطمئنان، دخلت من الباب الخلفي.

مارغريت على حق. لن أعترف إطلاقًا بحجم الإهانة التي شعرت بها حين أهانت جنودًا مثل رِمي أو حين لمّحت إلى أنّ نحيب بِتّسي خدعة. لن أعترف بتاتًا بغيرتي من حياتها المترفة. كظمت امتعاضي الذي تدفّق كتدفّق شامبانيا بعد رجّها. في تلك اللحظة التي أردت فيها معاقبتها، دمّرتُ حياتيْن؛ حياة مارغريت وابنتها.

اقترب منّي جندي أمريكي على عكّازة. «مرحبًا يا فتاة». شهقت وأنا أبكي، فناولني منديلًا.

- ما المشكلة؟

- عضضت شفتي، وخشيت فتح فمي لئلّا تتداول الألسنة قصّتي.

جلس إلى جانبي، وأعاد سؤاله: ما المشكلة؟

- ارتكبت خطأ جسيمًا.

- لا بأس. سيتفهّمك معظم النّاس.

نظرته ثاقبة، فاضطررت إلى تغيير الموضوع. سألته: من أي ولاية جئت؟

- مونتانا.
- كيف تبدو؟
- كجنّة.

قال رواد المكتبة الذي جاؤوا من كنتكي ذات الأمر، كما فعل جنود من كنت وسَسْكاتشوان. قلت له: عليك أنْ تقنعني بأنّها جنّة.

- مونتانا هي أجمل بقعة جغرافيّة على الأرض مقارنة بباريس الحيويّة المبهجة. كنت أتمنّى الهروب من بلدتي الرّيفيّة، لكنّي أتوق الآن إلى العودة إليها. أقسم أنّي لن أترك أرضها. أهلها نزيهون، صادقون. كنت أحسبها مملّة.
- الملل سبب لتغيير المكان.
- كيف تعلّمتِ الإنجليزيّة؟
- تعلّمتها خلال طفولتي في المكتبة الأمريكيّة.
- يوجد مستشفى أمريكي ومكتبة أمريكيّة؟
- لا تنسَ شركة راديتر الأمريكيّة، والكنيسة الأمريكيّة! السّيد دو نارسيات - أحد المشتركين في المكتبة - مزَح ذات مرّة فقال إنّ أمريكا استعمرت باريس دون أنْ تخبر أي أحد.

ضحكَ وتساءل: أي مشتركين؟

- أنا أمينة مكتبة. كنت أمينة مكتبة.
- كم أود رؤية مكتبتك، لربما ستأخذينني إليها.

عبَست.

فرك رجله، وقال: معكِ حق. بهذه الرّجل يجب ألّا أتحرّك، لكنّي أريد قضاء المزيد من الوقت معكِ.

عصر اليوم التّالي، مشينا عند مدخل المستشفى. قايض بطاقات السّجائر بلحم وخبز (باغيت). أخبرني أنّ الحقول في مونتانا تشبه لحافًا مصنوعًا من قطع قماش مربّعة، كما قال لي إنّ سماءهم خالية من الغيوم، وأنّ عليّ تذوّق اليخنة التي تطبخها أمّه. بعد يوميْن، طلب الاقتران بي.

أردت الهروب دون رؤية أي شخص أعرفه، وبدء حياتي من جديد مع شخص أفضل. سأفتقد والدي، لكن من الأفضل لهما الابتعاد عنّي. سأفتقد زملاء عملي. سأفتقد روّاد المكتبة المفضّلين لدي، لكن في غيابي، ستبقى مارغريت. أحببت المكتبة، لكنّ مارغريت أهم عندي، وسأبرهن لها هذا.

«أيتها الفتاة الصّغيرة؟» حدّق بَك إليّ بكل تفهّم. شعرت أنّ بإمكاني إخباره عن كل شيء. ومع هذا بشكل ما، شعرت بأنّه يعلم.

- أقبل الزّواج بك بكل تأكيد.

قرّبني منه. شعرت بدفء صدره، بنعومة قميصه القطني. شعرت بالأمان.

في يوم عودتي من بريتاني، أخذت حقيبة سفري إلى المكتبة. عند مغيب الشّمس، في غياب الجميع باستثناء الحارس، استعدت آخر مجموعة من الرّسائل التي سرقتها. على مكتب بِتْسي المزدحم برسومات الأطفال والأقلام الدّبقة وكوبها المفضّل الذي

لا يريده أي أحد لأنّه مكسور الطّرف، كتبت الآتي:

عزيزتي بِتّسي،

من فضلك اعتني بمارغريت. أخبري ماما وبابا أنّي بخيّر. قولي لهم إنّي آسفة. حافظي على مخطوط رواية البروفسورة. أحبّك أختًا، توأمي.

المخلصة لك،

أوديل.

مشيت في أنحاء المكتبة لأودّعها: ذهبت إلى قاعة الدّوريّات أوّلًا حيث بدأت الحكاية، ثمّ إلى قاعة الدّوريات حيث تعلّمت الكثير كمن جاؤوا لاستعارة الكتب، ومنها إلى رف كتب (البعث بعد الموت) حيث لمست أغلفة الكتب لأبلغها بأنّي لن أنساها ما حييت. غادرت المكتبة دون رجعة.

46

لِيلي

فرويد، مونتانا، فبراير 1988

في طريق عودتنا من منزل ماري لويز، سألتني أوديل عمّا أوشكت أنْ أقوله لكيت.

- لا شيء.
- لِيلي!
- خانته مع مزارع.
- هذا ليس من شأنك. لماذا رغبتِ في إخباره؟
- لا أعرف!
- أعتقد أنّي أعرف.
- أردتها لي وحدي.
- ألأنّك غاضبة منها؟
- ربّما. ما الذي فعلته ماري لويز؟
- لا أريد الحديث عن الموضوع.
- عنيدة!

عرفت أنّها لن تنسى الموضوع، فقلت: ليس لدي حبيب، ولديها حبيبان. نسيتني تمامًا خلال الأشهر الأخيرة. قالت أوديل: فهمتك.

زالت غصّتي.

- أخبري ماري لويز بأنّها قد ارتكبت خطأ بحقّك. لا تكبتي مشاعرك، إذا حسبتِ أنّ حزنها سيسعدكِ، فأنت مخطئة. قلب ماري لويز كبير، وفيه مكان لكِ ولكيت.

في أثناء مشينا نحو مرأب منزل أوديل، قالت لي: ستحظين بحبيب أنتِ أيضًا.

- طيب.
- صدّقيني.

تأمّلت تقاسيم وجهها البهيّة تحت النّجوم.

- العشق لا يدوم، لكن حافظي على الصّديقة الصّدوقة. لا تفرطي فيها.

أوديل على حق؛ أحتاج إلى الحفاظ على صداقتي مع ماري لويز، لكن لو اعترفت لها بما كنت سأقوله لحبيبها، لن تكلّمني بعدها. فتحت أوديل باب المنزل الرّئيس، ثمّ جلسنا على أريكتها.

- أريد الهروب.
- لا تهربي.
- لماذا؟
- لأنّي هربت.
- ماذا؟
- مثلك، شعرت بالعار، فهربت من والديّ ووظيفتي وزوجي.
- هجرتِ بَك؟
- لا، زوجي الأوّل. زوجي الفرنسي.

تحيّرت.

- لستِ الوحيدة التي غارت من صديقتها المقرّبة.
- حتّى أنتِ؟
- خنتها.

لمَسَت إبزيم حزامها الباهت، ثمّ تابعت كلامها: قالت مارغريت إنّها لا تريد رؤيتي مرّة أخرى. تشاركت معها ذات الوسط الاجتماعي، وعشقنا ذات المكتبة. لكن بالنّسبة إليها، كانت حبًّا مرهقًا؛ عطاء بلا مقابل لأنّها متطوّعة.

- كيف تجرّأتِ على الهرب؟
- كانت ستخسر كلّ شيء إذا بقيت؛ المكان الذي اعتبرته وطنها على وجه الخصوص. خجلت كثيرًا من الاعتراف بالحقيقة للأصدقاء والأهل، خفت من العواقب، تزوّجت بَك وغادرت فرنسا دون توديعهم. لم أشاهد قبر أخي أبدًا، وأتمنى أنْ يتمكّن والداي من استعادة رفاته. هربت، ولم أخبر أحدًا غيرك.

عانقتها ولم تبادلني العناق. همَسَت:

- أعجز عن مسامحة نفسي.
- لما فعلتِه بمارغريت؟
- لهجرها.
- هي من طلبت منك المغادرة.
- البقاء أفضل في بعض الأحيان.

أذهلني ما قالته. نظرت إلى السّراخس قرب النّافذة، أسطوانات الأغاني المرتّبة، رف كتبنا المشترك. بعد عاصفة الاعترافات، توقّعت سقوطها وتحطمها على الأرض.

- لكنّكِ تعرفين ما يجب قوله دائمًا.
- لأنّي تفوّهت بأمور خاطئة كثيرة.
- هل تزوّجت رجليْن؟
- مات بَك. لم أعد متزوّجة.

- ضحكنا على الرّغم من أنّ جوابها لم يكن مضحكًا. بل كان مضحكًا بعض الشّيء.

- ماذا فعلتِ؟ أكان سيّئًا؟

حين انتهت أوديل من سرد حكاية مارغريت وحبيبها، وكيف هاجمها پول ورفاقه، اكتملت القطعة النّاقصة في الأحجية، ورأيت الصّورة كاملة.

- حتّى لو كان ما قلته صحيحًا...

قالت بحدّة: صحيح. كسروا معصمها.

- ليس خطأك. لستِ من كسره.

- كسرت شيئًا. أفشيت بسرّها.

- كل امرئ مسؤول عن أفعاله.

- سأوافقك الرّأي عمومًا، لكن ليس في هذا الموقف. كانت العواقب وخيمة. عرّضت مارغريت للخطر. لم أخبر أي مخلوق بما حدث، ولا حتّى بَك.

نظرت إلى عيني مباشرة، ثمّ تابعت كلامها:

- لكنّي أحكيه لكِ لأجنّبك ارتكاب ذات الخطأ. سيطِري على غيْرتكِ من الآخرين قبل أنْ تسيطر عليك.

تمنيت لو أنّ بوسعي إقناع أوديل بما شعرت بأنّه صائب، بأنّها لن تسبّب الأذى لأي شخص.

- هل تتساءلين عمَّ حلّ بمارغريت؟ أتعتقدين أنّها قد عادت إلى إنجلترا من أجل ابنتها؟ هل حاولت التّواصل معها لتطمئنّي عليها؟

فتحت أوديل جاروزًا وأخرجت قصاصة من جريدة ذاهيرالد تعود لعام 1980. قرأت ما كتبته مارغريت سينت جيمس:

فقدنا أحبابًا، وأقارب، وأصدقاء، ومصادر رزقنا. كثير منّا كانوا يُرمّمون حيواتهم، رغم ضياع بعض تفاصيلها إلى الأبد. علينا إعادة خلق أنفسنا.

تعرّفت إلى امرأة تعاملت مع خساراتها في الحياة بكسر الأشياء. وجدت في كسر الأطباق عزاء لها. لعلّها أرادت كسر الأشياء قبل أنْ تكسرها، لكنّ التّحطيم أزعجني. كانت تلك سنوات باريس العجاف. استمرّ استخدامنا بطاقات التّموين بعد الحرب. كنّا جوعى ومرهقين.

طلبتُ من خادمتها إعطائي القطع المكسورة على أمل إصلاحها، لكنّها لم تكن قابلة للإصلاح. وضعت أجزاء منها على ملابس ابنتي الممزّقة لإضفاء بعض الرّونق إليها. أُعجب روّاد المكتبة بالبروشات التي صنعتها. بدأت أبيعها، وارتدت الباريسيّات تصاميمي. كل ما هو رائج في باريس، سينتشر في باقي أنحاء العالم سريعًا.

أسعدتني معرفة أنّ مارغريت على قيْد الحياة وبعافية، وأنّها فنّانة حقيقيّة. سألت أوديل: هل أنتِ متأكّدة من أنّها خسرت حضانة ابنتها؟

- كانت شبه أكيدة...
- ابنتها تعيش معها حسب المقال.

قرأت أوديل المقال بإمعان، ثمّ قالت: لم أفهمه بهذه الطّريقة.

- لعلّ الأمور لم تنته على نحو سيئ بالنّسبة إلى مارغريت. عنوان متجرها في باريس مكتوب. يجب أنْ تراسليها.

- قد ترفض مراسلتها.

- حاولي.

- أريد احترام مشاعرها.

- تخشين ألّا ترد على رسالتك.

- هذا سبب إضافي.

- راسليها!

- لعلّي كنت هكذا مع أمّي؛ في غاية التّفاؤل. شعرت بأنّ هناك نهاية سعيدة لأوديل ومارغريت. شعرت بهذا من كل قلبي. العشق لا يدوم، لكن حافظي على الصّديقة الصّدوقة. لا تفرطي فيها.

- سأفكّر في الموضوع.

موقف صعب، مشحون بمشاعر سلبيّة، لكنّها شاهدتني في أحوال أسوأ، وما زالت تحبّني. قبّلتُ وجنتيْها وتمنيت لها ليلة سعيدة. أنقذتني أوديل مرّة أخرى.

47

أوديل

فرويد. مونتانا 1983

قضيت عيد ميلاد آخر وحيدة، وأنا أشاهد مباريات رياضيّة على التّلفاز، لأنّ بَك ومارك يحبّان الرّياضة. متابعتهما لها على الأريكة، ثمّ ضغط بَك زر كتم الصّوت («تبًّا للمعلّقين الذين يتفوّهون بالهراء»)، حتّى أستمع إلى باخ من جهاز التّسجيل.

شغلني التّفكير في الزمن الماضي كثيرًا؛ ذكرياتي الحلوة كثيرة. قضيت ليلة الزّفاف مع بَك، متفاجئة من إيجاد المتعة من جديد. «الحب كالبحر؛ في حركة دائمة، لكنّ حدوده تتحدّد بالسّواحل التي تلامسه، ولهذا يختلف مع كل ساحل»، 813: **أعينهم كانت تراقب الرّب.**

هناك ذكريات سعيدة أخرى، كلقاء والدي بَك في منزلهما. «أمّي، بوب، هذه هي المفاجأة التي حدّثتكما عنها. هذه هي فتاتي الصّغيرة» قال بَك بفخر وهو يُقرّبني منه.

قلت كالكونتيسة: لقاؤكُما يسعدني.

الأب: أديل؟ [A deal: اتّفاق]

الأم وهي تصحح اسمي: أورديل. [ordeal: بلاء]

بَك: أو-ديل، ثمّ تعلّق فؤادي بفرنسا. [odeal: اسم الفتاة]

رحّب الأب فيّ بتحفّظ. ابتسامة أمّه المواربة أصبحت عبوسًا.

سألته: كيف تزوّجت دون حضورنا؟

قال السّيد غوستافسون: ماذا عن جيني؟

السّيدة غوستافسون: نعتبرها ابنتنا. قضينا الإجازات معًا في أثناء غيابك.

غيابك؟ بَكْ لم يكن سائحًا في أوروبا؛ كان وسط حرب.

تابَعت كلامها: افترض الجميع أنّك منسجم مع جيني.

نظرت إلى بَكْ الذي قال: كانت حبيبتي في الثّانوية. لم أطلب منها انتظاري بتاتًا. لم أعد مراهقًا. الحرب... لن تفهمني كما تفهمينني. لا أحد يعرف الحرب مثلك.

هذا صحيح. اختبرنا أنا وبَكْ الحرب - أمّه لم تواسِه. لكنّ الوقت يمضي إلى المستقبل، ولدينا وقت أكبر أنا وهو - منزل وابن وسعادة.

لم يرحّب والدا بَك بي، لكنّ والد مالوني كان لطيفًا. وظّفني سكرتيرة في الكنيسة، واستمتعت أيّما استمتاع بكتابة النّشرات الإخباريّة وتأسيس مكتبة صغيرة في الرّواق. احتاج القرويّون إلى وقت ليسامحوني على «سرقة» بَكْ من حبيبته في أثناء مدة الدّراسة. لكن كلّما زاد حزم القروي، زادت طيبة قلبه. حين أريت بَكْ صورة فناء المكتبة الأمريكيّة في باريس، زرَع أزهار بتونيا كالتي في المكتبة. عن طريق زميل له في الجبهة، وجد كتبًا فرنسيّة، فامتلأ رف كتبي بروايات البروفسورة كوهِن التي وقعت أحداثها في مصر بعد الحرب. رغم أنّ المخطوط الذي ائتمنتني عليه لم يُنشر بتاتًا، أحببت فكرة أنّه آمن بالمكتبة. لم يتذمّر بَكْ من ارتفاع ثمن اشتراكي بالنّسخة الفرنسيّة من جريدة ذاهيرالد، ولا من أنّ الأخبار التي أقرؤها قديمة. قال لي: النّساء يُردن الدُّرَرَ، وأنتِ تريدين الورق. تيقنت من هذا بعد زواجنا.

قرأت كلّ مقال فيه أخبار المكتبة الأمريكيّة، ومنه عرفت أنّ الآنسة ريدر قد استأنفت العمل في مكتبة الكونغرس، والآنسة ودِ قد أطلق سراحها من معتقل الاعتقال وعادت إلى عملها في المكتبة، أمّا بِتْسي فقد ترقّت في منصبها وأصبحت مساعدة مديرة المكتبة، في حين أنّ الكونتيسة قد نشرت مذكراتها، وبورِس قد تقاعد. في معرفة أنّ المكتبة ما زالت موجودة راحة للنّفس. مع مرور الأعوام، قرأت مقابلات لأبي يتكلّم فيها عن انتشار المخدّرات في المدينة، ومقالًا عن إنجاز مارغريت. اشتقت إليهم، مارغريت على وجه الخصوص.

ثمّ عشتُ وحيدة في المنزل؛ أكلت وحدي، ونمت وحدي. سئمت من الوحدة. حدّقت إلى الصّندوق الذي خبّأت الرّسائل فيه لأنّي عجزت عن حرقها. ارتكبت أخطاء. تعلّمت منها، لكنّ سرعة تعلّمي لم تكن كافية. لو كانت حياتي رواية فصولها ملأى بالتّشويق والضّجر، والألم والضّحك، والحب والمأساة، لحان الوقت الآن لتأمّل الصّفحة الأخيرة. كنت وحيدة. وددت لو تكتب لقصّتي نهاية. وددت إغلاق هذا الكتاب فورًا وإلى الأبد.

بندقيّة بَك في زاوية الخزانة. تجمّع الغبار عليها. تساءلت هل فيها رصاص، ولأنّي أعرف بَك معرفة جيّدة، فالإجابة هي نعم. أنتِ المسدّس، وبول الزّناد. لا، ليس هذا ما قالته مارغريت، بل قالت: بول هو المسدّس، وأنتِ من سحب الزّناد. أفهم الآن ما رمَت إليه.

رنّ جرس باب المنزل. لم أكترث. رنّ الجرس. اقتربت إصبعي من الزّناد. دخلت فتاة المنزل، وتساءلت: هل يوجد أحد في

المنـزل؟ ميّـزت الصّـوت. إنّهـا الفتـاة التـي تقيـم فـي المنـزل المجـاور. أعـدت البندقيّـة إلـى مكانهـا.

- هل يوجد أحد في المنزل؟

مشـيت إلـى غرفـة المعيشـة بإعيـاء. قالـت الفتـاة: أكتـب تقريـرًا عنـكِ. أقصـد عـن بلـدكِ. هـلّا سـاعدتني.

وجـود شـخص آخـر فـي غرفـة معيشـتي غريـب. أضافـت الفتـاة: كأنّـي فـي مكتبـة.

مضت أربع سنوات مذ أخذ الحانوتي جسد زوجي بَكٌ.

التفتت الفتاة وهمّت بالمغادرة.

سألتها: متى؟

استدارت، وسألتني: الآن؟

كأنّ الحياة منحتني خاتمة لحياتي.

48

لِيلي

فرويد. مونتانا. مايو 1988

«الجامعة فصل جديد من حياتك»، قالت لي أوديل في أثناء خروجنا من القداس. «مسألة جعلها مشوقة عائد إليك». ستكون مشوّقة. سأدرس في جامعة كولومبيا، وماري لويز في معهد نيويورك للفنون. حمدًا للرّب، لأنّي لم أتخيّل حياتي دونها. سيدرس كيث التّدريب التّقني في كليّة بيوت، لكنّه وعدها بالمراسلة. سيبقى روبي في مونتانا. ستتّجه تيفاني إلى الشّمال الغربي أو الشّمال الشّرقي. باغتني الحنين لزملائي؛ من أحب ومن لا أحب منهم.

في القاعة، زُيّنت كل مائدة بسلال فيها زهور تطابق رداء التّخرّج؛ الأبيض والأحمر. عند قسم القهوة، تكلّم الرّجال عن الرّئيس ريغان المراوغ الذي كان في مؤتمر في موسكو، أمّا نحن النّساء فانتظرنا المعجّنات في طابور.

قالت السّيدة إڤرس لأوديل: لا بدّ أنّك فخورة بأوديل.

السّيدة موردوك العجوز: ستعود من دراستها وهي أذكى منّا جميعًا.

تذكرت عبارة envoyer balader التي تعني حرفيًا: إرسال شخص للتّنزه، ومعناها المجازي: الانفصال عنه. قلت لأوديل: إنّهن يحاولن التّحدّث معك دائمًا.

- من؟

- تفوّهت النّساء بعبارات من قبيل: الجو لطيف، حفل لطيف، لكنّك تجاهلتهن.

- عاملوني بلؤم.

نبرة العنف التي في صوتها فاجأتني، وفاجأتها أيضًا. رأيت انكسارًا في عينيْها.

- يحاولن إرضاءك. ألم يحن وقت مسامحتهن؟

حيّت أوديل السّيدات اللاتي كنّ يسكبن القهوة لأنفسهن. دنت منهن وأخذت الحليب المخفوق. قالت لهن: في قداس اليوم حيويّة.

ابتسمت السّيدة إفرس، وقالت بارتعاش: صحيح.

قالت السّيدة موردوك وهي تحمل كوب قهوتها: كان الأب ملهمًا.

سكبت أوديل الحليب المخفوق.

* * *

في صباح يوم التّخرّج، ارتديت قبّعتي الفرنسيّة وفستانًا طويلًا، ثمّ أخذت ورقة خطبة التّفوق، وتوجّهت إلى منزل أوديل. عند مدخل منزلها طيور أبي الحناء على الأرض. تشبهين طير أبي الحناء. تحلّي بالشّجاعة. آه يا أمّي، كم حاولت...

تحمّست أوديل لحفل التّفوق مثلي تمامًا. حتّى أنّها استبدلت بالحزام الأحمر حزامًا أسود أنيقًا.

قلت لها: Très belle [جميل جدًا]

قالت بخجل: اقرئي خطاب تفوّقك لي.

تخيّلت أنّي على خشبة مسرح:

مكتبة
t.me/soramnqraa

يقول النّاس إنّ المراهقين عنيدون. فعلاً، نحن كذلك. نسمع ما تقولونه لنا، وما لا تقولونه. نحتاج إلى نصائحكم في بعض الأحيان، فلا تمطرونا بها على الدّوام. لا تصدّقوا من يقول لكم اعتزلوا الآخرين ولا تزعجوهم؛ واحرصوا على تكوين الصّداقات. لا يعرف المرضى ما عليهم فعله أو قوله، فلا تعاتبوهم، لأنّكم تجهلون ما في قلوبهم. البشر أخياف، فلا تخشوا الاختلاف. تمسّكوا بمبادئكم، وعند العسر تذكّروا أنّ دوام الحال من المحال. تقبّلوا النّاس كما هم، لا كما تريدونهم أنّ يكونوا. تخيّلوا أنفسكم في مكانهم أو، كما تقول صديقتي أوديل: في بشرتهم.

ابتسمت وقالت: قلبك يسع الجميع. أحبابك كُثر.

عانقتها. شعرت بأنّها صغيرة الحجم كطائر الطّنّان. أحضرت إليونور الكاميرا، وأصرّت أوديل على وضع أحمر شفاهها قبل تصويرها معي. حان الوقت. أراد الفتَيان أنّ تجلس أوديل في صندوق السّيارة

معهما، أمّا إليونور والجدّة پيرل في المقاعد الخلفيّة. سمح أبي لي بالقيادة، حتّى أنّه لم يذكر لي نصيحته المعتادة: لا تدهسي الأطفال الذين على الأرصفة.

في المدرسة، وضعت ماري لويز شرابة سوداء على قبعتي الفرنسية فأصبحت كقبعة تخرّج. في صالة الألعاب الرّياضيّة، جلس طلّاب دفعتنا المكونة من خمسين طالبًا في الصّفوف الأماميّة. مثل سنابل ثقيلة تهمس لبعضها قبل حصدها، تصاعدت تمتماتنا. نظرت إلى الخلف، إلى الأهل والأصحاب الذي جاؤوا لمشاطرتنا الفرح. رمينا البلدة خلف ظهورنا. هذا

وداع لها، وترحاب بالمستقبل. ضقت ذرعًا منها، أريد الرّحيل. هذا ما أردته منذ سنوات: مغادرتها بلا رجعة، لكن...

بدأتُ إلقاء خطبة التّفوّق بصوت مرتعش. نظرت إلى الحضور على عجل. نظرة الفخر في عيني أبي، ثمّ أضفت: وفي الختام، إليكم نصيحة من ابنة سيّدة عملت في بنك: اعثروا على ما تُشغفون به حبًّا، لكن احرصوا قبل ذلك أن تحصلوا على وظيفة تعيلكم». ضحك الجميع. عزفت الفرقة أغنية (الشّباب فقط) للمغني جورني. نادوا أسماء الطّلبة واحدًا تلو الآخر لأخذ شهادة التّخرج، ثمّ رمينا قبّعاتنا عاليًا في الهواء. عانقت ماري لويز. فُتح باب على مصراعيّه أمامنا.

في المنزل، وصل الأصدقاء إلى حفلتي. رحّبت إليونور بهم، قائلة: أعدّت كارول آن كعكة، شوكولاتة بالطّبع، تعرفون لِيلي تحبها!

نظرتُ إلى أوديل، وابتدرتها: درس في اللغة الفرنسيّة؟

- درس سريع.

جلسنا إلى طاولة المطبخ. أفرحني الاستئثار بأوديل لنفسي، كعادتنا دائمًا. سلّمتني ظرفًا داخله تذكرة طيران إلى باريس وبطاقة بريديّة بالأبيض والأسود. عانقتها دون تصديق. حدّقتُ في التذكرة. تذكرة واحدة فقط.

سألتها: أين تذكرتك؟ ألن تسافري معي؟

- ستسافرين وحدك هذه المرة.

قرأت البطاقة. «إلى لِيلي، لصيفك، مع وافر المحبّة» باريس. لم أصدّق. أين سأمكث؟ ماذا عن اللقاء التعريفي في الجامعة؟

نيويورك بسيطة مقارنة بباريس. باريس؟ لا أعرف أحدًا فيها.

قلَبت البطاقة وشاهدت صورة. عرفت الجواب؛ قصر مهيب قديم، أمامه درب مكسو بالحصى وأزهار البتونيا. تطل من نافذته سيّدة فستانها أبيض، وتغطّي معظم وجهها قبعة أنيقة كبيرة. تحتها لوحٌ كُتب عليه: المكتبة الأمريكيّة في باريس. تفتح يوميًا.

-النّهاية-

في عام 2010، خلال مدة عملي مديرة للفعاليات في المكتبة الأمريكية في باريس (ALP)، أخبرتني زميلتي نيادا كلشو وزميلي وسيمون غالو قصّة فريق العمل الجسور الذي عمل في هذه المكتبة في أثناء الحرب العالميّة الثّانية. نظّمت زميلتي نيادا معارض عن المكتبة خلال الحرب وبعدها، واستشارت أمناء مكتبة في بقاع بعيدة. ذكاؤها حاد وتذكّرني بالآنسة ريدر. أمّا سيمون فعمل خمسين عامًا في المكتبة ويعرف كل شاردة وواردة عنها. شاطرني المعلومات التي يعرفها عن المكتبة، وراجع الأرقام الواردة بتصنيف ديوي العشري في هذا الكتاب. استخدمنا التّصنيف الحديث، لا المُستخدم عام 1939. أوضح لي أنّ طريقة تصنيف الكتب تختلف من مكتبة إلى أخرى.

أنا مأخوذة بشجاعة أمناء المكتبة آنذاك وتفانيهم، سمتان باقيتان حتّى يومنا هذا في العاملين الآن. استغرق بحثي عن تفاصيل الرّواية أعوامًا كثيرة. خلال تلك المدة الزّمنيّة، كانت المديرة أودري شابوي ومساعدتها أبيغايل ألتمان في غاية التّعاون؛ إذ شاركتاني الحكايات والوثائق والمراسلات. قابلت أبناء بورِس نيتشيف؛ هيلين وأولغ. عرفت منهما عن تجربته في السّلك العسكري وتفاصيل عن عائلته. زوجته آنّا كانت كونتيسة. لم يكن لبورِس لقب لكنّ أسلافه أمراء أو كونتات. غادر بورِس مع زوجته روسيا بلا متاع. ذُكرت هيلين في روايتنا هذه. كانت في الشّقّة حين اقتحم رجال الشّرطة النّازيّة الشّقة وأطلقوا النّار

علـى أبيهـا، فكتبـت: «أمضيـت أيّامًـا كثيـرة فـي المكتبـة الأمريكيـة خـلال طفولتـي... اصطحبنـي أبـي إليهـا أوّل مـرّة منـذ أنْ كنـت رضيعـة. مـا زلـت أذكـر صـوت أرضيّـة (الباركيـه) تحتـي أو إذا مشـى شـخص بسـرعة، ورائحـة الكتـب، وتفاصيـل أخـرى مثـل الغـرف المغلقـة حيـث مُنعـت مـن الدّخـول. تسـاءلت عـن السّـبب، مـا زلـت أعتقـد أنّ أشـخاصًا اختبـؤوا فيهـا...». اسـتُغل كل حيّـز فـارغ فـي المكتبـة، وهـذا مـا دفعنـي للإيمـان بـأنّ المكتبـة قـد خبّـأت اليهـود فـي أثنـاء الحـرب.

عمـل بـورِس حتّـى الخامسـة والسّـتين مـن عمـره. فـي 1982، توفّـي فـي عمـر الثّمانيـن. قالـت هيليـن إنّـه كان «جلودًا عنيدًا» رغم إطـلاق الشـرطة النّازيّـة الرّصـاص ثـلاث مـرّات علـى رئتـه، إلّا أنّـه لا يـزال يستنشـق علبـة كاملـة مـن السّـجائر يوميًـا.

عـادت الآنسـة دوروثـي ريـدر إلـى الولايـات المتّحـدة، جمعـت التّبرعـات ولفتـت الانتبـاه إلـى جهـود الهـلال الأحمـر فـي فلوريـدا. ثـمّ عملـت فـي المكتبـة الوطنيـة فـي بوغوتـا (عاصمـة كولومبيـا)، ثـمّ عملـت مـن جديـد فـي مكتبـة الكونغـرس. بالاسـتعانة بأرشـيف رابطـة المكتبـة الأمريكيّـة علـى الإنترنـت وجـدت تقاريرهـا السّـريّة عـن الحيـاة فـي باريـس فـي أثنـاء الحـرب. ممتنّـة لمسـاعدة كارا بيرتـرام وليديـا تانـغ. سـررت بقـراءة مراسـلات الآنسـة ريـدر ومشـاركتهما معكـم فـي هـذه الرّوايـة. رسـالتي المفضّلـة كانـت موجّهـة إلـى زميلتهـا هيليـن فيكويليـر. «أحـد أصعـب الأمـور التـي قمـت بهـا فـي حياتـي هـو أن أطلـب منـكِ ومـن بيتـر مغـادرة المكتبـة والعـودة إلـى الوطـن. غيـر أنّـي أكيـدة مـن أنّـه القـرار الوحيـد الصّائـب، إذن لـن يعمـل

عقلي وقلبي على نحو أفضل إذا عرفت أنّكما سالمان معافان في نيويورك.

«تعجز الكلمات عن التّعبير عن امتناني العميق لإخلاصكما وإصراركما على البقاء معنا في أوقات صعبة ومرهقة كهذه. يُشهد لعملكما بالتّميّز. ما كانت المكتبة ستستمر لولا كفاءتكما».

ذَكَرت الآنسة ريدر المبلغ الذي يجب أنْ تستلمه هيلين من تمويل المكتبة إذا وصلت إلى نيويورك؛ مئة دولار وهو يعادل راتب شهر واحد، كما ستتسلم رسالة تزكية. ختمت المديرة رسالتها بالآتي: «لو احتجت إلى موظفين -في أي مكان أذهب إليه- فستكونين على رأس القائمة. عزيزتي هيلين، كيف لي أنْ أشكرك أو أخبرك بشعوري».

هيلين فيكويلير وبيتر أوستينوف تزوّجا بعد عودتهما إلى الولايات المتّحدة. نشرت كيت ويلس من مكتبة برفيدنس العامّة مقالًا يعود إلى 19 يونيو 1941 (في نسخة من نشرة المساء) قيل فيه: «خسرت الآنسة فيكويلير 12 باوندًا [5.4 كجم] خلال إقامتها في باريس المحتلّة. تقول إنّها لا تريد النّظر إلى نبات اللفت طوال حياتها لأنّها أُجبِرت على أكله بطرائق متعدّدة...». كتبت أليكس حفيدة هيلين وبيتر في بريد إلكتروني أرسلته إلي: «خلال عمل هيلين في المقاومة الفرنسيّة تعرّفت إلى بيتر. كان مع قوّات التّحالف، وتابع عمله في القوّات الأمريكيّة، والفرنسيّة، والرّوسيّة. عملت هيلين أمينة مكتبة في نيويورك، ثمّ في جامعة فيرمونت».

عادت الآنسة وِد (المُحاسبة) من معسكر الاعتقال وعملت في المكتبة حتّى تقاعدها. أملك صورة جميلة لها التُقطت في المكتبة

خلال احتفالٍ أقيم بمناسبة تقاعدها. وجهها وضّاء، وكانت ترتدي مِشَدًّا. عملت إيفانجلين ترنبل مع ابنتها في المكتبة حتّى إعلان الحرب. اعتُبرتا عدوّتين لأنّهما كنديّتيْن، أي تنتميان إلى رابطة الشّعوب البريطانيّة (كومنويلث). عادتا إلى كندا في يونيو 1940.

د. هيرمان فوكس -حامي المكتبة- الذي كان مسؤولًا عن النّشاط الثّقافي في فرنسا المحتلّة وبلجيكا ونذرلاندس، قد عاد إلى برلين بعد الحرب وعمل أمين مكتبة. دكتور ويس ودكتور ليبراتدت الذي تخصّص الأخير في أوروبا الشّرقيّة، هما من قد أشرفا على نهب المكتبات السّلافيّة في باريس. «يصعب تحديد الدّور الذي أدّاه د. فوكس. عرف زملاؤه الفرنسيون سمعته الطّيبة قبل الحرب وخلالها وبعدها، كان دون أدنى شك منخرطًا في جرائم النّازيّة أكثر مما تذكره الذّاكرة الجمعية». غادر باريس مع القوّات الفرنسيّة في 14 أغسطس 1944. كتب لزملائه الفرنسيين: «أغادر كما أتيت، صديقًا للمكتبات الفرنسيّة وبعض أمناء المكتبة الفرنسيين... تحت أوامر السّيد ورمك، ثمّ بصفتي رئيسًا لحفظ المكتبات، بذلت قصارى جهدي لكيلا تتمزّق الرّوابط التي توحّدنا. أخفقت أحيانًا، فلم أتمكّن من مساعدة من ناشدوني لمساعدتهم. الظّروف كانت أقوى منّي على الأغلب، وعلى الأغلب أجبرتني الضّرورات العسكريّة على التّخلي عن أهداف كنت قد وضعتها نصب عينيّ. لكم حريّة الحكم علي أيّها الفرنسيّون».

في مذكرات كلارا دي شامبرون **ظلال تتمدّد** (1949) ذكرت أنّ د. فوكس قد نبّهنا إلى ضرورة التزام طاقم عمل المكتبة الأمريكيّة في باريس الحذرَ لأنّ الشّرطة النّازيّة تنصب الشّراك

لهم، ثمّ أمرها بالحضور إلى مكتبه لتوضّح له سبب وجود مواد تعادي النّازيّة في المكتبة. وصفت الكونتيسة في مذكراتها حادثة تهديد أحد روّاد المكتبة بالإبلاغ عن المكتبة. انتشرت رسائل الوشاية في باريس آنذاك. ذكر مصدر إرسال ثلاثة إلى خمسة ملايين رسالة، وذكرَ مصدر آخر إرسال 150.000 إلى نصف مليون رسالة إلى النّازيين. رسائل الفتنة الواردة في الرّواية من تأليفي لكنّي حاكيت أسلوب الرّسائل الموجودة في أرشيف متحف الهولوكوست الفرنسي [Mémorial de la Shoah]. الرّسائل التي وجدتها أوديل في مكتب أبيها حقيقيّة. رسائل مملوءة بالضّغينة والغضب في قراءتها صعوبة؛ نضحت بالعنف والجنون. أغلبها مجهولة المُرسل وتشي بأفراد الأسر والأصدقاء وزملاء العمل. إضافة إلى الإبلاغ عن اليهود. تراوحت الاتّهامات بين الإصغاء إلى إذاعة (بي بي سي)، وذكر الألمان بالسّوء، وعدم إخلاص الزّوجات اللاتي كان أزواجهن أسرى حرب، وبيع أو شراء البضائع في السّوق السّوداء.

أحداث الرّواية مبنيّة على أشخاص وأحداث حقيقيّة، لكنّي غيرت بعض العناصر. في الحياة الحقيقيّة، السّكرتيرة الآنسة فريكارت هي التي رافقت الكونتيسة إلى القطاع النّازي بعد أنْ استدعاها د. فوكس. الآنسة ريدر هي التي قالت إنّ: لا شيء غير الكتب يملك قوّة غامضة تجعل النّاس يرون بأعين الآخرين. المكتبة جسر كتب بين الثّقافات». كثّفت السّرد بعد لقاء الآنسة ريدر الأوّل بدكتور فوكس. كانت الكونتيسة في منزلها الرّيفي آنذاك، والتقت الآنسة ريدر وفريق العمل بعد أشهر.

كتبتُ هذه الرّواية لمشاطرة معلومات لا يعرفها الكثيرون عن تاريخ الحرب العالميّة الثّانية، وللتّعريف بأمناء المكتبة الشّجعان الذين قاوموا النّازيين لمساعدة القرّاء المشتركين في المكتبة، ومشاركة عشق الأدب. أردتُ استكشاف العلاقات التي تصنعنا؛ مساعدة بعضنا أو الوشاية عن بعضنا. اللغة باب نفتحه ونغلقه، وكلماتنا تشكل المفاهيم تمامًا كما تفعل الكتب التي نقرؤها ولقصص التي نحكيها لبعضنا ونحكيها لأنفسنا. فريق العمل الأجنبي والمُشتركون في المكتبة اعتُبروا «أعداء» ومنهم من سُجن. لم يُسمح لليهود بدخول المكتبة، وقتل كثير منهم في مخيّمات الاعتقال. قالت لي صديقة إنّها تؤمن بأنّ قراءة القصص التي وقعت خلال الحرب العالميّة الثّانية تجعل النّاس يسألون أنفسهم عمَّ كانوا سيفعلون في تلك المواقف. أظن أنّ السّؤال الأمثل هو: ماذا سنفعل الآن لضمان توافر المكتبات والتّعليم للجميع، ومعاملة الجميع بكرامة ورحمة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جانيت سكيزلين تشارلز (المؤلّفة)

روائيّة أمريكيّة، ولدت عام 1971، حازت جوائز كثيرة عن عمليْها **ليلٌ مُقمر في أوديسا** و**مكتبة باريس** اللذين ترجما إلى لغات كثيرة. عاشت بين سهول مونتانا، ثمّ عملت معلّمة عاميْن في أوكرانيا. درَّسَت الإنجليزيّة والفرنسيّة والكتابة الإبداعيّة مدّة خمسة عشر عامًا. تقيم في باريس حاليًا. صدر لها كذلك رواية غابة النّجوم المحتجبة.

دلال مصطفى نصر الله (المترجمة)

مترجمة كويتية 1987 تُترجم عن اللغتيْن الإيطاليّة والإنجليزيّة.

من ترجماتها:

1. ناسك في باريس، للكاتب الإيطالي: إيتالو كالفينو 2017
2. وودي آلن عن وودي آلن، إعداد: ستيج بيوركمان 2018
3. امتلاك سر البهجة، للمؤلفة الأمريكيّة: أليس ووكر 2018
4. الملاك إزميرالدا، للكاتب الأمريكي: دون ديليلو 2018
5. امرأة، للكاتبة الإيطالية: سيبيلا أليرامو 2018
6. 48، شارع تشيرنغ كروس للكاتبة الأمريكية: هيلين هانف 2019
7. رائحة الكتب، للكاتب الإيطالي: جيامبييرو موغيني 2019
8. لماذا نقرأ الكتب الكلاسيكية؟ للكاتب الإيطالي: إيتالو كالفينو 2021
9. موسيقا الصمت لآندريا بوتشيلّي 2022
10. كتاب الأسماء المفقودة للكاتبة الأمريكية كرِستن هارمل 2022
11. البشر، للكاتب مات هيغ 2022

JANET SKESLIEN CHARLES

telegram @soramnqraa

هناك متعة خالصة في قراءة الكتب التي تتحدث عن الكتب، متعة تزداد إذا عرفنا أن أبطال هذه الحكاية التاريخية هم أمناء مكتبة قد أخذوا على عاتقهم مهمة محاربة العدو النازي في باريس بالكتب، من خلال إبقاء أبواب المكتبة الأمريكية مفتوحة للقراء دون تمييز. عن الكتب التي للجميع، وبأسلوب بسيط ومتسارع تنقلنا جانيت سيكزلين بين الماضي والحاضر، بين باريس وبلدة مونتانا الأمريكية لنتتبع حكايات محورها الفقد والخيانة والصداقة والمحبة.. رواية حقيقية عن القوة الكامنة في الكتب والأفراد.. قصة ساحرة وأدواتها السردية مبتكرة تربعت لأسابيع طويلة في قائمة الأفضل مبيعًا.

ISBN 978-9921-768-33-6
9 789921 768336

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store